المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب - بغداد

العدد ٣٧ - السنة الرابعة عشرة

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

المـؤرخ العـربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب . بغداد

العدد ٣٧ . السنة الرابعة عشرة
١٤٠٩هـ . ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

ترسل البحوث باسم مدير التحرير
ص ٠ ب : (٤٠٨٥) بغداد ـ الجمهورية العراقية

مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت ، (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراك السنوي في مجلة المؤرخ العربي وما يصدر عن الاتحاد من المنشورات التاريخية هو (٥٠) ديناراً عراقيا داخل العراق ، و(١٥٠) دولاراً امريكيا خارج العراق ٠

شروط نشر البحوث فى المجلة

١ ـ ان يعتمد البحث الأسس العلمية فى اعداد وكتابة البحوث ٠

٢ ـ ان يكون منسجما مع اهداف اتحاد المؤرخين العرب ٠

٣ ـ ان لايزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة ٠

٤ ـ ان لايكون قد سبق نشره أو قبل للنشر فى مجلة أخرى ، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير ٠

٥ ـ تقبل البحوث فى جميع فروع المعرفة التاريخية ، وباللغتين العربية والإنجليزية ٠

٦ ـ يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة ، ويفضل ان يكون مختصرا ، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم ٠

٧ ـ يطبع البحث على وجه واحد من الورقة ، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص ، ويقدم بنسختين ٠

٨ ـ بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات أو الندوات أو كان مستلا من رسالة أو اشرف عليها مقدم البحث يؤشر فى حاشية البحث ٠

٩ ـ لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من أول هامش فى البحث الى آخر هامش فيه ، وتعطى تسلسلا واحدا ٠

١٠ ـ يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص ، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير فى غضون خمسة ايام ٠

١١ ـ رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهى تعبر عن اراء اصحابها مع التاكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى ، والبحوث التى ترد للمجلة لاتسترجع الى اصحابها فى حالة عدم نشرها ٠

١٢ ـ يرجى تدوين اسم الباحث ، وعنوان بحثه باللغة الأنجليزية ٠

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

١٨ ـ الدكتور عاصم الدسوقي — جمهورية مصر العربية / سوهاج / جامعة اسيوط عميد كلية الآداب ٠

١٩ ـ الدكتور زكي مبارك — المملكة المغربية / مدير المعهد الملكي للشباب/الرباط ٠

٢٠ ـ الدكتور عبدالودود بن الشيخ — جمهورية موريتانيا الاسلامية مدير المعهد الموريتاني نواكشوط ٠

٢١ ـ الدكتور صالح ياسره — جمهورية اليمن الديمقراطية/جامعة عدن/ كلية الادارة/رئيس قسم التاريخ ٠

٢٢ ـ الدكتور حسين عبدالله العمري — الجمهورية العربية اليمنية/صنعاء ٠

محتويات العدد

المقدمـــة

يسرنا ان نقدم العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي والذي يضم بحوثا فى مختلف اختصاصات التاريخ العربي وعلى مر مراحله حيث ساهم فى تحرير هذا العدد مجموعة من المؤرخين العرب ومن مختلف الأقطار العربية حيث توزعت بحوثهم على اختصاصات التاريخ الحديث والمعاصر ، والتاريخ الاسلامي والعصور الوسطى ، واختصاصات التاريخ القديم والآثار ، اضافة الى البحوث التاريخية باللغات الأجنبية وأبواب المجلة الثابتة .

إننا فى الوقت الذي يسعدنا ان نقدم هذا العدد للقراء الكرام ، نود ان ننوه الى ما سيقوم به الاتحاد من نشاطات فى مجال الندوات والمؤتمرات التاريخية ، والتى بدأت فى تموز عام ١٩٨٧ ، حيث كان أولها مؤتمر حطين التاريخى بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على المعركة ، حيث شعرت الصهيونية بمأزق تاريخي كبير تعانى منه ، ولذلك عمدت الى تشويه صورة ذلك التاريخ ، وتبنت عقد مؤتمر حول معركة حطين وهو امر فى غاية التحدى للتاريخ وللمؤرخين العرب ، فتحرك الاتحاد من أجل احباط تلك المحاولة اللئيمة ، فاصدر بيانا للمؤرخين العرب والمسلمين يدعوهم فيه الى مقاطعة المؤتمر المزمع عقده فى فلسطين المحتلة ، وقرر الاتحاد عقد عدة مؤتمرات عن معركة حطين فى بغداد ، والقاهرة ، وعمان ، ودمشق ، وصنعاء ، ولندن ، لاحياء ذكرى هذه المعركة الخالدة التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الغزاة الأفرنج الصليبيين ولتفويت الفرصة على الكيان الصهيوني ولمنعه مستقبلا من التمادى فى عقد مثل هذه المؤتمرات .

وثانيها مؤتمر دور محمد الخامس فى مقاومة الاستعمار ، حيث يشارك اتحاد المؤرخين العرب فى احياء الذكرى (٢٥) لوفاة الزعيم المغربي محمد الخامس وابراز دوره فى مكافحة الاستعمار الفرنسى وتحرير المغرب .

ويعقد هذ المؤتمر بالتعاون مع جمعية رباط الفتح بالرباط فى المملكة المغربية .

وثالثها عقد ندوة عن التراث الكيميائي العربي فى اغناء الحضارة الانسانية وجاء عقد الندوة من أجل توضيح وابراز التراث الفكري العربي فى ميدان الكيمياء واثر العرب فى اغناء الحضارة الانسانية فى هذا الميدان وذلك بالتعاون مع نقابة الكيميائيين واتحاد الكيميائيين العرب والمجمع العلمي العراقي ومركز احياء التراث العلمى بجامعة بغداد .

ورابعها عقد الندوة القومية لكتابة تاريخ الامة العربية تحت شعار «نحو مدرسة عربية لكتابة التاريخ وفهمه» .

وكان من أهم اهداف هذه الندوة :

تثبيت فهم علمي عربي لكتابة تاريخ الامة العربية وتنقية التاريخ العربي من جميع تشويهات الشعوبية والأقليمية الضيقة ودراسة الاتجاهات العالمية الحديثة فى دراسة التاريخ للافادة منها فى اعادة كتابة التاريخ العربي وتطويره ، تأصيل الرواية التاريخية العربية وتوثيقها ودراستها والتأكيد على دراسة الجوانب الفكرية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية فى التاريخ وعدم الاقتصار على الجانب السياسى وحده ، تبادل الرأى حول الكتابة التاريخية فى الوطن العربي وتقييم مختلف التجارب القطرية من منظور عربي شمولي واجراء حوار علمي مفتوح حول مشاكل دراسة التاريخ العربي ومستقبله وتوحيد المصطلحات التاريخية فى توثيق دراسة التاريخ العربي هذا بالاضافة الى محاولة ايجاد مدرسة عربية لكتابة التاريخ وليس الاعتماد على كتابة المستشرقين الذين قاموا بتحوير كثير من المفاهيم العربية .

عقدت الندوة بالاشتراك مع هيئة كتابة التاريخ فى القطر العراقي ، وكانت هناك ندوات سابقة حول كتابة تاريخ الامة عقدت فى كل من بغداد عام ١٩٧١ والكويت عام ١٩٧٤ والدوحة عام ١٩٧٧ وليبيا عام ١٩٧٩ وسوريا عام ١٩٨٦ وتضمنت محاور الندوة : (١) منهج كتابة التاريخ العربي (٢) استجلاء الظواهر الايجابية فى التاريخ القومي (٣) دراسات متخصصة حول اعادة كتابة بعض جوانب تاريخ الامة العربية (٤) الافاق المستقبلية للدراسات التاريخية .

خامسها سيكون مؤتمر ايران والشرق الأوسط رؤية تاريخية . وان المحاور التى ستلقى فى المؤتمر هى

العلاقات الايرانية مع الدول المحيطة بها بشكل خاص ودول الشرق الأوسط الأخرى بشكل عام مع التركيز على الخلفية التاريخية لتلك العلاقات واثرها على الحاضر والمستقبل مع القاء الضوء على الاطماع الفارسية عبر التاريخ ومعاداتها للقوميات المجاورة للامبراطوية الفارسية ·

وسيعقد المؤتمر بالاشتراك مع مركز بحوث الشرق الأوسط / جامعة عين شمس ·

أما المؤتمر السادس فسيكون عن دور المؤرخين العرب في التصدي للمحاولات الصهيونية لتشويه التاريخ العربي الاسلامي ·

فكرة المؤتمر تهدف الى التصدى للصهيونية ومحاولاتها فى تشويه التاريخ العربي الاسلامي وطمس التراث الثقافي العربي وتدارس الخطر الصهيوني لايصال العرب والمسلمين الى هدفهم وهو تحرير القدس ·

وسيعقد المؤتمر بالاشتراك مع جامعة صنعاء والجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار ·

أما المؤتمر السابع فسيكون عن صورة العرب والاسلام فى المناهج التاريخية الأمريكية ، يهدف المؤتمر الى معالجة السلبيات فى المناهج التاريخية الأمريكية التى اكتضت بالمفاهيم المعادية للقضية العربية وعرض العقيدة الاسلامية بصورة مشوهة ومخالفة للحقيقة ولاتخلو من الاستهانة والاساءة وتجريد الاسلام من الخصائص الروحية والاخلاقية التى تتصف بها الديانات السماوية التوحيدية ، تجاهل الجوانب الايجابية فى الحضارة العربية وفضل هذه الحضارة على الحضارة الانسانية ، عرض النزاع العربى الاسرائيلى من وجهة نظر متميزة لاسرائيل ومعادية للعرب واعتبار العرب مسئولين عن الارهاب الدولى ، تضليل التلاميذ وشحن نفوسهم بالحقد والبغضاء للعرب والعداء للاسلام والمسلمين لذلك فمن الضروري اعادة النظر فى المناهج المدرسية الأوربية ·

وسيعقد المؤتمر بالتعاون مع احدى الجامعات الأمريكية ·

أما المؤتمر الثامن فهو عن انقاذ آثار مأرب · وذلك ايمانا من المؤرخين العرب بضرورة المواقع الأثرية والمحافظة عليها من زحف العمران وعبث الانسان والعمل على الاستفادة علميا من تلك الكنوز الرائعة ولأهمية هذا التراث العربي فقد قام الاتحاد بحملة اعلامية عربية وعالمية لبعث وانقاذ المعالم الأثرية وقد دعا الأوساط العربية والعالمية المتخصصة لتبنى مشروع دولى لانقاذ آثار مأرب ولهذا فقد تبنى الاتحاد وبالاتفاق مع الأوساط العلمية اليمنية فكرة اقامة مؤتمر سد مأرب بقيام حملة اعلامية وثقافية على المستويات كافة وسوف يقوم الاتحاد بدعوة جميع الهيئات والمنظمات والجمعيات التاريخية العربية والدولية والمؤسسات الآثارية للاشتراك فى هذا المؤتمر ،وسوف يكون هذا المؤتمر بداية جادة لمؤتمرات عربية ـ دولية لانقاذ آثار مدن أخرى عربية واسلامية ·

أما المؤتمر التاسع فهو مؤتمر عن المناهج التاريخية فى التعليم العام العربي وهذه الندوة تخص المناهج التاريخية فى الوطن العربي والسبل لتقريب الصلة بين تلك المناهج بما ينسجم مع الاهداف العامة المقترحة وفق الرؤية القومية للتاريخ العربي ويتم فيها ايضا تبادل الآراء بخصوص مشاكل دراسة التاريخ العربي ومستقبله وتوحيد المصطلحات التاريخية المدونة فى المناهج التى تدرس للطلاب بمختلف المراحل الدراسية ابتداء بالدراسة الابتدائية مرورا بالمتوسطة والاعدادية وانتهاء بالكليات ·

وسيعقد المؤتمر بالاشتراك مع معهد التدريب والتطوير التربوى بوزارة التربية العراقية ومنظمة اليونيسكو ·

أما المؤتمر العاشر فهو عن صورة العرب والاسلام فى المناهج التاريخية البريطانية ·

حيث تكشف هذه الدورة عن حقيقة الدس والتشويه لمبادىء وقيم الاسلام والرد عليها ودحضها وهى مهمة دينية وقضية تاريخية علمية ورسالة انسانية ومسئولية خطيرة لأن الاسلام شوهت كثير من مفاهيمه وتعاليمه وقيمه السمحاء خلال محاولات التزوير والتحريف والطعن فى تلك المفاهيم والقيم والتى تبنتها جهات معروفة بعدائها للتاريخ العربي الاسلامي وسوف توضح فى هذه الندوة أو المؤتمر حقيقة الدس والتشويه لاعداء العرب والاسلام وتصويب صورة العرب والاسلام فى الكتب الدراسية المقررة لتلاميذ المدارس فى الدولة البريطانية وبخاصة ما يتعلق بالجوانب الروحية والانسانية فى حياة النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وتوكيد الخصال القيادية للرسول وقدرته العسكرية والقتالية وما يتحلى به من صفات عالية واخلاق رفيعة ·

أما المؤتمر الحادي عشر فسيكون عن المناهج التاريخية فى الجامعات العربية (الواقع والطموح) ·

الهدف من المؤتمر تطوير المناهج التاريخية فى اقسام التاريخ فى الجامعات العربية ورفدها بكل بكل ما يستجد فى مجالات التخصص والافادة من الخبرات العربية والعالمية لتحقيق هذا الهدف ٠

وسيتم عقده بالاشتراك مع الامانة العامة لاتحاد الجامعات العربية ٠

أما المؤتمر الثاني عشر فهو عن صورة العرب والاسلام فى المناهج التاريخية الفرنسية لاعادة النظر فى الكتب المدرسية التى ضمت صورة مشوهة عن تاريخ العرب والاسلام لتصويب ما ورد فيها من جانب وتعزيز التفاهم بين الشعوب العربية والاسلامية من جانب آخر والشعوب الغربية ايضاً ، اعادة النظر فى عدد الصفحات التى خصصت للتاريخ العربى الاسلامي ٠

تسود معظم الكتب اخطاء متعمدة او غير متعمدة ويكثر تزوير الاحداث والوقائع فيها ، ثم ان عرض الوقائع والاحداث فى الكتب الأوربية جاءت بشكل مغرض يبدو كأنه يسعى الى هدف مسبق ، متميز ومجدد الغرض من الندوة تبادل الآراء ووجهات النظر وتصحيح ما جاء فيها ملفقا ومزوراً وبعيدا عن الصحة ٠

وسيعقد بالتعاون مع احدى الجامعات الفرنسية ٠

أما المؤتمر الثالث عشر فهو مؤتمر الاسلام واليهودية والمسيحية عبر التاريخ سيكرس اتحاد المؤرخين العرب طاقاته من أجل تبنى محور الاسلام وسوف يتصدى للاتجاهات المعادية للاسلام للرد عليها وتفنيد ادعاءاتها ، حيث ان المؤتمر يعقد من قبل الجمعية الدولية للعلوم التاريخية وسيشارك اتحاد المؤرخين العرب بالمحور الخاص بالاسلام وقد دعا كافة الجمعيات التاريخية فى الوطن العربي لتبنى هذا المحور والمساهمة فيه واعداد البحوث اللازمة حوله ٠

أما المؤتمر الرابع عشر فهو مؤتمر عن صورة العرب والاسلام فى المناهج التاريخية الالمانية ٠

يعقد المؤتمر بسبب قلة المعلومات الواردة فى الكتب التى تدرس فى المانيا عن العقيدة الاسلامية والمسلمين وعن دور العرب الفعال فى اغناء الحضارة الانسانية وتجاهل الجوانب الايجابية فى الحضارة العربية الاسلامية ٠

وبيان السرعة التى تمت بها الفتوحات الاسلامية دون تحليل اسبابها وتوكيد العداء بين الاسلام والمسيحية وخطر المسلمين على اوربا ، ومن ثم الخلط بين العرب والمسلمين من اتراك وفرس وهنود وغيرهم والتشويه للحقائق التاريخية ومنها على سبيل المثال بان دور العرب والمسلمين فى الحضارة الانسانية اقتصر على نقل علوم الأمم الأخرى «اليونان والرومان والفرس» وانه افتقر الى الخلق والابداع والعكس هو الصحيح لأن العرب هم بناة الحضارة ٠

ان الغرض من اقامة مثل هذا المؤتمر اعادة النظر فى هذه الكتب بحيث تصوب صورة الاسلام والمسلمين فيها ٠

وسيعقد المؤتمر بالتعاون مع مركز دراسات الشرق الالماني فى همبورج ٠

اننا فى الوقت الذي نصدر فيه هذا العدد من مجلة المؤرخ العربي والذي قامت بطباعته وزارة الاعلام البحرينية مشكورة ، يسرنا ان نتوجه بالدعوة لكافة الاشقاء من المؤرخين العرب للمساهمة فى تحرير بحوث المجلة كل حسب اختصاصه ، ليساهم كل من موقعه فى اعادة كتابة تاريخ الأمة ، بأيدى ابنائها ٠٠٠ والله ولى التوفيق ٠

الاستاذ الدكتور
مصطفى عبدالقادر النجار
رئيس التحرير

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

السلطان سعيد والعلاقات العربية الأفريقية

الدكتور محمد حسن العيدروس
كلية الآداب
جامعة الامارات العربية المتحدة

التجربة التاريخية العربية ـ الأفريقية المشتركة :

قد تعتبر دراسة التاريخ مهمة لمحاولة فهم العلاقات العربية الأفريقية بطريقة أفضل ، وخاصة التاريخ العربى ـ الأفريقى منذ أقدم العصور وحتى التاريخ المعاصر لترابطه فى مختلف المراحل الزمنية والنواحى الانسانية والفكرية ، بحيث أصبح هذا التاريخ كعدّة حلقات مترابطة يصعب فهمها اذا سقطت احداها .

ونظرا لهذه الوحدة والترابط المشترك فى التاريخ العربي ـ الأفريقي فانه كان قد أصبح عبئا على صانعى السياسة المحدثين بسبب ما القاه فى طرقاته الباحثون الغربيون من مقولات قد شككت احيانا فى مكانة المسلمات مما كادت تخلق عثرة فى العلاقات لعربية ـ الأفريقية لولا تفهم الجانبين العربي والأفريقي لهذه المحاولات الغربية لاعاقة العلاقات العربية ـ الأفريقية . ثم بدأت الفترة المعاصرة مع بداية الستينات القاء الجسور واعادة هذه العلاقات المشتركة ولابد من ان يبذل جهد فكري جديد يجعل من فهم التاريخ امكانية جديدة للالتقاء والتفاهم العربى ـ الأفريقى ، ولجعل التجربة التاريخية الحديثة لدى العرب والأفريقيين موضع تأمل جديد يمكن معه فهم آفاق المستقبل والمضي نحو تعميق هذه التجربة للأجيال القادمة .

ومن هذا المنطلق فأننا سوف نقوم ببعض الدراسات عن هذه التجربة التاريخية المشتركة فى عهد السلطان سعيد بن أحمد ومحاولته ربط عمان العربية بالساحل الشرقي لافريقيا . ويقول د . صلاح العقاد[1] ان السيد سعيد قام بتجربة فريدة من نوعها وهى انشاء دولة عربية افريقية فى شرق افريقيا ، وكانت هذه التجربة خير دليل على تلاحم الشعب العربى الأفريقي وما تمخض عنه من اكتساب الروابط الحضارية والتاريخية والثقافية والروحية بكل وضوح ، والتى كان الدين الاسلامي المشعل الوحيد الذي مهد لها الطريق القويم وعلى مدى العصور نموذجا للامتزاج المتبادل اضافة الى الخبرة والمعرفة التى تميز بها البحارة من جنوب الجزيرة العربية خاصة عمان وحضرموت فى توقيت الرياح الموسمية واتجاهاتها من بحر العرب الى خليج عدن وبالعكس كان لها أثرها فى الرحلات التى قاموا بها الى شرق افريقيا ولعبت دروا مهما فى وصولهم اليها ومعرفتهم لها قبل وصول البرتغاليين اليها بعد عدة قرون[2] .

كما كان للملاح العربي الشهير ابن ماجد من رأس الخيمة بالامارات العربية دور كبير فى ارشاد الملاح البرتغالى «فاسكو دى جاما» الى الطريق البحرى من «مالندى» فى شرق افريقيا الى الهند . كما قام عرب عمان وحضرموت بتنظيم الرحلات الى شرق افريقيا بشكل دقيق واستقرارهم فيها أوجد لها الأثر البالغ فى عمق ارتباطهم بشعب شرق افريقيا ومعرفتهم بأحواله مما اعطاه بعدا جديداً فى العلاقات العربية ـ الأفريقية فى كل من عمان وحضرموت وشرق افريقيا لانزال نلاحظه الى يومنا هذا . كما تدل الاختلاطات العرقية الواضحة بين شعوب عمان وحضرموت وشرق افريقيا على تلك الصلات العميقة من خلال الاشارة الى السواد اللونى العربى ـ الأفريقى [4] والمنتشر فى سواحل عمان وحضرموت وسواحل شرق افريقيا ويوجد كثير من الإختلاط العنصرى بينهم .

ويمكننا ان نلتمس تلك الآثار التى ذكرناها فى الفترات التاريخية التى تتابعت ، وذلك من خلال معرفتنا بقوة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية التى قامت بين الشعب العربي وشعوب القارة الأفريقية وتتضح هذ العلاقات أكثر فى قيام الدولة البوسعيدية العربية فى عمان ، ثم امتدادها الى أرض القارة الأفريقية وتأسيسها السلطنة الاسلامية فى شرق افريقيا التى خضعت لحكمهم زمنا طويلا خلال القرنين الثامن والتاسع عشر[3] .

خلفية تاريخية عن التواجد العربي فى شرق افريقيا :

لقد لعب العمانيون دورا كبيرا فى العلاقات العربية ـ الأفريقية وخاصة فى شرق افريقيا منذ القدم · أما بداية هذه العلاقات فى التاريخ الحديث فيمكن ارجاعها الى قيام دولة اليعاربة والدور الذي لعبته فى طرد النفوذ البرتغالي عن عمان ، مما حدا بأبناء شرق افريقيا ان يرسلوا وفدا منهم الى عمان يستنجدون بالامام سيف بن سلطان وهو ثانى ائمة الأسرة اليعربية ويطلب اليه ان يقوم فى جزر «ممباسة» و «زنجبار» و «باميا» بنفس الدور الذي قام به فى عمان ، ولم يكن اختيار الامام سيف بن سلطان للقيام بدور المنقد لكونه المدافع عن الحقوق الوطنية والشرقية ضد الاستعمار الأوربي فحسب ، بل وايضا لوجود اعداد كبيرة من العرب التجار والمقيمين والذين مهما اختلفت انسابهم فهم ينظرون الى امام عمان القوة المؤهلة لتحريرهم من النير الغاصب الغربي ، وبرغم مر العصور على زوال الممالك التى كانت تكوِّن الجزء الغربي من بلاد العرب والذي ينتمى اليه أصلاً معظم العرب المهاجرين الى الساحل الشرقي من افريقيا ، فان احفاد هؤلاء المهاجرين مدفوعون بشعورهم ، وبادراكهم لأصلهم العربى ـ الأفريقى المشترك استنجدوا بعرب عمان وان كانوا من قبائل مختلفة وربما من مذاهب دينية مختلفة ايضا[٦] وهذا يدل على عمق الروابط العربية الأفريقية والعلاقة التى كانت تربط شرق افريقيا بعمان ، والا لماذا اتجه ابناء شرق افريقيا الى عمان العربية بالذات دون غيرها من الدول الاسلامية القوية كالدولة العثمانية والدولة الصفوية فى ايران ·

إن الاستجابة لهذا النداء أمر تمليه العاطفة كما تمليه المصلحة ، فما من أسرة حاكمة فى عمان تجهل ان التجارة لاتقوم إلا حيث يكون للدولة نفوذ ما ، ورغم ان الاحوال لم تكن مستقرة تمام الاستقرار فى عمان فان الامام سيف بن سلطان لم يتأخر فى طلب ابناء شرق افريقيا وقام بارسال أسطول من السفن الحربية من مسقط لاخراج البرتغاليين من «ميامة»[٧] · وبذلك دخل المجاهدون العمانيون فشنوا عليهم حملات موفقة منذ عام ١٦٥٢ والتى كانت قد بلغت ذروتها فى عهد الامام سيف بن سلطان[٨] · استطاعت هذه القوة الناشئة الجديدة ان تهزم البرتغاليين وتم القضاء عليهم نسبيا فى معظم المناطق الشمالية منها ، واستطاع الأسطول العماني الاستيلاء على «ممباسة» وطرد الاستعمار البرتغالى وتمكن العمانيون من الدخول الى موزمبيق · وبذلك ظل العمانيون يحملون على المقاومة فى عهد سيف بن سلطان وهزموا البرتغاليين سادة الأمس هزيمة ساحقة عندما اخرجوهم من ممباسة عام ١٦٦٠ ·

ان اخراج البرتغاليين لم يكن بالأمر السهل إذ انهم وان خرجوا من شرق افريقيا فمالبثوا ان عادوا وظلوا فيها فترة من الزمن حتى عام ١٦٩٦ تقريبا ، مما جعل امام عمان يرسل حملة بحرية ثانية ، وكان وصولها ايذانا بثورة عامة فى شرق افريقيا على طول ساحله ابيد فيها البرتغاليون بأعداد كبيرة ، الأمر الذى أدى إلى تهيئة الفرصة لحكام عمان لتأسيس امبراطورية عربية ـ افريقية ، وبالرغم من ادراك الامام سلطان بن سيف هذه الاحتمالات وانه لم يكن زاهدا عن الاستفادة منها لكن ضعف مركزه فى عمان وانشغاله بأمور مهمة أخرى أخَّرَ تحقيق هذا الحلم فترة من الزمان · لكن القوة العمانية كانت قد استطاعت ان تقضي على البرتغاليين قضاء شاملا عندما انسحبت من شرق افريقيا بعد الانتهاء من مهمتها فى تحريرها من الاستعمار الاوربي ، وقد ظلت «ممباسة» خالية من أى تدخل أوربى حتى عام ١٨٢٨ ، عندما عاد البرتغاليون لاحتلال هذه المنطقة مرة أخرى بقيادة الادميرال «لويس دي سابيو» مما اضطر الاهالى فى شرق افريقيا الى طلب العون والنجدة من امام عمان الذى اسرع بارسال قوة بحرية مكونة من اسطول صغير وما ان وصلت القوة العمانية الى ساحل شرق افريقيا حتى وجدت ان ثورة الاهالى كانت قد قضت على البرتغاليين وبعدها اصبح محمد بن سعيد المعموري قائد الحملة الذى أرسله الامام لطرد البرتغاليين نائبا وواليا على شرق افريقيا [١١] ·

كان هذا التحرر من الاستعمار الأوربى البرتغالي الذي جثم على صدر المسلمين نحو قرنين نذيرا بانطلاقة للنفوذ الاسلامى ، أستعادت الحركة الاسلامية نشاطها وكذلك عاد الاتصال فيما بين العرب والافريقيين ، وازداد التعاون التجاري بينهما عن طريق التجار والدعاة ، بدأ الاسلام يتوغل الى الداخل حتى وصل الى «موزمبيق» و «سغالة» و «نياسالاند» وبعد اختفاء الخطر البرتغالي تعمق العرب فى توغلهم الداخلي فنفذوا الى «هضبة البحيرات» ودخلوا «اوغنده» ، وفى خلال القرن الثامن عشر انشئت المساجد فى القرى الواقعة على طول الطرق التجارية الموصلة الى «بحيرات نياسا» و «تنجانيقا» حتى حدود «الكونغو» ويذكر هتشنز انه لاتكاد تخلو قرية فى قلب هذه المنقطة من مسجد للمسلمين ·

السلطان سعيد ودوره فى اقامة الدولة العربية ـ الأفريقية :

عندما تعرضت عمان للاضطرابات الداخلية فى نهاية الأسرة اليعربية نتج عنها قيام دويلات محلية عربية فى شرق افريقيا ، ومن اهمها اسرة المزاريع العمانية التى استقلت بحكم «ممباسة» لفترة من الزمن حتى مجيء أسرة البوسعيد الى الحكم ، ورغم محاولة احمد بن سعيد السيطرة على «ممباسة»إلا انه لم ينجح وظلت أسرة المزاريع تحكمها حكما مستقلا ، لكن الجزر المجاورة مثل «كلوا» و «ماركا» و «زنجبار» ظلت تحت سيادة عمان يحكمها عبدالله بن جعد من ولاة عمان · ظل الامر كذلك حتى ظهور سعيد بن سلطان الذي كان مشغولا بمواجهة الوهابيين طيلة الثلاثين عاما التالية ، ورغم حروبه المستمرة ضد الوهابيين الا انه لم يتوقف عن التفكير بشئون افريقيا ، وحتى وهو في غمرة حروبه المستمرة وغير الناجحة فقد ارسل واليا عنه يدعى خلفان بن ناصر عام ١٨١٢ الى «ممباسة» وأمره ان يبنى قلعة فى «لامو» ولكن ممثل المزاريع عبدالله بن أحمد رفض الاعتراف بأية حقوق لعمان بالتبعية أو الاتاوة[١٣] ·

نظرا لانشغال سعيد لم يستطع ارسال قواته الى شرق افريقيا فى تلك الفترة لأنه كان قد ورث تركة مثقلة بالاعباء والاعداء كانوا يحيطون به من كل جانب والقبائل المتمردة فى جميع أرجاء عمان وقد كان الوهابيون يريدون احتلال عمان وكان القواسم يهددون التجارة العمانية فى مدخل الخليج العربي كما أن النزاع بين الفرنسيين والبريطانيين قد يجرّ عمان فى اية لحظة ، كل ذلك أخّر توجه السلطان سعيد الى شرق افريقيا ، وبمجرد ان بدأت الأمور تتحسن وانتهى خطر الوهابيين بعد اجتياح جيش محمد على الجزيرة العربية ، بدأ سعيد ينظر الى شرق افريقيا وشعر انه اصبح من القوة بحيث يستطيع ان يبسط نفوذه على هذه الارجاء واثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج فى مكة المكرمة كان قد أعد حملة بحرية الى ممباسة ، وكان واثقا من ان القوة الأوربية لن تعترض سبيله نظرا لضعف مركز الفرنسيين الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة كما انه قد أقام مع البريطانيين علاقات قوية وخاصة بعد زوال الخطر الوهابى ، ويبدو ان سعيد كان واهما فيما تخيله من سكوت البريطانيين عن مشروعاته ، فقد كان البريطانيون فى هذه الفترة يرنون بابصارهم الى افريقيا الشرقية نظرا الى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وعلى كل فان الفرصة كانت قد لاحت للسلطان سعيد عندما استنجد به بعض السكان من شرق افريقيا لينقذهم من أسرة المزروعي الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على تلك المناطق · لقد استطاعت قوات السلطان سعيد ان تستولى على مدن «لامو» و «بيت» و «برادة» وانتهى الأمر بعقد صلح مع «ممباسة» و «بيت» عام ١٨٢٨[١٤] · كان السلطان سعيد كلما قضى على المزاريع فى «ممباسة» وتصالح معهم نقضوا العهد ، لكنه فى عام ١٨٣٠ وضع حامية مكونة من حرسه الخاص للمحافظة على الأمن فى «ممباسة» وعندما قضى على الثورة غادر «ممباسة» بعد ان اعتقل جملة من قادة المزاريع وأخذهم الى مسقط ثم نفاهم الى قلعة مهجورة فى جزيرة هرمز[١٥] · وبذلك اصبح السلطان سعيد حاكماً على عمان وشرق افريقيا ·

يمكننا القول بان السلطان سعيد استطاع ان يربط عمان الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقي من الجزيرة العربية بشرق افريقيا ويوحدهما تحت حكمه ، مما كان له أبعد الأثر فى تقوية الروابط وتوثيق العلاقات العربية ـ الأفريقية بين شرق الجزيرة العربية وشرق افريقيا ، وانعكس ذلك على نواحى كثيرة منها الاقتصادية والسياسية وادى ذلك الى انتعاش وازدهار هذه العلاقات وبذلك يكون سعيد بن سلطان قد نجح فى تأسيس امبراطورية عربية ـ أفريقية كانت الأولى من نوعها فى التاريخ الحديث لآسيا وافريقيا بل ولتاريخ العرب الحديث ايضا ·

السلطان سعيد ونقل العاصمة العربية مسقط الى زنجبار فى شرق افريقيا :

برغم الاخطار والمشاكل التى كان يعاني منها السلطان سعيد الا انه انصرف بجهوده وراء رغبته فى توسيع ممتلكاته فى شرق افريقيا والعمل على تحسينها ، واصبح ينظر الى عمان على أنها وان كانت هى المصدر الأول لقوته البحرية والعسكرية ، آلا انها شيء ثقيل على نفسه ويجب ان يعهد بها إلى وكلائه ما استطاع الى ذلك سبيلا مما يعنى مدى اهتمامه الشخصي بشؤون شرق افريقيا[١٦] ·

لقد اشتد فى عهد السلطان سعيد التحول من الناحية الدينية الى الناحية السياسية وأخذ سعيد ينتهج سياسة افريقية واضحة المعالم ويذهب بعض الباحثين الى ان اتجاه سعيد الى شرق افريقيا كان محاولة منه للهروب من المشكلات الكثيرة التى كانت تواجهه فى عمان ، ولكننا لانتفق مع هذا الرأى ، لأن اتخاذ سعيد سياسة افريقية لم تكن تبعده عن المشاكل العمانية التى كان يفرغ لها جزءاً كبيراً من وقته وجهده ، وانما كان اتجاهه الى شرق افريقيا يدل على بعد نظره وحرصه على هذا الجزء الهام

من دولته لكثرة موارده وزيادة فرص استغلالها ، فضلا عن ان الظروف المستجدة التى آلت اليها الدولة فى عهده لم تضطره كما حدث لاسلافه من ائمة عمان الى البقاء فى دولة ذات طابع ديني تقليدى وقد ظهر ذلك واضحا عندما اقدم السلطان سعيد على نقل عاصمة حكمه من مسقط فى القسم العربي الى زنجبار فى القارة الأفريقية فى عام ١٨٣٢ واقامته هناك وتفرغه لتكوين امبراطورية فى شرق افريقيا[١٨] .

ان نقل سعيد لعاصمة اقامته الى جزيرة زنجبار التى تبعد عن بلاده بنحو ٢٫٥٠٠ ميل والتى لاتصل اليها السفن إلّا فى وقت هبوب الرياح الموسمية ، لتثير عدة تساؤلات ؟ فلو امعنا النظر فى حالة مسقط فى ذلك الحين فاننا قد نرى بأن سعيد كان مدفوعاً بعوامل عدة منها جو شرق افريقيا الذي يختلف عن جو مسقط المعروف بشدة حرارته معظم ايام السنة ، وشدة هبوب رياحه ، فى حين نجد شرق افريقيا يمتاز بجمال الطبيعة وجاذبيتها[١٩] ، وأهمية موقعها الجغرافي وما تتميز به من موانىء صالحة للتجارة وعمليات التبادل التجاري اضافة الى الدوافع السياسية التى كان من أهمها تفضيله الاقامة فى زنجبار بعد ان عانى الكثير من المتاعب الداخلية فى عاصمته السابقة مسقط من جانب المنافسين له فى حكم عمان من أعمامه أو ابناء عمومته ، اضافة الى ان الوهابيين والقواسم كانوا كثيرا ما ينقضون عهدهم معه ويستأنفون هجماتهم على المقاطعات العمانية الواقعة على الخليج العربي والمحاذية للامارات العربية ، وليس من شك فى ان نقل العاصمة الى زنجبار كان له أثر كبير فى وضع الأسس السياسية والاقتصادية للسلطنة العربية فى افريقيا[٢٠] ، بل ويعتبر تطوراً فى العلاقات العربية ـ الأفريقية لما كان له نتائج على شرق افريقيا فى عهد السلطان سعيد .

برغم سقوط ممباسة فى يد السلطان سعيد ، فإنه لم يغير من عزمه الأول على جعل زنجبار مقراً له وعاصمة لدولته ، فقد كانت ممباسة فى تلك الفترة هى المفتاح الرئيس للساحل الأفريقي الشرقي بكامله ، كانت فيها اقدم الموانىء على ذلك الساحل واكبرها ، ولكن السلطان سعيداً جعل من زنجبار منافساً فى مركزها ، وسيقدر له بعد سنين قليلة ان يسلبها مركزها وأهميتها علما بأن ممباسة هى التى كانت اهم مدن شرق افريقيا قبل عام ١٨٢٣ ، ولم تكن زنجبار وقت ذاك ألا قرية صغيرة لايحسب لها حساب[٢١] .

لقد لقى السلطان سعيد استقبال الفاتحين فى زنجبار والذين كانوا مدفوعين بالصلات القديمة التى تربطهم بعمان ، مقدرين ما بذله حكام عمان من جهود فى سبيل حمايتهم ، لذلك هيأت له الأحوال فى زنجبار حكماً آمنا ، كما كان سعيد مدفوعاً بعوامل اقتصادية ترجع الى صلاحية موانىء زنجبار للملاحة[٢٢] .

لاشك فى ان سعيد كان يحلم فى قيام امبراطورية عربية ـ افريقية واسعة الاطراف تشد بعضها الى البعض الآخر شبكة محكمة من الروابط التجارية المتينة ، وكلما كان تفكيره يهديه الى العودة الى مسقط ووجوب البقاء فيها وكلما كانت مكائد الطامعين وثورات القبائل وتهديد الوهابيين من جهة والقواسم من جهة أخرى ، تجعل غيابه من عمان محفوفا بالمخاطر والصعاب ، كان يعود فيصر على البقاء فى عاصمته الجديدة زنجبار ، يمضى فيها أوقاتا اطول ينظم المدينة ويهتم بأمورها الادارية والاقتصادية والعمرانية غير عابىء بكلام الناس بل وسخريتهم أحياناً ، فقد اصبحت زنجبار مطمح أنظاره ومهد احلامه وكان مستعداً للمجازفة بمواجهة كل الاخطار المحدقة به من أجل اقامته فى عاصمته بشرق افريقيا[٢٣] .

بدأ سعيد فى بناء منزله الريفى الذائع الصيت فى عام ١٨٣٨ ، بيت «الموتني» نسبة الى نهر الموتنى الصغير خارج حدود زنجبار ، وما ان تم بناؤه حتى اتخذه دارا ومقاما له ولحاشيته ومركزاً للحكم ، وبيت «الموتنى» كان واسعا كبيرا غير منسق الطراز ومع ان السلطان سعيد ابتنى له قصرا آخر داخل المدينة الا ان بيت «الموتنى» ظل محل سكناه المفضل ومحل سكنى ابنائه وحاشيته وكان عددهم يزيد على الالف نسمة ، ولم يكن السلطان يهتم بالمظهر فى الهندسة والبناء والقصور ليرضي الأوربيين بل كان بسيطا ومتواضعاً ، لكنه يدرك اهدافه وله احساس صادق بأنجح السبل التى تحقق اهدافه هذه وكان قاطعاً على بلوغها ، وان كان قد ادرك اهمية موقع زنجبار من أول نظرة القاها عليها عندما جاء من «ممباسة» ، ولم يستطع ان يهجرها بعد ، فمنها امتد سلطانه على طول الساحل وعلى الجزر المتناثرة امامه كما امتد داخل البر الافريقى ومنها انتشر تجاره ووكلاؤه التجاريون فى شبكة من النشاط التجاري الذى غطى كل الساحل الشرقى الأفريقى[٢٤] .

السلطان سعيد والتنمية الاقتصادية فى شرق افريقيا :

ان الارتباط الاقتصادى العربى بشرق افريقيا قد بدأ قبل اكثر من ثلاثة عشر قرنا على الأقل ، بعد أن دخل العرب واستقروا فى الساحل الشرقي لافريقيا بشكل واضح منذ القرن العاشر تقريبا ، وكانت معظم هذه الهجرات فى البداية من ابناء حضرموت وساحل اليمن ، وكان غرضها فى الغالب تجاريا بعيداً عن الفتوحات

الاسلامية برغم علاقتها بنشر الاسلام عن طريق التجارة دون التدخل السياسى والعسكري ، مما يعنى بأن الغرض التجاري كان هو الدافع لهذه الصلات ولم تكن ذات اغراض استعمارية ، بدليل اختيار العرب للمدن والموانىء التى تتسم بميزات تجارية محدودة ، كسهولة اتصالها بالاقاليم الداخلية مثل ممباسة وزنجبار[٢٥] ٠

وقد كان أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية وجدّ السلطان سعيد كثيراً ما يهتم بالنواحى التجارية ، وقد يرجع ذلك لانتمائه لأسرة من التجار واشتغاله بالتجارة ، مما كان له أثر كبير فى اهتمامه بتلك النواحى ، وقد فتحت مقاطعات شرق افريقيا بمواردها وما يكثر فيها من الغلات سبل التجارة على مصراعيها ، وعمل أحمد بن سعيد على تشجيع التجارة واستمرارها بين مسقط وممتلكاته فى شرق افريقيا التى اعترفت بسيادته ، وكان يرسل فى كل عام بعضا من سفنه لتأتى له بالذهب والعاج وغير ذلك من موارد تلك الجهات ، وحتى المقاطعات التى لم تعترف بسيادته كان حريصا على اقامة علاقة تجارية معها ولذلك لم يلجأ الى فرض سيطرته بالقوة العسكرية خوفاً من انقطاع تلك الصلات التجارية بينها وبين عمان[٢٦] ٠

من ذلك يتضح بأن التعاون التجاري والاقتصادي العربى ـ الأفريقي قد وجد منذ اقدم العصور واستمر الى العصر الحديث ومن خلال ذلك كله برز الدور الذي لعبه عرب حضرموت وعمان فى إعمار وانعاش الأوضاع الاقتصادية لسكان شرق افريقيا ويتجسد فى اهتمام السلطان سعيد ودوره فيها مما أدى الى انتشار الرخاء الذي عم شرق افريقيا نتيجة لاكتشافهم مناجم الحديد فى ماليزى «ممباسة» اضافة لما طرأ من تطور فى صناعات الغزل والاقمشة التى اخذت تصدر من مقديشو الى مصر[٢٧]

لقد قام السلطان سعيد ببرنامج اصلاحي طبقه فى شرق افريقيا فيما يتعلق بالعملة والرسوم الجمركية وادخال زراعة القرنفل وانعاش تجارة القوافل وتشجيع الاجانب والعمل على جذب الهنود الى دولته حتى اصبحت مدينة زنجبار اكبر ميناء على سواحل المحيط الهندى الغربية واكبر مستودع للتجارة الأفريقية الآسيوية والمورد الرئيسي لتزويد العالم بالقرنفل وأكبر سوق لتجارة العاج واصبحت اهميتها لاترجع الى تصدير القرنفل فحسب وانما الى زيادة توغل تجارها داخل القارة وعودتهم الى الساحل بالمنتجات الاستوائية[٢٨] ٠

أولا : تشجيع التجارة :

كان السلطان سعيد يهتم بتشجيع التجارة ، ولتحقيق هذا الهدف فانه كان حريصا عند انتقاله الى زنجبار أن يأخذ معه التجار العرب والهنود ، وخاصة من طائفة «البانيان» من «الهندوس» الذين يسهمون بنشاط وافر فى عمليات التجارة فى مسقط وكانوا يقبضون على زمام التجارة الدولية فى الشرق ، وقام بتشجيع هؤلاء الهنود للسفر الى زنجبار ، والذين كانوا يعهدون فى السلطان سعيد من تسامح كبير ومعاملة طيبة حيث منح الحرية الدينية لهؤلاء «الهندوس» ليقوموا بشعائرهم ومنحهم ماكانوا يتوقون اليه من مكانة فى المجال الاقتصادى ، كما استعان ببعض الاكفاء منهم فى الأعمال الادارية والاقتصادية وعلى الرغم من علاقة الهنود بشرق افريقيا منذ القدم ، الا ان اعدادهم تزايدت فى عهد السلطان سعيد ، حتى بلغت اربعة الاف نسمة ، وان اربعة اخماس التجارة الخارجية كانت فى ايديهم كما امتد الهنود بمراكزهم التجارية حتى جزيرة «مدغشقر» و «موزمبيق» وجزر القمر وبمضى الزمن كثر عددهم وأخذوا يستولون على الممتلكات من العرب عن طريق الرهن والشراء[٢٩] ٠

كان فى مدينة زنجبار وحدها نحو ألف من التجار الهنود والذين كانوا ينعمون بحماية السلطان سعيد ، كما اعفاهم من الرسوم الجمركية وعهد اليهم بشؤنه المالية ، كما وفد على زنجبار كثير من مسلمى الهند الذين نعموا بنفس المعاملة ، ولم تكن تخلو مدينة من مدن شرق افريقيا من افراد الجالية الهندية الذين انتعشت تجارتهم وبدأوا يقتنون ثروات ضخمة وزاد عددهم بدرجة ملحوظة حتى أصبح اكثر من ستة الاف فى عام ١٨٦٠ ، وقد ساعدهم فى ذلك اعفاء السلطان سعيد من القيود الجمركية وتشجيع التجارة ولم يحتكر السلطان سعيد اية سلعة من السلع[٣٠] ٠

كان قد وفد مع السلطان سعيد مئات من العرب وخاصة عرب عمان وحضرموت ، فازدهرت التجارة وانتعشت بمقدمهم الى درجة لم تكن معهودة من قبل ، وفى الوقت الذى اقتصر النشاط التجاري للهنود فى الموانيء والمدن الساحلية فى شرق افريقيا ، استطاع التجار العرب ان يغامروا فى التوغل الى المناطق الداخلية فى القارة الأفريقية والتى لم يكن قد ارتادها احد من قبل ، واستقر كثيرون منهم فى الداخل واسسوا المراكز التجارية التى جهدوا فى تقويتها ، حتى تحولت تلك المراكز التجارية الى مدن وبدأت تشع قدراً من السيطرة

والنفوذ للدولة العربية الأفريقية فى الداخل حتى لقد اشتهر المثل السواحيلى القائل[٢١]
«اذا دقت الطبول فى زنجبار رقص الناس طربا على البحيرات»

كانت تلك السيطرة الداخلية ترتبط بقوافل التجارة التى شجعت الصلات التجارية بين العرب والأفريقيين ، وخاصة بين سكان الساحل فى شرق افريقيا وسكان الداخل فى وسط القارة الأفريقية ، وذلك بعدما توغل التجار العرب بحثا عن السلع التى تشتهر بها تلك المناطق التى اصبحت تصل الى البحيرات الاستوائية مثل بحيرة «نياسا» و «بحيرة تنجانيقا» وبحيرة «فكتوريا» واعالى النيل والكونغو ، ونشأت طرق جديدة للمواصلات كما قامت على النهج العديد من المدن العربية على خطوط القوافل التجارية وذاع صيتها فيما بعد مثل «طابورة» أو «جيجى» و «كارجواي» .

لم يكن السلطان سعيد يهدف الى استغلالاً هذه المناطق استغلال طبيعيا ، وانما كان همه منصرف الى القيام بدور الوسيط بين المناطق الاستوائية الداخلية والجماعات الساحلية فى شرق افريقيا[٢٢] .

يمكن القول بأن نفوذ التجار امتد الى اغلب اركان شرق افريقيا ووسطها تقريبا وامتد الى اقليم البحيرات العظمى والمجاري العليا للانهار الكبرى وذاع صيتهم من سواحل المحيط الهندى شرقا حتى البحيرات الاستوائية غربا بدون ان تظهر لديهم اية اطماع أو محاولة للسيطرة على مقاليد الحكم بشكل قهري ، وبالمقابل لما قام به التجار العرب من نشاط اقتصادي فى القارة الأفريقية فقد اخذت تلك الشعوب الأفريقية بحماية هذه النشاطات العربية التى تمر بأراضيهم مما أدى الى ازدهارها واستفادة العرب من الموارد الغذائية التى تشتهر بها تلك الأجزاء فى التنمية الاقتصادية والتجارية ، واتضحت هذه الآثار الأفريقية فى التجارة العربية فى فترات لاحقة ، وتم نقل هذه البضائع على السفن التجارية العربية الى مختلف الأسواق فى أسيا واوربا عن طريق موانيء شرق افريقيا كما يمكن ان نلمس بوضوح الأثر البارز الذي لعبته الدولة العربية الأفريقية والسلطان سعيد بشكل خاص فى شرق القارة الأفريقية بتوطيدها لاواصر العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين العرب والافارقة[٢٣] .

ثانياً : الجمارك والعملة :

كانت الأنظمة الاقتصادية التى وضعها السلطان سعيد للدولة العربية ـ الأفريقية ، بسيطة ومرنة وكانت لاتزيد على ٥٪ عن الواردات التى تأتي الى الموانيء فى شرق افريقيا لتخفيف الأعباء التجارية وتجيشعها واعفاء الصادرات الوطنية من أعباء الضرائب ، كما تميز عهد السلطان سعيد فى شرق افريقيابوضع نظام نقدي يحل محل العملات المتعددة الجنسية التى كانت مستخدمة فى شرق افريقيا كالريال النمساوي والاسباني والفرنسى ، ولم ينته عهد السلطان سعيد حتى اختفت العملات من السلطنة العربية ـ الأفريقية وحل محلها النظام الجديد الذي استحدثه والذى كان يعتمد على الروبية الهندية[٢٤] .

قد كان دخل جمارك زنجبار أقل من دخل مسقط اذ ما قورن قبل الثلاثينات من القرن السابع عشر ، ثم أخذ هذا الرقم يتزايد بشكل سريع بعدها ادخل السلطان سعيد التنظميات والاصلاحات الاقتصادية فى شرق افريقيا حتى اصبح دخل جمارك زنجبار حوالى ١٥٠ر٠٠٠ ريال نسماوي فى العام ، أما قبل تلك الاصلاحات والتنظيمات الاقتصادية ، فان دخلها كان لايتعدى ٣٠ر٠٠٠ ريال نمساوي فى العام وبذلك يمكن القول بأن مجموع دخل السلطان سعيد من جمارك مسقط وزنجبار وبندر عباس كان لايقل عن ٣٥٠ إلف ريال نمساوي او سبعين الف جنيه استرلينى فى العام[٢٥] .

ثالثا : ادخال زراعة القرنفل :

اهتم السلطان سعيد باستغلال زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية وتشجيع زراعة قصب السكر والقرنفل ، وتعتبر زراعة القرنفل من أهم اعماله الادارية فى زنجبار وشرق افريقيا[٢٦] ، وذات فائدة عظمى ودائمة لاقتصادها ، والغريب ان جهوده لدعم زراعة القرنفل قوبلت بمعارضة لكنه ثابر حتى نجح فى غرضه ، فقد فشلت المحاولة الأولى لادخال القرنفل من جزر «موريسشيوس» الى زنجبار عام ١٨٠١ وكان الفرنسيون قد زرعوها لأول مرة عام ١٧٧٧ ، ولكن المحاولة الثانية بعد سبعة عشر عاما اثبتت نجاحا ، وبعد مصادرة مزرعة القرنفل الاصلية والوحيدة فى زنجبار ، أمر السلطان سعيد بتعميم زراعة القرنفل بعد التهديد بمصادرات أخرى ، وبذلك وضع الحجر الاساسي للزراعة الاساسية فى زنجبار وشرق افريقيا والتى ادت الى رخاء هائل فقد ذكر الميجر «ف٠ب بيرس» مايلى :ـــ

«ان سلك السلطان سعيد كان حيال زراعة القرنفل فى زنجبار وبما يشهد بأنه رجل ذو سلطة غير عادية وشخصية قوية ، كما يمكن اعتبار اشجار القرنفل نصبا تذكاريا ـ وهى نصب تذكاري جميل ايضا لتخليد ذكرى السلطان سعيد صانع زنجبار ·

اضافة الى تشجيع السلطان سعيد القوى لزراعة اشجال القرنفل على نطاق واسع فان جو جزيرتى زنجبار «وبمبا» قد ساعد على ازدهارها حتى اصبحت لاتقل أهمية عن تجارة العاج أو أى محصول رئيسي آخر ، ومازالت زنجبار تنتج ٥/٤ غلة القرنفل فى العالم[٣٨] ٠

رابعاً : الحماية الاقتصادية :

كان السلطان سعيد قد ادرك لضمان الازدهار الاقتصادى لشرق افريقيا ، عليه ان يعمل على حماية التجارة من المنافسات التى تتعرض إليها ، وبرغم انه كان يؤمن بالحرية الاقتصادية ، الا انه وجد نفسه مضطرا الى تطبيق سياسة احتكارية لضمان المركز الاقتصادى لشرق افريقيا ، لذلك حرم على طول الساحل الشرقي لافريقيا والممتد من مصب نهر «البانجابى» على «كلوة» تصدير المطاط والعاج تحت أى علم خلاف علم السلطنة العربية ـ الأفريقية وان كنا لانجد احتكارات أخرى باستثناء ذلك[٣٩] ٠

كما نجد السلطان سعيد يبنى اسطولا بحريا ضخما فى عام ١٨٣٤ يضم بعض المدمرات والطرادات ليحمى طرق المواصلات بين بلاده وبلاد العرب ويؤمن سبل الملاحة ويحقق مشروعاته التجارية التى تأتي من الموارد الكثيرة التى تغنيه عن فرض الضرائب المباشرة[٤٠] ٠

خامساً : فتح اسواق خارجية :

وقد ترجع شهرة السلطان سعيد فى العالم الخارجي الى فتح موانيء شرق افريقيا للدول الأجنبية حتى تحولت زنجبار الى أعظم ميناء فى الاطراف الجنوبية الغربية للمحيط الهندى ، كما اصبحت زنجبار المستودع الرئيسى للتجارة الأفريقية ـ الآسيوية ، وفى خلال عشرين عاماً من نقل السلطان سعيد عاصمة بلاده من مسقط الى زنجبار اصبحت زنجبار واحدة من ثلاثة أو أربعة مراكز للتجارة فى المياه الغربية للمحيط الهندى[٤١] ٠

كان السلطان سعيد يهتم بفتح اسواق جديدة خارجية لمنتجات سلطنته ، بعدما كانت الأسواق التقليدية مقصورة على ساحل المحيط الهندى الممتد من عدن الى بومباى وعلى مصر والخليج والجزيرة العربية ، ولهذا اتجه السلطان سعيد بأنظاره نحو اسواق اوربا وأمريكا لأهمية هذه الاسواق لرواج تجارة شرق افريقيا ، ولهذا رحب بالتجار الأوربيين والامريكيين الذين زاروا زنجبار ، كما عقد معاهدات مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣ ، وبريطانيا عام ١٨٣٩ ، وفرنسا عام ١٨٤٤ وسمح بانشاء قنصليات لهذه الدول فى بلاده ، وعندما توفى السلطان سعيد كانت اسواق اوربا تستهلك من ثلث منتجات افريقيا المارة بزنجبار ، وكان قد دخل مينائها تسعون سفينة اوربية وامريكية فى عام ١٨٥٧[٤٢] ٠

عرف السلطان سعيد حبه الكبير للتجارة وممارستها فالى جانب كونه حاكماً ورجل سياسة كان ايضا تاجراً ماهرا نظم تجارة بلاده مع العالم الخارجي ، وكان يقوم بالاعمال التجارية لحسابه الخاص وابتنى لهذا الغرض اسطولا تجاريا ضخما كان يستخدمه فى نقل البضائع ، ويحمل منتجات زنجبار «ومقديشو» و «ممباسة» وباقى المناطق الأفريقية الى موانيء العالم الخارجي[٤٣] ٠ وبذلك أخذ السلطان سعيد يتجر مباشرة مع الدول الأوربية ويرسل سفنه الى «مرسيليا» و «جنوة» و «لندن» وغيرها ، وقد اثر ذلك على نمو مدينة زنجبار وازدهارها بعد ما كانت مجرد قرية صغيرة فى القرن الثامن عشر واستطاع ان يجعل دولته فى شرق افريقيا ، ثالث دولة تجارية فى المحيط الهندى[٤٤] ٠

المجتمع العربى ـ الأفريقى فى شرق افريقيا :

كان سكان شرق افريقيا فى عهد السلطان سعيد يتألفون من طبقتين :

الطبقة الأولى السكان الأصليون :

هذه الطبقة هم سكان البلاد الأصليون وينتشرون على طول ساحل زنجبار وفى داخل البلاد ، ولم يتدخل السلطان سعيد فى شؤونهم بل منحهم حريتهم وولى على كل قبيلة احد زعائمها ، ويعتبر سكان زنجبار خليطاً من أجناس مختلفة أسهم فيها أهالى «شيراز» من الفرس وعرب حضرموت وقبائل «البانتسو» الأفريقية بقدر كبير من موجات الهجرة ، ولما كان «البانتسو» ليسوا زنوجا خالصين بل هم خليط من عناصر حامية وزنجية ، فأنه من السهل القول بأن نسبة مرتفعة من دماء السكان الحاليين حامية عربية ولم يبق الا عدد صغير من «الجيد» و «البانتسو» وهم أهل زنجبار الاصليون وكان للحضرميين وربما لليمنيين دور كبير فى تلك الفترة[٤٥] ٠

فقد كان لاستقرار عرب الحضارمة فى شرق افريقيا اثر كبير فى ظهور سمات لشعب جديد اسهم العرب ومن توافد معهم من الفرس من «شيراز» اختلاط الجنس الحامي والسامي الحضرمي «بالبانتو» وثمرة التزاوج الذي تم بين هذه العناصر[٤٦] ٠ كما لعب الاسلام دوراً كبيراً لأنه لم يعرف الحاجز العرقي الذي لايسمح للرجل الأبيض بأن يندمج ويختلط مع قرينه صاحب البشرة السوداء ، فقد كان لسمو الحضارة الاسلامية فى هذا الشأن اثره فى انتشار الاسلام وتكوين الشعب السواحلي

بالاختلاط بين العناصر العربية الاسلامية والفارسية بقبائل «البانتو» الأفريقية ·

وقد ظلت شرق افريقيا تتلقى حتى وقت متأخر هجرات عائلات عربية اليها من منطقة جنوب الجزيرة العربية وتكاثر عددها مع مرور الزمن وكان المهاجرون العرب الى شرق افريقيا سرعان مايندمجون مع المجتمع الأفريقى ويتخذونها وطنا ويعتبرهم سكانها مواطنين[٨] · إن افارقة زنجبار ينقسمون الى تجمعين اساسيين ، الشيرازيون وافارقة القارة الذين هاجروا الى الجزر خلال المائتى عام الماضية ، ويقع موطن «الوحاديمو» فى شرق وجنوب جزيرة «الواتوباتو» فى جزيرة «تومباتو» و «الوابما» فى جزيرة «بمبا» وبمرور الوقت انتقل كثيرون من مواطنهم[٩] ·

الطبقة الثانية المهاجرون العرب والهنود :

يعتبر العرب والتجار الهنود الذين وفدوا الى شرق افريقيا من الطبقة الثانية ، والمولودون أى الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات وطنيات وكان السلطان سعيد بعيداً عن التصعب العرقي ، فقد ادرك ان مصلحة شرق افريقيا تتفق ومصلحة طبقة «البانيان» من «الهندوس» وان البانيان الواحد يجر بعده عشرة من بنى قومه[١٠] ولذلك شجعهم وقدم لهم كل عون وسمح لهم بممارسة شعائرهم ·

العادات والتقاليد :

إنَّ مجتمع شرق افريقيا معظمهم من المسلمين السنيين وعلى شيء من التهذيب ، وقد تركوا كثيرا من عاداتهم القديمة ، شأنهم شأن العرب قبل الاسلام ، وقد تأثروا كثيراً بالعادات والتقاليد العربية الاسلامية وكذلك بالملابس ، فهم يرتدون الزى العربى التقليدى ، فالرجال يلبسون ثوباً طويلا يسمونه «دشداشة» يشدون فوقه نطاقا ؟ علما بأن نفس هذه الملابس تلبس فى منطقة الخليج والجزيرة العربية ، وكذلك نفس التسمية وهى «الدشداشة» ويبدو ان هذه الكلمة عربية مأخوذة من سلطنة عمان بحكم علاقة هذه الدولة بشرق افريقيا ·

وهناك الكثير من الملابس التى تشبه ملابس الخليج والجزيرة العربية فمنهم من يلبس القفطان والعباءة وينتعلون النعال فى حين تلبس النساء السراويل الطويلة ، وثوباً يتدلى الركبتين يشدون فوقه نطاقا وعلى رؤوسهن نسيج يشبه الكوفية ، يعلوها حزام كعقال الرجال ويضعن النقود الذهبية على رؤوسهن ، ويكثرن من الاسوار والخواتم ويستعملن القلائد والسلاسل الذهبية التى توضع حول العنق وترخى الى الوسط ويختلف نوع تلك الحلى من ذهبية الى فضية حسب مركزها الاجتماعي ودخلها المادى ، ويصفرن وسط جباههن بالزعفران ويزججن الحواجب ويكحلن العيون ويصبغن ايديهن وارجلهن بالحناء[١٢] ·

وهنا نلاحظ الشبه الكثير مع النساء العمانيات اللواتي يلبسن ويتزين مثلهن الى حد كبير مما يدل على تأثير نساء شرق افريقيا بالنساء العمانيات · وتقول سلمة بنت السلطان سعيد[١٣] «فالزي الذي تلبسه النساء واحد ويتكون من قميص ينحدر الى ركبتها وسروال عريض طويل مربوطة نهايتيه عند الكاهل وعصابة من الحرير تلف بها شعرها» ·

وهناك عادة أخرى شبية لدى النساء العمانيات فمثلا النساء من العامة يتجولن نهارا لقضاء لوازم منازلهن والخاصة من المخضرمات كثيرات التحجب ولايبارحن منازلهن نهارا ، وربما خرجن ليلا للنزهة ، واذا ما لقيهن رجل فى الطريق عرج يمنة تأدبا منه أو وقف مختبأ رعاية لحرمتهن[١٤] وتقول سالمة بنت السلطان سعيد :ـــ

«والمسلمات يتجنبن الظهور فى الشوارع فى وضح النهار ولذلك جرت العادة ان يكون خروجهن فى الصباح الباكر أو بعد حلول الظلام ولم تكن فى ايامي فى زنجبار شوارع مضاءة وكان على كل مسافر فى الطريق ان يؤمن من وسائل الاضاءة لنفسه وكنا نستعمل لهذه الغاية الفوانيس الكبيرة التى نتفنن فى صنعها م » ·

وهناك فى المجتمع السواحلى بعض الافراد يشتغلون بالتجارة والبعض الآخر بالسمسرة فى حين يكتفى الآخر بما يحصل عليه من غلة ارضه اما فى الأقاليم الداخلية فتزرع النساء الذرة والبطاطا وينسجن الحصر وغيرها من المنسوجات الخشنة ، ويقضي اكثر الرجال اوقاتهم فى الصيد والقنص معتمدين على النساء فى قضاء لوازم بيوتهن وحرث الاراضي[١٦] ·

ومما سبق يتضح عمق الروابط والعلاقات العربية ـ الأفريقية فى العادات والتقاليد لدى مجتمع شرق افريقيا الذي تقبل وتأثر بهذه العادات والتقاليد العربية لاختلاطه بابناء الخليج العربي والجزيرة العربية ، وخاصة عرب عمان وحضرموت ، وبالمقابل فان العرب ايضا تأثروا من المجتمع السواحلي وأخذوا عنهم الكثير من العادات والتقاليد ·

منع تجارة الرقيق :

لقد لعب السلطان سعيد دوراً كبيراً فى منع تجارة الرقيق عندما وقع اتفاقية مع بريطانيا عام ١٨٢٢ ،

يقضي بتحريم تجارة الرقيق من كل نوع ومنحت سلطة التفتيش والاعتقال للسفن البريطانية لأى سفينة تمارس الرقيق وخاصة اذا عرفنا بان المصادر الرئيسية لتجارة الرقيق كانت فى شرق افريقيا ، والتى كانت تقع من ضمن ممتلكات السلطان سعيد ، وبمقتضى تلك المعاهدة تعهد السلطان سعيد بتحريم تجارة الرقيق خارج ممتلكاته الأفريقية ـ الآسيوية ، وهذه المعاهدة نصت على تحريم تجارة الرقيق للدول المسيحية ، وتعيين وكيل للحكومة البريطانية فى ممتلكات السلطنة العربية ـ الأفريقية لمراقبة هذه التجارة واعتقال اى سفن تمارس هذه التجارة ، وبعد مرور اربعة اشهر فقط تم ضبط احدى السفن تحمل بعض الرقيق للدول المسيحية ، ويصور لنا هذا المنع لتجارة الرقيق بعد نظر السلطان سعيد والروح النبيلة للتضحية بالذات [٥٧] أو كما قال «السير ريتشارد بيرشون» فيما بعد :ـــ

لقد كلفته صداقته لنا ثمنا باهظا ، لقد كان هذا التنازل عن ممارسة تجارة الرقيق لم يقض على ربح دخله السنوى وقدره ٨٠ الف جنيه وكان قد فقد رعاياه من الأفريقيين ايضا ربحاً كبيراً كانوا يحصلون عليه من ممارستهم لتلك التجارة ، ولم يحصل السلطان سعيد على أى تعويض من الحكومة البريطانية مقابل منعه ممارسة تجارة الرقيق ، علما بأن بريطانيا سبق لها ان قدمت لاسبانيا تعويضا قدره ٤٠ الف جنيه عام ١٨١٧ عن قيام بعض البريطانيين لتلك الأعمال[٥٨] ٠

الثقافة والمؤتمرات العربية ـ الأفريقية :

لقد بدأ انتشار واستقرار الثقافة العربية الاسلامية فى شرق افريقيا مع الهجرات العربية والتى جابهت الثقافات المحلية ، الموروثة للسكان الاصليين فبرزت مشكلة الملاءمة والالتقاء فيما بين هاتين الثقافتين ونتج عنها ثقافة عربية ـ افريقية مشتركة على الساحل الشرقي من افريقيا فقد ذكر الدكتور يوسف فضل حسن بأن ما يعكس عراقة الصلة بين المنطقتين الجزيرة العربية وافريقيا شدة التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين الشعوب الناطقة باللغات الحامية القاطنة فى السواحل الشمالية والشرقية لأفريقيا والشعوب الناطقة باللغات السامية فى السواحل فى الجزيرة العربية ، فقبل ظهور الاسلام استقرت بعض المجموعات الأفريقية التى هاجرت الى الجزيرة العربية وانصهرت فى بوتقة القبائل العربية عن طريق الولاء والانتماء الكامل ، وبعد ظهور الاسلام حمل العرب رسالتهم الجديدة باتجاه الغرب الى افريقيا متجهين بنفس الطرق التى سلكها اجدادهم من قبل بهدف التجارة او الهجرة وكانوا فى ذلك حملة لأهم مظهرين من مظاهر الثقافة ـ الاسلام واللغة العربية [٥٩] ٠ واستمرت هذه الهجرات خاصة من عرب حضرموت وعمان بمن سبقهم الى شرق افريقيا مما كان له أثر واضح لمؤاتمرات الثقافة والحضارة العربية التى لم تتوقف على أرض شرق افريقيا وانما امتدت الى داخل ووسط القارة وحوض الكونغو وتزايد عدد السكان العرب بشكل مطرد فى خلال عهد الدولة العربية الأفريقية ٠

العلاقة بين اللغة العربية والسواحلية :

وكان لانتشار الاسلام أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين الأقوام التى دخلها الاسلام برغم ان انتشاره كان بطيئا فى شرق افريقيا ويعلل «السير توماس ارنولد» على ذلك بقوله بأن العرب لم يعملوا على صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية وان الاسلام لم يقم فى شرق افريقيا نتيجة لفتح او توسع عسكري وانما الذين قاموا به فى الغالب جماعات من التجار العرب كانت تعينهم التجارة اكثر ما يعنيهم نشر الاسلام ومع ذلك يمكن القول بأن عامل الدين لم يكن العامل الوحيد الذي ساهم فى انتشار اللغة العربية والدليل على ذلك ، ان الدين الاسلامي دخل واستقر بين شعوب افريقيا ولم تكن تعرف اللغة العربية كل تلك الشعوب ، وانما هناك عوامل أخرى مثل التقارب الكبير فى المظاهر اللفظية والنحوية بين بعض اللهجات واللغات المحلية الأفريقية كما نجد حوالى ٢٠٪ من مصطلحات اللغة السواحلية التى تتكلمها دول فى شرق افريقيا حاليا مثل «تنزانيا» و «كينيا» و «اوغندا» و «زائير» و «بورندى» ماخوذة من اللغة الغربية[٦٢] ٠

ويقول دكتور يوسف فضل حسن عن اللغة السواحلية وعلاقتها باللغة العربية «ولعل من أهم نتائج التواصل العربى ـ الأفريقي لبضعة قرون نشأة الثقافة السواحلية واللغة السواحلية وقد ظهرت هذه الثقافة فى نحو القرن الثامن الميلادى ، وتمركزت فى منطقة شرق افريقيا وبعض جزر المحيط المجاورة واتسعت دائرة اللغة السواحلية «هجين عربي ـ افريقي» فى العهد الاستعماري فشملت اجزاء من وسط افريقيا وفى عام ١٩٦٠ اعتمدت جمهورية تنزانيا المتحدة لغة قومية[٦٣] وتنتشر اللغة السواحلية على طول الساحل الشرقي من القارة ، وهى خير مثال على تأثر العلاقات العربية ـ الأفريقية فى الثقافة وخاصة اللغة ودليل على عمق هذه العلاقات وأثرها فى المجتمع الأفريقي الشرقي ، وخاصة ان هذه العلاقات السواحلية نتاج لاختلاط المهاجرين العرب بدماء «البانتو» ولغاتهم ٠ فقد تزوج العرب من نساء «البانتو» الزنوج وسمى النتاج بالامة السواحلية

التى تكلمت اللغة السواحيلية كما انتشرت هذه اللغة بين السكان الاصليين مثل «الديجو» و «الباود» و «الجلاء» واصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية وتمتاز اللغة السواحيلية بخفتها ورقتها وهى لطيفة تطرب السامع ، وقد جاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية ، بينما اخذت بعض التعبيرات من الفارسية والهندية وتعتبر هذه اللغة حاليا كما ذكرنا اللغة الرسمية القومية على طول ساحل شرق افريقيا ، وكانت تكتب بالابجدية العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن الاستعمار الأوربي قام بتغيير حروفها الابجدية العربية الى اللاتينية حتى تبعد عن اصولها العربية ، بينما توجد الكثير من المعاملات التجارية والصكوك الشرعية لدى أهالي شرق افريقيا مكتوبة بالابجدية العربية[٦٤] وقد كانت هذه اللغة غنية بالادب والشعر لتأثرها بالعربية ٠

ولايزال يوجد الكثير من التشابه فى شرق افريقيا مع الحضارة العربية الاسلامية ، وخاصة فى المناصب والمصطلحات الادارية ونظم ملكية الأرض كما وجد قانون عرف ، وقد عمل المستعمرون البريطانيون فى شرق افريقيا فيما بعد على تفتيت تلك الدولة الاسلامية العربية وبدأوا يخضعون كل منطقة من شرق افريقيا لسيطرتهم ، وبدأوا يشجعونهم للنظم والتقاليد المحلية وابقائهم لنفوذ زعماء القبائل لغرض تمزيق وحدتهم ، ولكن الذي حدث شد ازرهم ودفعهم للتمسك ببقائهم وثقافتهم العربية ـ الأفريقية الموروثة المشتركة بكل ما يملكون من امكانيات [٦٥] ٠ وقد اراد الاستعمار تحطيم العلاقات العربية ـ الأفريقية ليربط الافارقة بالثقافة الأوربية ٠

وكما اثرت الثقافة العربية على شعوب شرق افريقيا ، نجد ان هنالك تأثيراً افريقيا على الثقافة العربية وحضارتها ، ونجد الكثير من المصطلحات والكلمات مأخوذة من شرق افريقيا فى اللهجات المحلية والثقافة العربية المحلية فى كل من ساحل حضرموت وعمان والامارات العربية ، وأحياناً الى مختلف دول الخليج العربي ، وكذلك فى الفن فنجد كثيراً من الأغاني والالحان والرقصات الشعبية فى منطقة الخليج العربي مأخوذة من شرق افريقيا على سبيل المثال رقصة «ليو» و «الحبان» «الطنبورة» ومن ذلك يتضح لنا ما مدى التأثير المتبادل بين الحضارة العربية فى الخليج وجنوب الجزيرة العربية وشرق افريقيا ، توضحت لنا أسباب تقبل الشعوب الأفريقية للثقافة العربية ، وان تلك الاسباب كانت قد مهدت للغة والثقافة العربية الاسلامية لان تسود فى ارجاء شامخة من شرق افريقيا ، ومع ذلك فان اللغات واللهجات والثقافات الوطنية للسكان الاصليين بقيت بجانب لغة القرآن ، وهذا خير دليل لروح التسامح الحضاري العربى ـ الاسلامي فى التعايش مع اخوانهم الافارقة ومعاملتهم بالحسنى ، مما جعل الشعوب ـ الافريقية تنظر للدين الاسلامي وحضارته كمنقذ لها من الجهل وفى القرآن الكريم كمنظم لمختلف أوجه حياتها المادية والمعنوية [٦٦] ٠

التنظيمات السياسية والادارية فى الدولة العربية ـ الأفريقية

اولاً : حدود السلطنة :

لقد كانت حدود السلطنة العربية ـ الأفريقية متسعة إذ شملت معظم ساحل افريقيا الشرقية ، وبلغت حدود هذه السلطنة شمالا حتى حدود الحبشة الجنوبية ، وجنوبا حتى موزمبيق البرتغالية ، ولم يجد السلطان سعيد قوة اجنبية تقاسمه السلطان وتنازعه الملك ٠ وقد ازدهرت ونمت المدن الساحلية فى افريقيا الشرقية فى عهده فأزدحمت واكتظت ونمت ووفدت عليها البضائع الأجنبية وازدهرت فيها التجارة وخاصة مدينتى «مقديشو» و «كلوة» وكان السلطان يهتم بعناية وتطوير مدينة «مقديشو» فلم يبخل عليها بالمال لانشاء المرافق العامة واصلاح الطرق وبناء الأسوار كما ، مد السلطان ببصره الى جزيرة «مدغشقر» وعمل على ضمها الى مملكته ، فتزوج من ملكتها عام ١٨٣٣ ، التى فتحت الطريق لتجارته ودفعت له ثلاثين الف ريال فى كل عام ٠ وأخذ ابناء شرق افريقيا يستقرون فى هذه الجزيرة ٠ وفى الوقت الذي اخذ فيه نفوذه يمتد الى الجنوب أخذ نفوذه يضعف تدريجيا وبخاصة فى الجزء الشمالي من بلاده وقد يرجع ذلك الى التنافس بين القبائل العربية البدوية فى المنطقة الواقعة جنوبي «جوب» ولم يكن لدى هؤلاء القبائل العربية البدوية ابغض من الخضوع لنظام مهما بلغ شأنه او قوته ، وكانت القبائل الصومالية وقبائل «البانتو» من هذا النوع من البدو الاشداء المحاربين ولم تنجح محاولة السلطان سعيد فى كسبهم لسيادته [٦٧] ٠ أما حدوده العربية فى قارة آسيا فقد بلغت دولة عمان وظفار وبندر عباس والجزر الواقعة فى مضيق هرمز فى مدخل الخليج العربي اضافة الى حدوده فى منطقة «مكران» «الايرانية بلوشستان» الباكستانية وخاصة منطقة الجوادر و «شهبار» ٠

الحكومة :

لقد كانت حكومة السلطان سعيد فى غاية البساطة ، فليس ثمة مصالح ولا وزراء ولا جمع من كبار الموظفين ، حتى الضرائب لم يكن يعهد بجبايتها الى موظفى الدولة ،

وانما يعهد بها الى زعماء العشائر لجمع تلك الضرائب ، كما جعل جمع الرسوم الجمركية بأيدي جماعة من التجار «البانيان» من الهنود الاغنياء عن طريق الالتزام بمعنى انهم يدفعون له مبلغا من المال ، مقابل تحصيل هذه الرسوم ، وكان نتيجتها ان استطاع هؤلاء «البانيان» ان يجمعوا ثروات ضخمة فى ظل النظام والحكم حتى أن أحدهم توفى ولديه ثروة تقدر بثلاثة ملايين ريال أو مايقارب من ٦٥٠٫٠٠٠ جنيه استرليني[٦٨] ٠

وكان السلطان سعيد يمضي معظم اوقاته فى اقامة نظام سياسي واقتصادي جديد فى شرق افريقيا ، وكان قد تمكن بالقوة والسياسة من اخضاع كل ساحل شرق افريقيا لحكمه من «دوار شيخ» الى «رأس الجادو» وكان السلطان سعيد حريصا فى ادارة ممتلكاته الشاسعة فى شرق افريقيا بأن يعين فى كل مقاطعة حاكماً محليا من أهل البلاد ، يدين له بالتبعية والولاء ، وان نراه احيانا قد يفقد الثقة بالحكام المحليين مما يدفعه بالاستعاضة عنهم باعوانه من مسقط ، كما كان يمدهم بحاميات من جيشه تكون بمثابة نواة ومن ثم يحاول الحكام المحليون تنمية قواتهم بانفسهم بشكل يحفظ للحاكم هيبته ومركزه وللسلطنة نفوذها[٦٩] ٠

ولكن سعيد ترك لكل مدينة حرية تصريف شؤنها فى توافق مع المدن الأخرى ، ولم يتدخل فى شؤنها الداخلية إلا فى حالة قيام ثورة او اضطرابات أو حرب بين القبائل ، وهكذا كان نظام حكم السلطان سعيد يهدف الى حماية هذه المدن من هجوم اية دولة اجنبية ويحرم فى نفس الوقت على الأهالى الدخول فى صلات مع هذه الدول حتى لاتشكل خطراً على وحدة الساحل الشرقى الأفريقى ٠

ثالثا النظام القضائي :

لقد كان القضاء فى عهد سعيد على درجة كبيرة من البساطة وظل القرآن الكريم هو أصل التشريعات ومصدر الاحكام ٠ وكان السلطان سعيد يحكم فى القضايا المهمة بنفسه ، أما القضايا الأقل أهمية فكان يتركها لابنه الأكبر خالد أو لحاكم مدينة زنجبار ، أما القضايا العادية فقد تركت للقضاة الذين كان يعينهم للحكم فيما يحدث من منازعات تجارية او غيرها بين رعاياه[٧١] ٠

وهذا يعنى بأنه لم يكن هناك محاكم بالمعنى المفهوم وقد شهد الاجانب والرحالة الذين زاروا شرق افريقيا للسلطان سعيد بالعدالة والمساواة بين رعاياه ولم يعتمد فى تنفيذ سياسته الا على ثلاثمائة من افراد جنده المسلحين بالرماح والتى كان قد جاء بهم من جزيرة «سقطرة» من «المهربين» وكانت هناك فرقة قد جاء بها من السكان الافارقة تقوم بحراسة الطرقات وتقبض على المجرمين[٧٢] ٠

رابعاً : البحرية

كان السلطان سعيد يهتم بأسطوله البحرى فقد شاهد «اللفتنات هارث» من الأسطول الملكى البريطاني بعض قطع البحرية لاسطول السلطان سعيد فى ميناء زنجبار فى شهر فبراير ١٨٢٤ ، وكانت راسية هناك سفينة حربية مسلحة بـ ٧٤ مدفعاً تسمى «ليفربول» وفرقاطة مسلحة بـ ٥٠ مدفعاً وأخرى بـ ٣٦ مدفعاً وطراد بـ ٢٠ مدفعاً وسفينة طراز «برك» مسلحة بـ ١٠ مدافع بالاضافة الى سفينة أخرى وفى شهر سبتمبر من نفس العام قام زائر امريكى بعدِّ السفن الراسية فى ميناء مسقط فوجد بالاضافة الى السفينة «ليفربول» خمس سفن أخرى بواقع ٣٠ مدفعاً فى كل منها الى جانب ست سفن أخرى من مختلف الحمولات كانت إحداها تحمل ٢٢ مدفعاً واثنتين اخريين تحملان ١٨ مدفعاً فى كل منهما ، واثنتين تحملان ١٢ مدفعاً فى كل منهما ٠

وقد بلغت السفن الحربية لدى اسطول السلطان سعيد حوالى خمساً وسبعين سفينة ، وقد ذكر أحد ضباط البحرية البريطانية عندما شاهد ذلك الأسطول الكبير بقوله[٧٤] : «أنه لو كان قد خطر للسلطان سعيد ان يسعى من أجل التفوق البحرى فى المحيط الهندي لوجد البريطانيون أمامهم خصماً عنيداً جداً للتعامل معه » ٠

وعندما جاء ادموند روبرت[٧٥] الى واشنطن كتب ما يلى عن السلطان سعيد يقول : «انه يمتلك قوة بحرية أكثر كفاءة من كل القوى البحرية للامراء الوطنيين مجتمعين ، من رأس الرجاء الصالح حتى اليابان ٠ وموارده أكثر ما يكفى احتياجاته ، وهى مستمدة من التجارة ، حيث يملك هو نفسه عدداً كبيراً من السفن التجارية ومن الرسوم الجمركية على البضائع الأجنبية ، ومن أموال الجزية والهدايا التى يتلقاها من امراء مختلفين مما كان يدر عليه مبلغا ضخما كل عام ٠

خامساً : شخصية السلطان سعيد :

كان السلطان سعيد يعتبر من أقوى حكام المحيط الهندى بلا منازع فقد كان انفذهم كلمة وأشدهم بأسا وأكثرهم احتراماً ، كما اشتهر السلطان سعيد بالبساطة والتواضع وكان يرتدي الرداء العربي البسيط ويضع على رأسه العمامة الملونة ولايتحلى بالذهب والجواهر كعادة الحكام والملوك ٠ وكان منزله متواضعاً ذا طابقين ولم يتجاوز حرسه اثنى عشر فارسا من أهل «بومباي» فى حين

كان السائحون الاجانب يستغربون عندما كانوا يشاهدون السلطان ، وما كانوا يسمعون عن صيته العظيم وما لمسوه من بساطته وكرمه واهتمامه بالوطنيين والاجانب جميعاً[٧٦] ·

وكانت بنية السلطان قوية ويصف الكاتب «جوبليان» الفرنسي السلطان سعيد بقوله[٧٧] : « وقامته المديدة وطلعته المهيبة تضفي عليه وقارا يفوق ما كان يتحلى به من الصفات · وقد لاحظ الزائرون الاجانب انه كان من ابهى حكام الشرق واوفرهم هيبة ، ويكاد وصفهم له يرقى الى حد الشعر ومحبة اهل زنجبار له تبلغ حد العبادة » ·

يقول د · صلاح العقاد بأن المؤلفات عن السلطان سعيد وأعماله كثرت باللغات الأجنبية خاصة الفرنسية والأنجليزية ، وساهم فى ذلك الرحالة المعاصرون له وبعض المؤرخين المحدثين ، وقد انصب اهتمام هؤلاء على منجزات الحاكم العربي فى شرق افريقيا ، لأن الأوربيين استفادوا من تمهيد العرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية ، فى حين لم يحظ السلطان سعيد باهتمام كاف من المؤرخين العرب ·

لقد كان السلطان سعيد يتصف باللين وحب الخير واللباقة ، وكان افراد شعبه يعتبرونه والداً أكثر منه حاكماً ، كما تشهد دائما زياراته لخدمه وتهنئتهم عندما يتزوجون ، وكان يهتم بتطبيق المساواة والعدالة وكان صديقاً لكل انسان ويرغب فى فعل الخير وان النجاح الذي اصابه يكمن فى حب سعيد لشعبه وحب الشعب له[٧٩] ·

الدولة العربية ـ الأفريقية والعـلاقات الدولية :

لم يقتصر السلطان سعيد فى اقامة علاقات بين دولته وبريطانيا وانما فى توسعة النشاط الاقتصادي ادى الى الدخول فى علاقات دولية مع كل من الولايات المتحدة وفرنسا وهولندا[٨٠] كما شجع الاجانب على الاقامة فى بلاده ومنحهم الكثير من التسهيلات التجارية ، وتأسست القنصليات الأجنبية لعدة دول فى زنجبار · ورغم ان شرق افريقيا أفادت من التدخل الأوربي الاقتصادى ، ولكن نتائجها كانت وخيمة لأنها مهدت الى التدخل السياسي والعسكري الأوربي ، وليس أدلّ على ذلك من ان الدول الأوربية التى مارست النشاط الاقتصادى فى شرق افريقيا هى التى مهدت لنفسها السبيل لاستعمار شرق افريقيا واقتسام ممتلكات السلطنة العربية ـ الأفريقية فيما بينها ففى حركة تقسيم افريقيا نجد تلك الدول التى قامت بالنشاط الاقتصادى هى نفسها التى اقتسمت المنطقة فيما بينها[٨١] · وتعتبر معاهدة ١٨٣٣ مع الولايات المتحدة من أهم المعاهدات التى وقعها السلطان سعيد والتى نصت على ابقاء الصلات الودية بين البلدين والتأكيد على حرية التجارة بالنسبة لرعايا الطرفين[٨٢] · وهذا ما جعل بريطانيا تعيد صلاتها مع السلطان سعيد خوفاً من انصرافه الى غيرها من الدول ولعل ما دفعها الى عقد معاهدة عام ١٨٣٩ للتهيئة الى حد كبير بالمعاهدة الأمريكية · كما ابرمت معاهدة مع فرنسا عام ١٨٤٤[٨٣] ·

إنَّ تلك العلاقات الدولية مع شرق افريقيا لم تقتصر على الشؤن الاقتصادية فقط ، وانما تعدتها الى مجال آخر منها الحركات الاستكشافية والحركات التبشيرية ، وكثيرا من هؤلاء المكتشفين والمبشرين اشادوا بمساعدة السلطان سعيد لهم ، واعتمدوا على نفوذه فى التوغل داخل الاقاليم الأفريقية ، وقد تحدث المبشر المسيحي «كرايف» فى كتابه عن النشاطات التبشيرية في شرق القارة الأفريقية عن التسهيلات الكثيرة التى قدمها السطان سعيد له لنشر المسيحية ، وانه كان يزوده بحاميات عسكرية للحراسة وبعث معه رسائل الى زعماء القبائل والرؤساء التابعين له فى داخل افريقيا وان كثيرا من المؤسسات التبشيرية الأنجليزية والفرنسية قد اضطلعت بشؤن تبشيرية فى شرق افريقيا وتأسست الكثير من المدارس والمراكز التبشيرية فى الساحل او الداخل[٨٤] ·

فقد كانت جمعية التبشير الكنسية قد بعثت بالدكتور «كريف» فى عام ١٨٤٤ الى زنجبار عن طريق القنصل البريطاني الذي قدمه للسلطان سعيد وشرح المبشر «كريف» للسلطان انه يرغب فى الاستيطان فى ممباسة من أجل تحويل السكان الى المسيحية ، فسمح له السلطان سعيد بالقيام بذلك وسلمه توصية للحاكم العربي للساحل ، ومن ممباسة بدأ عمله فى التبشير بين قبائل «نبيكا»[٨٥] بعدما كان قد فشل ولم ينجح فى المناطق الشرقية من الحبشة ، علما بأن هذه الجمعية من أقدم الجمعيات التبشيرية التى وفدت الى شرق افريقيا·

اضافة الى المبشرين المسيحيين فان المستكشفين الأوربيين ايضا وجدوا كل عون ومساعدة من السلطان سعيد ، والذين قاموا بكشوفهم الجغرافية مسترشدين بما اوجده التجار العرب من المراكز التجارية فى داخل شرق افريقيا ، وقد اشار المستكشف البريطاني «بيرتون» إلى أهم هذه المراكز الحضارية ودور السلطنة العربية ـ الأفريقية فى تقدم حركة الكشوف الجغرافية فى شرق افريقيا[٨٦] ·

بعد دراستنا لنشاطات القوى الأوربية من اقتصادية واستكشافية وتبشيرية وما قدمه السلطان سعيد لتلك

الحركات والجمعيات التبشيرية مما سهل عملها فى تنصير الافارقة ، وعرض كافة المساعدات والتسهيلات للبعثات المسيحية ، ومع ذلك فانه تبين لنا مقدار الخطر الكبير الذي كان يتربص ليس فقط بممتلكات السلطنة العربية - الأفريقية وانما على العلاقات العربية - الأفريقية التى تأثرت الى درجة كبيرة بعد مجيء الاستعمار الأوربي الى شرق افريقيا والذي قام بجهود كبيرة لقطع هذه العلاقات وربط شرق افريقيا اقتصاديا وثقافيا بالدول الاستعمارية الأوربية ٠

نهاية الدولة العربية - الأفريقية

كان السلطان سعيد أول من فكر فى اقامة الدولة العربية - الأفريقية ولكن آماله واحلامه لم تلق النجاح الذي كان يتوقعه ، بل ان جهوده فى تأسيس الدولة كانت مسئولة الى حد كبير من اهماله لممتلكاته فى الخليج والجزيرة العربية ، وكانت المحصلة النهائية تفكك ممتلكاته في عمان وشرق افريقيا بعد وفاته عام ١٨٥٦ ، كما كثرت الثورات الاباضية فى عمان وزادت الغزوات الوهابية ، وقد كان من الصعب على السلطان سعيد الاحتفاظ بالدولة العربية - الأفريقية بشقيها الأفريقى والأسيوي في غمار القرن التاسع عشر الذي شهد تفوق القوة الأوربية العسكرية والصناعية وشهد الرتل الطويل من المستكشفين والتجار الأوربيين الذين انتهوا الى حقيقة ان شرق افريقيا صالح للاستغلال وانها قارة جديرة بالامتلاك والسيطرة ، وبذلك شاءت الظروف ان تصطدم برغبة السلطان فى تأسيس الدولة العربية - الأفريقية مع رغبة الدول الاستعمارية الأوربية فى السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها[٨٧] ٠

قد يكون السلطان سعيد ارتكب خطأ عندما ربط مصيره بمصير الوجود البريطاني منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر ، وراح يستجيب لمطالب بريطانيا وابرم معها ومع غيرها من الدول الأوربية الاتفاقيات الاقتصادية التى فتحت أبواب افريقية الشرقية على مصارعها للأوربيين ، مما أدى فى النهاية الى الاحتلال الأوربي وكان البريطانيون وغيرهم من الأوربيين قد استغلوا هذه الفرصة فأخذوا يتسللون الى داخل القارة تحت ستار التجارة وحركات الكشوف الجغرافية والحركات التبشيرية كما عملوا بعد وفاة السلطان سعيد على تفكيك اوصال الدولة العربية - الأفريقية بفصل شرق افريقيا عن سلطنة عمان حتى يسهل عليهم التدخل فى شؤن كل منهما والاستحواذ عليهما[٨٨] ٠

يقول «بيرس» فى تعليقه على آمال السلطان سعيد بالدولة العربية - الأفريقية انه ولد متأخراً خمسمائة عام ، وفى وقت غير ملائم لتحقيق تلك الرغبات والآمال التى كان يحرص عليها السلطان سعيد ٠ ومهما يقال عن فشل السلطان سعيد فى المحافظة على ممتلكاته فى عمان أو فشله فى الابقاء على دولته فى شرق افريقيا ، إلا ان الأمر الذي لاشك فيه ان تواجده واهتمامه بشرق افريقيا قد أثر على تلك المنطقة حتى تطورت وازدهرت واصبحت شهرة السلطان سعيد فى العالم الخارجي متعلقة بحكمه لشرق افريقيا اكثر مما ترجع الى حكمه لعمان العربية[٨٩] هذا دليل واضح على الدور الذي لعبه السلطان سعيد في تطوير العلاقات العربية - الأفريقية الى درجة بأن اقاليمه العربية تأثرت على حساب الاقاليم الأفريقية التى ازدهرت ، ولكن في النهاية قدمت الكثير وساهمت فى تقوية روابط العلاقات العربية - الأفريقية ٠

الهوامش :

(١) على شعراوي ـ العرب والأفريقيون وجهاً لوجه صف ٢٠١ ·

(٢) د · صلاح العقاد ـ التيارات السياسية فى الخليج العربي ص ١١٦ ·

(٣) عصام محمد الجبوري ـ العلاقات العربية الأفريقية ص ٢٠ ·

(٤) عصام محمد الجبوري ـ نفس المرجع ص ٢٣ ·

(٥) عصام محمد الجبوري ـ نفس المرجع ص ٢١ ·

(٦) رودولف سعيد روث ـ سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ص ٦٠ ·

(٧) رودولف سعيد روث نفس المصدر ص ٩٠ ·

(٨) محمد محمود الصواف ـ إفريقيا المسلمة ص ٧٣٥ ·

(٩) محمد محمود الصواف ـ نفس المرجع ص ٧٣٥ ·

(١٠) د · حسن أحمد محمود ـ الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ص ٤٣٤ ·

(١١) رودولف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ٥١ ·

(١٢) د · حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص ٤٣٥ ·

(١٣) رودولف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ٩٣ ·

(١٤) د · حسن ابراهيم حسن ـ انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية ص ١٩٤ ـ ٢٠١ ·

(١٥) فالح حنظل ـ الفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة ص ٤٦٤ ·

(١٦) د · جمال زكريا قاسم ـ الخليج العربي ١٥٠٧ ـ ٨٤٠ ص ٢٠٩ ·

(١٧) ح ح لديمر ـ دليل الخليج ص٢ ـ ص٧٠٣ ·

(١٨) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص٢١١ ·

(١٩) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ·

(٢٠) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢١٩ ·

(٢١) رودولف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ١٠٣ ·

(٢٢) حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ·

(٢٣) رودلف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ١١٥ ·

(٢٤) رودلف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ١١٧ ·

(٢٥) عصام محمد الجبوري ـ المرجع السابق ص ٦١ ·

(٢٦) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص١٠٩ ·

(٧٦) عصام محمد الجبوري ـ المرجع السابق ص ٦٣ ·

(٢٨) د · جلال يحيى ـ تاريخ افريقيه الحديث والمعاصر ص ١٠٧ ·

(٢٩) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٣٢٠ ·

(٣٠) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ·

(٣١) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٣٢٠ ·

(٣٢) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٤ ·

(٣٣) عصام محمد الجبوري ـ المرجع السابق ص ٦٦ ·

(٣٤) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٢١ ·

(٣٥) جون ـ بي ـ كيلى ـ بريطانيا والخليج ص ٣٨٤ ·

(٣٦) Ministry Of Information P.16

(٢٧) وندل فليس ـ تاريخ عمان ص ١٢٦ ·

(٣٨) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٣ ·

(٣٩) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص٢٢١ ·

(٤٠) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٣٠٢ ·

(٤١) د · جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٢٢ ·

(٤٢) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ٢٠٤ ·

(٤٣) عامر محمد الجبرى ـ تاريخ شرق الجزيرة العربية ص ٧٩٢ ·

(٤٤) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٤ ·

(٤٥) وندل فيلبس ـ المرجع السابق ص ١٤٠ ·

(٤٦) عائشة السيار ـ دولة اليعاربة وشرق افريقيا ص ٩٢ ·

(٤٧) محمد فايق ـ عبدالناصر والثورة الافريقية ص ١١٠ ·

(٤٨) د · عبدالقادر زبانية ـ مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص ٧٥٢ ·

(٤٩) وندل فيلبس ـ المرجع السابق ص١٢٨ ·

(٥٠) رودولف سعيد روث ـ المرجع السابق ص ١٨٧ ·

(٥١) د · حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ١٠٨ ·

(٥٢) د · حسن ابراهيم حسن ـ نفس المرجع ص ٢٠٨ ·

(٥٣) السيدة سالمة بنت سعيد سلطان ـ مذكرات أميرة عربية ص ١٣٥ .

(٥٤) د . حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٥٥) السيدة سالمة بنت سعيد سلطان ـ المرجع السابق ص ٢١٦ .

(٥٦) د . حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٥٧) وندل فيلبس ـ المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٥٨) وندل فيلبس ـ نفس المرجع ص ٣٣٧ .

(٥٩) هدى سليم عبدالباقي ـ الروابط بين العرب والافارقة السود والأمريكيين السود ص ٢٤ .

(٦٠) د . رأفت غنيمى الشيخ ـ افريقيا في التاريخ المعاصر ص ٣٣٧ .

(٦١) عائشة السيار ـ المرجع السابق ص ٩٢ .

(٦٢) عصام محسن الجبوري ـ المرجع السابق ص ٥١ .

(٦٣) هدى سليم عبدالباقي ـ المرجع السابق ص ٥٢ .

(٦٤) د . أحمد ابراهيم دياب ـ لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث ص ٧٣ .

(٦٥) عصام محسن الجبوري ـ المرجع السابق ص ٥١ .

(٦٦) عصام محسن الجبوري ـ نفس المرجع ص ٥١ .

(٦٧) د . حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٦٨) د . حسن ابراهيم حسن ـ نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٦٩) د . جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٧٠) د . جلال يحيى ـ المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٧١) د . جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٧٢)د . حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٧٣) جون ـ بي ـ كيلي ـ المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٧٤) وندل فيلبس ـ المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٧٥) وندل فيلبس ـ نفس المرجع ص ١٣٧ .

(٧٦) د . حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٣٠٦ .

(٧٧) د . حسن ابراهيم حسن ـ نفس المرجع ص ٣٠٦ .

(٧٨) د . صلاح العقاد ـ المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٧٩) وندل فيلبس ـ المرجع السابق ص ١٤٢ .

(٨٠) Ministry Of Op. cit 16 Information

(٨١) د . جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٣ .

(٨٢) هيرمان ايلتس ـ عمان والولايات المتحدة الأمريكية ص ١٤ .

(٨٣) د . جمال زكريا بشارة ـ المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٨٤) د . جمال زكريا قاسم ـ نفس المرجع ٣٣٤ .

(٨٥) أحمد حمود العمري ـ عمان وشرق افريقيا ص ٩٦ .

(٨٦) د . جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(٨٧) د . جمال زكريا قاسم ـ نفس المرجع ص ٢٣٤ .

(٨٨) د . محمد عبدالله النقيرة ـ انتشار الاسلام فى شرق افريقيه ومناهضة الغرب له ص ٣١٨ .

(٨٩) د . جمال زكريا قاسم ـ المرجع السابق ص ٢٣٥ .

المراجع

١ ـ أحمد ابراهيم دياب ـ (دكتور) لمحات من التاريخ الأفريقي الحديث ـ دار المريخ الرياض ١٩٨١ ·

٢ ـ أحمد حمود المعمري ـ عمان وشرق افريقيا ـ وزارة التراث القومي والثقافة مسقط ١٩٧٩ ·

٣ ـ جون ـ بي ـ كيلي بريطانيا والخليج ـ ترجمة محمد أمين عبدالله ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط ١٩٧٩ ·

٤ ـ جمال زكريا قاسم ـ (دكتور) الخليج العربي ١٥٠٧ ـ ١٨٤٠ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٥ ·

٥ ـ ج · ج لوريمر ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ ج٢ مكتب أمير قطر الدوحة ـ السنة غيرة مكتوبة ·

٦ ـ جلال يحيى (دكتور) تاريخ افريقية الحديث والمعاصر ـ المكتب الجامعي الحديث ـ الأسكندرية ١٩٨٤ ·

٧ ـ حسن أحمد محمود (دكتور) الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٦ ·

٨ ـ حسن ابراهيم حسن (دكتور) انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٤ ·

٩ ـ حلمي شعراوي ـ العرب والأفريقيون وجها لوجه ـ دار الثقافة الجديدة القاهرة ـ ١٩٨٤ ·

١٠ ـ رودولف سعيد روث ـ سلطان عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ـ جامعة البصرة ـ البصرة ١٩٨٣ ·

١١ ـ رأفت غنيمي الشيخ (دكتور) افريقيا فى التاريخ المعاصر ـ دار الثقافة للطباعة والشنر ـ القاهرة ١٩٨٢ ·

١٢ ـ سالمة بنت سعيد بن سلطان ـ مذكرات أميرة عربية ـ ترجمة عبدالمجيد القيس ـ أبوظبي ·

١٣ ـ صلاح العقاد (دكتور) التيارات السياسية فى الخليج العربي ـ مكتبة الانجلو ـ المصرية ـ القاهرة ١٩٧٤ ·

١٤ ـ عصام محسن الجبوري ـ العلاقات العربية الأفريقية ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨١ ·

١٥ ـ عائشة السيار ـ دولة اليعاربة عمان وشرق افريقيا ـ دار القدس بيروت ١٩٧٥ ·

١٦ ـ فالح حنظل ـ المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة ج٢ لجنة التراث والتاريخ ـ أبوظبي ١٩٨٣ ·

١٥ ـ لجنة تاريخ قطر ـ البحوث المقدمة الى المؤتمرات دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الدوحة ١٩٧٦ ·

١٨ ـ محمد محمود الصواف افريقيا المسلمة ـ الدار السعودية للنشر ـ جدة ١٩٧٤ ·

١٩ ـ محمد فايق ـ عبدالناصر والثورة الأفريقية ـ دار الوحدة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٤ ·

٢٠ ـ محمد عبدالله النقيرة (دكتور) انتشار الاسلام في شرق افريقيه ومناهضة الغرب له ـ دار المريخ ـ الرياض ١٩٨٢ ·

٢١ ـ هدى سليم عبدالباقي ـ الروابط بين العرب والافارقة السود ـ دار المروج بيروت ١٩٨٦ ·

٢٢ ـ هيرمان ايلتس ـ عمان والولايات المتحدة الأمريكية ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط ١٩٨٥ ·

٢٣ ـ وندل فيلبس ـ تاريخ عمان وترجمة محمد أمين عبدالله ـ وزارة التراث القومي والثقافة ـ مسقط ١٩٨١ ·

«ونحن نكتب التاريخ يفرض علينا أن ننصف الشهداء ، ليس من أجل استشهادهم فحسب ، وإنما من أجل الاحياء الذين نطلب منهم الاستبسال فى الدفاع عن القيم التى تستوجب الاستشهاد» .

الاسواق التجارية الموسمية فى قشتالة
خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر

الدكتور : فلاح حسن عبدالحسين
كلية التربية/جامعة البصرة

لازال التاريخ الاقتصادى لقشتالة فى عصورها الوسطى المتأخرة وبالذات فى الفترة ما قبل حركة الكشف الجغرافى بحاجة الى دراسة وتحليل ، لأن أغلب الدراسات الحديثة تناولت ذلك التاريخ خلال القرن السادس عشر وخاصة اثر حركة الكشف الجغرافى عليها واحتلالها مركز الصدارة فى الشئون الاوربية[1] وأهملت الى حد كبير تاريخها الاقتصادى خلال فترة حكم الملوك الكاثوليك (١٤٧٦ ـ ١٥١٦) الذى يرى فيه بعض المؤرخين الاسبان آنذاك «العصر الذهبى» لقشتالة وليس القرن السادس عشر وذلك لحدوث تطورات سياسية واقتصادية هام خلاله كان ابرزها ظهور بوادر «الدولة القومية» بعد عصر التوحيد [2] ٠

ان ما نملكه عن عصر الملوك الكاثوليك هو تلك العموميات التقليدية التي تبرز جهود اولئك الملوك ومحاولاتهم الحثيثة من اجل تطوير اقتصاد قشتالة من خلال تشريعاتهم المتعددة في المجالات التجارية والصناعية والنقدية [3] ولكن لاتوجد حتى الآن دراسات تحليلية حول اثر تلك التشريعات على ذلك الاقتصاد آنذاك

وبالرغم من ذلك ، فلا زال الاعتقاد السائد ان الزراعة بقيت بدائية في وسائلها والصناعة غير متطورة على خلاف التجارة التي شهدت نموا «ملحوظا» في قطاعيها الداخلي والخارجي وخاصة بعد نهاية الحرب الاهلية مع البرتغال واسترداد غرناطة من السيطرة العربية وسيادة نوع من الهدوء السياسي والثقة للمدن التجارية هناك ٠

وعلى العكس من بعض اقاليم اوربا وايطاليا ، فأن ندرة الوثائق ذو الطبيعة التجارية في قشتالة سواء الخاصة بالعوائل التجارية وبأرشيفات المدن التجارية الهامة جعل اغلب الدراسات في التاريخ الاقتصادي لهذه الفترة تدور أما حول التاريخ المالي والضريبي كما أوردته وثائق الدولة المالية [4] ، أو عن ثروات بعض العوائل الاقطاعية من خلال بعض اوراقها الخاصة التي لازالت محفوظة في الارشيف الوطني الاسباني بمدريد [5] في حين لازلنا بأمس الحاجة الى دراسة شاملة عن بقية قطاعات الاقتصاد الاخرى في قشتالة في تلك الفترة وخاصة خلال النصف الثاني من ذلك القرن ، اى بعد نهاية الازمات الاقتصادية والديموغرافية التي سببها الطاعون الاسود الذى ضرب اوربا وقشتالة على السواء ٠

مثلا تناولت بعض الدراسات الاسواق التجارية لقشتالة خلال القرن السادس عشر فقط وفي اقليم مدينة دل الكامبو في شمالها ومركزة على اوجه التجارة الخارجية مع بقية اقاليم شمال اوربا في حين اهملت نمط التجارة الداخلية فيها [6] ٠ فما هي طبيعة تلك التجارة ؟ وهل حقيقة انها كانت تجارة ضعيفة وغير مزدهرة منذ عهد حكم الملوك الكاثوليك ، وان قشتالة دخلت عصرها الامبراطوري باقتصاد غير متوازن كما يرى بعض المؤرخين المحدثين [7] ان النظرة الاولى لضرائب Almojarifazgoوهي الضريبة على الواردات والصادرات للتجارة الخارجية في اشبيلية تشير الى ان التجارة الخارجية كانت مزدهرة وخاصة منذ منتصف القرن الخامس عشر حيث ارتفعت من ٣ر٦٥٣ر٨٣٥ ميرقيدى /سنويا «للفترة ١٤٥٦ ـ ١٤٦٠ الى ٤ر٩٣٨ر٦٧٦ ميرقيدى/سنويا» للفترة ١٤٦٨ ـ ١٤٧٢ والى ٤ر٩ مليون ميرقيدى عام ١٤٩٩ والى ١٢ر٢ مليون ميرقيدى سنويا «للفترة ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣ ٠ اما ضريبة (ضريبة الاستهلاك) في مقاطعة مدينة دل الكامبو مثلا» ، تزايدت ١ر٨٥ مليون ميرقيدى عام ١٤٤٤ الى ٤ر٣٧٥ مليون عام ١٤٨٢ ، والى ٧ر٥ مليون عام ١٥٠٤ ٠ [8] ٠

وبناء «على تلك الارقام يبدو ان قشتالة شهدت نوعا من النمو في تجارتها الداخلية والخارجية وقد ساند هذا الاعتقاد دراسة J.H. Edwards الاخيرة عن اقتصاديات قرطبة ومدينة Jerezخلال فترة حكم الملوك الكاثوليك حيث اسهمت كل من الطبقة النبيلة و«الطبقة الوسطى» في السيطرة على التجارة الداخلية للاصواف والزيتون والحبوب والنبيذ والاسماك وتحالفها مع التجار الجنويين الذين استقروا هناك لتسويقها خارجيا [٩] .

ولذلك فان هدف هذا البحث هو دراسة الاسواق التجارية الموسمية Fairs في قشتالة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر اعتمادا «على الوثائق التي عثرت عليها في ارشيفاتها المتعددة متوخيا» هدفين هما :

١ . توضيح الدور الذى لعبته تلك الاسواق التجارية الموسمية في اقتصاد قشتالة في تلك الفترة وهل انها تتشابه مع بقية اسواق اوربا آنذاك وخاصة من حيث التنظيم والتهيئة لها ؟

٢ . دراسة موقف الملكية الاسبانية من الطبقة النبيلة والمدن اصحاب الامتيازات في عقد مثل تلك الاسواق التجارية في تلك الفترة التي شهدت بروز «الدولة القومية» واضمحلال «القوة السياسية» للطبقة الاقطاعية .

تشير وثائق البرلمان القشتالي في القرن الخامس عشر ، ان الملكية هناك وبالرغم من تذبذب قوتها وقفت بشدة ضد اية جهة تحاول عقد سوق تجارى موسمي الا عن طريق فتحها امتيازاً «من قبلها يعرف بـ Mercedes أما للمحافظة على الضرائب الحكومية وزيادتها احيانا أو لاستخدام تلك الامتيازات كوسيلة لمكافأة العوائل الاقطاعية او المدن لخدماتها الواضحة لها . ولكن من الناحية العملية انشأ الكثير من رجال الاقطاع تلك الاسواق في اقطاعاتهم في تلك الفترة بالرغم من شكاوى ذلك البرلمان في ١٤٣٠ ، و١٤٣١ وما بعد [١٠] .

يبدو ان موقف الملكية تجاه الاسواق التجارية للاقطاع Ferias de Senorias تعرض للضعف بعد وفاة الملك جون الثاني عام ١٤٥٢ ومجيء ابنه هنرى الرابع (١٤٥٤ ـ ١٤٧٤) حيث اشتكى المجلس المالي للدولة في مذكرة رفعها الى الملك عام ١٤٦٧ من استمرار تلك الاسواق التجارية التي تعقد دون امتياز ملكي [١١] حتى الغاها عام ١٤٧٣ وخاصة تلك التي انشئت بعد ١٥ ايلول ١٤٦٤ (وهي بداية الحرب الاهلية مع البرتغال حول العرش) ماعدا اسواق مدينتي شقوبيه وطليطلة لانهما من المدن المعروفة بـ acarreo (اى المقاطعات غير المكتفية ذاتيا في مؤنها الغذائية لان في ذلك ضياعاً لموارد الدولة وتشتيتاً لتجارتها [١٢] . لكن ذلك الالغاء بقي حبرا على ورق بالرغم من تأكيده من قبل الملوك الكاثوليك عام ١٤٨٠ و ١٤٩١ حيث نرى أن مدينة Badajoz مثلا تشتكي الى الملك على بعض المدن المجاورة لها «التي اخذت تعقد اسواقا» تجارية بصورة غير شرعية الامر الذى اثر على تجارتها الى حد كبير [١٣] .

لكن تلك السياسة يجب ان لا تحملنا على الاعتقاد من ان ملوك قشتالة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وقفوا موقفاً سلبياً تجاه الاقطاع واسواقه التجارية بصورة عامة ، بل وهناك ادلة واضحة تؤكد عقد تلك الاسواق كما هو الحال في اسواق مقاطعة Plasencia تحت اشراف عائلة Alonso de Zuniga دوق بالنتيا ، واسواق مدينة Bejar وعائلة آل Mendoza ، واسواق Medinasidonia وعائلة آل Guzman واسواق مدينة Los Morales تحت اشراف فرع آخر لعائلة آل Mendoza واسواق مدينة Medina del Rioseco وعائلة آل Enriquez واسواق مدينة Villalon وعائلة آل دوق El Conde de Benadente ... الخ ، والتي كانت تعقد بموافقة الملوك الكاثوليك بل ومناصرتهم احيانا لان بعض تلك العوائل كانت من العناصر الادارية والكفوءة في مجالس الدولة العديدة كما هو الحال مع دوق Plasencia الذى كان يشغل منصب رئيس القضاة واحد اعضاء مجلس الدولة والذى كانت مدينة Bejar احدى اقطاعاته الهامة [١٤] . وكذلك الحال مع الكونت Juan Porrecharreo ومدينته Medellin احد اعضاء المجلس الملكي ولان سوق تلك المدينة «كان يعقد منذ زمن أبينا الملك جون الثاني (١٤٠٦ ـ ١٤٥٢) وليس في نيتنا القضاء على تلك الاسواق القديمة والمعروفة في مملكتنا» كما ورد في امتياز ذلك السوق [١٥] .

ويمكن ملاحظة تلك السياسة الموالية للطبقة النبيلة في هذا المجال منذ اواخر عهد الملك جون الثاني في منحهم امتيازاً الى عائلة Almirante de Castilla الفونسو الثاني يعقد أسواقاً تجارية في مدينتهم المعروفة Medina del Rioseco حيث ذكر :

« ان افراد الطبقة النبيلة البارزين والذين اعتادوا عمل بعض الاعمال المشرفة والعظيمة ، لمملكتنا ومن اجل ان تبقى اعمالهم تلك تقليداً دائما لذلك يجب منحهم الامتيازات والحريات .. في عقد اسواقهم التجارية .. » [١٦]

وأكد الملوك الكاثوليك ذلك الامتياز في عائلة Almirante عام ١٤٧٧ ليس لكون تلك العائلة كانت ترتبط بصلة القربى مع العائلة المالكة فقط ، ولكنها كانت من العوائل النبيلة التي ساندت ايزابيلا في حربها الاهلية ولذلك جاء تأكيد ذلك الامتياز بعد معركة Toeo عام ١٤٧٦ التي انهت تلك الحرب وما ذلك التأكيد الا جزء من سياسة الملوك الكاثوليك في مكافأة العوائل النبيلة التي ساندتهم في تلك الحرب ٠ ولعل ابرز ما يمثل تلك السياسة هو ما قام به اولئك باعادة منح الكونت Benabenteامتيازه الذى الغوه عام ١٤٨٠ بعقد اسواق في مدينته Villalon هي من الاسواق الهامة في مملكتنا ٠٠ [١٧] ٠

يبدو ان تلك السياسة لم تكن وليدة الحاجات الجديدة للدولة في قشتالة بعد صمود الملوك الكاثوليك بل ترجع جذورها حتى الى عهد هنرى الرابع (١٤٥٢ ـ ١٤٧٤) الذى منح بعض العوائل النبيلة امتيازات لعقد مثل تلك الاسواق : في تمام ١٤٦٥ مثلا منح دوق Alburquerque ومدينته Roa امتيازاً بعقد سوقين تجاريين كل عام ولمدة ثلاثين يوماً لكل سوق ، وفي نفس العام منح مدينه Cuellar واميرها الاقطاعي Beltran de la Cueva امتيازاً لعقد سوق فيها سنوياً ٠٠ الخ بل ان تلك الامتيازات تشير صراحة الى ان تلك الاسواق او اغلبها موجود «منذ زمن الملك جون الثاني» او حتى قبله ٠ [١٨]

مما تقدم يبدو ان ملوك قشتالة خلال الفترة موضوع البحث لم يكونوا معادين لعقد مثل تلك الاسواق التجارية للاقطاع وانما حاولوا الاشراف على عقدها بصورة غير مباشرة ، وهذا جزء من سياسة عامة اتبعها ملوك قشتالة لمراعاة القوة الاقتصادية للاقطاع هناك حيث تشير بعض الدراسات الاخيرة الى ان بعض العوائل الاقطاعية لم تستمر فقط في عقد اسواقها التجارية وانما منحتها الملكية امتيازاً بالحصول على بعض ضرائب الدولة كما هو الحال بالنسبة الى دوق Medinasidonia عام ١٥٠٩ [١٩] والكونت Benabente الذى حصل على ضرائب El Diezmo del Mar عام ١٤٦٧ والتي تقدر بـ ٤٨٠ الف ميرقيدى سنوياً [٢٠] ، حتى بلغ مجموع الضرائب والواردات التي حصلت عليها الطبقة النبيلة من خزينة الدولة لعام ١٤٨٠ مثلاً ١١ مليون ميرقيدى [٢١] وبالرغم من توفر بعض السجلات الحسابية لبعض العوائل النبيلة في تلك الفترة ، فلا زلنا بحاجة الى دراسة شاملة للضرائب والواردات الاقطاعية آنذاك وان دراسة J.M. Moro للضرائب الاقطاعية لعائلة آل Stuniga في اواخر القرن الخامس عشر ليست كافية : بلغت مثلاً الواردات من الضرائب لمدينة Bejar فقط واسواقها التجارية عام ١٤٥٤ ـ ٤٤٠ر٤١٧ ميرقيدى بضمنها واردات عن ايجارات المجلات والارصفة خلال انعقاد السوق التجارى هناك ٠٧٥ر٦ ميرقيدى ٠ [٢٢]

تشير بعض الوثائق ، وان لم تكن كافية في الوقت الحاضر ، الى ان اولئك الملوك منحوا رجال الدين الكبار ايضاً امتيازاً لعقد اسواق تجارية في مدنهم اسوة بالاقطاع في ١٤٦٧ مثلاً منح الملك هنرى الرابع الاسقف Gonzalo de Vivero امتيازاً لعقد سوق معفية من الضرائب لمدة عشرين يوماً في مدينة سلامنكا ، [٢٤] ومنح الملوك الكاثوليك الكاردينال اسقف مدينة طليطلة عام ١٤٨٠ امتيازاً لعقد اسواق في مدينته Alcala de Henares القريبة من مدريد ٠ [٢٥]

لكن ذلك يجب ان لا يقودنا الى الاعتقاد ان الملوك الكاثوليك ساندوا تلك الطبقات (وهي صاحبة الامتيازات التقليدية) دوماً في اسواقها التجارية المعفاة من الضرائب في عام ١٤٩١ مثلاً وبالرغم من التماس الماركيز Diego Lopez Pacheco باعفاء سوق مدينته Esteban de Gormes في مقاطعة Soria من الضرائب اصرّ الملوك الكاثوليك على انها ليست معفاة من الضرائب وان كل التجارة فيها تدفع ضريبة Alcabala [٢٦] ، وكذلك الحال مع اسواق مورالس للكونديس Mendoza عام ١٤٨٩ [٢٧] واسواق القلعة دى اينارس [٢٨] حيث بقيت اسواقاً عديدة اخرى سواء كانت اقطاعية او تابعة للمدن الحرة تملك الامتياز ولكن غير معفية من الضرائب ٠

اما المدن الحرة في قشتالة فقد استفادت هي الاخرى من تلك السياسة في عقد اسواقها وذلك اما بتأكيد امتيازاتها القديمة او منحها امتيازات جديدة وذلك لكونها اما مدناً رئيسية هامة او انها اسدت بعض الخدمات الجليلة للملوك آنذاك ٠ نقرأ في امتياز مدينة Zamora لعام ١٤٧٦ وهي من المدن الحدودية مع البرتغال مايلي :

« بسبب الحرب مع البرتغال ، دخلت بعض العناصر غير الموالية لنا مدينتنا المسالمة ثامودا ضد ادارة سكانها الذين تعرضوا الى الدمار والسلب عدة مرات الامر الذى ادى الى ان يقود جيوشنا الى تلك المدينة التي اقسمنا واياها على الدفاع عنها ٠ وبعد معركة Campo de Palagosa (عام ١٤٧٥) التي انتصرنا فيها بفضل الله ،

وأصدرنا ارادتنا الملكية بتكريم وتشريف تلك المدينة وذلك بمنحها امتيازاً لعقد سوق سنوي لمدة ٢٢ يوماً معفياً من كافة الضرائب ٠٠ [٢٩] ٠

وجاء في امتياز مدينة مدريد لعام ١٤٨٥ مايلي :

« اعلمتنا مدينتنا الموالية لنا ، مدينة مدريد ، ان ابينا الملك جون الثاني منحها امتيازاً لعقد سوقين تجاريين كل عام وذلك لزيادة ثرائها واكرامها ٠٠ ونظراً لاسهامها بقسط كبير من ضرائب خزينتنا ، فان ارادتنا هي تأكيد أهمية تلك الأسواق والتي اقر امتيازها من قبلنا اخونا الملك هنرى الرابع ٠٠» [٣٠]

لم يكن الملك الكاثوليك اول من منح هذا النوع من الامتيازات فقط حصلت عليها أغلب المدن الاوربية وقشتالة منذ العصور الوسطى المبكرة ، فمثلاً مدينة بلد الوليد ، وهي مكان انعقاد البرلمان القشتالي في اغلب سنين القرن الخامس عشر ، حصلت على امتياز لعقد سوقها منذ عام ١٣٠١ من قبل الملك الفرنسو الحكيم ، واقره الملك جون الثاني من بعد عامي ١٤٤٤ و ١٤٤٧ ، والملك هنرى الرابع عام ١٤٦٥ ٠ [٣١] كذلك الامر بالنسبة لمدينة قرطبة التي كانت تعقد اسواقها التجارية منذ ان كانت تحت الحكم العربي الاول في الربيع والآخر في اعياد Quaresma لمدة عشرين يوماً لكل منهما [٣٢] ، ومدينة Badajoz حصلت على امتيازها منذ عام ١٢٥٨ ٠٠٠ الخ [٣٣] ، حيث كان يشكل امتياز السوق للمدينة ونسب الاعفاء من الضرائب فيه جزءاً من خصوصية Particularism كل مدينة في اوربا العصور الوسطى كما اشار پيريفه [٣٤] ولكن ما حدث في عصر الملوك الكاثوليك هو اعادة تنظيم تلك الاسواق بغية تركيز التجارة في بعض الاقاليم المعروفة اقتصادياً في قشتالة والاشراف عليها اشرافاً مباشراً كجزء من سياسة شاملة اتبعها اولئك الملوك في وضع أسس حديثه للدولة هناك ٠

لقد طبق الملوك الكاثوليك ذلك الاشراف على تلك الاسواق بطريقتين :

الاولى :

اصدارهم التعليمات التي تمنع تداخل فترات انعقاد تلك الاسواق وذلك بتحريم تمديد او تأجيل تلك الفترات لكي لا تتداخل فيما بينها ومنعاً لتشتت التجارة وضياع بعض الضرائب ، وفي ١٤٨٥ امر اولئك الملوك مدينة Jerez بعدم تمديد فترة انعقاد سوقها الذى يعقد للفترة ١٠ ـ ٣٠ ايلول من كل عام حتى لاتتزامن مع اسواق مدينة Los Morales الذى يعقد في بداية الشهر التالي ، [٣٥] وفي ضوء ذلك نستطيع فهم الاتفاق الذى تم بين الكونت Benabente ومدينة Cuenca عام ١٤٨٢ حيث تعهدت الاخيرة بعدم عقد اي سوق فيها طيلة انعقاد اسواق مدينة Villalon وهي مدينة الكونت اعلاه [٣٦] ٠

الثانية :

تحريمهم الاتجار مع الاسواق التجارية البرتغالية وخاصة الحدودية منها دون علم الدولة خوفاً من تأثير ذلك على اقتصاد قشتالة وتصدير عملتها حيث تم تشريع ذلك التحريم في تشرين الاول ١٤٩٢ [٣٧] ولكن في الوقت نفسة شجع اولئك الملوك على دخول التجار البرتغاليين الى اسواق قشتالة وتحت حمايتهم [٣٨] ٠

مما لاشك فيه ان ذلك الاشراف على تلك الاسواق لايهدف الى تشجيعها فقط ، بل الى تنظيمها وتركيز تجارتها بغية الحصول على كمية اكبر من الضرائب لتمويل نفقات الدولة وهذا يتناقض مع ما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين [٣٩] من ان ذلك التشجيع هو مجرد محاولة من جانب الملك الكاثوليكي لتنشيط تجارتها وتحفيز المنتجين في الصناعة والزراعة للاستفادة من فترة اعفاء سلعهم المباعة خلال فترة تلك الاسواق من الضرائب مستندين في ذلك على تسميتها باسم Ferias Francas «الاسواق التجارية الحرة» وهذا لا يؤيده وثائق الدولة المالية في قشتالة حيث تذكر صراحة في ضرائب مقاطعة مدينة دل الكامبو حقلاً خاصاً تحت عنوان Rentas de las Ferias ضرائب الاسواق التجارية هناك وكما هو موضح في جدول رقم (١) ، ومدينة Bajar كانت تحدد نسب الضرائب في اسواقها كما هو موضح في جدول رقم (٢) ، وكانت ضريبة الـ Peso في اسواق مدينة Medina del Riosec تؤخذ كما هو في جدول رقم (٣) ٠٠٠ الخ ٠

وأغلب الظن ان تسميتها بالاسواق التجارية الحرة Ferias Francas كما اشير في تلك الوثائق هو ان الافراد احرار في الذهاب اليها حتى وان كانوا مدينين او محكومين بسبب ديونهم حيث تقوم السلطات الملكية او الاقطاعية بحمايتهم خلال رحلتهم التجارية من مدينتهم الاصلية الى تلك الاسواق وحتى عودتهم Pax Mercatum لا يتعرضون خلالها الى اية محاكمة ، وبذلك يبدو ان مفهوم «الاسواق الحرة» يتضمن المعنى القانوني وليس

الاقتصادي ٠ ومما يؤيد ذلك ، انه فيما لو اعفيت بعض السلع من الضرائب فان ذلك سيشجع المضاربين Regatones الذين يذهبون الى تلك الاسواق لشرائها باسعار ارخص ومن ثم بيعها بأسعار اعلى بعد انتهاء السوق وهذا ما اشتكى منه البرلمان القشتالي عام ١٤٣١ ، و ١٤٣٨ ، و ١٤٦٢ ، و ١٤٩١ لان ذلك يساهم في شحة المواد الغذائية بصورة خاصة ٠ [٤٠]

ولم تكن تلك الاسواق التجارية متساوية في نسب الضرائب المفروضة فيها وانما كانت تلك المدن في صراع مستمر مع المجلس المالي في قشتالة لتحديد او تخفيض نسب الضرائب ٠

جدول رقم (١)

كميات الضرائب المستحصلة لخزينة الدولة من الاسواق التجارية الموسمية لمقاطعة مدينة دل الكامبو للفترة ١٤٧٧ ـ ١٥٠٨ ـ وحدة القياس/الميرفيدى

السلعة	١٤٧٧ـ١٤٧٩	١٤٨٣	١٤٨٠	١٤٨٤	١٤٩٠	١٤٩١	١٤٩٢	١٤٩٣	١٤٩٤	١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٧	١٥٠٧	١٥٠٨
الاسماك الحية والجافة	٨٠٠٠٠ ميرفيدي سنويا	٨٧٥٠٠	٩٩٠٤٦	٩٩٠٤٢	١٠٩٢٨٣	١٠٨١٥٠	١٣٠٠٠	٤٥٥٧٧	٤٨١٨٠	٦٤٨٩٠	٦٤٨٩٠	٧٧٢٥٠	٣٢٥٠٧	٧٨
العطارية والحلي والمجوهرات		٣٢٢٠٠٠	٣٦٩٦٦٠	٣٦٩٦٦٠	٣٦٩٥٥٠	٣٦٥١٨٠	٣٩١٤٠٠	٤٠١٩١٠	٤٤٣٢٩٠	٥٥٩١٣٠	٦٠٠٠٠٠	٦٧٠٠٠	٦١٤٧٤٢	٧٠٣
الكتان والاقمشة البيضاء		١٣٢٥٠٠	١٧٦٢٤٥	١٧٦٢٤٥	١٦٤٨٠٠	١٩٠٠٣٥	١٤٦٢٦٠	١٥٥٤٨٤	١٩٧٩٤٠	٢٧١٦٧٦	٢٧٦٦١٨	٤٣٢٦٠	٠٨٧	
الادوات والسلع اليدوية الحديدية		٣٥٢٠٠	٢٣١٤٢	٢٣١٤٢	٢٢٦٦٠	٢٦٤٥٦	—	١٨٢٨٢	١٨٢٧٠	٢٥١٦٤	٢٨٣١٥	٢٨٣١٥	١٦٣٨٨	١٨٧٠٥
الملابس المستعملة		٤٣٠٠٠	٤٣٨٧٤	٥٥١٠٠	٥١٥٠٠	٥٠٤٧٠	٤٢٧٤٥	٤٨٤١٠	٦٢٣٤٥	٦٤٨٩٠	٧٥٠٠٠	٨١٠٤٤	٢٨٣١٥	٩٢٣٩
الاحذية		٢١٠٠٠	١٨١٨٠	١٨١٨٠	١٨٠٣٥	١٨٦٩٧	١٧٥٩١٠	١١٣٣٠	١١٣٣٠	١٣٩٠٧	١٢٣٦٠	١٠٣٠٠	٨٢٤٠	—
الجلود والسلع الجلدية		٤٥٠٠٠	٧١٧١٠	٧١٧١٠	٧٢١٠٠	٧٢٣٥٧	١٠٣٠٠٠	١٠٣٠٠٠	١٠٣٠٠٠	١١٢٦٨٥	١١٢٦٨٥	١١٢٦٨٥	٣٢٩٦٠	٣٩٩٦٤
الاقمشة الثقيلة		٤٨١٦٦	٧١٠٠٠	٧١٠٠٠	٨٦٠٠٠	٨١٢٧٠	٨٧٦٨٣	—	—	—	—	٦٩٥٠٠	٦٤٦٤٠	٦٩٥٢٥
الاقمشة الخفيفة الوطنية(٢) والاحذية		—	—	—	—	—	—	—	—	١ر٦٤٠ر٠٠٠	٥٤٠ر٠٠٠ (١)	١ر٣٢٨ر٨٦٨	١ر٢٧٩ر٨٣٢	١٦٢
حيوانات النقل(٣)		—	١٤٨٦٧٢	١٤٨٦٧٢	١٤٨٨٣٥	١٤٣١٧٠	١٤١١١٠	١١٨١٥٠	١١٩١٠٣	١٨٧٨٤٣	٢٠٣١٩٣	—	—	—

المصدر :

A.G.S. sc. M.R. Legs. 21-28, 32-39, 44-49, 57, 61-68, 74-75.
A.G.S. x. H. Legs. I, 4,6, 12.

١ ـ هذا المبلغ سجلته تلك الوثائق لسوق تجارى واحد فقط خلال ذلك العام

٢ ـ تشير سجلات الضرائب من ان خلال تلك السنين ١٤٨٣ ـ ١٤٩٤ كانت تؤجر باللزمة ولكن لم تذاكرايه ارقام

٣ ـ تلك الارقام تشمل ضرائب الاسواق التجارية وضرائب المدينة خلال السنة .

تلك حيث كانت نسب التخفيض وسيلة للتنافس بين تلك المدن لجذب التجار اليها والتي كانت ايضا تشكل جزءاً من حرياتها الخاصة التي تتميز بها عن المدن الاخرى • فقد التمست مدينة بلد الوليد مثلاً من الملك جون الثاني عام ١٤٥٢ والملك هنرى الرابع عام ١٤٦٥ لتخفيض ضريبة Alcabala (وهي الضريبة الاعتيادية التي تفرض على المشتريات من السلع بنسبة ١٠ بالمائة من القيمة الاجمالية وتُجبى اعتياديا خلال السنة وليس في اوقات تلك الاسواق) على السلع الغذائية كالنبيذ واللحوم والحبوب والطيور ، والاسماك ٠٠ الخ خلال فترة انعقاد أسواقها لتأثيره على تجارتها وان عدم التخفيض يجعل التجار يعزفون عن ارتيادها ولذلك منحها الملك هنرى الرابع تخفيضاً بقدر ١٠ بالمائة من مجموع الضرائب التي تدفعها خلال تلك الاسواق التي تستمر لمدة ثلاثين يوما ، اي ما يعادل ٤٠ الف ميرفيدى [1] ٠

جدول رقم (٢)

نسب الضرائب فى اسواق مدينة Bejar كما وردت فى تنظيماتها لعام ١٤٥٢

أ ـ السلعة	نسبة الضريبة	الملاحظات
الاقمشة الاجنبية (الاقمشة الانكليزية بالجملة)	٥ر٣٪	
الاقمشة الايطالية المطعمة والملونة لمدينة فلورنسا	٣٪	
أقمشة الاراضي المنخفضة بالمفرد	٢ر١٪	وكما هو معمول في اسواق مدينة دل الكامبو
الاقمشة الفرنسية	بالمفرد	٤٪
أقمشة قشتالة التي يتراوح سعرها من ٧٠ الى ١٠٠ ميرفيدى / لليارد	٨ر٣٪	
الاقمشة البيضاء الثقيلة القشتالية والاجنبية	٨ر٢٪	وكما هو معمول في السنين السابقة
الاقمشة السوداء والداكنة التي يزيد سعرها عن ١٠٠ ميرفيدى / لليارد	٤٪	
الحرير الطبيعى والمطعم بالذهب للقطعة الواحدة	٢٠	ميرفيدى للقطعة الواحدة
الذهب والفضة والاقمشة الاخرى المطعمة بهما	٠٥ر٠٪	
ب ـ عملاء الوكلاء التجاريين :		
وكلاء الاقمشة بكافة انواعها	١ ميرفيدى لكل يارد	
وكلاء الحرير الطبيعي والخام	٣ ميرفيدى لكل قطعة	
وكلاء المجوهرات والذهب والفضة	٢ بالمائة من القيمة الكلية	

المصدر : A.H.N. Osuna, Leg. 216, fol. 2.

وبالرغم من ان اسواق مدينة مدريد لم تكن معفية من الضرائب التي يجب عليها دفعها خلال فترة انعقاد سوقها ، لكنها كانت في صراع مع المجلس المالي للدولة ووكلائه من جباة الضرائب فيها ، لتخفيضها ، حيث تشير سجلات بلديتها لعام ١٤٩٠ مثلا أن على كل تاجر يحضر لاول مرة الى تلك الاسواق دفع ثلاثة ريالات فضية (١٠٢ ميرڤيدى) ويبقى بعدها حرا في الاتجار · واصر أولئك الجباة على عدم اعفاء حتى سلع المواد الغذائية كالحبوب والطحين والملح وذلك لكون اعفائها لم يرد في ذلك الامتياز ولذا عين المجلس البلدى لجنة من اعضائه تضم Pedro de Herrera و Diego Gonzalez للاشراف على التجارة خلال فترة انعقاد السوق والفصل في المنازعات التجارية والضريبية [٤٢] ·

ولجأ المجلس البلدى لمدينة M. del Rioseco الى وسيلة اخرى لجذب التجار ومنافسة الاسواق الاخرى ، وذلك عن طريق منح تخفيضات من نسب الضرائب الى مواطني تلك المدينة من التجار الذين يسكنون خارجها وتجار بعض المدن الرئيسية المجاورة لكي يرسلوا تجارتهم الى اسواقها ، فقد ورد في وثيقة نسب ضرائب El Peso yaver de peso كما هو موضح في جدول رقم ( ) ان مواطني مدينة M. del Rioseco الذين يسكنون اقليم الفلاندرز في الاراضي المنخفضة ، ومدن طليطلة ، واشبيلية ، وڤالنسيا واقليم غاليسيا والذين يرسلون تجارتهم الى اسواقها تخفض تلك الضريبة لنسبة ٧٥ بالمائة منها على تجارتهم وعليهم دفع ٨ ميرڤيدى و ٢ كورنادو فقط اى نسبة ٢٥ بالمائة ، وكذلك الحال مع تجار مدينة دل الكامبو ، بورغس ، وڤيالون (وهي المدن الرئيسية المجاورة) الذين يشترون في اسواقها الصابون النحاس ، العبيد ، البهارات ، الزعفران ، الادوية والاعشاب الطبية ··

جدول رقم (٣)
نسب ضرائب الـ Peso في اسواق مدينة دل ريوسكو
في اواخر القرن الخامس عشر

السلعة	النسبة
سلع السراجة ، الاواني والقدور ادوات الفلاحة ، الاخشاب الاعشاب الطبية والادوية ، اسماك السردين والحيوانات البحرية التى تؤكل ···	٪ نصفها يدفعها البائع وللنصف الآخر يدفها المشترى
الروائح والعطور ، زيوت الطعام ، البهارات	٤٪ لوزن ٦ أونس ما دون
البهارات ، الشمع ، الصابون ··	٣٪ لوزن ٦ أونس فما فوق
كافة السلع الواردة من اقليم الفلاندرز	١٪

السلعة	النسبة
المشابهة لتلك السلع اعلاه الاصواف وجلودها	٤٪ اذا تم الدفع خلال تسعة ايام من تاريخ الشراء و ١٠٪ بخلاف ذلك
الزيتون ، الكافور ، السمن الحيواني ·· الخ	٥ر١٪ لوزن ٦ أونس فما دون ١٠٪ لوزن ٦ أونس فما فوق
اللحوم بأنواعها ، الملح ··	١٠٪ وهو ما يساوى الضريبة الاعتيادية المعروفة بـ

المصدر Archivo de la Real Chancelleria de Valladolid, Section : Fernando Alonso, Fenecidos, Leg. 276, Libro. I.

بالاضافة الى تلك الضرائب التي تفرض على السلع ، كانت مجالس المدن تفرض ضرائب اخرى على التجار انفسهم وخاصة الاجانب منهم وتشمل اولا Derechos del Suelo وهي الضرائب التي تؤخذ من اولئك الباعة الذين يستخدمون ارض الاسواق والارصفة خلال فترة انعقاد السوق ، وثانيا Derechos de Alguaciles وهي ضرائب الحراسة التي يستحصلها المجلس البلدى للانفاق على حراسة المحلات التجارية خلال الليل اثناء فترة انعقاد الاسواق تلك [٤٣] .

فبعد تنظيم الضرائب ، تأتي مسألة اسكان التجار الاجانب مع تجارتهم في تلك الاسواق فكيف كان يتم اسكان الآلاف من التجار الغرباء في فترة انعقاد السوق ، وخاصة في وقت كانت فيه المدينة الاوربية مصممة اساسا لايواء سكانها فقط وان كافة الافراد من وراء سورها يعدون من الاجانب لايجوز لهم الاقامة والتملك فيها ؟

يبدو ان اغلب المدن القشتالية التجارية هيأت أماكن محددة تتوزع حول مكان السوق فيها لاسكان اولئك التجار لقاء أجور يدفعونها الى لجنة تشكلها مجالس المدن هناك للاشراف مباشرة على الاسكان . على سبيل المثال ، ان اسواق مقاطعة مدينة دل الكامبو قد نظمت اسكان التجار فيها منذ عام ١٤٢١ حيث بقيت تلك التنظيمات يحتذى بها من قبل بقية المدن في قشتالة فيما بعد . يقوم المجلس البلدى فيها بتشكيل لجنة سنويا برئاسة اعضاء المجلس البلدى تتولى الاشراف على اسكان اولئك التجار ويسمى Aposentador Mayor (المشرف الاعلى للاسكان) ، يعاونه في ذلك عدد من المشرفين الصغار Aposenta-dores Menores وهم عادة من بعض ملاك الدور والمحلات . [٤٤]

ولا تذكر المصادر شيئا عن راتب المشرف الاعلى للاسكان في اسواق مدينة دل الكامبو ، ولكن تورد ان Juan Sanchez عضو المجلس البلدى وكاتب العدل في مدينة بلد الوليد يتقاضى راتبا قدره ٣٠٠ ميرفيدى سنويا لقاء مهمته كمشرف عام لإسكان التجار عام ١٤٤٨ [٤٥] . وفي عام ١٤٨٥ كافأ الملوك الكاثوليك Perdro de pinos عضو المجلس البلدى لمدينة Jerez وذلك بتعيينه مشرفا لاسكان التجار في اسواقها مدى الحياة وبالراتب الذى يتمتع به نظيره في أسواق مدينة دل الكامبو . [٤٦]

مما لاشك فيه ان حصر تلك الوظيفة بعضو المجلس البلدى او كاتب العدل في المدينة يعني انها تمثل منزلة اجتماعية متميزة ، ولكن من غير الواضح هو هل انها تبقى وراثية في العاملة كما هو الحال بالنسبة لوظيفة عضو المجلس البلدى او وظيفة كاتب العدل آنذاك ؟ فتورد سجلات بلدية مدريد لعام ١٤٨٤ مثلاً ان Pedro Garcia de Villanueva كاتب العدل فيها وعضو مجلسها البلدى ايضا دخل في نزاع مع ذلك المجلس مدعيا ان اباه Alonso Garcia de Villanuva كان يشغل وظيفة المشرف العام لاسكان التجار في اسواقها منذ زمن الملك جون الثاني وانه يرغب في الاستمرار بوظيفة والده حتى أقره المجلس بعد مناقشات طويلة وكافأه بمبلغ ستة آلاف ميرفيدى لجهوده فى الاتصال مع المدن الرئيسية لقشتالة ولتشجيعه تجارها بالحضور الى اسواق مدينته . [٤٧]

ولكن يبدو ان اقتصار تلك الوظيفة على تلك العناصر تعكس رغبة الطبقة الارستقراطية في الحفاظ على مصالحها ومركزها الاجتماعي من خلال ادارتها للحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدينة عن طريق تنظيمها لاسكان التجار وتأجير املاكها من المحلات والدور المتمركزة في مراكز تلك المدن والتي هي في الوقت نفسه مناطق عقد تلك الاسواق بالرغم من ان المصادر المتوفرة في الوقت الحاضر لاتبين حجم ممتلكات تلك الطبقة في مراكز المدن لكنه يبدو من بعض الدراسات الاخيرة في القرن السادس عشر . [٤٨] ومن أسماء بعض المشرفين الصغار في اسواق مدينة دل الريوسكو لعام ١٥٠٦ (ملحق ٣) ان تلك الطبقة كانت تؤجر املاكها الى التجار الكبار بعقود طويلة الاجل للحصول على ايرادات ثابتة .

أما المشرفون الصغار والذين يساعدون المشرف الاعلى للاسكان فإنهم يتولون الاشراف على مساحة معينة من السوق أو عدد معين من الشوارع التي ينتشر فيها التجار والتي غالبا ما تكون مناطق سكناهم ويكون عددهم مناسبا مع حجم السوق وحجم الاعمال التجارية فيه كما هو الحال في اسواق مقاطعة مدينة دل الكامبو وأسواق مدينة دل الريوسكو . حيث تنحصر مهمة هؤلاء المشرفين في مراقبة الاعمال التجارية واسكان التجار والذى لايجوز اسكان أكثر من تاجر واحد لكل بيت وبخلافه تصادر املاك التاجر ودفع غرامة قدرها ٦٠٠ ميرفيدى لكل مرة . [٤٩]

لقد نجحت المدن من خلال ذلك التنظيم في حل مشكلة اسكان الغرباء خلال فترة انعقاد اسواقها ، لكنها واجهت صعوبة في الاشراف على الصيارفة واصحاب البنوك Cambiadores Publicos وعملياتهم الائتمانية

والتي كانت في غاية الحساسية وفي وقت تعددت فيه موازين وقيم النقـود المعدنيـة ، وبالرغم من ان اغلب المدن التجارية واسواقها خصصت لاولئك التجار محلات محددة في تلك الاسواق (في مدينة دل الكامبو في شارع La Rua ، اشبيلية شارع Las Gradas ، في بلد الوليد Plaza Mauot بغية المراقبة ، واشترطت على كل صيرفي ان يقدم ضمانات مالية تتراوح بين ٢٠٠ الف ميرڤيدى في حالة مدينة مدريد عام ١٤٩٨ (٥٠) الى مليون ميرڤيدي في حالة بلد الوليد (ملحق ٣) امام المجلس البلدى قبل بدء مزاولته الصيرفه ، لكن نرى حالات عديدة من الافلاس والاختفاء المباشر لتلك المصارف في قشتالة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر منها مثلاً : في اشبيلية : Miguel Fernandez عام ١٤٧٨ و Gonzalo Gonzalez عام ١٤٨٠ ، و Diaz de la Pueble عام ١٤٩٢ ، في طليطلة : Fernandez de la Plama عام ١٤٨٠ ، و Fernande de Carmona عام ١٤٨١ ، و Lope Pedro عام ١٤٨٩ ، في مدينة Jerez: Juan Barlona عام ١٤٩٢ ، في مدينة بلد الوليد Anton de Palencia عام ١٤٩٨ ، و Ochoa Perez de Salinas عام ١٥٠٠ (٥١) ٠٠ الخ ٠

ان السبب الحقيقي وراء تلك الافلاسات ، هو ان تلك المصارف في قشتالة في عصورها الوسطى المتأخرة ، كما هوالحال في مدينة بروج في الاراضي المنخفضة او برشلونة (٥٢) ٠ لم تكن مصارف متخصصة في الاعمال الائتمانية فقط ، وانما كانت تنوع من اعمالها وتنهمك في استثمارات تجارية (شراء عقارات ، الاقراض بكافة انواعه ، التجارة الدولية ٠٠ الخ) كبيرة حتى تصل الى مرحلة من العمل بدون اية احتياطات من سيولتها النقدية وفي وقت لم تعد المصارف المركزية معروفة بعد حتى تهب لمساعدتها في وقت حاجتها ، وبالتالي فان حدوث اية ازمة سياسية او عسكرية يعرضها الاهتزاز والافلاس وهذا ما حدث للصيرفي Migud Fernandez عام ١٤٧٨ عندما ذكر المجلس البلدي في مدينة اشبيلية ان الحرب الاهلية خلال السبعينات من القرن الخامس عشر هي السبب وراء افلاس Miguel حيث ورد في محاضر المجلس :

«انه بسبب تلك الحرب ادت الى النزاع بين عناصر المجتمع في اشبيليه والذين كانوا اما دائنين او مدينين الى Miguel Fernandez لم يدفعوا ديونهم الامر الذى ادى الى ندرة في سيولته النقدية وبالتالي لم يستطع دفع حقوق التجار ٠٠٠» (٥٣) ٠

اما افلاس الصيرفي Juan Barlona من مدينة Jeroz كان نتيجة للحملة الاسبانية على غرناطة عام ١٤٩٢ حيث ورد في حيثيات افلاسه :

«ان الحاكم الاعلى لتلك المدينة اجبر ذلك المصرف على تقديم القروض له لتجهيز حملات مدينته على غرناطه ٠ والذى ادى الى افلاس Juan والذى لم يستطع دفع أموال مودعيه ٠٠ الخ ٠ (٥٤)

يبدو مما تقدم ، ان تلك الاسواق ، من خلال حجم الضرائب وتنظيم اسكان التجار ، والاشراف الدقيق على الصيارفة واصحاب البنوك ، لاتقل أهمية عن الاسواق التجارية الاقليمية لبعض أقاليم أوربا المعروفة ٠ ولكن ما يؤخذ على وثائق امتيازات تلك الاسواق وهى كأوامر ملكية لا تهتم بحجم التجارة فيها ، وأوردت فقط اسماء بعض السلع المتداولة فيها والتى هي اما سلع استهلاكية (كاللحوم والحبوب والنبيذ ٠٠ الخ) أو سلع كمالية (كالذهب والفضة ، و المجوهرات ، والحرير الطبيعي ، والاقمشة بأنواعها ٠٠ الخ) ، وكان بعض تلك السلع منتجة وطنياً ، والاخرى مستوردة كما هو الحال في اسواق مدينة Bejar واسواق مدينة M. del Rioseco وأسواق مدينة دل الكامبو السالفة الذكر ٠

ولا تهتم وثائق الامتيازات بتجارة الاصواف فى تلك الاسواق وهي المادة الرئيسية في اقتصاد قشتالة آنذاك ، وهذا لا يعني ان تلك التجارة غير معروفة فيها ، وسبب ذلك يعود الى طبيعة تلك التجارة نفسها ، لان مربي الاغنام كانوا يبيعون انتاجهم مقدماً الى تجار مدينة بورغ وطليطلة والتجار الايطاليين فى أشهر الخريف مقابل جزء رمزى من المبلغ الكلي حتى يتم موسم جزّ الاصواف في الربيع من السنة التالية حيث تفرض عليها الضرائب وتسلم في محطات الجزّ وهي مناطق معروفة ومحددة وتختلف عن مناطق المدن التي تعقد فيها تلك الاسواق (٥٥) كما يجب ان لا يفوتنا ان نذكر ان المجتمع القشتالي آنذاك والاوربي عامة ، كان مجتمعا بسيطاً غير معقد قائماً على الثقة ولايستعين بكاتب العدل الا في المعاملات الهامة والكبيرة في اسواق المدن التجارية والرئيسية في قشتالة ، لان ذلك يكلف كثيراً (٢٥٠ ميرڤيدى لكل معاملة تسجل في دوائر كتاب العدول) ولذلك لم تصلنا كافة المعاملات التجارية المتعلقة بتلك الاسواق في الفترة موضوع البحث ٠ فنرى في مدينة قرطبة مثلاً سجلت دوائر كتاب العدول ٢٠٠ عقد لبيع الاصواف للفترة (١٤٧١ ـ ١٥١٥) (٥٦) وعدد غير معروف من العقود في مدينة دل الكامبو بسبب تلف تلك الوثائق في حرق المدينة لعام ١٤٩٢ و ١٥٢١ ولكن بالتأكيد ذو حجم كبير ، في عام ١٤٩٢ مثلاً ، إشتكى التاجر Juan de Sahagun الى الملوك الكاثوليك من انه اشترى من التاجر اليهودي Bien

Beniste اصوافاً بمبلغ ما يقارب ثلاثة ملايين ميرڤيدى في السوق الصيفي لمدينة دل الكامبو ولكن لم يسلمه تلك الاصواف في اوقاتها المتفق عليها كما هو معتاد منذ عشرين عاماً عندما كان يتاجر معه [٥٧] .

وبالاضافة الى ذلك ، يبدو ان بعض الاسواق الموسمية المخصصة لبيع قطعان الاغنام والاصواف كانت توجد في مناط المراعي القشتالية في خلال عصورها الوسطى المتأخرة لان وثائق الدولة المالية تشير ولو بصورة مقتضبة ، الى ان مدينة Trujillo مثلاً في اقليم استرامادورا قرب الحدود البرتغالية ومنطقة المراعي الشتوية للاغنام كانت تعقد اسواقها المخصصة لبيع (قطعان الاغنام والملابس) عام ١٤٦٨ والتي تستمر لمدة اربعين يوماً اعتباراً من اليوم الاول لشهر مارس من كل عام وبلغت ضرائبه لتلك السنة مبلغ عشرة آلاف ميرڤيدى [٥٨] اما مدينة Almagro الواقعة في قلب المراعي الجنوبية المعروفة El Campo de Calatrava كانت تعقد سوقها الذى توصفه وثائق الدولة الضريبية صراحة بأنه (سوق جزّ الاصواف في تلك المراعي) ولكن لم تورد ارقاماً واضحة عن مقدار الضرائب لكن نتيجة من استنتاج حجم الانتاج المتداول فيها اذ تدمج ضرائب الاصواف مع ضرائب المدينة عامة . [٥٩]

من الواضح ان الاسواق التجارية التي درست في الصفحات السابقة هي اسواق موسمية تعقد مرة أو مرتين في العام كما هو موضح في ملحق رقم (١) ، وتختلف عن الاسواق الاسبوعية التي تعقد لمدة يوم واحد كل اسبوع في قشتالة ومعفية من الضرائب الحكومية بالكامل كما هو الحال في بقية اجزاء اوربا خلال هذه الفترة [٦٠] لقد شجع الملوك الكاثوليك تلك الاسواق الاسبوعية لانها تمثل حاجة اساسية للاقتصاد الريفي والمديني على السواء حيث يجلب المزارعون انتاجهم من وراء اسوار المدن للمقايضة بما يحتاجونه من سلع وخدمات من اسواقها . [٦١]

لقد كانت أغلب المدن الرئيسية في قشتالة تعقد اسواقها الاسبوعية حيث اكد الملوك الكاثوليك امتيازاتها في مرات عديدة [٦٢] كاحدى الوسائل لتشجيعها بالرغم من ادراكهم من ان اعفاءها يشكل خسارة ليست قليلة للخزينة الحكومية ، اذ ان عقد سوق اسبوعي معفى من الضرائب لمدينة واحدة يعني ان تلك المدينة تتمتع باعفاء ضريبي لمدة ٥٢ يوماً في السنة وهذه الفترة اكبر بكثير من اية فترة سوق سنوى آنذاك ، فكيف اذا تعددت تلك الاسواق في المدن القشتالية ؟

يبدو مما تقدم ، انه في الوقت الذى كان الملوك الكاثوليك يفرضون الضرائب على التجارة العامة الكبيرة للحصول على الموارد ، لكنهم كانوا يشجعون عقد مثل تلك الاسواق الاسبوعية كوسيلة لتحفيز الفلاحين لزيادة انتاجهم عن طريق اعفاء منتوجاتهم من الضرائب ، هذه السياسة ربما تفسر لنا الى حد ما عدم حدوث مجاعات او تكرار مواسم رديئة للحصاد بصورة ملحوظة خلال فترة حكمهم الطويل بالرغم من وجود اشارات على زيادة السكان في قشتالة آنذاك [٦٣] .

والخلاصة ان قشتالة تمكنت من تطوير وتنظيم اسواقها التجارية الموسمية والاسبوعية في خلال عصورها الوسطى المتأخرة وكانت السلع الكمالية والاساسية هي المتداولة فيها ، وهى تعكس بذلك احدى سمات الانتاج الاهلي Demostio system الذى ميز الاقتصاد الاوربي آنذاك . وبذلك فهذا لايقود الباحث الى الاعتقاد من ان اقتصاد قشتالة كان اقتصاداً تجارياً فقد ظل اقتصاداً ريفياً الى درجة كبيرة وان انتشرت فيه تلك الاسواق وان تشجيع ملوك قشتالة الى عقدها ، سواء كانت اسواقاً اقطاعية ام مدينية موسمية او اسبوعية ، وبالوسائل المتاحة كتوفير الحرية التجارية او عن طريق اعفائها من الضرائب ، كان نابعاً من ادراكهم من ان تنظيم الاسواق التجارية في المدن كان جزءاً من سياسة الدولة آنذاك في تطوير اسس الدولة القومية والذى لم تشهده قشتالة وحدها بل واغلب اجزاء اوربا الغربية آنذاك .

ملحق رقم (١)
بعض الاسواق التجارية الموسمية في قشتالة
١٤٥٤ ـ ١٥١٦

مكان الانعقاد	فترة الانعقاد كل عام	مدته بالايام	الملاحظـــــات
١ ـ مدينة دل الكامبو Medina del Campo	السوق الاول : اواسط مايس ـ اوائل تموز	٥٠	غير معفي من الضرائب
	السوق الثاني : اواسط تشرين ـ اوائل كانون	٥٠	غير معفي من الضرائب
٢ ـ مدينة دل الريوسكو Medina del Rioseco	السوق الاول : اوائل الربيع	٣٠	غير معفي من الضرائب
	السوق الثاني : ١ ـ ٣٠ اب	٣٠	غير معفي من الضرائب
٣ ـ بيالون Villalon	١٠/٤ ـ ٣٠/٤	٢٠	غير معفي من الضرائب
٤ ـ ثامور Zamora	١٥ يوما قبل عيد الصوم الكبير	٢٢	معفي من الضرائب
٥ ـ سلامنكا Salamanca	السوق الاول : ١ ـ ٣٠ حزيران	٣٠	غير معفي من الضرائب
	السوق الثاني : ١ ـ ٢٠ ايلول	٢٠	غير معفي من الضرائب
٦ ـ بلد الوليد Valladolid	خلال عيد الصوم الكبير	١٥	غير معفي من الضرائب
٧ ـ القلعة دى ابنارس Alcala de Henares	٢٤/٨	ـ	غير معفي من الضرائب
٨ ـ مدريد Madrid	سوقان عشرين يوما لكل منهما		
٩ ـ خيرث Jerez	١٠ـ٣٠ ايلول	٢٠	غير معفي من الضرائب
١٠ ـ لوس موارلس Los Morales	١ ـ ٣٠ تشرين الاول	٣٠	غير معفي من الضرائب
١١ ـ خايين Jaen	اواسط اب ـ اوائل ايلول	١٥	غير معفي من الضرائب
١٢ ـ قرطبة Cordova	السوق الاول : اوائل عيد الفصح	٢٠	غير معفي من الضرائب
	السوق الثاني : ١ ـ ٢٠ مايس	٢٠	غير معفي من الضرائب
١٣ ـ بدا خوث Badajoz	اواسط نيسان وحتى نهايته	١٥	غير معفي من الضرائب
١٤ ـ شقوبيه Segovia	اوائل حزيران وحتى نهايته	٣٠	معفي جزئيا

ملحق رقم (٢)
اسماء مشرفي الاسكان الصغار في اسواق مدينة دل الريوسكو
لعام ١٥٠٦

مكان الاشراف في المدينة	اسم المشرف
الاقمشة التي يبيعها تجار مدينة بورغس	1. Fernando Yllan y Alonso de Helejos
الاقمشة التي يبيعها تجار مدن شقوبيه وپالنسئيا	2. Pedro Barrosa y Pero Bohon
الاقمشة الاجنبية	3. Pedro Bleneer y Francisco de la Cadena
مناطق الاسماك الجافة والحية	4. Diego Gomez
الحلى والمجوهرات	5. Juan de Placios y Juan de Bienbineste
البقالة والحلويات/المفرد	6. Juan de la Gina y Pedro Caldiron
لحوم الخنزير	7. Juan de Medina
الزيوت ، عصير الفواكه	8. Diego de la Frecha y Francisco Roxo
الشمع ومنتجاته	9. Pedro de San Esteban y Juan Brabo el Mozo
الكتان	10. Diego Zequero y Alonso Ruberto
البقالة والحلويات/الجملة	11. Cristobal Nunez y Bartelome Izquierdo
الملابس النسائية الحريرية	12. Pedro de Castro y Juan Galiendo
الجلود المدبوغة	13. Rodrigo Gonzalez y Anton Cardelan?
الاخشاب بانواعها	14. Juan Carvajal y Andres Rojo
الادوات اليدوية المصنوعة من الحديد	15. Alonso Rojo
الملابس المستعملة	16. Lope de los Rios y Juan de Shagun
ملابس المحاكة والجواريب	17. Diego diez
التحفيات النحاسية ، الاحجار الكريمة ، الورق	18. Diego de Palencia
الحدادين وصناع الاقفال والمزاليق	19. Juan Calvo y Juan Caesario

المصدر :

Archive Municipal de Medina de Rioseco, Leg. 144, (Libre de Acuerdos: 1506-1521, fol, 301-307.

ملحق رقم (٣)

اسماء الصيارفة واصحاب البنوك فى مدينة بلد الوليد للفترة ١٤٩٧ ـ ١٥١٣

اسم الصيرفي	١٤٩٧ ـ ١٤٩٩ *	١٥٠٠	١٥٠١	١٥٠٢
1. Pedro de Monzon y Su hijo Cristobal		3000	2000	2000
2. Francisco de san Esteban		3000	1000	500
3. Juan de la Haya		3000	2000	1000
4. Fernando de Valladolid		3000	2000	1000
5. Alonso Ramon		3000	2000	500
6. Juan de Villalon		2000	500	500
7. Antonio de Leon		1000	500	500
8. Pero Lopez		1000	—	—
9. Francisco de Rojas y su hijo diego		1000	500	—
10. Alvaro de Bruelas		1000	1000	1000
12. Anton Garcia de Aranda		800	500	500
13. Bernaldino de Portillo		800	800	500
14. Juan de Frias		700	500	1000
15. Anton de Valladolid		700	500	—
16. Diego de la Rua		500	500	500
17. Fernando de Atienza		500	500	500
18. Gomez de Valladolid		500	500	500
19. Cristobal de Valladolid		500	500	500
20. San Esteban de la Plaza Vieja		500	—	—
21. Francisco de san Pedro		3000	—	1000
22. Francisco Morales		700	500	—
23. Yniego de Aranda		—	2000	500
24. Pedro Gutierrez de Tordesillas		—	—	500
25. Bartelome de Valladolid		—	—	500

المصدر : Archivo Municipal de Valladolid, Libro I, P.263, 393, 455, 452,456.
Libro II, P.74.

** مبالغ الضمانات اعلاه وردت بالدوكادو والذى يساوى ٣٧٥ ميرفيدى .

** وردت اسماء الصيارفة اعلاه ابتداء من عالم ١٤٩٧ ولكن دون ذكر مبالغ الضمانات التي قدموها للمجلس البلدى في المدينة

قراءة الرموز المستخدمة في الهوامش :

A.G.S. (Archivo General de Simancas, Valladolid).	الارشيف العام في سيمانكس
R.G.S. (Registro General del Sello).	قسم سجل الاوامر الملكية في ذلك الارشيف
Esc. M.R. (Escribanio Mayor de Rentas).	قسم سجلات ضرائب الدولة في ذلك الارشيف
De. C. (Diversos de Castilla).	قسم الاوراق المتنوعة في ذلك الارشيف
A.H.N. (Archivo Historico Nacional, Madrid).	الارشيف الوطني الاسباني
Osuna	قسم Osund في ذلك الارشيف وهو مخصص لاوراق الطبقة النبيلة في قشتالة
A.M.V. (Archivo Municipal de Valladolid).	الارشيف البلدى لمدينة بلد الوليد
A.M.M. (Archivo Municipal de Madrid).	الارشيف البلدى لمدينة مدريد
A.M.R. (Archivo Municipal de Medina de Rioseco).	الارشيف البلدى لمدينة دل ريوسكو

Leg. : Legajo : رزمة

Fol. : Folio : ورقة

يوجد العديد من الدراسات المحلية والاقليمية لقشتالة في القرن السادس عشر يصعب حصرها في هامش واحد · اذكر اهمها ادناه ومن خلالها يمكن الرجوع الى دراسات عديدة اخرى · يأتي كتاب كرانديه الموسوم ·
والذى يتكون من ثلاثة اجزاء وكالاتي :

(I) Carlos Y sus Banqueros
Tome I : La Vida Económica de España en una fase de su hegemonía (Madrid, 1965).
Tomo II : La Hacienda Real de Castilla, (Madrid, 1967).
Tomo III: Los Caminos del Oro y de la Plata, (Madrid, 1967).
Pérez J., L'Espagne du XVI-siecle, (Paris, 1973)
Pike R., Aristócratas y Comerciates: La Sociedad Sevillana en el Siglo XVI, (Barçelona, 1978).
Lorenzo Sana El Comercio de España con America en el Reinado de Felipe II, 2tomos, (Valladolid, 1980).
Ruiz Martin F., "Credito y Banca, Comercio y transporte en la etapa Del Capitalismo Mercantil". **en Primeros Jornadas de metodologia,** (Santiago, 1975).
Vicens Vives J., Historia Economica de España, (Barçelona, 1969).
Le Flem J.P., La Frusturación de un Imperio, (1476-1714), (Barçelona, 1982).

(2) ان تلك المناقشات المستفيضة حول تحديد الفترة الزمنية الذهبي لاسبانيا اوردها في بحثه الموسوم ·

"The Decline Of Spain : A Historical Myth?. "**Past & Present, No.** 81 (1981), P. 32.

(3) Elliot J., Imperial Spain 1469-1716, (London, 1960), P. 109.
Iradiel Murugarren Evolucion de la Industeria Textil Castillana en los siglos XII-XVI, Factores de desarroll y costes de la producción manufacturera en Cuenca, (Salamanca, 1974), P.105-15.

(4) Ladero Quesada M., La Haciendaa Real de Castilla en el Siglo XV, (La Laguna, 1973).
= = = La Hacienda Real Castillana entre 1480 y 1492, (Valladolid, 1963).
= = = Algunos datos para la Historia economica de las Ordines Militares de Santiago y Caltrava en el Siglo XV, Hispaña, (1970), P.637-662.
Moxó, S., La alcabala, sus orígenes, concepto, y naturaleza, (Madrid, 1964).

(5) Carlé M., del C, "Gran propiedad y grandes propietarios", Guadernos de Historia de España, No. 57-58, (1973).
Solano Ruiz. Ema La Hacienda de las Casas de Medinasidonia y Arcos en la Andelucia del siglo XV, (Archivo Hispalenes), Vol. 168, P.85-176.
Gerbet M-C., La Noblesse dan le Royaume de Castille 1454 á 1516, (Paris, 1980).

(6) Espejo y Paz Las Antiguas Ferias de Medina del Campo, (Valladolid, 1912).
Lapeyer H., Un Famille de Marchandes: Les Ruiz. Contribution à L'étude du Commerce entre le France et L'Espagne au temps de Fhillipe II, (Paris, 1955).

Ruiz Martin F., Lettre de Marchandes échangées entre Florence et Medina del Campo, (Paris, 1965).

Vázquez de Prada Lettre de Marchandes L'Avers, (s.d).

اعتمدت تلك الدراسات على الارشيف الخاص لعائلة آل روتب والمحفوظ في ارشيف مقاطعة بلد الوليد في شمال اسبانيا (قشتالة القديمة) وتناولت تجارة مقاطعة مدينة دل الكامبو وهى موطن تلك العائلة مع فلورنسا في ايطاليا ، ومدينة نانث بليون في فرنسا ، وانثويرب في الاراضي المنخفضة خلال النصف الثاني ·

(7) Valdeon J., Feudalismo y. Consolidacion de los Pueblos Hisp-anicos, los siglos XI-XV, (Barçelona, 1980), P.106.

Elliotte, Op. Cit. P.172.

(8) Ladero Quesada La Hacienda Real de Castilla ....., P. 88 y 146.

(9) Oligarchy and Merchant Capitalism in Lower Andelusia under the Catholic Kings: The case of Cordova y Jerez de la Frontera, in Historia, Instituciónes, y decumentos, 4 (Univ. de Servilla, 1977), P.II-33.

(10) La Real Academia de la Historia Cortes de los antigues reinos de León y Castilla, II, P. 89.

(11) A.G.S. De. C. Leg. 48, fol. 3.

(12) Carlé M.C., Mercaderes de Castilla (1252-1512), Cuadernos de Historia de España, No. 15 (1951), P. 152.

(13) A.G.S. R.G.S. 28 Marzo 1485, fol. 31.

(14)

"nuestro justicia mayor y de nuestro conejo" A.G.S. R.G.S. 4 Julio, 1485, fol. 4.

(15) A.G.S. R.G.S. 28 Marzo 1485. fol. 18.

(16) Villar Angeles, Approximación a las ferias de Medina del Rioseco 1476-1567. (Unpublished M.A. Thesis, Univ. de Duesto, Bilbao, 1974), P.62.

لكن في دراسته حول اقطاعيات Almiranto بان الملك جون الثاني منح ذلك الاقطاعي امتيازا بعقد اسواقه منذ عام ١٤٢٧ · Almirante

راجع كتابه الموسوم ·

El Estado Senorial de Medina del Rioseco bajo el Almirante Alfonso Enriquez (1389-1430), (Valladolid, 1977), P. 154.

(17) A.G.S. R.G.S. 25 Marzo, 1485, fol. 3.

(18) Valdeavellano L., El Mercado en León y Castilla durante la Edad Media, (Sevilla, 1975), P.100.

(19) Quesada M. La Hacienda Real ......, P.82-83.

حيث يذكر ان هنالك تفاصيل وافية عن تخمينات الضرائب التي كان يحصل عليها النبلاء من اقطاعاتهم وخاصة للفترة ١٤٥٩ ـ ١٤٦٢ في قسم ·

A.G.S., Esc. M.R. Leg. 5
(20) A.G.S. Esc. Mr. Leg. II.
(21) Highfield, J.R., "The Catholic Kings and the Titled Nobility of Castile," in Europe in the Late Middle Ages (ed. By John Hole), London, 1970), P.383.

تتوفر في قسم Ousuna في الارشيف الوطني بمدريد عشرات السجلات الحسابية لبعض العوائل النبيلة والتي يعود تاريخها الى اواخر القرن الخامس عشر والقرون التالية وخاصة حسابات عائلة ·

Almirante de Castilla
A.H.N. Legs. 525-527, 214-217, 418-424.
(23) La Renta Feudal en la Castilla del Siglo XV: Los Stúñiga, (Valladolid, 1977), P.53 y as.
(24) Garcia y Villar. Historia de Salamanca, Libro V (Salamanca, 1973), P.17.
(25) A.G.S. R.G.S. 18 Febrero 1480, fol. 18.
(26) A.G.S. R.G.S. 16 Febrero 1490, fol. 289.
(27) A.G.S. R.G.S. 22 Sebtimbre 1489, fol. 287.
(28) A.G.S. R.G.S. 20 1489, fol. 271.
(29) A.G.S. R.G.S. 17 Mayo 1476, fol. 249.
(30) A.G.S. R.G.S. 13 Abril 1485, fol. 45.
(31) A.H.N. Osuna Leg. 526, Carpeta 3, fol. 28.
(32) A.G.S. R.G.S. 10 Febrero 1490, fol. 80.
(33) Valdeavellano Op. Cit. P. 60
(34) The Medieval City: their origins and the revival of trade, (trans. by F. Halsey), New Jersey, 1974,
(35) A.G.S. R.G.S. 24 Seb. 1485, fol. 152.
(36) A.M.V. Libre de Actas II, fol. 6.
(37) A.G.S. R.G.S. 30 Oct. 1492, fol. 33.
y 19 Dec. 1492, fol. 46
(38) A.G.S. R=G.S. ? Mayo 1484, fol. 97.
(39) Espejo y Paz Op. Cit. P.
Ulloa M., La Hacienda Real de Castilla en el Reinado de Felipe II, (Roma, 1963), P.173.
(40) Academia de la Real Historia Cortes de los Antiguos reinos de León y Castilla tomoto II, P.89.
(41) A.H.N. Osuna, Leg. 526, Carpeta 3, fol. 28.
(42) A.M.M. Libro de Acuerdos II, P. 230.

ومن الاسواق غير المعفية من الضرائب هي اسواق Belálcazar (قرطبة) ، واسواق مدينة · Tendilla

A.G.S. R.G.S. 12 Junio 1476, fol. 402. Tendilla
A.H.N. Osuna Leg. 2068, carpeta 2, fol. 22.
(43) Vives, V., "The Economies of Catalonia and Castile", in the Spain in the Fifteenth Century, (London, 1972) P.44.

(44) Al-Hussein F.H. Trade and Business Community in Old Castile: Medina del Campo 1500-1575, (Unpublished Ph.D. thesis, Univ. of East Anglia, Norwich, 1982) P. 11-12.

Espejo y Paz Op. Cit. P.

(45) A.H.N. Osuna Leg. 525, carpeta 3, fol. 28.

(46) A.G.S. R.G.S. II Feb. 1477, fol. 58.

(47) A.M.M. Libro de Acuerdos I, (1464, 1485) P. 353.

(48) Al-Hussein Op. Cit. P. 267-68.

(49) A=M.R. Leg. 16, tol. 323, y. Leg. 17, tol. 322.

(50) A.M.M. Libro de Acuerdos 4, tol. 89.

من كتب عن تجارة الاصواف في القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعالجتها من الناحية الفقهية والقانونية هو الفقيه الاسباني في كتابه الذى نشره عام ١٧١٦ موسوم :

عن تلك الافلاسات فى مدينة بروج وبقية اجزاء اوربا في اواخر العصور الوسطى ·

Tratadi, y doctrinas practicas sobre comprasy ventas de lanas y otros generos y sobre el juego de naypes y dados con un suplemento de 26 contratos dados a luz, (Toledo, sd).

(52)

Roover, R. de., Money, Banking and Credit in Medieval Bruges:Italian-Merchant Bankers. Lombards and Money-Changers, (Oamb., Mass., 1948), P.419. passim.

(53) A.G.S. R.G.S. ? Feb. 1478, fol.36.
(54) A.G.S. R.G.S. 26 Nov. 1492, fol.170
(55)

(56) Edwards J.H., Op. Cit. P. 20.
(57) A.G.S. R.G.S. 22 Marzo 1492, fol.407.
(58) A.G.S. Esc. M.R. Leg. 16 antigua.
(59) A.G.S. Esc. M.R. Leg.68, fol. 18, y Leg. 126.
(60) Heers, J., Occidente durants los siglos XIV y XV, (Barcelona, 1976), P.121-128.
Combes J., Les foires en Languedoc au Moyen Ages, A.e.S.C., (1985), P.231-259.
(61) Gerber, M-c. Op. Cit. P.100.
(62) A.G.S. R.G.S. 3 Abril 1485, fol. 3. Villalon — السبت من كل اسبوع كان سوق
A.G.S. R.G.S. 25 Julio 1475, fol. 494. Cuidad Rodrigo — الثلاثاء من كل اسبوع كان سوق
A.G.S. R.G.S. II Febr. 1477, fol.401. Murcia — الخميس من كل اسبوع كان سوق
A.G.S. R.G.S. 3 Marzo 1475, fol. 339 — السبت طليطلة
A.G.S. R.G.S. 2 Feb. 1476, fol. 585. Yecla — الثلاثاء طليطلة

(63) بالرغم من اننا لانملك احصائيات عن عدد سكان قشتالة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر لكن هنالك بعض التقديرات تشير الى عدد سكانها ·

Carande, Op. Cit. tomo I, P.57.

«التاريخ هو الجزء الحيوي والهام من عقيدة الامة التي ننهل منها قيم الشجاعة والفروسية والأقدام»

دار العلم في حماة
مؤسسة ثقافية فريدة

بقلم : نزار سعيد ـ المحامي
دار الكرمل/دمشق

دخلت الجيوش العربية والبريطانية البلاد الشامية غبّ هزيمة الجيوش العثمانية في الحرب العالمية الأولى · وراح قائد القوى العربية الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة ، وبعض إخوته ، يجوسون خلال الديار ، مستطلعين · وكان أهالي البلاد المتعطشون للتحرر من الحكم العثماني واستعادة وحدتهم ومجد أمتهم العربية ، يرون في الشريف حسين وأبنائه أملهم لتحقيق كل ذلك ·

وجاء الأمير فيصل مدينة حماة السورية العريقة في التاسع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م / الثلاثين من شهر محرم سنة ١٣٣٧هـ/ واستُقبل استقبالاً حافلاً عند دار البلدية التي كانت قائمة على ضفة النهر «العاصي» ، قُبالـةَ أحـد النواعير ، فوق الجسر الواصل بين شَطْري المدينة · واجتمع إليه بعض وجوه المدينة · وكان فيهم المفتي السيد بدر الدين الكيلاني ووكيله السيـد نـورس الكيلانـي · وتبادل هذان والأمير حديثاً قصيراً حول ما كان الناس يتصورونه عن غرض الزيارة وعن مبايعة الاهالي لوالد الأمير بالخلافة · على أن يستأنفا الحديث بعدئذ حول بعض الشؤون التي تُهـمّ المدينـة [١] ·

وحلّ الأمير ضيفاً في «قصر العظم الذى كان قد أمر ببنائه أسعد باشا العظم ، مُتَسَلِّم [٢] حماة ثم دمشق في القرن الثامن عشر الميلادى · وفي الاحتفال بالأمير هناك ، ألقى السيد نورس الكيلاني كلمة ترحيبية أورد فيها مطلباً للمدينة هو الاستعانة على تأسيس مدرسة عامة · فتقبّل الأمير الفكرة تقبّلاً جيداً · وافتتح باب التبرعات لإنشاء المدرسة بدفعه ألف جنيه مصريّ · وكان الجنيه المصري من جملة العملات التي يتعامل بها المواطنون ·

وتحمّس الحاضرون للتبرع ، فتبعوا الأمير بما جادت به نفوسهم · واقترح بعضهم تسمية المدرسة باسم الأمير ولكن الأمير رفض واقترح تسميتها باسم «دار العلم والتربية» وهو الاسم الذي لازمها طَوالَ حياتها · وشهر في استعمال الناس المختصر بـ «دار العلم» · ومن يدري ، لعلّه قد عنّ للأمير آنئذ اسم «دار الحكمة» التي انشأها المأمون في بغداد ؟ ·· وقد وضعت «دار العلم والتربية» تحت رعاية الأمير ·

ونقرأ في وثائق الدار أن أكثريّة التبرعات تراوحت بين خمسين وخمسمئة ليرة عثمانية ذهبية ، وأن قسماً منها دُفع بالليرات الفرنسية الذهبية ، وأنه قد أضيف بعدئذ إلى التبرعات قيمة كميات من مادة السمن خلفّها الجيش العثماني المنسحب ، ووضعت هيئة الدار يدها عليها واستأذنت الحاكم العسكرى العام رضا باشا الركابي في بيعها وأخذ ثمنها · وبيعت بـ ٢٧٤٩ر٤٠ جنيهاً مصرياً وأضيف الثمن إلى التبرعات ، فبلغ المجموع بـ ٥٣٦٨ر٧٥ ليرة عثمانية ذهبية واثنين وأربعيـن قرشـاً · وثبت هذا بقرار لهيئة أمناء الدار مؤرخ ٣٠ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٣ [٣]

ونقرأ في قائمة المتبرعين أسماء أشخاص من أُسَر حماة المعروفة بأنها ذات املاك زراعية أو مناشط تجاريةَ. [٤]

---

(١) من حديث السيد فخرى الكيلاني ابن السيد نورس الكيلاني لكاتب البحث ·

(٢) المتسلم : يقابل ، في المنزلة الاجتماعية والادارية ، المتصرِّف والوالي والمحافظ · ولكنه يختلف عن هؤلاء قانونيا ·

(٣) و (٤) عن وثائق الدار · ومنها وثيقة بخط ناظر المدرسة السيد احمد الوتار الذى استلم الإدارة مؤخرا وحملها بقية حياته · ومنها نسخة بخط والده السيد سليم الوتار ·

ونلمح بينها اسم المستشار الفرنسي «موربيو» (٥) ·

وكان الأهلون قد أنشأوا حكماً محلياً لملء الفراغ بعد انسحاب السلطة العثمانية ، في دمشق ، وحلب وحماة ، وغيرها · واختار الحمويون ، بموافقة الأمير فيصل ، المفتي السيد بدر الدين الكيلاني لملء منصب «المتصرف» في الحكم المحلي لديهم · وتلقى هذا من الأمير كتاباً تاريخه الخامس عشر من تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩٢٨م/ العاشر من صفر سنة ١٣٣٧هـ/ يحثّه فيه فيصل على مباشرة العمل فوراً لخلق المؤسسة العلمية المطلوبة ، ويوضح الغرض منها بقوله : «مدرسة تبثّ في نفوس الناشئة الجديدة مبادىء الخير والوطنية والأخلاق الحسنة ، وتحثّهم على السعي والعمل ليكونوا أعضاء خير وفلاح لأمتهم ووطنهم» (٦) وأحال المتصرف الكتاب إلى السيد نورس الكيلاني بوصفه رئيساً لمجلس الدار التأسيسي المسمى أعضاؤه بـ «الأمناء» وذلك في ٣ صفر سنة ١٣٣٧هـ/ ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨م تحت رقم ١٣٢ قائلاً في إحالته «أنقل إليكم صورة الأمير العالي الذى تلقيتُه من ملاذنا المعظم قائد الجيوش العربية الشمالية سموّ الأمير فيصل أعزّ الله أنصاره · سيروا على منواله · وفقكم الله تعالى لما فيه الخير والفلاح · والسلام عليكم» · ويليه إمضاء ـ أو توقيع ـ المتصرف المذكور (٧) ·

وقبل الحرب العالمية الاولى ، كان نفر من أهل البرّ قد تبرعوا بأموالهم لتأسيس مدرسة أهلية ، عقب إعلان الحرية والدستور العثماني سنة ١٩٠٨م سمّوها (ترقي الوطن) ، وكان موقعها فوق (تل الدباغة) المشرف على ميدان المدينة الرئيسي وعاصيها · وقد تولى إدارتها أول الأمر شاب من بيروت يدعى (نجيب بليقة) نحواً من سنتين وتلاه في الإدارة الشيخ طاهر النعساني الحموي · وعقب إعلان الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م دُعي مديرها وأكثر أساتذتها إلى التجنيد في الجيش العثماني فأخذت المدرسة تتلكأ وتضعف ، حتى آل امرها إلى الأغلاق سنة ١٩١٧م تقريباً·

ذكرى تلك المدرسة كانت عالقة في خاطر المتنورين والمتعطشين للعلم والمعرفة · وكانوا يتحينون الفرص لإحيائها أو إقامة بديلٍ عنها · فلما وضعت الحرب أوزارها أو كادت ، حانت فرصة بمجيء الأمير فيصل إلى حماة ، فافترصها الحمويون ، وكانت ولادة المدرسة الجديدة «دار العلم والتربية» ·

ولم يقتصر الأمر على حماة · ففي تلك الفترة الزمنية وبُعَيْدَها وقُبَيْلَها ، راح الناس المتعطشون للمعرفة يتنادون لإقامة المدارس والمؤسسات الثقافية · وإنّا لنقرأ في جريدة (العاصمة) التي كانت الجريدة الرسمية للسلطة العربية الجديدة (٨) مقالاً افتتاحيا للسيد فخري البارودي أحد زعماء الحركة الوطنية وصاحب النشيد المعروف (بلادُ العُرب أوطاني : مِن الشامِ لبَغْدانِ) يحثّ به الناس على إنشاء المدارس الأهلية وترك الاتكال على الحكومة · ثم يخصّص فيرى ضرورة إنشاء مدرستين إحداهما تجارية والأخرى زراعية ، ويدعو إلى استجلاب الأساتذة الاخصائيين لهما «من مصر وأوروبا ، إذا لم يكن بيننا من يستطيع أن يعمل أعمالهم» ـ على

---

(٥) مثل الحكومة الفرنسية المنتدبة في حماة · وعرف بالكياسة وحسن الخلق · ومن كياسته وخلقه تبرعه للدار · وقد وَضَعَتْه الحكومة الفرنسية خلَفاً لضابط الاستخبارات النقيب «ميك» · وكان هذا شديدا عنيفا أساء للاهالي جدا ، فنقلته الحكومة الفرنسية بناء على شكوى السيد نورس الكيلاني (من حديث للسيد فخري الكيلاني المذكور سابقا) ·

(٦) عن وثائق الدار ·

(*) السيد محمد نورس الكيلاني من مواليد ١٨٨٢م درس في مدينة حماة ، وكذا في مدينة زحلة اللبنانية · والتحق سنة ١٨٩٩م بالكلية الملكية في استانبول وعاد الى حماة سنة ١٩٠٤م حيث تابع دراسة الفقة الإسلامي · واشرف خلال الحرب العالمية الأولى على تموين المنطقة الوسطى في سوريا · وعاون المفتي بدر الدين الكيلاني ، ثم خلفه في الإفتاء بعد أن أسندت لبدر الدين رياسة الحكومة المحلية · وفي سنة ١٩٢٠ عُيّن نورس متصرفاً على حماة · وظلّ في منصبه حتى سنة ١٩٢٥م · أنشأ دار العلم موضوع البحث ، والمستشفى الوطني ، ونقابةً للعمال · واجتذب الشبّانَ المثقفين للشؤون العامة ، فساهموا في السير بدار العلم ، واسسوا ناديا أدبيا وجمعية خيرية للإسعاف ، ومكتبة دار العلم · وقد ردّ عن مدينته حماة عَنَت بعض الإفرنسيين وعسفهم · وفي الربع الأخير من سنة ١٩٢٥م عيّن متصرفاً على دمشق · وقد رفض تأليف حكومة عقب ثورة ١٩٢٥م · توفي سنة ١٩٣٤م (من بيوغرافيا له بقلم ولده السيد فخري) ·

(٧) عن وثائق الدار ·

(٨) هي جريدة صغيرة بحجم يقارب حجم (الرسالة) المصرية القديمة المحتجبة · كانت تصدر مرتين في الأسبوع · وقد صدر العدد الأول منها بتاريخ ١٧ شباط (فبراير) ١٩١٩م · وكان العدد الواحد يتألف من بضع ورقات · ويحتفظ مركز الوثائق التاريخية في دمشق بنسخ من اعدادها مجلدة ·

حدّ تعبيره ـ وارتأى أن تكون نفقات المدرسة التجارية من التجار ونفقات المدرسة الزراعية من المزارعين (٩) ٠

ونقرأ ، في عدد آخر بعد سنة تقريبا من انشاء دار العلم ، خبراً عن النهضة العلمية في حلب ، وعن مساهمة الأمير فيصل أيضا ٠ وقد جاء فيه ان بعض المفكرين من شبان حلب أجمعوا على القيام بتأسيس جمعية لمؤازرة الحركة العلمية ٠ «فأمدّهم سموّ الأمير بمعونته ، ودعا كثيراً من رجال الحاضرة إلى اجتماع خَطَبَ فيه خطبةً هزّت أريحيّة القوم ، وكان قدوة لهم بالتبرع ٠ فتسارعوا للاكتتاب ٠ وحصل مبلغاً يمكن به الشروع في العمل ٠ ولم تلبث الهيئة العامة أن عقدت جلسة خاصة انتخبت فيها بضعة رجال منها ناطَتْ بهم سَنَّ نظام لجمعية سمَّتها (النهضة العلمية) ٠ وبعد إنهاء النظام والمصادقة عليه ، انتخبت عشرة رجال منها عهدت إليهم العمل به ، ومنهم يتألف مجلس الإدارة الذي انتدب لتأسيس مدارس باسم الجمعية ٠ وقد قرر مبدئياً افتتاح مدرسة ابتدائية للذكور وأخرى للإناث وحديثة للأطفال ٠ وسينهي معدّات ذلك قبل حلول أيلول» (١٠) ٠

وفي العدد نفسه مقال بقلم راشد البلّاني يشير إلى الحلي الذهبية في أيدي وأجياد الدمشقيات والسوريات ٠ ويرى الكاتب أن ما لدى نساء دمشق من الحلي تربو قيمته على مليون ليرة ٠ ويحثّ على أنه لو جمع هذا المبلغ ووضع في صندوق توفير «لكان من ناتجه ، دون أن يمس رأس المال ، ما يساعد على إقامة معهد علمي ٠٠ حسب قوله» (١١) ٠

ونقرأ في عدد آخر عن تأليف لجنة علمية في حلب لتنشيط إرسال نجباء الناشئة إلى مدارس أوربا ٠ ويضيف الخبر أن اللجنة راحت تعقد جلساتها يوميا (١٢) ٠

وفي عدد آخر خبر عن سعي شبان من حماة لتأسيس (غرف قراءة) يستنير الشعب بما يطالعه فيها من كتب ومجلات وصحف ٠ ويضيف الخبر «وقد جادت أيدي الغيورين على الوطن من إخواننا الحمويين بالمال اللازم لإتمام هذا المشروع» (١٣) ٠

وفي عدد آخر ، خبر عن تأليف جمعية (الإسعاف الخبري في حماة» أيضا ، عرضها إرسال النابغين من التلاميذ الفقراء إلى أوروبا ، لإكمال تحصيل العلوم والفنون (١٤) ٠

ويتحدث عدد آخر عن افتتاح مدرسة الحقوق العربية وعن احتفالٍ بذلك الافتتاح خطب فيه السادة نجيب الأرمنازي وفارس الخوري وعيسى اسكندر المعلوف (١٥) ٠

حتى ان الشيخ سعيد النعسان ـ مفتي حماة لاحقا ـ أسس وحده ثماني مدارس للذكور والإناث ، في تلك الفترة ٠٠ وقد أعجب به الأستاذ ساطع الحصري ـ وزير المعارف في عهد فيصل ـ وقال له حين لقيه مامعناه : أنت وحدك حكومة ٠ أنت أجلّ من الحكومة العثمانية التي لم تنشىء سوى مدرستين في حماة (١٦) ٠

---

(٩) العدد السابع من جريدة (العاصمة) الرسمية وتاريخه ١٠ آذار (مارس) سنة ١٩١٩م ٠ ١٠و١١ العدد الرابع والخمسون من الجريدة المذكورة في ٢٨ آب (اغسطس) سنة ١٩١٩م ٠

(١٠و١١) العدد الرابع والخمسون من الجريدة المذكورة في ٢٨ آب (اغسطس) سنة ١٩١٩ ٠

(١٢) العدد الخامس والخمسون من الجريدة المذكورة ٠ ونقرأ بين اعضائها اسماء السادة : عاكف الجابري مدير المعارف ، ومحمود نديم الحريري مفتش المعارف ، وفاتح المرعشي ، ووجيه المدّرس ، وراغب الطباغ ٠

(١٣) العدد السابع والخمسون من الجريدة المذكورة ، وتاريخه ١١ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٩١٩م ٠ ومنه نفهم أن المراكز الثقافية الحاضرة والمكتبات العامة في أيامنا ليست بالجديدة علينا ٠

(١٤) العدد الثاني والسبعون من الجريدة نفسها ، وتاريخه ١٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩١٩م ٠ وقد تولى الأرمنازي والخوري التدريس في المدرسة وعرفت فيما بعد باسم (معهد الحقوق) ثم (كلية الحقوق) ومازالت قائمة إلى يومنا ٠ والدكتور الأرمنازي المذكور هو من ابناء حماة ، وقد تولى في زمن لاق ، إبّان الحكم الوطني ، منصب الأمين العام لرياسة الجمهورية ٠ أما فارس الخوري السياسي الوطني المخضرم المعروف ٠ وقد تولى عدة وزارات ورياسة مجلس الأمن في منظمة الامم المتحدة وأما عيسى إسكندر المعلوف فهو معروف وعضو المجمع العلمي العربي سابقا ٠

(١٦) الرواية للأستاذ فخري الكيلاني ٠ ولعلها واردة فيما كتبه الحصري ٠

وإلى هذا الحماس لنشر التعليم والثقافة ، أشارت الدكتورة خيرية قاسمية في كتاب لها · فقالت : إن الأمير فيصل لحظ في أثناء زيارته حمّاة «شعاع نهضة شعبية من أهمّ مظاهرها الاهتمام بنشر التعليم بين أبناء الشعب فاستنهض هِمَمَ الأهلين لجمع التبرعات من أجل نشر العلم وافتتاح المدارس · فجمع في جلسة واحدة ٤ آلاف جنيه ذهبية ، ووعد الآخرون بإبلاغها حتى ١٢ ألف جنيه اخرى ، لسدّ هذا النقص ·· [١٧] · والمقصود هو التبرع لإنشاء (دار العلم) ·

تلك هي الظروف التي سبقت ورافقت ولحقت ولادة (دار العلم والتربية) في حماة · وكان السبق والريادة لمدرسة حماة التي نهض بها القوم قبل سنة ، أي منذ ١٩١٨م بل منذ عام ١٩٠٨م عام الدستور العثماني وشعار التحرر ، حين انشأوا مدرسة (ترقّي الوطن) التي اغلقت بسبب الحرب وظلوا يحنّون لاستعادتها ، كما رأينا ·

بَيْدَ أن مدرسة حماة كانت فريدة في بابها : في اسمها ، وتشكيلها ، وغرضها ، ونهجها · كانت أكثر من مدرسة أو مؤسسة · كانت مؤسسة كبرى ، كما سيتضح من البحث · ولم يطلق عليها اسم (دار العلم والتربية) عبثاً ·

فقد رأينا كيف تولدت من قلوب وجوه المدينة المجتمعين بالأمير فيصل ، وكيف أقاموها على تبرعاتهم وتبرعات أهل البرّ والإحسان التي توالت على الزمان · وقد انتخب الحاضرون الأولون لها مجلساً عاماً من ستة أشخاص أو سبعة ، سُمّي مجلس الأمناء أو هيئة الأمناء وهو بمنزلة الهيئة العامة · وهذا المجلس يختار من ذاته رئيساً له وأميناً للصندوق ويختار لإدارة المدرسة هيئة أو مجلساً يسمى مجلس العمدة ، ومن أعضائه مدير المدرسة الذي هو حُكْماً عضو أيضاً في مجلس الأمناء · ولم يكن يسمح لأحدٍ بأن يجمع بين أمانة المجلس ووظيفة لدى الدولة · ولم يكن الأمناء يتناولون مرتبّات ؛ أي ان عملهم كان لوجه الله والعلم والتثقيف ·

أما عن هيئة التدريس ، فكان المدرّس يتناول أنذاك أجراً مقداره عشر ليرات ذهبية فرنسية شهرياً ، في حين يتناول المدير أربعين ليرة ذهبية شهرياً ويسكن مسكناً في الـــدار بالمجّان ·

اشتملت الدار على مدرسة حضانة ، ومدرسة ابتدائية وأخرى إعدادية تلاها قسم ثانوي فيما بعد · واشتملت أيضا على قسم داخلي ليلي · ولكي يتشجع أبناء الأقاليم والأرياف على الالتحاق بالقسم الداخلي ، التحق به نفر من أبناء حماة وفي طليعتهم أولاد السيد نورس الكيلاني على الرغم من أن منازلهم في المدينة [١٨] · وتألفت في الدار فـرق رياضيـة وكشفيـة وموسيقية ومسرحية · وأنشئت ، فيما بعد ، مكتبة ضمّت اليها مكتبة شهيرة للسيد نوري باشا الكيلاني نقيب الأشراف وغُذيت المكتبة بتبرعات الأصدقاء ، ومنهم الأمير عمر طوسون وأحمد زكي باشا المصريان اللذان زارا الدار وقدما إليها عدداً من الكتب النفيسة · وصارت المكتبة مرجعاً أول لشُداة الثقافة استفادوا منها كل الفائدة · وبعد ان انتقلت الدار إلى قصر العظم ، باتت قاعاته الأثرية الشهيرة مَرَاداً ومَلْقى للأشخاص البارزين والوافدين ·

واتخذت الدار مقراً لها ، باديء ذي بدء ، في مبنى وسط المدينة يطلّ على ميدانها الرئيسي قريب من النهر العاصي [١٩] وجهزت بجهاز معجل أُتي به من مدرسة الترقي المغلقة ومن جهات أخرى · ولم تلبث هنا مدة سنتين حتى انتقلت إلى قصر العظم · وكان القصر في ملكية السيد ناصح المؤيد العظم حفيد باني القصر أسعد باشا العظم · وكان السيد ناصح مقيماً في الخارج وله وكيل في حماة · وبعد جهود بذلتها هيئة الأمناء مع المالك ووكيله ، أفلحت في شراء القصر سنة ١٩٢٠م باسم مؤسسة دار العلم والتربية · وعندئذ انتقلت المؤسسة إلى هذا القصر الذي صار يعرف باسم (دار العلم والتربية) أو (دار العلم) اختصارا ، كما قلنا · ورحب القصر الكبير لاستيعاب مناشط الدار المتسعة ·

---

(١٧) كتابها (الحكومة العربية في دمشق) طبعة ثانية ص٢٤٥ وذكرت الكاتبة في الهامش ان فيصلا ذكر هذا الحادث في خطابه في حلب ـ نوفمبر أو تشرين الثاني سنة ١٩١٨م · وأحالت إلى مؤلَّف للأستاذ ساطع الحصري ·

(١٨) كان من جملة الملتحقين بالقسم الداخلي السادة : طالب ورشاد وعادل الحراكي من معرّة النعمان · وسيّد من آل البلاّني · كما يذكر زميلهم السيد فخري بن نورس الكيلاني ·

(١٩) هو مبنى السيد حقي العظم ، وكان مرهونا لدى السيد احمد آغا البرازي · فافتكت هيئة الامناء الرهن وشغلت المبنى · وقد عرف فيما بعد باسم (فندق العاصي) وهو يقابل الآن مبنى فندق أبي الفداء الشهير ·

وقد رأينا أن أول رئيس للامناء كان السيد نورس الكيلاني المبادر الأول الذي فاتح الأمير فيصل في شأن المؤسسة · وظل رئيساً مدة أشغاله لمنصب المفتي فالمتصرف خلفاً للسيد بدر الدين الكيلاني في حماة [٢٠] ، ثم لمنصب متصرف دمشق ، وحتى وفاته سنة ١٩٣٤م ·

وتولى أمانة الصندوق الحاج أحمد المنشوق الذي ظل في منصبه طوال حياته ، لمكانته في عالم التجارة · وكانت اجتماعات الأمناء الأولى تعقد عنده ·

وأول من تولى إدارة المدرسة المعلم السيد توفيق الأحدب · وقام بتدريس العلوم فيها · وآزره الشيخ جميل العباس بتدريس اللغة العربية والشيخ محمود العثمان بتدريس الأمور الدينية · وبذل السيد الأحدب جهوداً كبيرة للنهوض بالمدرسة · ثم تركها بعد أشهر لمتابعة دراسة الهندسة الزراعية في فرنسا [٢١] · فخلفه السيد عمر ترمانيني [٢٢] · ثم حمل الراية الدكتور الشهيد صالح قمباز · وكان قد أنهى دراسة الطب في تركيا وعاد إلى حماة تَمُور في رأسه أفكار عن التقدم ومشروعات الإصلاح · وكان أحد أمنـــاء مؤسستنا · وكذا عاد الدكتور توفيق الشيشكلي طبيب العيون من (زحلة) ليساهم في النهضة الوطنية ·

رأى الدكتور قمباز في المؤسسة ـ وفي المدرسة على التخصيص ـ مجالاً عظيما لتثقيف الناس بالعلم والعرفان والثقافة القومية · فأكبّ على مهمته وبذل لها كل جهوده · وانشأ جمعية كشفية ، واخرى مسرحية ، وثالثة تعاونية للطلاب · وراح يبث تعاليمه في نفوس الطلاب ، وحتى في نفوس أبناء المدينة من خلال الحفلات التي يحضرونها بدعوة من المدرسة · وقد قصد فرنسا لاستكمال معارفه الطبية · وهناك كان يهتم بكل ما يفيد المؤسسة ، ويتصل بالساسة الفرنسيين ويدافع عن القضية العربية · واستقدم من فرنسا الوسائل الحديثة لدار الحضانة والأدوات المخبرية للمدرسة ولما عاد ظلت الدار والمدرسة ديدنه ، إدارة وتدريسا · كان مثالاً رائعا في كل شيء رفع ذات يومٍ بين إصبعيه بقيةً من قلم رصاص من نوع (الكوبيا) عليه ألوان العلم العربي ، وقال لطلابه : «هذا القلم عمره خمس سنوات» ، موحياً ـ وهو الطبيب ـ بدرس في الاقتصاد للأمة الفقيرة التي تريد النهوض ، حين لم يكن لحزمة الأقلام الكاملة ثمن يذكر · ورأى مرةً حَوْجَلَةً مكسورة من الأدوات المخبرية · فغضب ، وراح يسأل عن كاسرها · ولّما عرفه أصر على الزامه بجلب بديل عنها من أوروبا ·

لذلك ، لا غرو أن تضيق السلطة الفرنسية ، المستعمِرة ، بالمؤسسة وبالمدرسة وان تسعى لإلغائها · مثلما ضاقت بحكومة الاستقلال العربية الأولى وتذرعت بذرائع لتدخل البلاد وتقضي على استقلالها · ولكن متصرف حماة ، وراعي المؤسسة الأول ، السيد نورس الكيلاني ، كان يحميها من تهجم الفرنسيين · بل كان يدعمها بما يستطيع من نفوذ · ومن ذلك أنه ، بسبب منصبه ، عمل على تحويل سوق صغيرة من ملكية الدولة إلى ملكية (دار العلم) معروفة باسم (سوق المعارف) موقعها في منطقة (الحاضر) شرقي النهر . وتضم عدداً من المخازن ، وكانت المؤسسة تستفيد من ريعها ومن ريع عقارات أخرى تملّكتها في مواضع مرموقة من المدينة ·

ولم يطل عمر الدكتور قنباز ، هذا الرائد العظيم ، فسقط شهيد الثورة السورية سنة ١٩٢٥م · وعرف مواطنوه مقدار الخسارة بفقده ، فبكوه ، وتداولوا صوره وطبعوها على الدفاتر والكتب المدرسية · وما تزال إحدى المدارس تحمل اسمه حتى اليوم · واختار الأمناء أمينا جديداً ، بديلاً عن الدكتور الشهيد ، أخاه الصيدلاني السيد عبدالحميد قنباز ورئيساً للعمدة الدكتور توفيق الشيشكلي زميل الدكتور الشهيد ·

وبعد الثورة تولى إدارة المدرسة التاجر والصحافي المتنور السيد عبدالرزاق الأسود صاحب جريدة (الشعب) · ثم خلفه السيد راشد طبارة من بيروت ، ولم يطل به العهد لما لقي من مضايقة بسبب شدته · وبعده استسمى السيد نورس الكيلاني الذى غدا متصرفا على

(٢٠) كان السيد بدر الدين قد توجه الى بيروت لمعالجة مرض عضال ألمّ به · وهناك طلبه الجنرال الفرنسي (غورو) أن يجتمع به ، وحدد له موعداً · ولم يلبث أن توفي · فخلفه السيد نورس في منصب المتصرف عام ١٩٢٠م (من معلومات السيد فخري الكيلاني) ·

(٢١) التحق الأحدب بوزارة الزراعة بعدئذ ؛ وشغل فيها مناصب عالية ، منها التفتيش والأمانة العامة للوزارة ·

(٢٢) كذلك حصل الترمانيني على شهادات زراعية ، والتحق بوزارة الزراعة ، وأدار بنشاطٍ معاهد زراعية وأصدر مجلة (الزراعة الحديثة) ·

دمشق ، لإدارة المدرسة ، الأديب المربّي الشاعر الأستاذ عمر يحيى [٢٣] . فاتخذ هذا من المدرسة سكناً له . ولم يكتف بالإدارة ، بل زاول التعليم ، وعلّم أكثر الدروس العربية ، والفرنسية ، والعلوم ، حتى الرياضة البدنية . وظل في مهماته أربع سنوات رائداً ثانياً وجندياً في سبيل الواجب ، كما كان شأنه طوال حياته .

وقد توالى على الإدارة والتدريس في المدرسة كثيرون من الرجال المعروفين في سوريا ولبنان وغيرهما من البلاد العربية ، نذكر منهم السيد سرّي الأتاسي ، من مدينة حمص وابن رئيس الجمهورية السورية الأسبق السيد هاشم الأتاسي . ومنهم الأديب والمربّي المعروف السيد عبدالله المشنوق ، من بيروت ، وصاحب جريدة (بيروت المساء) ، وهو من أصل حموي ، وقيل إنه كان متشدداً في شروطه على مجلس الأمناء . ومنهم المجاهد الكبير المعروف السيد عثمان الحوراني ، وكان يدرّس التاريخ والجغرافيا . ومنهم الشيخ أمين الكيلاني [٢٤] وكان يدرّس العربية . ومنهم السيد أحمد الأوبرى الموسيقيّ من حلب . وقد درسّ الموسيقى ، وألّف فرقة موسيقية منه ومن الشيخ أمين الكيلاني مدرس العربية نفسه ، ومن السيد توفيق حمدون مدرّس الموسيقى بعدئذ في مدارس حماة ، ومن السيد هاني الكيلاني بن نوري باشا الكيلاني نقيب الأشراف وهو الذى قدم مكتبة والده نوري باشا فضمّت إلى مكتبة الدار ـ على ما تقدم . ومنهم السيد عادل العلواني ، وكان يدرّس اللغة الفرنسية [٢٥] في هذه الدراسة ، والمدرّس للغة الفرنسية في الثانويات من قبل .

وقد تتلمذ في مدرستنا وتخرج منها أفراد شغلوا مراكز كبرى في مستقبل حياتهم . ومنهم ، على سبيل المثال ، السيد أكرم الحوراني السياسي المعروف . والعقيد أديب الشيشكلي حاكم سوريا الفعلي في أوائل الخمسينات من قرننا العشرين . والدكتور رفيق الفرّا أستاذ العلوم في جامعة دمشق . والدكتور عبدالعزيز العثمان أستاذ التاريخ ومدير (دائرة التأمين والمعاشات) في سوريا سابقا . والاستاذ فخري الكيلاني ، المشار اليه

هذه هي مؤسسة (دار العلم والتربية) الفريدة . أنشاها أهل البرّ ومحبّو العلم والتعليم . وعاشت بجهودهم وجهود من ساهموا فيها ، وعلى تبرعاتهم والتبرعات المتصلة ، وعلى أقساط الطلاب وثمرات أملاكها العقارية . وظلت أيدى وجوه من مدينة حماة وسواها تتوالى عليها ، إشرافا وإدارة وتدريسا . وكانت تطبع في كل عام صورة عن (ميزانيتها) تنشرها في الناس.

لم تكن ملكا لشخص ، ولا للحكومة . ولم تكن تابعة لأي جهة حكومية . ولم يدّع أحد ، لا في السابق ولا في اللاحق ، أنه مالكها أو أنه وارث لمالك لها . كانت وظلت ملك الأمة . وكأني بمجلس أمنائها ، الذين كانوا يدفعون من أموالهم ولايتناولون أجراً ، أشبه بمجلس سوفييتي [٢٦] ويقينا أنه لم يستوح أحد من المؤسسين أي فكرة من الثورة الاشتراكية السوفييتية ، لأن الثورة المذكورة التي قامت سنة ١٩١٧م كانت ماتزال وليدةً تحبو عندما برزت فكرة (دار العلم) في حماة سنة ١٩١٨م . ولم تكن اصداء التطبيق الاشتراكي في الدولة الاشتراكية الأولى قد بلغت مسامعنا . ومن المؤكد أيضا أن الذين أسسوا الدار ونهضوا بها لم يكونوا يدينون بالاشتراكية ، فهم إما من الملاكين الزراعيين وإما من التجار .

هذا الطراز الفريد والرائد من ملكية الأمة نشأ طواعية ولم ينشأ قَسْراً ـ وبين الحالين فرق كلّي ـ فلم تُنتزع أملاك أو تُصادر ، ولم يحدث عنف ، في سبيل تكوين هذا الشكل من ملكية الأمة .

وقد حاولت الحكومة ، في بعض الظروف ، أن تضع يدها على المؤسسة ، في غمرة الصراع بين الأمة المناهضة للمستعمِر والفئات الداعية إلى التفاهم معه . فعندما

---

(٢٣) من رجال الأدب والتربية المعروفين . درّس الآداب واللغة العربية في ثانويات متعددة . وأصبح مديراً للتربية . أقام شطراً طويلاً من حياته في حلب تَتَلْمَذَ له آلاف الطلاب .

(٢٤) هو والد السيد هيثم الكيلاني رئيس التحرير حاليا في مجلة «شؤون عربية» التي تصدرها الجامعة العربية .

(٢٥) وقد أصبح محاميا ثم قاضيا شرعيا أول في دمشق .

(٢٦) كلمة (سوفييت) تعني لجنة .

أصبح السيد حسني البرازي وزيراً للمعارف سنة ١٩٣٤م ألغى مجلس الأمناء ومجلس العمدة الأهليين [٢٧]

وكان السيد نورس الكيلاني قد انتقل إلى جوار ربه . وألف الوزير المذكور مجلس أمناء جديداً : من أفراده الحاج أحمد المشنوق أمين الصندوق الدائم ، والصيدلاني السيد عبدالحميد قنباز ، والمالكين الزراعيين السادة فريد العظم ومخلص الكيلاني ورفقي طيفور . وعين هذا الأخير رئيساً لمجلس الأمناء ، كما عين السيد مظهر الكيلاني مديراً للمدرسة [٢٨] .

ولكن ، عندما تألفت الحكومة الوطنية غبّ عقد معاهدة بين الوطنيين والفرنسيين سنة ١٩٣٧م . احتج أهل المدينة ، لدى وزير المعارف الجديد الدكتور عبدالرحمن الكيالي ، على افتئات السلطة السابقة وعدوانها . فألغى هذا الوزير مجلس الأمناء المعين ، وكلف محافظ حماة أن يدعو المؤسسين الذين مازالوا أحياء إلى معاودة تسنّم العمل وفق نظام المؤسسة [٢٩] . واختير السيدان رفقي طيفور وجميل البارودي لإكمال نصاب الأمناء بدلاً من المرحوم نورس الكيلاني ومن السيد توفيق الأحدب الذي عُدَّ مستقيلاً بسبب إشغاله وظيفة لدى الدولة خلافاً لنظام المؤسسة الذي يرفض الجمع بين الأمانة والوظيفة . واختار مجلس الأمناء المجدد الدكتور توفيق الشيشكلي رئيساً له . وكان زعيم (الكتلة الوطنية) في حماة .

ولم يطل عهد الازدهار ، رغم إعادة الأمور إلى نصابها بذلك التدبير الجديد . فقد تَعاوَرَتِ المؤسسةَ صروفُ الدهر ، وتخرّمَ رجالَها واحداً بعد آخر . وأخذ الإشعاع يخبو . وفترت حماسة الرجال التالين . ولعلّه من قوانين الوجود أن الجماعات التالية ، في أكثر المؤسسات ، لا تكون على مثل حماسة الطلائع الأولى واهتمامها !

وآلت مقاليد مؤسستنا إلى الباقي على قيد الحياة من رجالها القدامى ، وهو الناظر ثم المعلم السيد أحمد الوتار وتدارس هذا والعقيد أديب الشيشكلي ـ ابن المدرسة ـ أمر تحويل قصر العظم إلى ملكية الدولة . ولكن الشيشكلي نُحّي عن الحكم عام ١٩٥٤م قبل تنفيذ الفكرة . وفي عام ١٩٥٦م اشترت الإدارة العامة للمتاحف والآثار السورية قصر العظم بثلاثمئة ألف ليرة سورية فقط ، وهو مقدار قد يبدو غير بخس إذا قورن بأثمان العقارات في ذلك الزمن ، ويُعدُّ بخساً بالقياس إلى القصر ومكانته التاريخية وارتباطه بالمؤسسة المحكي عنها .

واتخذت المؤسسة داراً جديدة من الأبنية الحديثة المألوفة ، الخالية من الرونق والبهاء ، تقوم عند مدخل حماة الجنوبي في طريق المسافرين إلى حمص . حتى هذا البناء ، حدث تنازل عنه أيضاً إلى وزارة التعليم العالي السورية كي تقيم فيه كلية للبيطرة ، أملاً في استفادة المواطنين منها [٣٠] . واستعاضت المؤسسة عنه مكاناً قصيّاً في طرف المدينة . وتقاصر ظلّها كثيراً ، وخمد صيتها ، ولم يبق لها شأن يذكر . وعملها اليوم منحصر في دار حضانة بسيطة . ولها هيئة أمناء قائمة منذ سنة ١٩٨٣م . وبعض الأمناء كان ـ ولعله مايزال ـ من الموظفين لدى الدولة ، خلافاً لمبدأ المؤسسة الذي يحظر الجمع بين الوظيفة والأمانة . ولا ندري الطريقة المتبعة حديثاً في اختيار الامناء ، وما عساهم يفعلون بعد تقهقر المؤسسة . أما المكتبة ، فلم تبق مُسْتَراداً لروّاد المطالعة والثقافة الذين كانوا يعبّون منها ومن موسيقى النواعير الشجية وخرير المياه المتدفقة في قنواتها .

هكذا قضي على المؤسسة الجليلة النادرة . وما كان لأحد أن يتنازل عنها وعن مقرّها ـ قصر العظم ـ فهي وهو ملك الأمة . وإذا قيل إن الأنظمة تسمح لإدارة المتاحف والآثار بأن تستملك ما تراه ذا قيمة أثرية وتستبقيه متعةً للمشاهدين ، وإن الحال واحدة في ملكية الدولة وملكية الأمة .. إذا قيل هذا ، فجوابه هو أنه لايجوز لأحد ـ مهما كان شأنه ـ أن يتنازل عن ملكية الأمة إلى الدولة ، وعلى الأخص بعد تناثر عقد الأمناء المؤسسين . وإن ثمة فرقاً صارخاً ، حقوقياً وسياسياً واجتماعيا ، بين ملكية الأمة وملكية الدولة ، وهما ملكيتان يحصل الخلط الشديد بينهما ، ويا للاسف ! ..

وقد كان الاصح ان يبقى القصر في ملكيـة الأمـة ، وان يفتح للزائرين ، وهو في الحقيقة لم يكن مغلقا في وجوههم .

(٢٧) بموجب الأمر الوزاري ذي الرقم ١٤٠/٢٤٠٦ والتاريخ ١٩٣٤/٨/٣٠م . وكذا الأمر الوزاري ذي الرقم ١٤٩/ ٢٥٨٤ والتاريخ ١٩٣٤/٩/٢٧م .

(٢٨) وقام أيضا بتدريس العربية والفرنسية . وأصبح بعدئذ قاضيا وتدرّج في القضاء حتى صار نائبا لرئيس محكمة النقض .

(٢٩) قرار الوزير برقم (٧/٢٩٥) وتاريخ ١٩٣٧/١٢/٢٩م .

(٣٠) وفق تصريح الأديب السيد وليد قنباز ، مدير المؤسسة منذ سنة ١٩٨٣م .

وبعد يظل البحث أبتر إذا لم يلحق به نبذة عن القصر .

قلنا إن القصر أمر ببنائه أسعد باشا العظم يوم كان متسلّما لحماة . وذلك في سنة ١١٥٣هـ حسب ما هو ثابت على جدران قاعته الرئيسية . وهي توافق سنة ١٧٤٠م [٣١] .

ثم أمر ببناء صِنْوه في دمشق ، بعد أن انتقل اليها وذلك سنة ١٧٥٠م [٣٢] . وجدد بناء القصر الحموي نصوح باشا العظم سنة ١١٩٤هـ . حسب ما هو مثبت أيضا في جدران القاعة .

ويفترق القصران بعدة فوارق . فقصر حماة يقوم بجانب النهر بين المغاني والبساتين والنواعير التي تغرّد من حوله . وحجارته أصلب . وبناؤه موحد في الطراز ، لا يندّ عنه إلا عمود من أعمدة الرواق المفضي إلى القاعة يُشَكُّ في تجانسه وبقية الأعمدة . أما قصر دمشق ، فهو أوسع ، ويقوم بين الأسواق المتفرعة عن سوق الحميدية خلف الجامع الأموي . وحجارته أقلّ صلابة ، ولذا بدا عليه التأكل . وهو يفتقر إلى وحدة الطرز ، لأنه يضم حجارة ومنحوتات ومنقوشات مختلفة منتزعة من أبنية أخرى . ولكنه أجمع للسائحين ، لقيامه في العاصمة . وهو اليوم متحف للتقاليد الشعبية .

يتألف قصر حماة ، أو دار العلم ، من قبو ودور أول أرضي ودور ثان علوي ، ويشتمل على عدد من الغرف والأفنية والأواوين . وفي الدور الأول غرف الصفوف الدراسية (الفصول) والطعام والمناشط الأخرى الرياضية الكشفية والمسرحية والموسيقية ، والمكتبة . وفي الفناء بركة يصب فيها الماء من نوافير على هيئة سباع ، وشجرة «ملونيا» او «متوليا» ـ نادرة ضخمة معمّرة يعود تاريخها إلى ما قبل إنشاء دار العلم ، وما تزال قائمة إلى يومنا . والشجرة يتيمة في المدينة أو كاليتيمة ، لامثيل لها إلا شجيرة من نوعها غرسها أحد الوجهاء في حديقته
وترتبط شجرة دار العلم بتقليد لازمها السنوات الطويلة . ذاك أنه عند تفتح أزهارها الكبيرة الرائعة الفاغمة ، كانوا يقدمونها هدايا إلى الأمناء والعمد والأساتذة والمحسنين وبعض رجال المدينة المرموقين . وقد أبطل في الزمن الأخير هذا التقليد الحسن .

أما الدور الثاني ، فيتألف من فناء وغرف ، ومن رواق على أعمدة ، أمامه بركة ليست بذات زخارف تشدّ النظر والرواق يفضي إلى قاعة رئيسية كبيرة شهيرة هي أجلّ وأجمل ما في القصر ، تضمّ طُرفاً من الفنّ في البناء والنحت والنقش والخط والرسم . وهي في الحقيقة ثلاث قاعات أو ثلاثة أجزاء ، ولكنها عرفت بالقاعة اختصارا .

يفتح باب القاعة الرئيسي على إيوانٍ أرضه من الرخام رفعت فيها أعمدة حجرية ورخامية ثمينة يعتمدها السقف وتستقبل الداخل إلى الأيوان فسقية رخامية في عتبته تتوسطها فوّارة رخامية من حجر واحد حفرت فيه أنابيب متعددة يندفع منها الماء بقوة وتَشَابُكٍ فيلوح كأنه ثريا من البلّور تكسرت عليها أشعة الشمس .

ويرتفع عن الايوان قليلاً ، عن يمين ويسار ، جناحان أو قاعتان ثانويتان متقابلتان مبنيتانٍ بالحجر الرخامي الملوّن الموشح بالجبس الذى وشّاه الذهب والأصباغ . وتفتح نوافذ القاعتين على النهر العاصي والحدائق والمغاني والنواعير المجاورة . وفوق الجدران ، نقشت آيات واحاديث وأشعار ورسوم هندسية عربية وأزهار وفواكه ؛ إلى جانب مناظر طبيعية ، منها منظر القرن الذهبي في استانبول (أو إسلامبول) ومنظر لمدينة حلب وقلعتها الأثرية . وفي طرف القاعة الغربي ، مخدع أو منظرة تسمى (الكشك) تطلّ على فناء الدار السفلي وشجرة الملونيا الأخّاذة .

ومما يجلب نظر المتأمل في جدار القاعة الخارجي ، أن الملاط الذي يمسك حجارته هو من مادة الرصاص المسكوب بدلاً عن الكلس والجبس أو عن الاسمنت الذي لم يكن معروفاً في القديم .

ولا يحسبنّ القارىء هذه الصورة للقصر راهنة . إنما هي من الماضي . وقد حالت بتطاول الزمان والحدثان عليه وعلى «سوق المعارف» وبات القصر ولا سيما قاعته ، محتاجاً إلى الترميم والأصلاح . وهو يستحثّ همم الغيورين على التراث والأثر . ولا بدّ لذلك من رصد مالٍ وافٍ ، ومن الاستعانة بأهل الخبرة في التاريخ والفن .

فهل من مُصْغٍ ؟ وهل من مُجيب ؟

---

(٣١) ورد التاريخ الميلادي على لسان مدير لآثار في حماة الأستاذ عبدالرزاق زقزوق . ولكن وزارة الساحة ذكرت في نشرة لها انه ١٧٤٢م . وهذا خطأ ناشيء عن تحويل التاريخ الهجري الى الميلادي .

(٣٢) حسب تصريح الأستاذ زقزوق المذكور . وفي نشرة وزارة السياحة أنه سنة ١٧٤٩م . وكذا كتاب الدكتور الشهابي (دمشق : تاريخ وصور) الصادر حديثا .

التاريخ مهم في تكوين الوعي وفي التوجيه نحو الوحدة ، وفي تخطي الكثير من السلبيات

اضواء على العلاقات السوفيتية
بدول اوربا الشرقية

الدكتور عبداللطيف حسن الرميحى
رئيس قسم الدراسات العامة
جامعة البحرين

اضواء على العلاقات السوفيتية بدول اوربا الشرقية

ان طبيعة العلاقات التى تربط الاتحاد السوفيتى بدول اوربا الشرقية طبيعة معقدة ، تتداخل فيها اعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية ، وفوق كل هذا وذاك اعتبارات استراتيجية تحكمها المصالح الضخمة للاتحاد السوفيتى فى القارة الاوربية ، وهى المصالح التى قدم الاتحاد السوفيتى من اجلها تضحيات جسيمة خلال الحرب العالمية الثانية · لقد استحوذت العلاقات التى تربط الاتحاد السوفيتى بالدول الصغرى فى حلف وارسو على اهتمام العالم فى السنوات الاخيرة نتيجة لظهور اتجاهات تحررية فى واحدة من اكبر دول المنظومة الاشتراكية حجما ونفوذا ، وهى بولندا التى سمى الحلف الدفاعى الذى يربط الدول الشيوعية باسم عاصمتها · لقد ادى ظهور نقابة العمال تضامن تحت دائرة الضوء ووصول كاردينال بولندى الى منصب البابوية الى تساؤلات عديدة وجادة فى الاوساط السياسية والصحفية حول مستقبل العلاقات بين هذه الدولة الاشتراكية ودولة القيادة الاتحاد السوفيتى ·

ان التطورات التى أثارت الاهتمام فى بولندا تدعونا لمحاولة تسليط الضوء بصورة اعمق على الخط الذى اختطته العلاقات بين الاتحاد السوفيتى وجيرانه من دول اوربا الشرقية منذ منتصف الخمسينات ، مركزين ، بشكل خاص ، على الاحداث التى وقعت فى اربع دول اوربية شرقية هى : هنغاريا ، بولندا ، ورومانيا ، وتشيكسلوفاكيا ، والتى سببت ، بلاشك ، شرخا خطيرا فى مسار العلاقات بين دول المنظومة الاشتراكية بعضها مع بعض وبين هذه الدول والاتحاد السوفيتى ·

أزمة فى هنغاريا :

ارتبطت هنغاريا بعلاقات وثيقة بالاتحاد السوفيتى منذ وصول الشيوعيين الى السلطة فيها فى اعقاب الحرب العالمية الثانية · ولكن عام ١٩٥٦ جاء ليخلق تصدعا فى هذه العلاقات ، الامر الذى فرض على الاتحاد السوفيتى اتخاذ اجراءات صارمة تجاه الاحداث التى وقعت فى اراضى جارته الغربية · ففى اواخر فبراير من عام ١٩٥٦ اندلعت تظاهرات ضخمة فى قلب العاصمة الهنغارية بودابست بشكل غير عادى ، عصفت بالعاصمة من اقصاها الى اقصاها صبت فيه الجماهير جام غضبها على التمثال الضخم للقائد السوفيتى الشهير ، جوزيف ستالين حيث أحالته الى حطام متناثر الاوصال (١) · ولكى نتفهم دوافع الجماهير الكامنة وراء ذلك العمل الخطر لابد لنا من التذكير بان هنغاريا كانت قد ذاقت الامرين من جراء السياسات المتشددة التى طبقها الاتحاد السوفيتى فيما يتعلق بالحريات العامة واستقلالية القرار السياسى ابان فترة حكم جوزيف ستالين · ولكن الفترة التى تلت نهاية حقبة حكمه شهدت تراجعا ملحوظا عن السياسات التى كانت قيد التطبيق فى الاتحاد السوفيتى · وفى الفترة ما بين ١٤ ـ ٢٥ فبراير من عام ١٩٥٦ ، انعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى وسط ظروف غير عادية · وخلال جلسات المؤتمر ، القى سكرتير الحزب الشيوعى نيكيتا خرتشوف الذى كان قد خلف ستالين ، خطابا شهيرا كرسه للهجوم على ستالين واعماله ومنجزاته وما اسماه بمبدأ عبادة الشخصية الذى خلقه وعززه ستالين على مدى مايقارب ثلاثين عاما (٢) · لقد هاجم خرتشوف كل ما هو ستالينى ونسب كل الاخطاء والتراجعات التى شهدها الاتحاد السوفيتى خلال السنوات التى سبقت حكم خرتشوف الى سياسة ستالين ، الرجل الذى بنى الاتحاد السوفيتى بالنار والحديد (٣) · أما فى هنغاريا فقد تلقت الجماهير انباء خطاب خرتشوف بكثير من الغبطة والابتهاج وكان اندفاعها الى الشوارع مؤشرا الى النوايا التحريرية التى سيطرت على عقول المواطنين المجريين ·

وبعد اقل من شهر من اختتام الحزب الشيوعى السوفيتى لمؤتمره الشهير ـ والذى على ضوئه سادت دول المعسكر الاشتراكى معطيات جديدة اضرت بوحدة هذا المعسكر ـ وتحديدا فى ١٢ مارس من عام ١٩٥٦ عقدت اللجنة المركزية لحزب العمال الهنغارى (الحزب الشيوعى الحاكم فى هنغاريا) اجتماعا خاصا لتدارس قرارات وتوصيات مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى · وقد استمعت اللجنة المركزية الى تقرير اعده سكرتيرها الاول ماتيوس راكوسى الذى كان قد ترأس الوفد الهنغارى الى مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى حيث عرض للقرارات التى اتخذها المؤتمر وتحدث عن الدروس والعبر المستقاة من روح هذا المؤتمر الشهير · وقد اكدت اللجنة المركزية فى ختام اجتماعاتها على مصادقتها على ماتم اتخاذه فى المؤتمر ، واكدت تأييدها لكل القرارات نصا وروحا · وبعد ايام من اجتماع اللجنة المركزية خطت السلطات الهنغارية خطوات اخرى للتعبير عن التزامها بروح المؤتمر العشرين بان قررت اطلاق سراح عدد من المسجونين السياسيين ممن كانوا قد اعتبروا اعداء للحركة الشيوعية فى هنغاريا ممثلة فى حزب العمال الهنغارى الحاكم (٤) ·

لقد كان المحللون السياسيون جازمين بان بيان اللجنة المركزية سيفتح الباب على مصراعيه لمزيد من الاجراءات

الليبرالية فى المجتمع الهنغارى . وهذا ما حدث بالفعل اذ ظهرت موجة قوية من المطالبات ، اشتركت فيها قطاعات مختلفة من المجتمع ، تدعو كلها باتجاه تمرير مجموعة من التشريعات الجديدة الخاصة باطلاق الحريات العامة ومن بينها حرية الكتابة والتعبير . ففى ٣٠ مارس ١٩٥٦ عقد المؤتمر العام للاتحاد العام للكتاب الهنغاريين الذى خرج بتوصية بالسماح بحرية أوسع للكتاب للتعبير عن آرائهم . وعلى الفور انعكست توصية المؤتمر على الصحافة الهنغارية التى بدأت بنشر مقالات سياسية تنطوى على نقد للوضع السائد فى البلاد فى ظاهرة لم تعرفها هنغاريا من قبل منذ استلام الشيوعيين للحكم فيها .

وفى الواقع فان احدا لم يسلم من هذه الموجة الانتقادية ، حتى زعيم الحزب الحاكم ماتيوس راكوسى . وقد اوتى راكوسى شجاعة بالغة عندما اقر بان ممارسات الحزب قد سادها بعض الاخطاء فى الماضى ، وان النية تتجه نحو اصلاحات حقيقية فى الخط العام للحزب وسياساته . لكن راكوسى فى الوقت ذاته حذر من ان بعض القوى اليمينية تنتهز الفرصة للتهجم على انجازات الحزب والتقليل من كل نجاح حققه النظام الحاكم . وفى مافهم على انه هجوم مضاد ، هاجم راكوسى اتحاد الكتاب قائلا : ان بعض الكتاب استغلوا جو الحريات المتاحة وانطلقوا من شعار حرية النقد للتعبير عن معاداتهم لايديولوجية الحزب الحاكم وبث الفرقة بين صفوفه (٥) .

الا ان حملة راكوسى المضادة لم توقف مسار المناخ التحررى الذى بدأ يسود كافة الاوساط فى هنغاريا . وقد ظهرت موجة جديدة من المطالبات تنادى بوضع حد لعزلة هنغاريا عن باقى دول العالم المختلفة ، وبخاصة الدول الغربية . كما تمت المطالبة فى الاوساط المثقفة بضرورة الانفتاح على الثقافات المختلفة ، وتأسيس علاقات ثقافية مع دول الغرب وتوزيع الكتب والمطبوعات الصادرة فى الدول الغربية فى هنغاريا .

كان واضحا لراكوسى ـ الذى تحمس فى البدء لقيام اصلاحات فى الحزب والحكومة ـ ان زمام الامور يكاد يفلت من يده وخصوصا بعد ظهور زعيم للمعارضة وهو ايمر ناجى الذى بدأ يكتسب شعبية كبيرة .

ورغبة من الحزب فى التصدى للحملة الشعبية المضادة فقد عقدت اللجنة المركزية للحزب اجتماعات مطولة وخرجت ببيان الى الشعب الهنغارى دعته فيه الى وضع ثقته فى الحكومة التى لازالت متمسكة بالمبادىء والقرارات التى تبناها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى . وقال بيان الحزب ان الحكومة ملتزمة التزاما قاطعا بما سبق وان اعلنته بخصوص رغبتها فى الاصلاح والتغيير ، وانها بصدد اقرار مجموعة جديدة من الاصلاحات الحقيقية (٦) .

ولكن الامور فى هنغاريا سارت على غير ما توقعه الحزب واراده ، اذ ان كل محاولاته لاحتواء التطورات التى بدأت هنغاريا تشهدها ، أخذت تسير نحو الفشل . وقد خرج نطاق المعارضة عن المطالبة ببعض الاصلاحات عندما أصبح الحزب الحاكم ذاته محل نقد وتساؤل . وفى ظروف كهذه ، اتجهت الحكومة والمعارضة نحو صدام مباشر ، الامر الذى حتم اجراء تغييرات داخل مؤسسة الحزب ذاته .

فى ١٨ يوليو ١٩٥٦ قررت اللجنة المركزية لحزب العمال الهنغارى تنحية راكوسى عن زعامة الحزب وعينت ايرنو غيرو خلفا له . وكان الحزب الحاكم يأمل من وراء خطوته هذه ، ان ينجح فى امتصاص النقمة الشعبية المتزايدة . وقد اعتبر المراقبون ماتيوس راكوسى كبش الفداء الذى قدمه الحزب من اجل انقاذ نفسه والمحافظة على وجوده فى السلطة . الا ان التغيير الجديد لم ينقذ الحكومة الهنغارية من المعضلة التى كانت تمر بها وذلك بدخول قطاعات جديدة من الشعب الهنغارى فى تيار المعارضة . فقد انضم اتحاد الطلاب الهنغارى وهو من الاتحادات القوية الى قائمة المطالبين بالاصلاحات . وبعد سلسلة اجتماعات عقدها الاتحاد خرج بيانه الختامى بمطالبات «راديكالية» . فقد طالب اتحاد الطلاب الهنغارى الحكومة باتخاذ اجراءات فورية لتأمين انسحاب القوات السوفيتية من الاراضى الهنغارية ، والتحضير لانتخابات ديمقراطية سرية . كما طالب الطلاب حكومتهم بضرورة السماح للاحزاب السياسية الاخرى ، من غير الحزب الحاكم ، بتنظيم نفسها واعطائها الشرعية المطلوبة لممارسة العمل السياسى على قدم المساواة مع حزب العمال الهنغارى . وقد ادى هذا البيان «الخطير» الى ردود فعل قوية فى الشارع ، اذ انطلقت المظاهرات على الفور فى مدن عديدة وبقوة كبيرة فى بوادبست حين هاجم متظاهرون قدر عددهم مائتى الف متظاهر ، مبنى الاذاعة رغبة فى احتلاله تمهيدا لاذاعة بيان الى الشعب حول الاوضاع السيئة التى تمر بها البلاد . الا ان قوات الامن لجأت الى اطلاق الرصاص لتفريق المتظاهرين ووقف هجومهم (٧) .

وفى موجة من الحماسة الوطنية وبتأييد من جميع القوى الفاعلة فى الساحة بما فيهم بعض الجماعات الشيوعية تنحى ماتيوس راكوسى عن رئاسة الوزارة لصالح ايمر ناجى الذى اصبح رئيسا للوزراء فى هنغاريا (٨) . الا ان سكرتير الحزب الحاكم ايرنو غيرو وجد فى ناجى منافسا خطيرا لنفوذه ، ومع ذلك كان اعجز من ان

يتخذ اى اجراء ضده بالنظر للشعبية العارمة التى تمتع بها الرجل · ولذلك لم يجد غيرو اى بديل سوى طلب العون من الاتحاد السوفيتى للمساعدة على حل المشكلة سياسيا او عسكريا · وكان الاتحاد السوفيتى قد بدأ يدرك عمق المعضلة التى أخذ الحزب «الشيوعى» فى هنغاريا يعانى منها ، مما دفعه الى الاستجابة فورا للطلب الذى تقدم به غيرو ، بان ارسل عضوين بارزين من الحزب الشيوعى السوفيتى وهما ميكويان وسوسولوف لتدارس الوضع فى هنغاريا واقتراح ما يمكن القيام به · وكخطوة اولية اقترح المبعوثان السوفيتيان القيام ببعض الاجراءات الاصلاحية داخل جسم الحزب ، وعلى رأس هذه الاجراءات استبدال غيرو بقائد آخر هو جانوس كادار الذى كان السوفيت يؤمنون بقدرته على التعامل مع الازمة فى هنغاريا بمستوى المسئولية (٩) ·

وفى الجانب الآخر كان ناجى الذى كان يأمل فى ان يستفيد من الزخم الشعبى لتمرير سياساته الاصلاحية ، بدأ يواجه مشاكل حقيقية فى ادارة دفة الامور فى البلاد · فالاضطرابات التى سادت الشارع الهنغارى حالت دون ممارسات ناجى سلطاته فى اجواء طبيعية ، ولذلك فقد وجدت حكومته انه لابد من اعلان الاحكام العرفية (١٠) ·

لكن ناجى مع ذلك كان مصمما على الاستمرار فى سياساته المستقلة فأعلن الغاء نظام الحزب الواحد فى هنغاريا مما مهد السبيل للسماح لكافة الاحزاب السياسية بممارسة العمل السياسى · ثم قرر ناجى ، فى خطوة أخرى ، اشراك بعض العناصر الحزبية من غير الشيوعيين فى الحكومة ليشكل فيما بعد عدد الاعضاء غير الشيوعيين الغالبية فى الحكومة الهنغارية (١١) · وفى خطوة استفزازية خطيرة للاتحاد السوفيتى اعلن ناجى ان بلاده قررت ان تصبح محايدة وانها بصدد الانسحاب من منظمة حلف وارسو (١٢) ·

كانت القيادة السوفيتية مقتنعة بان مجمل التطورات فى هنغاريا مسألة غير ايجابية ، بيد ان النوايا الاخيرة للقيادة الهنغارية بخصوص الموقف من حلف وارسو ، واتجاهاتها لاعطاء غير الشيوعيين اليد الطولى فى ادارة دفة الامور فى البلاد ، كل ذلك جعل القيادة السوفيتية تنظر اليها كتهديد لوحدة المعسكر الاشتراكى ، وخشيت ان تشجع ذلك الدول الاشتراكية الاخرى على السير فى نفس الاتجاه اذا لم تتم مواجهتها باجراءات رادعة · من هنا قرر الاتحاد السوفيتى التدخل عسكريا فى شئون هنغاريا بان ارسل وحدات مقاتلة فى الرابع من نوفمبر لوضع نهاية للحركة الشعبية التحررية (١٣) · وقد اعلن زعيم الحزب الحاكم فى هنغاريا جانوس كادار بان القوات السوفيتية قد تدخلت فى بلاده بناء على طلبه بهدف اقرار الامن والاستقرار واعادة النظام · وعلى الفور تشكلت حكومة جديدة بقيادة كادار ، وكل اليها مهمة اعادة الامور الى مسارها الاشتراكى «الصحيح» (١٤) ·

لقد تمخض عن التدخل العسكرى السوفيتى فى هنغاريا اجتثاث جذرى للقوة المضادة للشيوعية على الساحة السياسية فى هنغاريا · ومنذ تلك الاحداث حتى وقتنا الراهن استمرت الحكومات المتعاقبة فى تلك الدولة الاشتراكية الصغيرة على ولائها للاتحاد السوفيتى ، حيث ان درس التدخل العسكرى فى شئونها كان قاسيا لدرجة ردعت أية قوة سياسية من التفكير فى شق عصا الطاعة والخروج عن دائرة نفوذ الدولة التى أخذت على عاتقها قيادة المعسكر الاشتراكى ·

انتفاضة عمالية فى بولندا :

لكى نتمكن من اعطاء تحليل واقعى للاسباب التى دفعت الاتحاد السوفيتى الى التدخل العسكرى فى هنغاريا ابان تلك الفترة ، يتحتم علينا ان نعطى مثالا آخر لاحداث شبيهة وقعت فى دولة شرق اوربية اخرى وفى نفس الفترة تقريبا ، والمقصود بتلك الدولة بولندا · ان المقارنة بين احداث البلدين تبدو هامة هنا لكى تصبح الصورة اكثر وضوحا ·

فى بولندا لم تكن البداية مختلفة عنها فى هنغاريا اذ بدأت بتظاهرات واعمال شغب فى مدينة بوزنان ، وهى واحدة من اكبر مدن بولندا ، وتقع فى غرب البلاد بالقرب من الحدود مع المانيا الشرقية · كانت المدينة التى تعد مركزا صناعيا هاما تشهد معرضا تجاريا دوليا خلال شهر يونيو من عام ١٩٥٦ ، وقد وجد العمال البولنديون ان الفرصة مناسبة لعرض مطالبهم فى تحقيق اصلاحات عمالية خلال فترة انعقاد المعرض التجارى ·

اتهمت السلطات البولندية المسئولين عن المظاهرات بانهم «عملاء للامبريالية» يرمون الى تقويض الامن والنظام فى البلاد واكدت نيتها على التصدى لهم · كانت التظاهرات التى اندلعت فى بوزنان والتى قادها عمال مصنع شركة ستالين بوزنان التى يقدر عدد افرادها بخمسة عشر الف عامل قد اتخذت منحى خطيرا بعد ان عمد بعض العمال الى ارتكاب بعض اعمال التخريب فى الشوارع وهاجموا عددا من المبانى الحكومية فى المدينة حيث ترتب على ذلك وقوع اضرار مادية جسيمة · كما وقعت تصادمات واعمال عنف بين الشرطة والمتظاهرين ، وسقط نتيجة لذلك ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين شخصا بين قتيل وجريح (١٥) · كانت الحكومة البولندية تنظر

لهذه التطورات بجدية تامة لانها تمثل تحديا سافرا لسلطاتها المركزية · من هنا اخذ رئيس الوزراء البولندى على عاتقه شخصيا مهمة عرض موقف الحكومة من الاحداث بان هاجم القادة المسئولين عن الاضطرابات متهما اياهم بالتآمر لتمزيق وحدة البلاد وتهديد الامن والاستقرار فيها · وقد دعا رئيس الوزراء شعب بلاده الى توخى الحرص والتزام الهدوء مشيرا إلى ان الاحداث التى وقعت فى بوزنان لم تكن عفوية ، ولم تنطلق من رغبة صادقة فى اصلاح اوضاع العمال بل ان هذه الاحداث مخطط لها ، بحيث تندلع فى نفس موعد المعرض الدولى بهدف زج اطراف دولية فيها للضغط على الحكومة البولندية ولذلك قامت الحكومة البولندية باعتقال ما يزيد على ثلاثمائة شخص اشتبه ان لهم علاقة بالاحداث(١٦).

لم تقتصر احداث بوزنان على طبقة العمال فقط بل اشترك الى جانبهم المثقفون الذين وجدوا فى الاحداث مناسبة لاظهار عدائهم للستالينية بما تحمله من تسلط وسيطرة · ولذلك فقد احتوت المطالب التى رفعها المتظاهرون على شقين يكمل كل منهما الآخر : اولهما يتعلق بالاصلاحات فى مجال العمل النقابى العمالى وتحسين اوضاع واجور العمال · وثانيهما يتعلق بتوفير مناخ ديمقراطى فى البلاد والانفتاح على العالم (١٧) ·

الا ان السلطات البولندية نجحت فى احتواء الموقف ، ولم تتطور الاحداث الى الحد الذى هدد السلطة الحزبية الشيوعية ، كما حدث مثلا فى هنغاريا · من جهة أخرى فان احداث بوزنان ، وان اظهرت قوة معارضة لا يمكن الاستهانة بها ، الا ان مركز هذه القوة ظل مقتصرا على التجمعات العمالية ، ولم يهدد وحدة الحزب الحاكم من الداخل ، كما ان ثقل المعارضة اقتصر على بوزنان ، الامر الذى سهل على السلطات التصدى للاحداث ، ولم يشكل اى تهديد للامن على صعيد بولندا بشكل عام ·

لكن القيادة البولندية كان يتوجب عليها ، مع ذلك ، ان تطمئن الحليف السوفيتى الى سلامة نهجها العام وسيطرتها على زمام الامور (١٨) · كما يتوجب عليها ، من جانب آخر ، ان تخاطب افراد الشعب البولندى بما يضمن امتصاص اى تمرد مستقبلى · من هنا فقد اختار فلاديسلاو غومولكا ، السكرتير الاول لحزب العمال البولندى المتحد ، وهو الحزب الشيوعى الحاكم فى البلاد

اختار الزيارة التى قام بها وفد رفيع من الحزب الشيوعى السوفيتى بقيادة نيكيتا خرتشوف لبولندا فى خريف عام ١٩٥٦م ليتحدث عن احداث بوزنان من حيث ابعادها وانعكاساتها · وقد اكد الزعيم الشيوعى البولندى فى خطاب القاه امام الوفد السوفيتى الزائر ان احداث بوزنان ـ وان امكن احتواؤها والسيطرة عليها قبل ان تصبح ثورة شعبية عارمة ـ الا ان المنطق يقتضى الاعتراف بوجود بعض الاخطاء فى ممارسات الحزب والحكومة · الا ان غومولكا اكد ان بلاده مع ذلك تؤمن باقامة اوثق العلاقات مع باقى دول المنظومة الاشتراكية وتؤمن كذلك بالنضال الموحد للطبقة العاملة فى كافة دول العالم ، وتؤكد حرصها على ضرورة قيام ثقة متبادلة بين حكومات وشعوب دول الكتلة الشرقية · كما اكد المسئول الحزبى البولندى ان بلاده ترى ان قيام نقد بناء متبادل ظاهرة صحية يجب تشجيعها ، وفى نفس الوقت ترى انه من الضرورى ان تزداد مساعدات الدول الاشتراكية بعضها بعضا ·

كما قام غومولكا بعد عدة شهور من احداث بوزنان بزيارة للاتحاد السوفيتى يرافقه وفد رفيع المستوى يمثل الحزب والحكومة للتعبير عن العلاقات المتطورة بين البلدين · وقد اكد المسئولون السوفيت خلال الزيارة على ثقتهم الكبيرة فى قيادة غومولكا وفى النهج العام لحكومته · وقد فهم المراقبون من التصريحات السوفيتية المتتالية ان الاتحاد السوفيتى لايزال يثق فى القيادة الحزبية فى بولندا نظرا لانتهاجها «خطا اشتراكيا سليما» ونظرا لقدرتها على المحافظة على سلامة المسار الاشتراكى فى البلاد بعيدا عن اى انحرافات يمينية ·

ويحق لنا الآن بعد ان استعرضنا الاحداث التى وقعت فى كل من هنغاريا وبولندا والتى اتفقت فى الدوافع الاولية واختلفت فى طريقة التعبير عن تلك الدوافع ، يحق لنا ان نتساءل عن العوامل التى دفعت الاتحاد السوفيتى الى التدخل عسكريا فى هنغاريا ، والاكتفاء بالضغط من وراء الكواليس فيما يتعلق باحداث بولندا · ويشير المحللون الى ان السبب الرئيسى فى ذلك يعود الى البعد الذى اخذته الاحداث فى هنغاريا وطبيعة المطالب التى رفعها الثائرون والحكومة فيما بعد ، والتى تقوم على اعلان هنغاريا دولة محايدة بما يعنيه ذلك من فك لكل ارتباط يربطها بدول الكتلة الشرقية بما فى ذلك ارتباطها العسكرى من خلال حلف وارسو · وهذه مسألة لم يكن الاتحاد السوفيتى مستعدا ان يقف مكتوف الايدى ازاءها · اما فى بولندا فان الحزب الحاكم نجح فى احتواء الاحداث ، وحافظ على المسار الاشتراكى للنظام ، الامر الذى أهلّه لكى يحصل على ضمانات بعدم تعرض بولندا لغزو عسكرى ، وبدلا من ذلك تجديد علاقات الصداقة القائمة مع الاتحاد السوفيتى (١٩) · وكانت القيادة السوفيتية قد اكدت على هذا التوجه وبينت بانها تثق كل الثقة فى قدرة الحكومة البولندية على المحافظة على الاوضاع فى البلاد ضد اى انحراف (٢٠) ·

دوبتشك وشيوعية ذات وجه انسانى :

منذ ان اصبحت تشيكسلوفاكيا دولة اشتراكية ، حافظت على ولائها للاتحاد السوفيتي واعتبرت من اقوى حلفائه داخل دول المنظومة الاشتراكية · غير ان رياح التغيير عصفت بها كما عصفت بغيرها من دول اوربا الشرقية الاخرى وظهرت الحاجة الى قيام نظام اشتراكى ذى صبغة جديدة يحفظ للبلاد استقلاليتها ·

وكانت تشيكسلوفاكيا تحكم من قبل انتونين نوفوتنى سكرتير الحزب الشيوعى التشيكى منذ عام ١٩٥٦ · وكان الرجل يظهر كثيرا من الولاء للقيادة السوفيتية الامر الذى اهله لكى يطلق عليه رجل موسكو القوى · غير ان نوفوتنى ومنذ الستينات بدأ يفقد شعبيته على الصعيد الداخلى بين اوساط المثقفين من الكتاب والصحفيين والطلبة واساتذة الجامعات (٢١) · كما ان تصلبه ومركزيته الشديدتين باعدتا بينه وبين انصاره داخل الحزب ·

كان المناخ العام فى تشيكسلوفاكيا مهيأ لقيام حركة معارضة للسلطة الرسمية · وبالاضافة الى الاسباب السياسية التى يعود لها الدور الأكبر فى التطورات التى شهدتها البلاد ، فان المشاكل الاقتصادية التى كانت تشيكسلوفاكيا تعانى منها منذ منتصف الستينات ساهمت فى خلق جو من التذمر الشعبى · وكان مؤتمر الكتاب التشيك الذى عقد فى صيف عام ١٩٦٧ منعطفا هاما فى مسار المعارضة الشعبية للسلطة عندما سيطرت على اعمال المؤتمر القضايا السياسية التى اخرجته عن جو المسائل الادبية · وقد خرج المؤتمر ببيان سياسى انتقد سياسات الحكومة على الصعيد الداخلى ومواقفها الخارجية · وقد كان لهذا البيان صدى واسع داخل تشيكسلوفاكيا ، خصوصا لانه اخرج المعارضة من طور السرية الى الجهر بالمواقف السياسية المناهضة للحكومة علنا ·

لقد واكبت حملة الادباء التشيك التى امتدت الى قطاعات نقابية اخرى ظهور الزعيم التشيكى المعارض الكسندر دوبتشك على الساحة السياسية فى تشيكسلوفاكيا · وكان دوبتشك قد بدأ يكتسب شهرة واسعة فى الاوساط الشعبية بسبب مواقفه المبدئية من السلطة والسياسات التحررية التى كان ينادى بها ويدعو اليها · وكما حدث فى بعض اقطار اوربا الشرقية فان دوبتشك بدأ يدعو الى سياسة اكثر استقلالية للدول الاشتراكية الصغيرة بعيدا عن المركزية التى كان يطبقها الحزب الشيوعى السوفيتى فى تعامله مع الاحزاب الشيوعية الصغرى فى دول حلف وارسو · وقد كان لآراء دوبتشك المطالبة بالاصلاح انعكاسات واضحة ، ليس على الصعيد الشعبى فحسب ، بل على صعيد الحزب الشيوعى الحاكم · وقد ظهر الانقسام بشكل واضح داخل اللجنة المركزية للحزب · لكن الامور كانت تسير لصالح دوبتشك الذى نجح فى نهاية المطاف من تنحية نوفوتنى عن زعامة الحزب ليصبح سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى التشيكى فى مطلع عام ١٩٦٨ (٢٢) ·

لم يتخذ دوبتشك عند تسلمه زعامة الحزب ، اى موقف معاد للاتحاد السوفيتى ، بل تميزت سياسته بالاعتدال فى تعاملها مع تلك الدولة القيادية فى المعسكر الاشتراكى · وفى اواخر يناير من عام ١٩٦٨ قام دوبتشك بزيارة لموسكو بهدف تاكيد التزام بلاده بتعزيز علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى وباقى دول الكتلة الشرقية · وفى خطابه الذى القاه فى موسكو خلال تلك الزيارة اكد دوبتشك على الاهمية التى تعلقها بلاده على قيام اوثق العلاقات بينها وبين باقى دول المنظومة الاشتراكية · واعلن الزعيم التشيكى ان تشيكسلوفاكيا تقف بحزم الى جانب المانيا الشرقية فى وجه ما اسماه باحياء النازية فى المانيا الغربية (٢٣) ·

ولكن ومنذ الشهور الاولى لوصول دوبتشك الى السلطة فى تشيكسلوفاكيا ، ظهرت علامات التصدع فى العلاقات بين بلاده والاتحاد السوفيتى خصوصا عندما بدأ دوبتشك يتحدث عن وجود مسار خاص لتشكسلوفاكيا وعن ضرورة خلق طريق مستقل لتحقيق الاشتراكية فيها · كما ايد دوبتشك قيام التشريعات التى تكفل حرية التنظيم والاجتماع ، ودعا الى وجوب حماية الاقليات فى بلاده · كما اسهم فى اقرار بعض التشريعات فى الحقل الاقتصادى والتى اعتبرت حينذاك مخالفة لروح الاشتراكية العلمية الصحيحة (٢٤) ازاء هذه التصريحات والتطورات بدأ القلق يساور الاتحاد السوفيتى الذى خشى ان يفلت زمام الامور من يد دوبتشك كما حصل مع قادة آخرين فى اوربا الشرقية · وكان الاتحاد السوفيتى يخشى بالدرجة الاولى ان يفقد الحزب الشيوعى السيطرة على الاوضاع لصالح قوى «يمينية» · كما كانت موسكو تخشى ان تنهج تشيكسلوفاكيا نهجا مختلفا فى سياستها الخارجية عن باقى دول اوربا الشرقية ، الامر الذى سيضعف من وحدة الصف فى دول المعسكر الاشتراكى (٢٥) ·

كان الاتحاد السوفيتى ، ومن ورائه الدول الاشتراكية الاخرى ، يراقب تطورات الاوضاع فى تشيكسلوفاكيا عن كثب · وقد تولدت لدى تلك الدول قناعة راسخة من ان استمرار تشيكسلوفاكيا فى خطها المستقل الذى بدأت تسير عليه من شأنه ان يعرض مصالح جميع الدول الاشتراكية للخطر · ولذلك بدأت سلسلة من الضغوط

تمارسها تلك الدول ـ من وراء الكواليس ـ على حكومة تشيكسلوفاكيا وعلى دوبتشك بشكل خاص ٠ وفى ٣ مارس من عام ١٩٦٨ عقدت الدول الاعضاء فى حلف وارسو اجتماعا هاما فى تشيكسلوفاكيا حضرته جميعا ، باستثناء رومانيا ، لمناقشة تطورات الاوضاع فى تشيكسلوفاكيا وتم الحديث عما اطلق عليه بالانحراف الذى بدأ يظهر فى المسار الاشتراكى لتشيكسلوفاكيا ٠ وقد اعلن ، اثر هذا الاجتماع ، عن مناورات تنوى دول حلف وارسو اقامتها فوق الاراضى التشيكية ٠ ويبدو ان الهدف من وراء ذلك كان يكمن فى اختبار نوايا تشيكسلوفاكيا تجاه الحلف ٠ الا ان كل هذه الاجراءات والجهود لم تفلح فى ثنى تشيكسلوفاكيا عن خطها المستقل الذى بدأت تسير فيه ، والذى يتعارض جملة وتفصيلا مع سياسة الاتحاد السوفيتى ٠

فى يوليو من عام ١٩٦٨ اجتمعت قيادات الاحزاب الشيوعية لدول حلف وارسو فى بولندا لتدارس تطورات الاحداث فى تشيكسلوفاكيا ثم ليخرجوا منه بتوجيه خطاب مفتوح الى الحزب الشيوعى التشيكى ٠ وجاء فى الخطاب ان دول اوروبا الشرقية تشعر بقلق بالغ لما يجرى فى تشيكسلوفاكيا ويؤسفها ما آلت اليه الاوضاع هناك ٠ وقالت الاحزاب الشيوعية ان القوى الرجعية ، مدعومة من الامبريالية العالمية ، لها مصلحة فى الاضرار بالمبادىء الاشتراكية التى تسير عليها تشيكسلوفاكيا ، لانها تهدف فى نهاية المطاف الى اخراج تشيكسلوفاكيا تماما عن طريق الاشتراكية ، مما يشكل تهديدا خطيرا على دول المنظومة الاشتراكية جميعها ٠ واضاف البيان ان دول اوربا الشرقية ليس لديها النية فى التدخل فى شئون تشيكسلوفاكيا الداخلية او فرض اى حلول لمشاكلها ٠ كما انه ليس لديها النية فى خرق مبادىء الاحترام المتبادل والمساواة التى تحكم العلاقات بين دول اوربا الشرقية جميعها ٠ ولكنها مع ذلك لن تقف مكتوفة الايدى ازاء المحاولات التى تجرى فى تشيكسلوفاكيا ، والتى تهدف الى سلخ تلك الدولة الحليفة عن باقى الاقطار الاشتراكية ٠ كما حذر البيان ان تلك الدول لن تسمح على الاطلاق ، وتحت اى ظرف من الظروف ان تتعرض المكاسب التى تم تحقيقها لصالح الطبقة العاملة والقوى الاشتراكية فى تشيكسلوفاكيا لاى خطر او اعتداء من قبل القوى الامبريالية ، سواء اكان مصدر هذا الخطر من الداخل او من الخارج (٢٦) ٠

فى الفترة مابين ٢٩ يوليو حتى ٤ اغسطس عقدت سلسلة من اللقاءات بين القيادات الشيوعية فى الحزب الشيوعى السوفيتى والحزب الشيوعى التشيكى كان اهمها الاجتماع الذى عقد فى بلدة شيرنا ناد تيسو التشيكية التى تقع على الحدود مع الاتحاد السوفيتى ٠ وقد مهد هذا الاجتماع للقاء موسع عقد فى مدينة براتيسلافا التشيكية حضره ممثلون عن الاحزاب الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى ، وبلغاريا ، وهنغاريا ، وبولندا ، والمانيا الشرقية ، بالاضافة الى الدولة المضيفة تشيكسلوفاكيا ٠ وقد خلص البيان الذى صدر عن هذا اللقاء الى ان دول اوربا الشرقية تعى الاخطار التى تحيط بها والمؤامرات التى تحاك ضدها ، ولكنها مع ذلك مصممة على السير فى خط الاشتراكية وحريصة على التخلص من كل عائق او عقبة تقف فى وجه التعاون المشترك فيما بينها (٢٧) ٠

وفى اعقاب هذا البيان الايجابى الذى اعتبره المحللون نهاية للازمة ، قرر الاتحاد السوفيتى سحب قواته العسكرية من الاراضى التشيكية ٠ وكان ذلك مؤشرا آخر لانفراج الموقف وزوال التوتر ٠ ولكن القوات السوفيتية سرعان ماعادت بصحبة وحدات عسكرية من اربع دول هى بلغاريا ، وهنغاريا ، والمانيا الشرقية ، وبولندا ، فى عملية غزو منظمة لتشيكسلوفاكيا تمت فى العشرين من اغسطس ٠ وقد تم اعتقال دوبتشك على الفور وتم ترحيله الى الاتحاد السوفيتى كما تم تشكيل حكومة «ثورية» جديدة فى تشيكسلوفاكيا ٠

وقد اعلن الاتحاد السوفيتى ان تدخل الدول الاشتراكية العسكرى فى تشيكسلوفاكيا جاء «بطلب من زعماء الحكومة هناك بهدف توفير مساعدة عاجلة للشعب التشيكى الشقيق» ٠ كما اكد ان هذا التدخل املته الظروف الخطيرة التى كان النظام الاشتراكى يمر بها بتدبير من «العناصر المضادة للثورة ، بالتحالف مع بعض القوى الخارجية المعادية للاشتراكية» (٢٨) ٠

لقد قضى التدخل العسكرى السوفيتى فى تشيكسلوفاكيا على كل امل لاقامة «شيوعية ذات وجه انسانى» كان دوبتشك يطمح الى تحقيقها ٠ وتماما كما حدث فى هنغاريا فى عام ١٩٥٦ ، نجح التدخل العسكرى الجديد فى فرض واقع جديد فى تشيكسلوفاكيا عندما اعادها الى المسار الذى رسمه لها الاتحاد السوفيتى ٠ لقد انتهى «ربيع براغ» نهاية مأساوية لكثير من التشيك

ولكن النتائج على اية حال كانت ايجابية بالنسبة للاتحاد السوفيتى ، لانها حافظت على وحدة المعسكر الاشتراكى وابعدت «التهديد الامبريالى» ولو مرحليا عن اوربا الشرقية ٠

فى مايو من عام ١٩٧٠ وقع الاتحاد السوفيتى وتشيكسلوفاكيا معاهدة صداقة «تعبيرا عن رغبة البلدين فى توثيق اواصر الصداقة والتضامن بينهما» (٢٩) ٠

ومن الملاحظ ان التدخل السوفيتى فى تشيكسلوفاكيا وما اعقبه من اتفاقيات منظمة للتعاون بين البلدين حقق للاتحاد السوفيتى الهدف الذى طالما سعى اليه بابقاء الدول الاشتراكية الصغرى فى موقع الحليف الموالى لدولة القيادة ٠

شاوشيسكو ومسألة الهوية الوطنية :

كان لاحداث هنغاريا عام ١٩٥٦ صدى واسع فى رومانيا ارتبط بالرغبة فى التأكيد على الجانب الوطنى من الشيوعية ٠ وقد تبنى هذا الاتجاه ودافع عنه سكرتير الحزب الشيوعى الرومانى جورجيو ديج ، الذى ادرك انه لكى تلقى الشيوعية القبول والدعم الشعبى ، فانه يتعين عليها ان تصطبغ بالصبغة الوطنية ٠ وقد عمل ديج على تعزيز هذا التوجه ، وهو التوجه الذى ازداد رسوخا فى رومانيا بوصول نيكولاى شاوشيسكو الى السلطة فى عام ١٩٦٥ ٠

اصبح الحديث عن الهوية الوطنية للحزب الشيوعى الرومانى مسألة شائعة فى الصحف ووسائل الاعلام المختلفة ٠ وكان واضحا ان القيادة السياسية كانت حريصة على ان تغرس هذا المفهوم لدى الناس ، ومن ثم تسير باتجاه الاستقلالية فى نهجها عن باقى دول اوربا الشرقية ٠ وقد بدت ملامح هذه السياسة تتضح عشية احتفالات رومانيا بالذكرى الخامسة والاربعين لتأسيس الحزب الشيوعى الرومانى ٠ وبهذه المناسبة القى نيكولاى شاوشيسكو خطابا هاما خصصه للحديث عن انجازات الحزب الشيوعى ، والاصلاحات التى حققها لجموع الشعب ٠ ثم تعرض شاوشيسكو لموقف بلاده من القضايا الدولية قائلا : ان الاحلاف العسكرية وما يرتبط بها من اقامة وجود عسكرى لدولة ما على اراضى دولة اخرى ، او انشاء قواعد عسكرية فى اراضى الآخرين ، يشكل حاجزا هاما فى طريق التعاون بين الشعوب المختلفة

واضاف شاوشيسكو ان انشاء الكتل العسكرية وارسال القوات الى الدول الاخرى ، يعد عملا غير مقبول يتنافى مع مبادىء الاستقلال والسيادة للشعوب الاخرى ويعوق اقامة علاقات طيبة بين الدول (٣٠) ٠

كان واضحا ان كلمات شاوشيسكو كانت موجهة ضد الاتحاد السوفيتى ولها علاقة بالاحداث التى جرت فى هنغاريا ٠ غير ان الحكومة السوفيتية قررت تجاهل الموضوع ولم يصدر عنها اى بيان حول خطاب شاوشيسكو ٠ وبدلا من ذلك اعلن الاتحاد السوفيتى ان زعيم الحزب الشيوعى السوفيتى ليونيد بريجنيف قرر زيارة رومانيا لاجراء مباحثات مع شاوشيسكو حول آفاق التعاون بين الاتحاد السوفيتى ورومانيا ورؤية رومانيا لدورها فى حلف وارسو (٣١) ٠ ومع ان زيارة بريجنيف لرومانيا كان لها صلة مباشرة بالآراء التى صدرت عن شاوشيسكو وتعكس نوايا الحكومة الرومانية ازاء العلاقة التى تريد ان تربط رومانيا بالاتحاد السوفيتى ، الا ان الزيارة لم تسفر عن اى نتائج ايجابية بالنسبة للجانب السوفيتى ، ولم يتبعها اى خطوة لاظهار اى درجة من الانفراج فى العلاقة بين الجانبين ٠

ومنذ مطلع عام ١٩٦٧ بادرت رومانيا الى تبنى مجموعة من السياسات التى اغضبت الاتحاد السوفيتى وعمقت الهوة بينها وبينه ٠ ففى فبراير من عام ١٩٦٧ قررت رومانيا الاعتراف بدولة المانيا الغربية وهى خطوة لها مغزاها ، اقدمت عليها بدون استشارة الاتحاد السوفيتى ٠ وعندما عقد فى ابريل من عام ١٩٦٧ مؤتمر للاحزاب الشيوعية الاوربية احجمت رومانيا عن المشاركة ٠ كما ان الرئيس شاوشيسكو ، الذى شارك فى الاجتماع الذى عقدته الدول الاشتراكية لمناقشة العدوان الاسرائيلى على الدولة العربية ، ابان حرب الايام الستة ، غادر دون ان يوقع على البيان الختامى للمؤتمر والذى ادان سياسة اسرائيل ٠ وعندما عقدت الدول الاشتراكية اجتماعا لها فى بوادبست عاصمة المجر فى يوليو من عام ١٩٦٧ لمناقشة المساعدات التى يمكن تقديمها للدول العربية المتضررة من العدوان الصهيونى لم توجه الدعوة لرومانيا للمشاركة فى هذا الاجتماع على اعتبار ان موقف رومانيا تجاه الصراع العربى الاسرائيلى كان يختلف عن باقى الدول الاشتراكية ٠ كما ان رومانيا هى الدولة الوحيدة التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل وخرجت عن اجماع دول المعسكر الشرقى (٣٢) ٠

كانت هذه المواقف المختلفة تهدف الى محاولة اثبات استقلالية القرار الرومانى ٠ ونتيجة لذلك احس الاتحاد السوفيتى بكثير من الحرج لان سياسة الوحدة الظاهرية لدول المعكسر الاشتراكى اثبتت بطلانها بتكرار المواقف المستقلة لرومانيا فى سياستها الخارجية ٠ ويبدو ان الاتحاد السوفيتى فضل سياسة النفس الطويل مع رومانيا ولم يقدم على تنفيذ خطوات شبيهة بما تم اتخاذه مع هنغاريا وتشيكسلوفاكيا ٠

٠ اما شاوشيسكو الذى يقال انه يفهم اصول اللعبة ويدرك الى اى مدى يمكن ان يسير ، فانه لم يشأ ان يوصد الابواب تماما فى وجه الاتحاد السوفيتى بل فضل ان يبقى على قنوات للحوار والمشاورة ٠ وفيما يتعلق بحلف وارسو ، فقد اكد شاوشيسكو ان بلاده ستحافظ على عضويتها فى الحلف طالما استمر الحلف قائما ٠ كما امتدح شاوشيسكو ما اسماه بالعلاقات المتعددة الجوانب التى تربط رومانيا بالاتحاد السوفيتى ٠ وخلال

سنة ١٩٦٧ ، وهى سنة الازمات فى العلاقات السوفيتية الرومانية ، بادر شاوشيسكو الى تبنى مواقف تبقى على وشائج العلاقات بينه وبين السوفيت ، ومن ذلك موافقته على اشتراك رومانيا فى المناورات التى اجراها حلف وارسو خلال اغسطس من عام ١٩٦٧ (٣٣) ٠

وتعتبر ازمة تشيكسلوفاكيا علامة مميزة فى العلاقات بين رومانيا وباقى دول الكتلة الشرقية عندما امتنعت رومانيا عن المشاركة فى العمل العسكرى الذى قامت به دول حلف وارسو ضد تشيكسلوفاكيا وكانت رومانية قد لمحت عند اقتراب الازمة بانها قد تقوم بتقديم المساعدة لتشيكسلوفاكيا اذا ما تعرضت لغزو عسكرى (٣٤) ٠ لقد كان تصور رومانيا للاحداث فى تشيكسلوفاكيا بانه فى حالة نجاح حركة دوبتشك واستمراره على رأس النظام فان ذلك سوف يخفف من العزلة التى تعانيها رومانيا بين دول اوربا الشرقية وسيمكنها من ان تتحرر من النفوذ السوفيتى بشكل تام ٠ وحيث ان الازمة فى تشيكسلوفاكيا انتهت بالنتائج المعروفة والتى بطبيعة الحال لم تتماش مع ما ارادته رومانيا ، فان الشعار الذى تبنته رومانيا فى علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى اصبح الاستقلال وليس التحدى ٠

ولكن المراقبين فسروا سياسات شاوشيسكو على انها اقرب الى التحدى منها الى الاستقلال ٠ فقد شهدت السنوات التى اعقبت التدخل السوفيتى فى تشيكسلوفاكيا مواقف متشددة من قبل رومانيا تجاه الاتحاد السوفيتى وحلف وارسو ٠ فقد اعلن شاوشيسكو ان الاوامر التى تصدر من الحزب والحكومة فى رومانيا والقيادة العليا للقوات المسلحة فى بلاده هى وحدها التى ستنفذ ، متجاهلا بذلك السياسة الرسمية للحلف والتى تعطى الكلمة العليا للقيادة المشتركة لقوات الحلف ٠ كما ابدت رومانيا بعض التحفظات ازاء التكامل الاقتصادى والسياسى مع باقى دول اوربا الشرقية ٠ هذه المواقف عمقت الفجوة التى تفصل رومانيا عن حلفائها من دول اوربا الشرقية وجعل البعض يعتقد ان العلاقات بين الجانبين وصلت الى نقطة اللاعودة ٠

وعلى الرغم من كل ذلك الا ان الاتحاد السوفيتى لم يقدم على اتخاذ خطوة عسكرية ، حتى الساعة ، ضد رومانيا لتصحيح الاوضاع ، كما فعل فى تشيكسلوفاكيا وهنغاريا ٠ ويفسر المحللون ذلك الى قناعة القيادة السوفيتية بان الموقف فى رومانيا لايزال تحت سيطرة قيادات شيوعية ولا يوجد تأثير جوهرى لما يطلق عليه السوفيت «القوى الرجعية او اليمينية» ٠ كما ان الاتحاد السوفيتى كان ينظر الى الاحداث فى تشيكسلوفاكيا وهنغاريا على انها بمثابة محاولة جذرية للاطاحة بالنظام السياسى القائم على الايدلوجية الشيوعية ، بينما لم يحدث الشىء ذاته فى رومانيا ٠ كما انه من الضرورى التذكير بان توجهات الحكومة فى رومانيا لم تطرح بديلاً افضل لما هو قائم فى الاتحاد السوفيتى وباقى دول اوربا الشرقية ٠ صحيح ان القيادة الرومانية كانت دائما تسعى فى توجهاتها الى الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى ولكنها فى الواقع لم تحقق للجماهير فى الداخل اى مناخ ايجابى على صعيد الحريات السياسية والانفتاح على ثقافات العالم ٠ وعلى الصعيد الاقتصادى لم تحقق رومانيا تقدما من شأنه ان يشجع باقى الدول الاشتراكية على السير فى نفس الاتجاه ولذلك لم يجد الاتحاد السوفيتى فى مثل تلك التطورات ما يشكل تهديدا يستدعى التدخل ، لان رومانيا فشلت فى خلق نموذج يدفع الآخرين للاحتذاء به ٠ واخيرا لابد من الاشارة الى ان وجود نيكولاى شاوشيسكو على رأس السلطة فى رومانيا كان له دوره فى تثبيط همة الاتحاد السوفيتى للتدخل العسكرى فى تلك الدولة الاشتراكية على اساس ان شاوشيسكو ظل لسنوات طويلة يعتبر رمزا للامة فى رومانيا ورائدا من رواد المحافظة على الهوية الوطنية ، تماما كما كان الحال بالنسبة لتيتو فى يوغسلافيا ٠

خاتمــــة

ترتكز سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه دول اوربا الشرقية على مبدأ الانضباط والولاء من جانب هذه الدول تجاه القيادة السوفيتية ٠ وقد عمل السوفيت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على تعزيز هذا التوجه بدعم قيام قيادات موالية للكرملين فى تلك الدول بكل الوسائل المتاحة لهم ورغم كل الانتكاسات والازمات التى مرت بها العلاقات بين الاتحاد السوفيتى وباقى دول المنظومة الاشتراكية ، الا ان السوفيت نجحوا فى المحافظة على مركزهم المتميز فى تلك الدول يساعدهم على ذلك التغلغل الذى وصل اليه النفوذ السوفيتى داخل مؤسسات الدول الشرقية سواء على صعيد الحزب او الحكومة ٠ وكان من الواضح ان الاتحاد السوفيتى عمل على تشجيع قيام صف ثان على مستوى القيادة الحزبية لكى يقوم بممارسة الحكم اذا ما تعرض الصف الاول لانتكاسة او فشل فى معالجة اوضاع معينة ٠

ان الاتحاد السوفيتى يؤمن ايمانا تاما بان الدول الصغرى فى المعسكر الاشتراكى يجب ان تحافظ على ولائها وصداقتها للقيادة السوفيتية ٠ وحيث ان هذا الاتجاه يعد بمثابة هدف رئيسى من اهداف السياسة السوفيتية تجاه الدول الاشتراكية فى اوربا ، فان الاتحاد السوفيتى يضع نصب عينه دائما ضرورة المحافظة على

الاوضاع الراهنة فى تلك الدول بشتى الوسائل وبما فى ذلك التدخل العسكرى ٠ ومع ذلك يبقى الخيار العسكرى بمثابة الرد الاخير اذ تسبقه عادة مناورات سياسية بعضها يتم علنا وبعضها فى الخفاء ٠ ان جوهر السياسة السوفيتية يقوم على استمرارية الأنظمة الشيوعية فى تلك الدول بدون منازع او منافس من شأنه ان يفتح الابواب للنفوذ الغربى ٠ وعندما يدرك الاتحاد السوفيتى ان زمام الامور يكاد ان يفلت من يد القيادة الحزبية لصالح قوى «يمينية» ، كما حدث فى هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، يصبح الخيار العسكرى امرا لا مفر منه حتى وان ادت خطوة كهذه الى خلق ازمة او تصدع فى علاقات الاتحاد السوفيتى مع الدول الاخرى ذات الميول الغربية او غيرها ، ذلك لأن الاتحاد السوفيتى يعطى اهمية خاصة للاوضاع فى منطقة شرق اوربا اذا ما قورنت بمناطق اخرى ٠

ان دول اوربا الشرقية تمثل الخط الفاصل بين الاتحاد السوفيتى والدول الرأسمالية فى اوربا الغربية ، ومن ثم فان السوفيت يدركون اهمية المحافظة على الاستقرار فى هذه الدول بما يخدم مصلحة الاتحاد السوفيتى ووحدة المعسكر الاشتراكى بشكل عام ٠ كما يؤمن الاتحاد السوفيتى بان ترك الامور فى تلك الدول تأخذ مسارها الطبيعى من شأنه ان يباعد بينه وبين حلفائه لصالح دول الغرب ٠ وهكذا فانه يصبح من غير المستغرب تفهم دوافع السوفيت من وراء متابعتهم الدؤبة لما يجرى فى دول اوربا الشرقية خشية من ان يأتى اليوم الذى تنكشف فيه حدود الدولة التى اخذت على عاتقها قيادة المعسكر الاشتراكى امام رياح التغيير القادمة من الغرب.

هوامش البحث

١ ـ Isaac deutcher, Russia, China and the West (London : Hazell Watson and Viney, 1970) P.91.

٢ ـ H.C. Hinton, **China's Turbulent Quest** (New York : The Macmillan Company, 1972) pp. 82 - 83.

٣ ـ لقد كان لخطاب خرتشوف التاريخي والهجوم الذى شنه ضد ستالين انعكاسات خطيرة على العلاقات السوفيتية الصينية التى لا تزال تعانى من فتور وقد رأت القيادة الصينية ممثلة فى ماوتسى تونغ ان الهجوم السوفيتى على ستالين غير مبرر وغير عادل على الاطلاق · انظر لذلك ·

J. Gittings, A Survey of the Sino — Soviet Dispute (London : Burtter and Tanner, 1968) pp. 59 - 62.

وكذلك : C. L. Sulzlerger, **The Coldest War** (New York : H.B. Jovanovich, 1974 pp. 51 - 52.

٤ ـ P.E. Zinner, **National Communism and Popular Result in Eastern Europe** (columbia : Columbia University Press 1956) pp 317 — 322.

٥ ـ المرجع السابق ، ص ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧ ·

٦ ـ المرجع السابق ، ص ص ٣٢٧ ـ ٣٣٠ :

٧ ـ M. Donaldon and M. Grieve, **International Disputes** (London : Europe Publications, 1973) pp 131 — 132.

٨ ـ تشير بعض المصادر ان تنحى راكوسى عن السلطة جاء بضغط من الاتحاد السوفيتى الذى كان يؤمل ان يؤدى وصول ناجى الى السلطة الى امتصاص غضب الجماهير والمحافظة على الاستقرار فى البلاد ، انظر لذلك ·

R. Leslie, **The History of Poland Since 1863** (London : Cambridge University Press, 1980) p. 331.

وكذلك : Nikita Khrushchev, Khrushchev Remembers, Translated by S. Talbot
(Canada : Little, Brown and Company, 1970) p.415.

٩ ـ Donaldon and Grieve المرجع السابق ، ص ١٣٢ ·

١٠ ـ P. Zinner المرجع السابق ، ص ٤٠٨ ·
١١ ـ Donaldon and Grieve المرجع السابق ، ص ١٣٢ ·
١٢ ـ المرجع السابق ، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ·
١٣ ـ كان ناجى قد بعث ببرقية عاجلة فى الاول من نوفمبر الى الامين العام للامم المتحدة السيد هامرشولد اشتكى فيها من ان بعض الوحدات من القوات السوفيتية بدأت تعبر الحدود الى بلاده وان وزير خارجيته قدم شكوى رسمية بهذا الصدد الى السفير السوفيتى فى بودابست السيد اندروبوف مطالبا بسحب القوات السوفيتية فورا من الاراضى الهنغارية · كما كرر ناجى للسيد هامرشولد نوايا

بلاده الخاصة برغبتها فى الحياد والانسحاب من حلف وارسو داعيا السكرتير العام للامم المتحدة بان يطلب من الدول الاربع الكبرى دائمة العضوية فى مجلس الامن التعهد بالدفاع عن حياد بلاده · انظر لذلك نص برقية ناجى الى هامرشولد فى

H. Hanak, **Soviet Foreign Palicy Since The Death of Stalin** (London Routledge and Kegan Paul, 1972) p. 158.

١٤ ـ يؤكد خرتشوف فى مذكراته ان حكومته كانت حريصة عند بدأ الازمة على عدم التدخل عسكريا فى هنغاريا · بل وقامت بسحب قواتها من العاصمة بودابست · الا ان تدهور الاوضاع فى البلاد واحساس الاتحاد السوفيتى بان الموقف قد يشكل تهديدا خطيرا لدول المعسكر الشرقى الاخرى ، وخصوصا تشيكسلوفاكيا ورومانيا ويوغسلافيا ارغم السوفيت على التدخل عسكريا · ويشير خرتشوف ان قرار ارسال قوات عسكرية لسحق ما اسماء بالقوى المضادة للثورة اتخذ بعد استشارة دول اوربا الشرقية الحليفة والصين الشعبية · وكان هناك شبه اجماع من هذه القوى على ضرورة التدخل العسكرى ، بل وطلبت بعض هذه الدول كرومانيا وبلغاريا اشراك وحدات عسكرية من جانبها فى العملية العسكرية المرتقبة ·
انظر لذلك :

N. Khrushchev
المرجع السابق ، ص ص ٤١٦ ـ ٤٢١ ·

١٥ ـ R. Leslie المرجع السابق ، ص ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ ·

١٦ ـ اكدت صحيفة برافدا السوفيتية ان ما حدث فى بوزنان لم يكن امرا عفويا بل كان مخططا له ليتصادف مع المعرض التجارى الدولى · انظر ·

H. Hanak المرجع السابق ، ص ص ١٥١ ـ ١٥٢ ·

١٧ ـ I. Deutcher المرجع السابق ، ص ٨٦ وربما يفسر شعار (الخبز والحرية) الذى رفعه المتظاهرون طبيعة المطالب التى كانت تشغلهم · انظر R. Leslie المرجع السابق ، ص ٣٥٠ ·

١٨ ـ Albert S. Lindermann, **A History of European Socialism** (Yale : Yale University Press, 1983) PP 329 - 330.

١٩ ـ تم ذلك عقب الزيارة التى قام بها فلاديسلاو غومولكا سكرتير حزب العمال البولندى المتحد الى الاتحاد السوفيتى فى نوفمبر من عام ١٩٥٦ · انظر H. Hanak المرجع السابق ، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٧ ·

٢٠ ـ N. Khrushchev المرجع السابق ، ص ٤١٩ ·

٢١ ـ Adam Bromoke, **The Communist States in Disarray** (Minnesota : The University of Minnesota Press, 1972) p. 43.

٢٢ ـ A. Lindemann المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ·

٢٣ ـ R. A. Remington, the Warsaw Pact (Massachusettes : Mit Press, 1971) p. 94.

٢٤ ـ Doneldon and Grieve المرجع السابق ، ص ٢٧٦ ·

٢٥ ـ A. Bromoke المرجع السابق ، ص ٥٤ ·

٢٦ ـ انظر نص البيان المطول فى H. Hanak المرجع السابق ، ص ص ٢٦١ ـ ٢٦٨ ·

٢٧ ـ H. Hanak المرجع السابق ، ص ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ·

٢٨ ـ المرجع السابق ، ص ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ·

٢٩ ـ المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ·

٣٠ ـ R. Remington المرجع السابق ، ص ٨٤ ·

٣١ ـ المرجع السابق ، ص ص ٨٥ ـ ٨٦ ·

٣٢ ـ H. Hanak المرجع السابق ، ص ٣١٩ ·

٣٣ ـ R. Remington ، ص ص ٩١ ـ ٩٣ ·

٣٤ ـ A. Bromoke ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ ·

بحوث التاريخ العربي الاسلامي والعصور الوسطى

العرب والخزر فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الاموية

الدكتور حسين علي الداقوقي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

دولة الخزر هى اولى دولة قوية ومنظمه لعبت دورا سياسيا وعسكريا وتجاريا فى تاريخ شرقى اوربا[1] وهى واحدة من الدول التى لعبت دورا بارزا فى العصور الوسطى بين القرنين السادس ومن العاشر الميلاديين كانت عاصمة الخزر إتل (علي وزن ابل) آو ايتيل اوآئل ، قرب شمالى مدينة استرخان الحاليه فى حوض الفولفا الاسفل حيث تلتقى الطرق التجارية الكبيرة ، وتنساب فى تلك المنطقة اربعة انهر : الفولفا ويابيك ودون وكوبان واذا القينا نظره على خريطة الحكم الخزرى نجد ان لهم امبراطوريه تمتد خلال القرن السابع من بحر آزوف الي بحر قزوين ، ومن القنقاس الي نهرى الفولفا ودون[2] ٠ وهى بلاد شاسعة كثيرة المشاهد ، فيها جبال ووديان وفيها بحار وخلجان ٠ «يتصل من احدي جنباتها جبل عظيم يمر الي بلاد تفليس او حدود آرمينيا»[3] وبلغت حدودها من بعض جهاتها الي منطقه خوارزم ، ومن جهة اخري وصلت حدودها الجنوبيه الى دربين (باب الابواب)[4] ٠

اما ما يتعلق باصلهم فقد وردت حوله اراء كثيره ومتنوعه احيانا ، غير ان معظم الباحثين الحديثين يرجعونهم الي الاتراك الغربيين المختلطين بالهون وبالسلالات الفنيه ـ الاوغريه[5] ٠

للعلاقات بين العرب والخزر تاريخ طويل امتد عبر العصور ، ذلك بعدما توسع الفتح الاصسلامى فى انحاء ايران وعندما اخذ اولا الصحراء الشجعان يجتازون ما يعترضهم من الحواجز ، صحارى كانت ام جبال ، صاروا لا يتوانون ابدا فى اقتحام جبال القفقاس الشاهقة الوعرة المسالك والدخول عندها فى معارك طاحنة مع الخزر ٠

صرف البيزنطيون ما وسعهم من جهود للتعرف الى الخزر واكتساب صداقتهم لان المقاومة الخزرية امام العرب كانت تحمل اهمية كبيرة بالنسبة لبزنطية التى كانت تعانى المخاطر من الجانب الغربى والاكثر من ذلك يرى عدد من المؤرخين ان الحروب الخزرية العربية صرفت العرب عن فتح اوربا الشرقية فقد وجد العرب انفسهم على خط القفقاس امام جيوش منظمة وفتية قدر لها ان تعوق تقدمهم الى حد ما نحو شرقى اوربا ، لذلك يحملوا لهؤلاء المؤرخين ولغيرهم اضفاء اهمية كبيرة على هذه الحروب والمقارنة بين ما قام به الخزر فى شرقى اوربا وما قام به فرنجه شارك مارشل فى اقصى غربى اوربا ضد القوات العربية الزاحفة عبر البرانس على فرنسا (١١٤هـ/٧٣٢م)[6] ٠

لقد كانت جبهة الخزر معقدة ومتداخلة وصعبية التضاريس ، فعلى الرغم من الانتصارات التى حققها العرب وصلوا الى العاصمة الخزرية على نهر الفوليفا واخفوها الى اداريهم ، كما سوف نرى الا ان المنطقة كانت تعود وتتسلط ، وتتحدى اطراقها من جديد ومن ثم اتخذت الحروب العربية الاسلامية فى هذا الجزء من العالم احيانا طابع الحرب الوقائية والتأديبية ٠

لا شيء يحير الباحثين الاوربيين بقدر ما يتحرهم الفتوحات العربية الاسلامية متحيرهم بواعثها وسرعة اندفاعها واتساع رقعتها[7] ، ومن هؤلاء الاوبيين البروفسور كوسكي الذى يشك فى سرعة الوثيقة العربية الاسلامية عام ٢٢هـ وتدقق العرب بتلك الحملة الى ما وراء القفقاس[8] فى عام ٢٢ هـ/٦٤٣م تقدمت القوات العربية نحو مدينة باب الابواب (دريد) بقيادة سراقة بن عمرو ، وبصحبته شخصيات عربية مهمة امثال عبدالرحمن بن ربيعه الباهي ، وسلمان بن ربيعه ، وحذيقة بن اسيد الغفاري وغيرهم[9] وجرت مفاوضات بين قائد الجيش عبدالرحمن بن ربيعه وبين ملك الباب يومئذ شهر براز اسفرت عن عقد مفاهيم بين الطرفين

وكتب سراقة عامل امير المؤمنين عمر بن الخطاب كتاب الامان ووافق الملك على دفع الجزية ، فداف بعد ذلك سكان المنطقة عدل الاسلام ، ومكانة الفتح ، وفي هذه الاثناء توفي سراقة واقر الخليفة عمر عبدالرحمن بن ربيعه على الباب عندما بلغه خبر وفاة سراقة(١٠) وتبعا لرواية ذكرها الطبري ان عبدالرحمن قرر التقدم فسخر صديقه بضجر «فغزا بلنجر في زمن عمر لم تئم فيها امرأة ، ولم ييتم فيها صبي» وفي رواية الطبري هذه ان الحملة بلغت العاصمة (البيضاء) اثيل بعد بلنجر والمسافة بينهما ٢٠٠ فرسخ (١١) فالرواية الاخرى بتداولها لا يمكن الاخذ بها(١٢) لاسباب واضحة ٠

استمرت هذه القوات على هجمات ففي عام ٣٢هـ/ ٦٥٠ ـ ٦٥٣ استعد الخزر ، وذلك عندما «تتابعت الغزوات عليهم ، تذمروا وتعايروا وقالوا كنا امة لا يقرن بنا احد حتى جاء هذه الامة القليلة فصرنا لا نقوم لهم» فقال بعضهم ان هؤلاء لا يحوقون وما اصيب احد في غزوهم» فنصبوا كمينا وقتلوا اربعة الاف مسلما وتجمعوا باعداد كبيرة ، ولم يقدر عبدالرحمن قوتهم الجديدة فهجم على بلنجر دون ان يأخذ برى الخليفة عثمان الذي خدره من التقدم خذرا شديدا في علمه بعدم اقحام المسلمين في المخاطر ، ويفهم من رأى الخليفة ان الجيش في هذه المنطة لم يكن مستعدا لقلة تمارينه وممارساته في المعارك خلال الاعوام العشر الماضية وكذلك بعد المسافة بين مقره وبين الخزر مضافا الى ذلك ما يفهم من نص لصاحب النجوم الزاهرة القائل ان صاحب بلنجر كان نازلا قريبا من باب الابواب ولما ابعث عبدالرحمن يطلب من عامل الكوفة سعيد بن العاص المدد فقد امده بجيب بن مسلمة العزى فأبطأ جيب على عبدالرحمن الذي سار نحو بلنجر وحاصرها(١٣) فاستشهد عبدالرحمن وكان يقال له ذو النور وهو اسم سيفه ، فزيخذ اهل بلنجر جسده وجعلوه في تابوت يستسقون به ويستنصرون به(١٤) ٠

يفهم من رواية ابن الاثير (٣/٦٦) ان الخزر اكتسبوا خبرات خلال الاعوام السابقة واستعانوا بقبائل اخرى من غيرهم(١٥) حاربت بجانبهم فخططوا للمعركة المرتقبة مع سكان بلنجر فلم تقو والحالة هذه قوات عبدالرحمن من مقاومتهم ، وبعد استشهاد عبدالرحمن بن ربيعه الباهلي عهد امير الكوفة سعيد بن العاص الذي حل محل الوليد القيا توالى سلمان بن ربيعه الباهلي لحماية الجيش المنسحب(١٦) فقد نجا سلمان بهم فعلا ٠
حارب سلمان في قفقاسيس واحرز انتصارات مهمة(١٧) الا انه استشهد هو الآخر في خلافة عثمان(١٨) وحل محله حذيفة بن سليمان العبسي(١٩) ٠

هوامش وتعليقات

(1) Prof.I. Kafesoglu.

(2) Merit. Stud. Emc. Vol. 10, 381

(٣) الحموي الروض المعطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٢١٩ ٠

(٤) قدامه ، الخراج ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٥٩ ٠

(٥) راجع : مادة الخزر في دائر المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة ، بقلم كولدن ، وبارتولد ، تاريخ الترك في اسيا الوسطي ، ص ٦٥ وللمستشرق E.kunik نفس الرأ ي ويماثل هذا الرأى ما ورد في دائرة المعارف الامريكية (الانجليزية) المجلد ١٦ ، ص ٣٩١ ويكاد اكثر الباحثين الجدد يستشهرون برآي الجغرافي العربى الشهير المسعودي في كتابة «التبنية والاشراف» تحقيق عبد الله الصاوي ص ٧٢ ٠

(٦) مقالة : الدكتور محمد محمد موسى الشيخ ، الخزر وعلاقاتهم بالامبراطورية البيزنطينية مجلة كلية العلوم الاجتماعية ، الرياض ، العدد (٤) ١٩٨٠ ٠

(٧) محاضرات الدكتورة ليلي الصباغ ، مطبوعة على الاستنسل ، ص ٨٩ في مجلة

(8) Kimosko, Michael, Aroplar ve Hazarlar, TM. III, Lot. 1935. 133-155

(٩) الطبري ١٥٥/٤ وفي ط ٠ اوربا ، ٢٦٦٣/١ ، ٤ ـ ٥ ٠

(١٠) الطبري ١٥٦/٤ ـ ١٥٧ ، ابن الاثير ، اسد الغابة ، ابن مسكويه ، تجارب الامم ط ٠ ١٩٠٩ ، ٤٤١/١ ٠

(١١) الطبري ، ١٥٨/٤ ، تجارب الامم الى ٤٤١ ـ ٤٤٢ ابن خلدون ، ٩٨٤/٢ ٠

(١٢) J. Marguart, Osteuropaesche und Ostansiatische Streigfzuge, Leipzeg, 1903, p. 491

ويرى ان الحملات العربية استهدفت بلنجر والبيضاء في عام ٣٢ (٦٥٢ ـ ٦٥٣) وراجع Dunlop ص ٥٠ وما بعدها ٠ وما بعدها apad, H. Dursun, Turkler ve Islamiayt, s. 25

(١٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٨٩/١ اخبار سنة ٣٢هـ وقبله ذكر قدامه في هذه (ص ٣٢٥) ٠

(١٤) الطبرى ، ٣٠٤/٤/١ ـ ٢٨٨٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٦٦/٣ ٠

(١٥) ابن الاثير ، ٦٦/٣ ٠

(١٦) الطبرى ، ٣٠٦/٤ ، ابن الاثير ٦٧/٣ ابن مسكويه ، ٤٤٣/١ ٠

(١٧) J. Wellhausen, Ulamin En Eski Tarihine Girio trc. Prof Fikret Iseltan, Ist. 1960, s. 93-99.

(١٨) راجع عنه : ابن فيتيه ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ١٩٦٠ ص ٤٣٣ ، اليعقوبي ، التاريخ ١٥٦/٢ ، قدامه الخراج ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، خليفة ابن خياط ، تحقيق العمري ١٣٩/١ ـ ١٣٩ البلاذري ، الفتوح ٢٤١/١ ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب ق ٢٠ على محمد البجاري مصر ص ٦٣٢ ـ ٦٣٣ وغرة ٠

(١٩) قدامه ، الخراج ، ص ٣٢٩ ، ورد في كتاب الفتوح لابن اعثم ١٠٨/٢ ـ ١١٤ تداخل والتباس بين غردة عبدالرحمن داخيه سلمان ، ويذكر ان سبب غلبة الخزر ان الخاقان هاجمه بـ (٣٠٠) الف شخص ، كذلك يذكر قبور المسلمين بأنها معروف بالبلنجر يقال ها قبود الشهداء الى يومنا هذا (ص ١١٤) وراجع حول حذيف وكتابه المصحف الشريف : محمد بن علي القضاعى ، مخطوطه استنبول ورقة ٨٠ الموسمة بكتابه الانباء بابناء الانبياء عليهم السلام وتواريخ الخلفاء ٠

«اقليم الخزر خلال حكم الراشدين ، مجلة التربية والعلم ، العدد الرابع ايلول ١٩٨١ ص ٥٧ ٠

التحدى الخزرى خلال
خلافة بنى أمية

استطاع بنو أمية ان يوطدوا حكمهم فى جنوبى ققفاسيا اعتبارا من الربع الاول من القرن الثامن ، واظهروا التفوق على غيرهم · ومن الجهة الاخرى أخذ البينزنطيون بسياسة الاستناد الى الخزر ·

جرى الصراع العربى الخزرى حول مدينة (دربن) باب الابواب ، فانتقلت هذه القلعة من يد الى اخرى عدة مرات بين ٨٨ ـ ٩٥/٧٠٦ ـ ٧١٣[١] · جاء فى الطبرى ان مسلمة بن عبدالملك غزا الخزر (٨٩/٧٠٦) حتى بلغ الباب (دربند) بن ناحية اذربيجان وفتح حصونا ومدائن هناك[٢] فلم يقدم فكرة واضحة عن طبيعة هذه الحملة ·

وفى اخبار ٩١/٧٠٩ ذكر ابن الاثير : «عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينيا واستعمل عليها اخاه مسلمة بن عبدالملك فغزا مسلمة [الخزر] من ناحية اذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق[٣] ·

وفى السنة التالية (٩٢/٧١٠ ـ ٧١١م) حارب مسلمة البيزنطيين فى جهة ملاطية ، وكذلك كان مسلمة نفسه القائد العام للحملة العربية التى حاصرت القسطنطينية عام ٩٨/٧١٦ ، والتى كانت نتائجها وخيمة للجانب الاسلامى مما دعا الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز ان يستدعى مسلمة ويطلب اليه القفول بمن معه من المسلمين · ووجه اليه خيلاً عتاقا ، وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم[٤] ·

ويذكر ابن الاثير فى حوادث ٩٩هـ ان الخزر اغاروا على اذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين فوجه الخليفة عمر بن عبدالعزيز جيشا عليهم بقيادة حاتم بن النعمان الباهلى فنكل المسلمون بهم ولم يفلت منهم الا اليسير ثم ارسلوا الى الخليفة بخمسين اسيراً من هؤلاء[٥] ·

يعتقد الاستاذ كموسكى ان هذه الغارة الخزرية كانت بتدبير من الامبراطور البيزنطى الماكر الجديد ليو · وقد جرى البينزنطيون منذ زمن الامبراطور ثيودوسيوس الثانى على تأليب جموع الاقوام المتحالفة على الاعداء الخارجين عند تهديدهم بيزنطة والامثلة على هذه السياسة كثيرة[٦] ·

فقد حدث فى هذه الاثناء ان الامبراطور البيزنطي استنجد بملك البلغار **Tervel** الذى وجه جموعا كبيرة من البلغار مددا لبيزنطة ولضرب المسلمين فكان ما كان من أمر فشل الحصار مما دعا بالخليفة عمر بن عبدالعزيز ـ كما اسلفنا ـ من استدعاء مسلمة ورفع الحصار عن القسطنطنية فتنفست بيزنطة الصعداء[٧] ·

كان الموقف فى بلاد الشام والجزيرة ذا علاقة حساسة بخطر خارجى حقيقى يتربص بالعرب الدوائر ذلك خطر الغارات التى يشنها الخزر بين فترة واخرى على حدود الاسلام[٨] ·

ذكر ابن اعثم صاحب الفتوح : لما فرغ يزيد بن عبدالملك من مشكلة يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وخضعت له البلاد · دعا برجل من اهل حمص يقال له ثبيت النهرانى فولاه بلاد «ارمينية» ، و«اذربيجان» وزوده بقوات من أهل الشام واهل الجزيرة حتى دخل بلاد ارمينية ولما سمعت به الخزر جمعت شملها وبلغ عدد قواتها (٣٠) ألفا تجمعت فى موضع يقال له «مرج الحجارة» سنة ١٠٤[٩] وقد أعان الخزر فى هذه المعركة القفجاق وغيرهم من انواع الترك[١٠] فاسفرت المعركة عن خسارة المسلمين فقتل منهم عدد كبير واقبل المنهزمون الى الشام فقدموا على يزيد بن عبدالملك بينهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فاغتم لذلك غماً شديداً[١١] · على اثر هذه الخسارة جمع الخزر حشداً كبيراً وطمعوا فى البلاد[١٢] وعادوا للعمل بعنف شديد الأمر الذى اثار بدوره رد فعل عربى اقوى · فاراد يزيد ان يضع حداً لاحداث من هذا القبيل اولا ولكي يشعر الخزر بقوة العرب ثانيا · لذلك اعطى ولاية ارمينيا الى عهدة قائد عرك الحياة واكتسب التجارب ذلك هو الجراح بن عبدالله الحكى الذى تتجاوب مؤهلاته مع آمال الخليفة[١٣] ·

ويبدو ان جبهة بيزنطة فى هذه الاثناء غدت ناشطة بعد الخسائر التى لحقت بالمسلمين فى حصار القسطنطنية (٩٨/٧١٦) لذا توجه الاهتمام نحو جبهة الخزر التى غدت الميدان الاساسى للحركات العسكرية · توجه الجراح والياً على ارمينيا وقائدا على جيش كثيف لتأديب الخزر · يتحدث الطبرى عن هذه الحملة بايجاز بينما يذكرها ابن اعثم والبلعمى وابن الأثير اكثر تفصيلا[١٤] ·

لقد سمع الخزر ان الجراح قادم على جيش كبير لذلك انكفأوا راجعين الى الباب ·

ومن الجهة الاخرى تقدم الجراح نحو برذعة ونزل بها اياما حتى استراح اصحابه واراحوا دوابهم[١٥] ، وأصلح فيها المكاييل والموازين اقامها على العدل[١٦] · ثم سار نحو الخزر حتى عبر نهر الكر ودبرّ خطة انطلت على الخزر فقد نادى مناديه فى الناس ان الجراح مقيم هنا عدة ايام فتزودوا بكميات وافرة من المبرد فسمع الخزر بالخبر بواسطة اعوانهم · فلما كان الليل أمر الجراح

بالسير مجداً حتى بلغوا الباب والابواب فباغتوا الخزر وغنموا منهم كثيرا ٠ وعلى اثر هذا الحادث جمع الخزر شملهم وساروا بقيادة ابن الخاقان[١٧] فالتقوا بالعرب عند نهر الران[١٨] وكان الجراح على رأس ٢٥ ألفاً من العرب[١٩] فنشبت معركة حامية اسفرت عن انتصار العرب وهزيمة الخزر فأخذ الجراح يتبعهم وفتح على طريقه القلاع حتى وصل بلنجر وكانت مدينة حصينة استولى عليها المسلمون عنوة فى ربيع الاول من عام ١٠٤ (اب ـ ايلول ٧٢٢) فاصاب الفارس من الغنائم ٣٠٠ دينار ٠ وكانوا فى هذه الموقعة بضعة وثلاثين ألفاً[٢٠] بذلك يبدو ان مجاهدين انضموا الى الجراح خلال المعركة ٠ فقد كتب الجراح الى يزيد بن عبدالملك وطلب منه المدد فوعده بذلك فادركه أجله قبل انفاذ الجيش فارسل هشام الى الجراح أقره على عمله ووعده بالمساعدة[٢١] ٠ وفتح الجراح عدداً أخر من المدن والحصون من وراء بلنجر فى ١٠٥هـ[٢٢] ٠

وفى عام ٧٢٥/١٠٧ عزل الجراح عن ارمينيا واذربيجان من قبل هشام بن عبدالملك الذى عين اخاه مسلمة بن عبدالملك بدلاً من القائد المشهور[٢٣] ٠

ومما هو جدير بالاشارة اليه ان تولي الجراح ارمينيا واذربيجان مرتين غير واضح فى كتاب ابن اعثم وكذلك عند قدامه صاحب الخراج ٠

بعد ان تولى مسلمة (سنة ١٠٧هـ) ارمينيا واذربيجان ارسل فى (١٠٨هـ) الحارث ابن عمرو الطائى لحرب الخزر ذلك عندما استيقن ان ابن الخاقان سار تجاه اذربيجان محاصرا فى طريقه مدنها ٠ فتقدم الحارث واخذ يمر بعدد من الرساتيق والقرى الخزرية فتقهقر الخزر وتبعهم الحارث حتى عبر نهر الرس حيث اشتبك معهم فى معركة اخرى انهزم فيها ابن خاقان وهلك من جيشه عدد غفير وسار الحارث فى المنطقة سيرة حسنة[٢٤] ٠

وفى عام ٧٢٧/١٠٩ قاد مسلمة نفسه حملة على الخزر وهى حملة لا يتحدث عنها الطبرى انما ورد ذكرها فى الازدى وابن الاثير ومؤداه ان مسلمة غزا أرض الخزر من ناحية اذربيجان فغنم وسبى وعاد سالما[٢٥] ٠

اعاد مسلمة حملته على الخزر فى ١١٠هـ/٧٢٨ حدثت فيها الوقعة المشهورة بوقعة الطين لان المنطقة احاطها خلال هذه الاثناء ظروف جوية سيئة حالت دون تقدم مسلمة نحو الداخل كثيرا فاضطر على العودة ٠ ذكر هذه الحملة ديونيسيوس التلمحرى والتاريخ السريانى الموجود فى المتحف البريطانى add. '14 642 (كموسكى) ٠

يقول خليفة ابن خياط (ت ٨٥٤/٢٤٠) فى تاريخه : «غزا مسلمة بلاد الخزر وهى الغزاة التى تسمى غزاة الطين هزم الاتراك الخزر لسبع خلون من جمادى الاخرة سنة ١١٠هـ ٠

وجاء فى الطبرى : «فمما كان فيها (١١٠هـ) من ذلك غزوة مسلمة بن عبدالملك الترك (الخزر) ٠ سار اليهم نحو باب اللان حتى لقى خاقان فى جموعه ، فاقتتلوا قريبا من شهر وأصابهم مطر شديد فهزم الله خاقان فانصرف ، فرجع مسلمة فسلك مسجد ذى القرنين»[٢٦] ٠

وقد ذكر الذهبى فى حوادث ١١٠ هـ الموقعة بوضوح تام «وفيها كانت وقعة الطين التى التقى فيها مسلمة وطاعنه الخزر بقرب باب الابواب فاقتتلوا اياما كثيرة كان النصر لله الحمد وذلك فى جماد الاخر[٢٧] ٠ وفى كتاب ابن تغرى بردى وردت المعركة انها كانت ملحمة عظيمة هزم الله فيها الكفار فى سابع جماد الاخر و(١٧ سبتمبر ٧٢٨) وكأنه نقل الرواية من خليفة ابن خياط ٠

يذكر الاستاذ كموسكى : «وعقيب هذه الحملة استدعى مسلمة من قبل هشام وارسل بدلاً عنه الجراح خلال نفس السنة» ٠

ويرد فى اخبار عام ١١١هـ/ ٧٢٩ عزل مسلمة وتعيين الجراح مرة اخرى وهو الولاية الثانية له ، لان الخزر اثناء تلك السنة قد تجاسروا واستولوا على مناطق من اذربيجان مرة اخرى ٠ ذكر هذه الحادثة الطبرى قائلا : وفيها (١١١هـ) سارت الترك [الخزر] الى اذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم[٢٨] وفيها (١١١هـ) ولى هشام الجراح بن عبدالله الحكمى على ارمينيا وعزل اخاه مسلمة بن عبدالملك[٢٩] وهى الولاية الثانية للجراح»[٣٠] ٠

دخل الجراح بلاد الخزر وغيرها فجمعت الخزر جموعا كثيرة مع ابن خاقان وكانت مسيرتهم الى بلاد الاسلام من ناحية اللان ، وأتوا اردبيل فحاصروها[٣١] حتى التقى معهم الجراح بمرج اردبيل وكانت معركة دامية وتكاثرت الخزر على المسلمين فاستشهد الجراح ومن معه سنة ١١٢هـ (وعند خليفة ابن خياط فى ثمان بقين من رمضان عام ١١٢هـ) وكان قد استخلف اخاه الحجاج بن عبدالله على ارمينيا[٣٢] ٠

يشرح ابن اعثم هذه الحادثة بتفصيل اكثر ويقول : خرج الخزر وهم ينكلون بالمسلمين قتلاً ونهباً ٠ وبلغ ذلك الجراح فكتب الى هشام يخبره بذلك ويسأله المدد فتباطأ هشام عن نصرة الجراح واقبلت الخزر حتى نزلوا قريبا من اردبيل وسار الجراح حتى بلغ قرية يقال لها شهر ازاد فى مرج اردبيل ، فاستشهد الجراح ومن معه الا سبعمائة رجل او دون ذلك ٠٠ ولما سمع هشام بكى بكاء شديدا حتى علا نحبه وبل لحيته بدموعه وبكى المسلمون فى كل بلد حزنا على الجراح واصحابه وسارت الخزر وسيطرت على اردبيل[٣٣] ٠

ولما استشهد الجراح طمع الخزر واوغلوا فى البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين[٣٤] ٠

وفى عام ١١٢ وجه هشام اخاه مسلمة عبدالملك فى اثر الخزر(٣٥) وارسل على مقدمته سعيد بن عمرو الحرش(٣٦) ٠

يقول ابن اعثم : تناول سعيد بن عمرو الحرش اللواء ونزل الرقه واجتمع عنده ٣٠ الف ، ووجه اليه هشام بـ ١٠٠ ألف درهم ٠ وبلغ مدينة خلاط [اخلاط الحالية] وفتحها حتى صار الى برذعة ونزل البيلقان [فبعث الخاقان بطراخنته] واستطاع سعيد عند حصن باجروان من ابادة اعداد هائلة من الخزر(٣٧) ٠

ويقول اليعقوبى ان سعيدا هزم الخزر وقتل عامتهم واستنقذ الاسارى المسلمين منهم وعددهم ١٠ آلاف ٠ وفعل ذلك مرة بعد مرة وقتل ابن خاقان وفتح عدة مدائن ووجه برأس ابن خاقان الى هشام(٣٨) وعند باجروان اخرج من غنائم الخزر الخمس وقسم الباقى بين المسلمين فبلغ نصيب كل واحد منهم ١٨٠٠ دينار سوى الاثاث والدواب(٣٩) ٠

كانت معارك سعيد سببا مهما فى رجحان قوة المسلمين بعد ذلك على الخزر(٤٠) ويبدو من المراجع ان هشاما بعث فى عام ١١٢هـ/ ٧٣٠ سعيد بن عمرو الى هذه البلاد ليوجه ضربة قاصمة على الخزر والثأر للشهيد الجراح وفى الوقت نفسه عيّن مسلمة بن عبدالملك أميرا جديدا على البلاد بدلا من الشهيد الجراح(٤١) ٠

ويذكر ان مسلمة لام سعيدا على قتاله الخزر قبل قدومه ويعلمه انه قد ولىّ أمر عسكره عبدالملك ابن مسلم العقيلى فلما سلم العسكر أخذه رسول مسلمة فقيده وحمله الى برذعة فحبس فى سجنها ٠

ولما علم هشام بالحادث المؤسف كتب الى مسلمة يلومه على ذلك ووجه برسل من جانبه حتى اخرجوا سعيد بن عمرو الحرش من السجن وحملوه اليه(٤٢) ٠

ولاية مروان بن محمد ارمينيا واذربيجان فى ١١٤هـ (٧٣٢ ـ ٧٣٣م) ٠

بلغ مسلمة بن عبدالملك فى ١١٣هـ (٧٣١ ـ ٧٣٢م) جبال بلنجر وتغلب على الخزر ، الا انه انسحب الى دربند دون ان يتوغل فى الداخل ويخوض معارك مهمة مع هؤلاء ٠ ذكر ابن الاثير ان تراجع مسلمة واهماله وطلبه السلامة كان سبب عزله ولعب مروان دوراً مهماً فى ذلك(٤٣) ٠

كان هشام بأمس الحاجة الى قطعات عسكرية لصد الخزر ٠ وفى ٧٣٢/١١٤ عهد جميع مناطق الجزيرة وارمينيا واذربيجان لمروان بن محمد الذى خبر مشاكل المنطقة طويلا وكان قائدا لامعا ٠ واعطاه هشام جميع الصلاحيات(٤٤) فسار مروان الى ارمينيا ومعه(١٢٠) ألف من الشام والعراق والجزيرة فاجتاح قلاعها وحصل على غنائم كبيرة (٤٥) ودخل باب اللان (دريال) حتى صار الى سمندر وهى مدينة خزرية مشهورة(٤٦) ٠

ان أعظم حملة عسكرية قام بها مروان خلال فترة ولايته بل خلال الحروب العربية الخزرية ، حصلت فى ١١٩هـ/٧ ـ ٧٣م ٠

اجتاح مروان بلنجر وسمندر وانتهى الى البيضاء (أتل عاصمة الخزر) على نهر الفولغا حيث مقر الخاقان (٤٧) الذى لاذ بالفرار من بين يدى مروان ولحق بالجبال ٠

يقول ابن اعثم اغار مروان على الصقالبة [يقصد هنا البلغار الوثنيين] وما يليه من اصناف الكفار وكذلك باغت القائد الخزرى (خزر طرخان) فجزع ملك الخزر على ذلك(٤٨) فلم يسمح مروان بفرصة للخاقان ان يتهيأ للقيام بهجوم مقابل(٤٩) ٠

وفى رواية كل من ابن الاعثم(٥٠) والبلعجى(٥١) ان قوام جيش مروان كان ١٥٠ ألف مقاتل ٠ ويبدو من الروايات ان الحركات العسكرية جرت على الوجه التالى :

من مدينة كسك (قازاخ الحالية **KASAH** اليوم) الواقعة على نهر الكر الى مدينة سمندر ٠ وارسل قسماً من الجيش الى بلاد الخزر من جهة دربند وقسماً اخر وهو القسم الاكبر كان بقيادته فدخل محور (دريال) اللان ودخل أرض العدو فى زمن غير منتظر ٠ فاندحر الخزر وانسحبوا نحو الداخل ٠ وتحرك مروان نحو العاصمة مدينة البيضاء وحاصرها دون ان يتعثر بمقاومة تذكر ٠ أما الخاقان فقد انسحب نحو شمالي العاصمة (او الى الجهة الثانية من نهر الفولغا) وارسل جيشا من ٤٠ ألف بقيادة قائده (خزر طرخان) الذى اشتبك فى معركة مع العرب الا ان معارف مروان العسكرية وشجاعته لعبت دوراً فى الحاق الخزر بهزائم منكرة ٠ عندئذ تهاوت قوة الخاقان فلم يعد يَقْوَ من مقاومة الجند العربى(٥٢) وطلب الصلح وأعلن اسلامه واسلم معه خلق كثير واقره مروان على ملكه ثم آخاه اخوة الاسلام وودعه قبل هداياه ثم سار راجعا الى باب الابواب ومعه سبى الكفار اربعون ألف او يزيدون اسكنهم فى جنوبى دربند ٠ ارسل مروان الى الخزر فقيهين وهما نوح بن ثابت الاسدى وعبدالرحمن الخولانى يبصران الناس بالدين(٥٣) بعده كتب الى هشام يخبره بذلك ووجه اليه الخمس ٠

يقال ان مروان شتى فى كسك وفى الربيع عبر نهر الكر وفى طريقه اهتبل الفرصة واخضع عدداً من الامارات والقلاع وفتح ارمينيا واذربيجان جميعا فتوقفت المعارك بين العرب والخزر بعد هذه الانتصارات الباهرة التى حققها مروان والهزائم التى لحقت بالخزر ٠ الا ان

اسلام الخاقان لم يطل كثيرا فقد ارتد الى دينه السابق عقب انسحاب العرب عن بلاده ·

عاد مروان بعد ان علم بقتل الوليد بن يزيد والاضطرابات فى الدولة وولى ارمينيا محمد بن اسحق بن مسلم[٥٤] ·

الهوامش

(١) كتاب تاريخ الخزر بالروسية An. Artamanous عرف الكتاب تعريفاً ضافيا فى مقالة كتبها البروفسور A.N.Kurat نشرتها مجلة الدراسات التاريخية T.D الصادرة باللغة التركية فى انقرة ، المجلد الثالث ، العدد ٤ ـ ٥ ، ١٩٦٥ ·

(٢) الطبرى ، ٤٤١/٦ ·

(٣) ابن الاثير الكامل ، ١١٩/٤ ·

(٤) اليعقوبى ٥٠/٣ ، الطبرى ٥٥٣/٦ ·

(٥) راجع فى هذا الصدد (الطبرى ٥٥٤/٦ وابن الاثير ، اوردنا نصه من ١٥٤/٤ ·

وقد ورد النص فى اليعقوبى على وجه فيه اختلاف ٥٠/٣ وكذا فى ابن اعثم ، ٢٢٠/٧ ـ ٢٢١ ·

(٦) كموسكى ، نفس المقالة ·

(٧) كموسكى ، نفس المقالة ·

(٨) M. A. Shaban, Islamic History. I, P. 144

(٩) ابن اعثم ٢٦/٨ ـ ٢٨ ·

(١٠) ابن الاثير ، الكامل فى حوادث ١٠٤ ، ١٨٦/٤ · ومن المحتمل ان ابن الاثير استفاد حول هذا الموضوع وحول موضوع الجراح ـ كما سوف نرى ـ من ابن اعثم او انهما استفادا من مصدر مشترك · فثمة تشابه حتى فى صياغة النصوص · راجع البروفسور D.T.ve C. Fak. D. حزيران ١٩٤٩ ، العدد (٢) ·

(١١) ابن اعثم ، ٢٨/٨ ، ابن الاثير ١٨٦/٤ ، كموسكى ، نفس المقالة وراجع البروفسور H. Dursun, Turkler ve Islamiyet فصل الخزر

(١٢) ابن الاثير ، نفس الصفحة ·

(١٣) كموسكى ، نفس المقالة ·

(١٤) الطبرى ١٥/٧ ، ابن اعثم ، ٢٩/٨ وما بعدها ، البلعمى ٢٧/٤ وما بعدها ابن الاثير ١٨٧/٤ ، كموسكو ١٥٠ ·

(١٥) البلعمى ، ن . ص . ابن الاثير ، ن. ص . ·

(١٦) البلاذري ٢٤٣/١ ، الخراج لقدامه ، ط . الحديثة ، ص ٣٣٠ ·

(١٧) يرد الاسم باشكال عديدة ، راجع Dunlop ص ٦٣ ملاحظة ٢٨ ·

(١٨) ابن الاثير ١٨٧/٤ ·

(١٩) ابن اعثم ٣١/٨ ·

(٢٠) ابن الاثير ، ن . ص . ·

(٢١) ابن الاثير ، ن . ص . ·

(٢٢) الطبرى ، ٢١/٧ ، ابن الاثير ١٩٣/٤ ·

(٢٣) اليعقوبى ٢٨٠/٢ ط. اوربا اخبار ١٠٧ ، ابن الاثير ١٩٨/٤ ·

(٢٤) الازدى (ت ٩٤٥/٣٣٤) تاريخ الموصل ، القاهرة ، ٩٦٧ ، ص ٢٧ ابن الاثير ١٩٩/٤ ·

(٢٥) الازدى ، ص ٢٩ ، ابن الاثير ، ٢٠١/٤ ·

(٢٦) خليفة ابن خياط ، تاريخ ، تحقيق سهيل ركار ، ص ٤٩٧ ، الطبرى ٥٤/٧ ابن الاثير ٢٠٥/٤ ·

وسد ذى القرنين هو ما يعرف باسم سد الاسكندر وهو غير سده الاصغر الذى يمتد من الجبال حتى مدينة باب الابواب · وجاء فى دربند نامه : انه اقيم من قبل ذى القرنين كحد فاصل بين الفرس والخزر · مقالة عبدالمنعم مختار ص ٦٣ فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق تموز ١٩٧٩ ص ٥٦٧ دربند نامه هو ترجمة ميرزا كاظم بك من نسخة تركية منتخبة ، دربند تاريخى ٣٩ ص ، ١٨٥١ ، بطرسبوغ · راجع كموسكى ·

(٢٧) الذهبى ، كتاب العبر ، ١٣٤/١ · كذلك يثبت كاتب حلبى (حاجى خليفة) الموقعة فى عام ١١٠هـ عند باب الالوان ، تقويم التواريخ ، ص ٣٥ ·

(٢٨) الطبرى ، ٦٧/٧ ، ابن الاثير ٢٠٧/٤ ·

(٢٩) ابن الازدى ، ص ٣٠ ، ابن الاثير ، ن. ص. ابن حمدون ، التذكر والحمدونية نسخة مصورة فى الدراسات العليا حـ ١٢ ، احداث ١١٠ ـ ١١٢هـ ·

«التاريخ هو المحصلة النهائية التى تقررها ارادة الامة»

كانم - برنو بالسودان الأوسط فى العصر الوسيط
علاقات تاريخية عريقة بالعرب والمسلمين

د. أمين توفيق الطيبي
أستاذ : بجامعة الفاتح
طرابلس الغرب

تمهيد :

عرفت منطقة بحيرة تشاد عند المؤرخين والجغرافيين العرب فى القرون الوسطى باسم السودان الأوسط ٠ وقد تعرضت المنطقة من جبال تبستي شمالا الى بحيرة فطرى جنوبا خلال العشرين الف سنة الماضية لتغييرات مناخية مذهلة كان لها آثار كبرى على حياة الانسان فيها ، فالطرف الشمالى من المنطقة كانت تغطيه بحيرة تشاد الكبرى ـ بحجم بحر قزوين ـ وكانت تمتد الى مرتفعات تبستي ، ثم حدثت تغييرات كبرى فى المناخ فى حدود سنة ٣٠٠٠ ق ٠ م ، تقلصت بسببها مساحة البحيرة وتأثرت المنطقة بالتالى من حيث النباتات والحيوانات ونتيجة لهذه التغييرات ساد المنطقة مناخ حار جاف بعد ان كان مناخها اكثر مطرا واعتدالا ٠ وكان من نتائج الجفاف تناقص السكان فى الجزء الشمالى من المنطقة وتمركزهم فى الجنوب ٠

ان هذه الهجرة القديمة من الشمال الى الجنوب نجد صداها فى الروايات الشفوية الكثيرة المتواترة عند سكان بلاد الهوسا وكانم فى الوقت الحاضر ٠ وثمة دلائل كثيرة على أن التصحر ادى الى ظهور جماعتين : الجماعة الناطقة باللغات التشادية فى بلاد الهوسا وبرنو غربى بحيرة تشاد ، والجماعة الناطقة بلغات نيدا ـ دزا فى كانم الى الشمال الشرقى من البحيرة ، وفى الجنوب تنتشر لغات مختلفة تعرف بلغات نيجر ـ كونغو[١] ٠

---

(١) Smith, A., "The Early States of the Central Sudan", in *History of West Africa,* Vol. I, edit. Ajayi and Crowder, London 1979, pp. 152, 154, 156, 158.

تفيد روايات الكنورى (أهل كانم) بأن بطلا عربيا عظيما اسمه سيف بن ذى يزن سيطر على جماعة من الرحل تعرف باسم ماجومي كانت تعيش الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ، ثم بسط وذريته نفوذهم على عدد آخر من القبائل اصبحت تعرف معا باسم الشعب الكنوري ـ شعب كانم ـ وقد تم ذلك بمساعدة قبيلة ماجومى ، وبفضل الفرسان ، وسياسة التزاوج مع القبائل مما دعم من مركز الاسرة الحاكمة (٢) ٠

ان ما يسترعى الانتباه ان الروايات تعزو قيام الاسر الحاكمة الاولى فى بلدان السودان الاوسط والسودان الغربى الى مهاجرين قدموا من اليمن قبل ظهور الاسلام ٠ ان منطقة جنوب غربى آسيا والجزيرة العربية على وجه الخصوص ـ كانت قبل عدة قرون من بدء الفتوحات العربية الاسلامية فى القرن السابع الميلادي تفرغ الفائض من سكانها عبر البحر الاحمر وبرزخ السويس ٠ وتفيد الروايات الاسلامية الاولى بأن فتح الاحباش لليمن فى القرن السادس الميلادي جاء فى فترة مجاعة وصعوبات الت باليمن تتمثل فى خراب سد مأرب فى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي ، مما تسبب فى نزوح افواج كبيرة من المزارعين اليمنيين عبر البحر الاحمر الى السودان (٣) ٠

ومع ان القرطاجنيين والرومان لم يتجاوز حكمهم الى جنوب الصحراء الكبرى ، فان عالمى البحر المتوسط والسودان جنوبى الصحراء كانا على اتصال غير مباشر فى العصور القديمة ، ويرجع حجم لبدة ورخاءها الى كونها بداية لطريق عبر الصحراء الى بلاد السودان عن طريق فزان ٠ وحتى سنة ٥٠٠ ق ٠ م ٠ ، كان تجار قرطاجنة يفدون للتجارة مع سكان تبستي ، الذين كانوا يعيشون فى بلاد ممطرة كثيرة التماسيح والزراف ٠ ان ما يتوفر لدينا من الادلة يشير الى ان تجارة قديمة كانت قائمة بين سكان الصحراء كافة وبين سكان شمال افريقيا وازدادت تلك التجارة بقدوم الجمل فى القرنين الاول والثانى الميلاديين وفى الفترة من ١٠٠٠ ق ٠ م ٠ الى ١٠٠٠ م اخذ المزارعون بجنوب الصحراء ينتقلون جنوبا اثر تناقص المطر والماء ناقلين معهم تجارة عبر الصحراء ٠ ولما كانت بلاد برنو غربى بحيرة تشاد اكثر مطرا وخضرة من كانم الى الشمال الشرقى من البحيرة فانها اجتذبت سلاطين كانم وأتباعهم فكان النزوح والاستقرار فى برنو منذ وقت مبكر (٤) ٠

ان تأثير الشمال لم ينحصر فى التجارة ، فمؤرخو السودان الغربى ـ كعبد الرحمن السعدى فى القرن السابع عشر ـ يذكرون ان ملوك غانة الاول كانوا من البيض من الشمال ٠ وكذلك الحال بالنسبة للهوسا فى شمال نيجيريا وبالنسبة لكانم ـ برنو وبالنسبة لصنغاي بالاساطير تذكر ان هذه الممالك قامت نتيجة لهجرات من الشمال عبر الصحراء ومن الشرق من ناحية وادى النيل ٠ ان هذه الاساطير تعنى بالشمال جدود الطوارق والزغاوة حيث ينتشر استعمال اللثام وحيث الوراثة عن طريق الأم (٥) ٠

وضمت الى شعب كانم خلال القرن الثانى عشر الميلادي جماعتان اخريان من الناطقة بلغة تيدا ـ دزا (التبو) وأهمها سكان واحات كرار ، ولعل هذا التوسع شمالا يدل على ما كان لطريق القوافل عبر الصحراء المار بواحات كوار من اهمية متزايدة للاسرة السيفية الحاكمة فى كانم ٠

وفى اواخر القرن الرابع عشر الميلادي نسمع لاول مرة عن قدوم عرب رحل الى منطقة بحيرة تشاد ، وهم من ذرية العرب الهلاليين الذين كانوا قد رحلوا عن مصر فى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادى عشر الميلادي فى عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وكان وصول هذه القبائل العربية فى الوقت الذى اجبرت فيه هجمات قبائل البلالة الاسرة السيفية الحاكمة فى كانم على الخروج من كانم والاستقرار نهائيا فى برنو غربى بحيرة تشاد ٠ فهل كان لغزوات البلالة صلة بقدوم هذه القبائل العربية الهلالية فى أعقاب انهيار مملكة النوتة المسيحية فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادي ؟ ويذكر الامام احمد بن فرتوة ان العرب والتبو كانوا فى اواخر القرن السادس عشر الميلادي من جملة حلفاء البلالة (٦) ٠

---

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩ ـ ١٦١

(٣) Oliver, R., and Fage, J.D., *A Short History of Africa,* Penguin Books 1973, pp. 51–52.

(٤) Cohen, R., *The Kanuri of Bornu,* New York 1967, pp. 13, 15.

(٥) *A Short History of Africa, pp. 63-64.*

(٦) Lange, D., "The Kingdoms and Peoples of Chad", in *General History of Africa,* IV, edit. D.T= Niane, UNESCO. 1984, p. 258.

المصادر العربية لتأريخ كانم - برنو الى القرن السادس عشر

إن المصادر العربية - كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات والمعاجم والسير - هى المصادر الخارجية الوحيدة لمعلوماتنا عن كانم - برنو فى القرون الوسطى . كما هو الحال بالنسبة لتأريخ ممالك السودان الغربى - غانة ومالي وصنغاي . وبدخول الاسلام الى بلاد كانم فى اوائل القرن الثانى عشر للميلاد اصبح لدى الكنوري لغة للكتابة - اللغة العربية - دونوا بها بعض اخبارهم كما نجدها فى (ديوان سلاطين برنو) وفى تاريخ الامام احمد بن فرتوة لعهد السلطان ادريس علومه وحروبه فى الربع الاخير من القرن السادس عشر ، وفى المحارم او المراسيم التى كان يصدرها السلاطين لبعض الفقهاء ، فضلا عن الروايات الشفوية المتواترة فى المنطقة كتلك التى تتحدث عن اصل الاسرة السيفية الحاكمة . وهى كلها مصادر داخلية لتاريخ كانم - برنو تلي المصادر العربية التى هي المعول عليها فى المقام الاول من قبل الباحث فى تاريخ السودان الاوسط فى القرون الوسطى .

ان المصنفين العرب - باستثناء الحسن الوزان الذي زار كانم - برنو مرتين - اعتمدوا فى معلوماتهم عن البلاد على التجار والفقهاء كانوا يختلفون على البلاد كما استقوا بعض المعلومات من الكانميين انفسهم الذين كانوا يزورون الحواضر العربية طلبا للعلم او للتجارة او فى سفارات عن سلاطينهم او فى طريقهم لتأدية فريضة الحج . ويلاحظ ان معلومات الجغرافيين العرب عن كانم اوفى منها عن برنو لا سيما فيما يتعلق بطبوغرافية البلاد.

ولما كنا سنقتبس من مختلف المصادر العربية الاصلية فى ثنايا هذه الدراسة عند الحديث عن تاريخ كانم - برنو ووصول الاسلام اليها ، وعن علاقاتها التجارية بالشمال الافريقي ، فاننا سنقتصر فيما يلي على سرد اسماء المؤلفين وكتبهم وزمن التأليف :

١ - ابن عبد الحكم (ت ٨٧١م) وله كتاب (فتوح مصر والمغرب) .

٢ - اليعقوبى (ت ٨٩٧م) وله (التاريخ و(كتاب البلدان) .

٣ - المهلبى (اواخر القرن العاشر الميلادي) . ولم تصلنا من كتابه (العزيزي) سوى مقتطفات اوردها ياقوت الحموي فى (معجم البلدان) .

٤ - البكري (ت ١٠٩٤م) صاحب كتاب (المسالك والممالك) .

٥ - الادريسى (منتصف القرن الثانى عشر للميلاد) صاحب كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) .

٦ - (كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار) لمؤلف مجهول الاسم صنف كتابه فى مدينة مراكش فى اواخر القرن الثانى عشر .

٧ - ابن سعيد المغربى (ت ١٢٨٦م) وله (كتاب الجغرافيا) الذى يعتمد فيه على الادريسى وعلى الرحالة والجغرافي ابن فاطمة الذي عاش فى القرن الثانى عشر .

٨ - ابو الفداء (ت ١٣٣١م) صاحب كتاب (تقويم البلدان) وفيه يعتمد على ابن سعيد فيما يتعلق بمنطقة بحيرة تشاد .

٩ - ابن بطوطة صاحب الرحلة وقد زار السودان الغربى فى سنة ٢ - ١٣٥٣م .

١٠ - العمري (ت ١٣٩٩م) صاحب كتابى (مسالك الابصار فى ممالك الامصار) و(التعريف فى الصالح الشريف) ومنهما يقتبس القلقشندي .

١١ - ابن خلدون (ت ١٤٠٦م) صاحب (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) .

١٢ - القلقشندي(ت ١٤١٨م)صاحب(صبح الاعشى فى صناعة الإنشا) وفيه يورد معلومات عن منطقة كانم - برنو مستقاة من (ممالك الابصار) و(التعريف) للعمري وعن مبعوث سلطان برنو الى سلطان مصر المملوكى الظاهر برقوق .

١٣ - المقريزى (ت ١٤٤٢م) صاحب(المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار) .

١٤ - الشماخى (ت ١٥٢٢م) صاحب (كتاب السير) وفيه يترجم لنفر من اهل جبل نفوسه ممن كان يتردد على بلاد كانم للتجارة .

١٥ - الحسن الوزان (المعروف لدى الاوربيين باسم ليون الافريقى) الذى صنف كتابه (وصف افريقيا) بالايطالية فى روما سنة ١٥٢٦م بعد وقوعه اسيرا فى ايدي القراصنة الصقليين قرب جزيرة جربة .

١٦ - احمد الناصري السلاوي (ت ١٨٩٧م) صاحب كتاب (الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى) .

كانم ـ برنو : نبذة تاريخية الى القرن السادس عشر

ان اول ذكر لبلاد كانم ـ الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ـ ورد على لسان اليعقوبى فى اواخر القرن التاسع الميلادي اذ ذكر بأن «الزغاوة وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم ، ومنازلهم اخصاص من القصب ، وليسوا بأصحاب مدن» ٠ ويذكر اليعقوبى بأن اهل كوار وزويلة مسلمون يصدرون الرقيق الذي يبيعه لهم ملوك السودان (٧) ٠

وفى اواخر القرن العاشر الميلادي يذكر المهلبى بأن للزغاوة مدائن بلماء ومانان وترازاكي ويقول : «ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان ، فى حد المشرق منها مملكة النوبة التى بأعلى صعيد مصر ، وهى امم كثيرة ٠٠ وبيوتهم حصوص كلها وكذلك قصر ملكهم ويده مطلقة فى رعاياه ، ويسترق من شاء منهم ، امواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل ، وزروع بلدهم اكثرها الذرة واللوبياء ثم القمح ٠٠ وديانتهم عبادة ملوكهم (٨) ٠

ويذكر الجغرافي الاندلسي ابو عبيد البكري فى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي بأن اهل كانم «سودان مشركون ويزعمون ان هنالك قوما من بني امية صاروا اليها عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زي العرب وأحوالها» (٩) ٠

وفى منتصف القرن الثانى عشر الميلادي يذكر الشريف الادريسى من مدن كانم كونه ومانان وانجيمى ومدينة زغاوة التى يصفها بأنها «مدينة مجتمعة الكور ، كثيرة البشر ، وحولها خلق من الزغاويين يشيلون بإبلهم» (١٠) ٠

وتفيد روايات الكنوري ـ اي اهل كانم ـ بأن احد الابطال العرب من اليمن ـ سيف بن ذي يزن ـ تمكن من السيطرة على جماعة من الرحل ـ مجومي ـ كانت تعيش الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ثم بسط وعقبه نفوذهم وسلطانهم على عدد آخر من القبائل اصبحت تعرف باسم الشعب الكنوري وقد وطد السيفيون حكمهم بفضل قوة قبيلة مجومى ، وبفضل فرسانهم ، وانتهجوا سياسة المصاهرة مع القبائل الاخرى مما زاد من عدد القبائل الموالية لهم ، وتعزز مركزهم كذلك بفعل عامل دينى الا وهو قدسية الملوك ٠ وقد اخذ الملوك السيفية ذلك عن الشعوب المستقرة التى احتكوا بها فى بلاد كانم ٠ وقد بدأ حكم الاسرة السيفية او اليزنية فى مطلع القرن التاسع الميلادي ـ وعرف ملوكهم بالمايات (جمع ماي بمعنى الحاكم او السلطان) واستمرت الاسرة السيفية تحكم كانم ـ برنو الى عام ١٨٤٦م ، وعلى ذلك فهى من اعرق الاسر المالكة فى افريقيا وأطولها حكما ٠

ان امبراطورية كانم الأولى بلغت اوجها قوة واتساعا على عهد السلطان دونما دبيالامي فى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي (حكم حوالى ١٢١٠ ـ ١٢٤٨م) ، وقد اشتهر غازيا وفاتحا وناشرا للاسلام الذي كان ملوك كانم قد اعتنقوه دينا منذ مطلع القرن الثانى عشر للميلاد ٠ ويتحدث ابن سعيد المغربى (ت سنة ١٢٨٦م) عن الغزوات التى كان يقوم بها السلطان دونما ديبالامي ضد القبائل الوثنية القاطنة حول بحيرة تشاد ـ نقلا عن الرحالة والجغرافي الشهير ابن فاطمة ـ فيقول : «ويحدق بها (بحيرة كوري اي بحيرة تشاد) من جميع جهاتها امم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس ٠٠ وعلى ركن البحيرة المغزاة حيث دار صناعة الكانم (لانشاء المراكب) ، وكثيرا ما يغزو من هنالك فى اسطوله بلاد الكفار التى على جوانب هذه البحيرة ويقطع على مراكبهم فيقتل ويسبى «(١١) ٠ ويصف ابن سعيد دونما ديبالامي بانه «سلطان كانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير ٠٠ وعنده الفقهاء» (١٢)

---

(٧) اليعقوبى ، احمد : تاريخ اليعقوبى ٠ بيروت ١٩٨٠ ٠ ١/ص ١٩٢ ٠

Hodgkin, Th., *The Nigerian Perspectives*, Oxford U.P. 1975, p. 88.

(٨) ينظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ٠ بيروت ١٩٧٩ ٠ ٣/ص ١٤٢ ٠

(٩) البكري : ابو عبيد عبدالله : المغرب فى ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) ٠ باريس ١٩٦٥ ، ص ١١ ٠

(١٠) الادريسى ٠ محمد : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ٠ الجزائر ١٩٥٧ ، ص ١٣ ٠

(١١) ابن سعيد ٠ علي : كتاب الجغرافيا ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٤ ٠

(١٢) المصدر السابق ٠ ص ٩٥ ٠

الا ان اهم توسع لكانم آنذاك كان في الشمال لتأمين طريق القوافل عبر الصحراء الى طرابلس وافريقيا ، فتمت للسلطان دونما ديبالامي السيطرة على فزان ٠ وقد كانت منطقة فزان تحكمها منذ سنة ٣٠٦هـ/٨ ـ ٩١٩م اسرة بنى خطاب الهواريين اصحاب زويلة الى ان قضى على حكم الاسرة قراقوش الغزي سنة ٥٦٨هـ/٢ ـ ١١٧٣م ٠ وعلى الاثر استصرخ الاهالي سلطان كانم الذى بادر الى تجهيز حملة قادها بنفسه الى فزان ونصب واليا وممثلا له فى تراغن على بعد عشرين ميلا شرقى مرزوق ٠ يقول ابن سعيد انه تتبع سلطان كانم ـ دونما ديبالامي ـ «سلطنة تجوه (عاصمة الزغاوة) ومملكة كوارو ، ومملكة فزان (١٣) ٠ ويذكر التجانى ان رسل ملك كانم تمكنوا فى عام ٦٥٦هـ/٨ ـ ١٢٥٩م من قتل احد ابناء قراقوش الذى كان قد اغار على ودان بشمال فزان بعد فراره من بلاط الحضيين بمدينة تونس «فأنفذ اليه ملك كانم من قتله وأراح تلك البلاد من فتنته ، وحمل رأسه الى بلاده فطيف بها ، وذلك فى سنة ٦٥٦» (١٤) ٠

وفى عهد السلطان دونما ديبالامى تعززت العلاقات مع الممالك الاسلامية بشمال افريقيا ، فهو الذى اسس فى العقد الخامس من القرن السابع الهجري (٤٢ ـ ١٢٥٢م) مدرسة ابن رشيق في القاهرة لتكون نزلا لاقامة طلبة كانم الدارسين فى مصر (١٥) ، وكان يتبادل السفارات والهدايا مع الملوك الحفصيين بتونس ٠ يذكر ابن خلدون انه فى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وفي سنة خمس وخمسين وستمائة وصلت الزرافة من قبل ملك السودان للأمير المستنصر فأقامت عدة أيام ، ثم أهداها لبعض ملوك النصارى» ابن قنفذ القسطنطيني : الغاية في مبادىء الدولة الحفصية ، تونس ١٩٦٨ ص ١٢ وصلت (الى السلطان المستنصر الحفصي بتونس) هدية ملك كانم ٠٠ وهو صاحب برنو ، مواطنة قبلة طرابلس ٠٠ وكان فيها الزرافة فكان لها بتونس مشهد عظيم برز اليها الجفلي من اهل البلد حتى غص بهم الفضاء» (١٦) ٠

تتحدث الروايات الكنورية عن متاعب كانم بعد عهد السلطان دونما ديبالامي بسبب تنازع الابناء واستقلالهم فى الولايات مما ادى الى تدخل قبائل البلالة (ابو ليلى) من الاراضى الواقعة جنوبى كانم ٠ ان الجماعة المعروفة باسم البلالة تدعى الانتساب الى ابنة احد سلاطين كانم الاوائل ، وعلى هذا الاساس قام صراعها على الحكم مع الاسرة السيفية الحاكمة فى كانم.

كما واجه سلاطين كانم فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادي مقاومة شديدة من جانب القبائل غير الكنورية فى جنوبى بحيرة تشاد والى الغرب منها ، وهى القبائل المعروفة باسم (سو) او (ساو) ، وقد هلك اربعة من سلاطين كانم فى قتال هذه القبائل ٠

وفى اواخر القرن الرابع عشر الميلادي نسمع لاول مرة عن وصول قبائل عربية الى منطقة بحيرة تشاد ، واليها تنتسب قبائل الشاوية الموجودة اليوم فى كانم وبرنو ٠ ويبدو ان هذه القبائل العربية من ذرية القبائل الهلالية التى كانت قد رحلت من مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي فى منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ٠

ان كل هذه المتاعب والحروب كانت وبالا على مملكة كانم مما اضطر السلطان عمر ابن ادريس (حكم حوالي ٢ ـ ١٣٨٧م) الى مبارحة العاصمة نجيمى والنزوح الى بلاد برنو غربى بحيرة تشاد ٠ وقد جاء فى (ديوان سلاطين برنو) ان السلطان عمر بن ادريس ثقلت عليه حروب البلالة ، فاجتمع بالعلماء واستشارهم فى الأمر فقالوا له : أترك هذا المكان (كانم) فقد انتهى مقامنا هنا فجمع جيوشه وأمواله وشعبه وانتقل الى الجنوب ، ولم يعد بعده سلطان للاقامة فى كانم (١٧) ٠

ومما يذكر انه منذ القدم وبخاصة منذ القرن الثانى عشر الميلادي ـ كانت جماعات من اهل كانم تنزح وتستقر فى اقليم برنو غربى بحيرة تشاد حيث المناخ اقل جفافا ، واستمرت هذه الهجرة حتى بداية الفترة الاستعمارية فى اواخر القرن التاسع عشر ، ولعل برنو قبل القرن الثالث عشر كانت مملكة مستقلة عن كانم ثم خضعت لملوك كانم (١٨) ٠

---

(١٣) المصدر السابق والصفحة ٠

(١٤) التجانى ٠ عبدالله : رحلة التجانى ، تونس ١٩٥٨ ، ص ١١١ ٠

(١٥) القلقشندى ٠ احمد : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ٥/ص ٢٨١ ٠

(١٦) ابن خلدون ، عبدالرحمن : كتاب العبر ، بيروت ١٩٥٩ ، ٦/ص ٦٥٢ ٠

(١٧) Palmer, H.R., *The Diwan of the Sultans of Bornu*, Lagos 1926, p. 88.

(١٨)

وعلى اثر جلاء سلطان كانم وانتقاله الى برنو ، اقام البلالة مملكة قوية فى كانم ، وكان العرب وقبائل التبو حلفاءهم ، ويذكر الحسن الوزان فى مطلع القرن السادس عشر ـ وقد زار كلا من برنو وكانم ـ ان كانم كانت اوسع رقعة وأقوى من برنو ، وكان لصاحبها علاقات ممتازة مع سلطان مصر فيقول : «ونال ملك كانم صداقة سلطان القاهرة ورعايته بفضل هداياه ومجاملاته ، وحصل منه على الاسلحة والاقمشة والخيل التى كان يدفع فيها ضعف ثمنها تظاهرا بالسخاء ، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه» . (١٩) .

لم تستقر اوضاع ملوك الأسرة السيفية النازحين الى برنو الا فى عهد علي جاجي (غازى) فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، فقد انهى الصراع الاسري واختط فى حدود عام ١٤٨٤م عاصمة مسورة ثابتة فى جازاجابو اقام بها سلاطين برنو فى القرون الثلاثة التالية ، ومنها اقاموا امبراطورية كانم ـ برنو الثانية . ويعتبر السلطان علي جاجي المؤسس الحقيقى لسلطنة برنو وواحدا من اعظم سلاطين كانم ـ برنو الثلاثة الى جانب دونما ديبالامى وادريس علومة ، وهو الذى اتخذ لنفسه لقب (خليفة) وحذا حذوه فى ذلك من جاء بعده من السلاطين . وفى القرن السادس عشر اخذ سلاطين الدولة الجديدة بزمام المبادرة ضد البلالة فى كانم . فأجبر علي جاجي (حكم ١٤٧٢ ـ ١٥٠٤م) وابنه ادريس كاتاجارمابى (حكم ١٥٠٤ ـ ١٥٢٦م) قبائل البلالة على الخضوع واستردت العاصمة القديمة نجيمي فى كانم . الا ان السلاطين بقوا فى برنو ومثلهم فى نجيمى خليفة **Alifa** ، وأصبحت كانم أخر الامر ولاية تابعة لبرنو (٢٠) .

ان القرن السادس عشر شهد انبعاث برنو وتأسيس امبراطورية كانم ـ برنو الثانية ، كما بدأ فيه اتصال برنو بالدولتين الاسلاميتين القويتين فى شمال افريقيا ، وهما الامبراطورية العثمانية والمغرب الاقصى على عهد السعديين . وفى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ولى فى برنو اعظم سلاطينها ادريس علومه الذى جهز فى بداية حكمه عدة حملات متوالية ناجحة ضد البلالة .

ومع ان سلاطين برنو كانوا قد استردوا عاصمتهم القديمة نجيمي الا ان البلالة لم تتم هزيمتهم هزيمة ساحقة الا على يد السلطان ادريس علومة فى الربع الأخير من القرن السادس عشر (٢١) . اما فزان فانها ـ فى رأي احد الباحثين ـ بقيت تحت سيطرة كانم قرنا من الزمن وانتهت فى ١٣١٠م حينما تمكن شريف مغربى ـ المنتصر بن محمد ـ من طرد الكانميين ، وهو الذى اسس مرزق (٢٢) .

وفى عام ١٨٧٩م ذكر الرحالة الالمانى الحسن الاطلاع جوستاف ناختيجال **Nachtigal** فى كتابه (الصحراء والسودان ، برلين ١٨٧٩) انه فى بداية القرن الثالث عشر كان سلطان ملوك كانم يشمل فزان الى ودان ، وظل الحال على ذلك طوال القرن الرابع عشر . كانت ترافن أنذاك قاعدة فزان ومقر نائب ملك كانم . ونظرا لبعد ترافن عن عاصمة كانم ، فان منصب الحاكم فى ترافن كان منصبا مستقلا ، ولعله كان وراثيا ، يحمل صاحبه لقب (ماي ملك) ، وضريح الماي علي معروف فى ترافن . كما ان فى ترافن بقايا قلعة ، وعين ماء قديمة ، وعدة بساتين ، وأراضي براحا وآبارا ، ما زالت تحمل الى اليوم اسماء بلغة الكنوري ، اي لغة كانم ـ برنو (ينظر كتاب ناختيجال المذكور آنفا ، ١/ص ١٦٥) .

ويرى المؤرخ الايطالي اتوري روسي ان سيطرة كانم على فزان قد تكون بقيت حتى بداية القرن السادس عشر.

ويذكر ناختيجال ظهور اسرة حاكمة محلية ضعيفة هى اسرة قرمان او خرمان فى فزان كان مقرها فى زويلة ، ويبدو ان هذه الجماعة حلت محلها بسرعة جماعة اخرى فيما بين عامى ١٥١٠م و١٥٥١م تعرف بأولاد محمد ، وكان مؤسسها شريف من فاس ـ محمد الفاسي ـ وعاصمتها فى سبها او مرزق .

كان اولاد محمد يسيطرون على فزان فى الوقت الذى استولى فيه الاتراك العثمانيون على مدينة طرابلس من ايدي فرسان مالطة . وكما يقول ابن غلبون فان الاتراك استولوا على فزان ونصبوا عليها واليا اسمه مامي عام ٩٩٠هـ/٢ ـ ١٥٨٣م . وما ان خرجت الحامية التركية

(١٩) الوزان ، الحسن : وصف افريقيا ، الجزء الثانى ، الرباط ١٩٨٢ ، ص ١٧٩ .

(٢٠) Hiskett, M., *The Development of Islam in West Africa,* London 1984, p. 66.

(٢١) Hodgkin, p. 33.

(٢٢) Trimingham J.S., *A History of Islam in West Africa,* Oxford U.P. 1970, p. 116.

حتى ثار الاهالي وقتلوا الوالي التركي ومن معه ، ثم استدعوا الناصر بن المنتصر بن محمد ، وكان فى كانم - فولى حكم فزان الى عام ١٠٠٨هـ/١٦٠٠م وخلفه ابنه المنصور ٠

ويرى باحث ان اولاد محمد تمكنوا من السلطة بمساعدة برنو وكانوا تابعين لسلطانها فاذا صح ذلك فانه قد تكون ثمة مصلحة مشتركة بينهما ، وهى التجارة (٢٣) ٠

وصول الاسلام وانتشاره فى كانم - برنو

يبدو مما أورده المؤرخون والجغرافيون العرب ان الوثنية كانت تسود بلاد كانم حتى مطلع القرن السادس الهجري/الثانى عشر الميلادي ٠ فالمهلمى فى اواخر القرن العاشر الميلادي يقول ان الزغاوة يعظمون ملكهم «ويعبدونه من دون الله تعالى ، ويتوهمون انه لا يأكل الطعام ٠٠ وديانتهم عبادة ملوكهم ، ويعتقدون انهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحون (٢٤) ويقول ابو عبيد البكري فى منتصف القرن الحادى عشر ان اهل كانم «سودان مشركون ، ويزعمون ان هنالك قوما من بني امية صاروا اليهم عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زي العرب وأحوالها» (٢٥) ٠

وكما هو معروف فان العرب المسلمين - وعلى رأسهم عقبة بن نافع - فتحوا فزان ونواحي واحة كوار فى سنة ٤٦هـ/٦٦٧م عبر الطريق القديم الذي كان يصل كانم بساحل طرابلس (٢٦) ٠ ويبدو ان اولى التأثيرات الاسلامية فى كانم تسربت اليها عن هذا الطريق لا من الشرق حيث كانت تقوم مملكة مسيحية ببلاد النوبة بأعلى صعيد مصر ٠ وتقع كانم جنوبى كوار فى منطقة كان لها صلات قديمة بالقرمنطيين **Garamantes** فى فزان ، وقد جاء الاسلام الى كانم عن طريق فزان وبرقة ومصر (٢٧)

ان اهل كانم - بحكم موقع بلادهم - كان لا بد لهم من الاتصال بالعرب المسلمين فى الشمال ، وقد بدأ دخول الاسلام الى كانم سلميا على ايدي التجار والفقهاء ، وكما حدث فى غانة فى السودان الغربى فلا بد انه استقرت فى مدن كانم جاليات اسلامية منذ وقت مبكر واكتسبت اهمية بحكم صلاتها بالتجارة الخارجية ٠ وفى مثل هذه الظروف اعتنقت الاسرة الحاكمة فى كانم الدين الاسلامي (٢٨) ٠ ويرى باحثان متخصصان بتاريخ القارة الافريقية ان اسلام ملوك كانم يحتمل ان يكون سبق اسلام ملوك غانة ، وان اسلامهم كان يرجع الى اتصالاتهم بالتجار المسلمين القادمين من افريقيا (٢٩) ٠ وكان من نتائج اسلام ملوك كانم ان اصبحت لديهم لغة مكتوبة هى اللغة العربية ، مما جعل المراحل الرئيسية لتاريخهم مدونة معروفة (٣٠) ٠

---

(٢٣) ينظر :

روسى ، إتوري : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١ ، تعريب خليفة التليسى ٠ بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٢٨ وما بعدها ٠

Martin, B.G., "Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1976-78," in *Journal of Middle Eastern Studies*, 3 (1972), pp. 484-486.

(٢٤) ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣/ص ١٤٢ ٠

(٢٥) البكري ٠

(٢٦) ابن عبد الحكم ، عبدالرحمن : فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣ - ٣٦٤ ٠

(٢٧) Trimingham, p. 107. Smith, p. 165.

(٢٨) Smith, p. 166

(٢٩) Oliver and Fage, p. 82

(٣٠) Trimingham, p. 107

وتدل بعض المصادر على ان اسلام كانم قد يرجع الى ما قبل القرن التاسع الميلادي · اذ ان حُمىّ اول من اسلم من ملوكهم قد يكون اصله من واحة كوار التى كان سكانها قد اعتنقوا الاسلام فى وقت مبكر ، فاليعقوبي فى اواخر القرن العاشر الميلادي يقول ان سكان كوار مسلمون من عدة قبائل (٣١) ، وثمة باحث حديث يرى ان الاسلام دخل الى كـانم فى القرن الـرابع الهجري/العاشر الميلادي عن طريق قبائل التبو (٣٢) ·

وخلاصة القول انه بدأ وصول الاسلام الى بلاد كانم منذ ان فتح العرب المسلمون فزان وكوار ، ومنهما اخذ الاسلام فى الانتشار رويدا رويدا فى السودان الاوسط عن طريق الجاليات من تجار المسلمين فى البلاد · وفى منتصف القرن الثامن الميلادي وصل نفر من بنى امية ـ وهم مسلمون ـ الى كانم فرارا من بطش العباسيين واستقروا فى البلاد · وفى الترجمة التى عقدها الشماخي فى (كتاب السير) لابي عبدالله محمد بن عبدالحميد ـ والى جبل نفوسة للائمة الرستميين بتاهرت فى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ـ يقول ان ابا عبدالله كان يتكلم لسان بلاد كانم ، اي الكنوري · فمن المرجح ان ابا عبدالله كا يتردد على بلاد كانم تاجرا وفيها تعلم لغة البلاد · وهذا دليل اخر على ان الاسلام بدأ فى الوصول الى كانم فى وقت مبكر ومن الشمال (٣٣) ·

ان (ديوان سلاطين برنو) هو التاريخ الرسمي للاسرة السيفية المالكة فى كانم منذ تأسيسها فى حدود عام ٨٠٠م الى نهاية حكم الاسرة عام ١٨٤٦م · وقد جاء فى هذا الديوان ان اول من اسلم من ملوك الاسرة هو حمى بن سلعمة (حكم حوالي ١٠٨٥ ـ ١٠٩٧م) · ويؤيد ذلك محرم اصدره حميّ لشريف اسمه محمد بن مانى كان قد تم اسلام الملك على يديه ، وأصبحت ذريته ائمة نجيمي ثم جازاجامو ، ومن بينهم كان مستشارو السلاطين الى اواخر القرن السادس عشر · والمحرم خطاب او مرسوم كان يعدو عن السلطان وهو يتعلق بمنح صاحبه امتيازات موروثة كالاعفاء من الضرائب والخدمة العسكرية وواجبات الاستضافة ، وينص محرم حمى المذكور على ان اموال محمد بن مانى «حرام» على ابناء حمىَ الى يوم الدين (٣٤) · ولا شك فى ان حمى وسلاطين كانم من بعده اخذوا اعتناقهم الدين الجديد مأخذا جديا وعملوا على نشر الاسلام بين رعاياهم ·

اما العمري (ت ١٣٤٩م) فيقول ان اول من نشر الاسلام فى كانم الهادي العثمانى الذى ادعى انه من ولد الخليفة عثمان بن عفان · ولعل لذكر الهادى العثمانى صلة برواية البكري عن وصول اموريين ـ وهم من شيعة عثمان وأنصاره ـ واستقرارهم فى كانم فرارا من العباسيين (٣٥) ·

ويقول صاحب (كتاب الاستبصار) ـ وقد صنف كتابه فى مدينة مراكش فى اواخر القرن الثانى عشر للميلاد ـ ان اهل كانم «اسلموا بعد الخمسمائة «٢ ـ ١١٠٧م» (٣٦) هذا وتفيد احدى روايات الهوسا بأن أبا زيد الفزاري (نهاية القرن السادس الهجري/الثانى عشر الميلادي) هو الذى نشر الاسلام فى كانم ويركو (٣٧) ·

---

(٣١) Lange, p. 239
(٣٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ، باللغة الانجليزية ، المجلد الرابع ، ليدن ١٩٧٣ ، ص ٥٤٠ ·
(٣٣) Lewicki, T., *Arabic External Sources for the History of Africa,* London – Lagos 1974, p. 97.
(٣٤) Trimingham, p.115. Hodgkin, p. 89.
(٣٥) ينظر القلقشندى ، ٥/ص ٢٨٩ ·
(٣٦) مؤلف مجهول الاسم : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٤٦ ·
(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الثانية ، باللغة الانجليزية ، ٤/ص ٥٤٠ ·

ويلاحظ انه ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر للميلاد كانت الزوجات الرئيسيات لملوك كانم مسلمات ، كما يستدل من اسمائهن وأسماء آبائهن حسبما وردت فى (ديوان سلاطين برنو) ٠ ومهما يكن من امر ، فان الاسلام الصحيح لم يؤثر فى عامة الناس قبل عهد السلطان دونما ديبالامي (حكم حوالى ١٢١٠ ـ ١٢٤٨م) (٣٨) ٠

يتضح مما تقدم ان الاسلام انتشر وترسخ باضطراد فى كانم ما بين سنتي ١٠٨٥م و١٢٤٠م حينما ذكر ابن سعيد ان الاسلام كان منتشرا فى كانم بين افراد الطبقة الحاكمة ٠

وفى اواخر عهد السلطان دونما ديبالامي ازدادت المصادمات والحروب مع قبائل البلالة جنوبى كانم ، ويبدو ان الاسلام كان احد عوامل الخلاف مع هذه القبائل ، ويتهم المؤرخون ـ ومن بينهم الامام احمد بن فرتوة مؤرخ السلطان ادريس علومة فى اواخر القرن السادس عشر ـ السلطان دونما ديبالامي بفتح او تدمير شيء مقدس يدعى مونى ، ولعله كان يشكل عنصرا اساسيا من عبادة ملكية وصلت من ايام ما قبل الاسلام ٠ ويرى الامام احمد ابن فرتوة فى هذا العمل المنتهك للاعراف وحرمة الدين السبب فى الاضطرابات والمتاعب العديدة التى حدثت فى كانم بعد وفاة دونما ديبالامي (٣٩) ٠

يقول ابن فرتوة انه كان لبنى سيف شيء معظم ومخبأ كان يتوقف عليه انتصارهم فى الحروب يعرف باسم (مونى) ولا يجوز فتحه ٠ ولما فتحه السلطان دونما ديبالامي اغضب عمله فرعا من فروع الاسرة الحاكمة عرفت فيما بعد باسم البلالة ، اذ ان فتحه كان يعنى التخلي عن قدسية الملوك ٠ ولعل المقريزي على حق عند قوله ان دونما ديبالامي هو اول مسلم صحيح من ملوك كانم ٠ ويفهم من ذلك ان السلطان دونما اراد ازالة اثر من آثار الوثنية فى كانم اسوة بما فعل المسلمون بالاصنام عند فتحهم مكة المكرمة ٠ والغريب فى الامر استنكار امام كابن فرتوة ما فعله السلطان الا ان يكون استنكاره بتأثير التقاليد السائدة فى كانم منذ القدم ، او لأن المونى ـ كما يرى احد الباحثين ـ لم يكن على ما يحتمل ـ سوى مصحف فى علبة من الجلد (٤٠) ٠

ان محارم برنو توحي بأن الادارة تأثرت بالاسلام ونظمه حتى فى القرن الثالث عشر الميلادي ، ففيها يرد ذكر القاضي والامام والوزير ٠ وبعد جلاء سلاطين كانم عن كانم الى برنو غربى بحيرة تشاد فى اواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، وفى عهد السلطان علي جاجي (حكم حوالي ١٤٧٦ ـ ١٥٠٣م) ازدادت التأثيرات الاسلامية وأصبح للعلماء والفقهاء مكانتهم المرموقة فى المناصب ، واتخذ السلطان علي جاجي لنفسه لقب (خليفة) وحذا حذوه فى ذلك من جاء بعده من السلاطين (٤١) ٠

وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي انبعاث برنو وتأسيس امبراطورية كانم ـ برنو الثانية ، كما بدأ فيه اتصال برنو بالدولتين الاسلاميتين الكبيرتين فى شمال افريقيا وهما الامبراطورية العثمانية والمغرب الاقصى على عهد السعديين ٠ وولى الحكم فى الربع الاخير من القرن السادس عشر السلطان ادريس علومه الذي يذكر مؤرخه وكبير ائمته الامام احمد ابن فرتوة بعض الاصلاحات التى ادخلت فى عهده كالتأكيد من جديد على تطبيق احكام الشريعة ونقل السلطة القضائية من ايدي رؤساء القبائل الى القضاة ، وتشييد المساجد من اللبن (٤٢) ٠

لقد ساد في برنو ـ بحلول القرن الخامس عشر ـ نظام التعليم الاسلامي ، وازداد عدد الطلبة منذ عهد السلطان علي جاجي (غازي) فأقيمت المدارس ، وهي مراكز للتعليم العالي ، اشتهرت من بينها مدرسة الشيخ احمد فاطمي فى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، كما ظهرت فى اواخر القرن السادس عشر مدرسة كالومباردو التى تقع على مسافة ٥٠ ميلا الى الشمال الشرقى من

---

(٣٨) Lange, p. 254.
(٣٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها ٠
(٤٠) Trimingham, p. 117. Hiskett, p. 65
(٤١) Hiskett, p. 66.
(٤٢) Hodgkin, pp. 32-3.

العاصمة جازاجامبو ، ومن اشهر علمائها فى بداية تأسيسها العالم الطارقى الشيخ الوالي بن الجرمي الطارقي ، والشيخ وال ديدي الفلاتي الذى تلقى العلم فى تنبكتو وأجاديس ، وكان من اتباع الطريقة القادرية ، وكانت مدرسة كلومباردو مركزا لنشر الطريقة القادرية فى برنو والسودان الاوسط ، وقد أحيا مدرسة كلومباردو الشيخ عبدالله البرناوي فى حدود عام ١٠٧٥هـ/ ٤ - ١٦٦٥م ، وكان قد تلقى العلم على يد العالم الطارقى احمد الصادق بن ابى محمد اويس ونشط فى نشر الاسلام بين الوثنيين فى برنو (٤٣) · ويذكر المؤرخ المغربى احمد الناصري السلاوي الشيخ عبدالله البرنوي على انه شيخ الولي ابى فارس عبدالعزيز الدباغ الموضوع فى مناقبه كتاب (الذهب الابريز) (٤٤) ·

وفى القرن الثانى عشر للهجرة/الثامن عشر للميلاد ظهرت مدارس اخرى فى ماشينا وفى العاصمة جازارجامو

وكان العلماء والطلبة فى هذه المدارس يتلقون المساعدة والدعم من جانب السلطان · وغدت برنو مركزا علميا اجتذب اليه الكثير من المسلمين من بقية انحاء السودان

وكان لمدارس برنو صلة بالجامع الازهر الشريف فى القاهرة ، وقصدها علماء اتراك واندلسيون · وقد اشتهر العلماء الاندلسيون فى ميدان الدراسات القرآنية وتدريس الفقه · واحتفظت برنو الى عهد قريب بصيتها فى جودة مستوى دراساتها القرآنية · ان عامة الناس فى برنو تقبلوا الاسلام والتزموا بتعاليمه اكثر من غيرهم فى مناطق بلاد السودان جنوبى الصحراء الكبرى ، وقد أقر بذلك حتى محمد بللو - ولم يكن صديقا لبرنو - فى كتابه (انفاق الميسور) (٤٥) ·

العلاقات التجارية بين كانم - برنو وشمال افريقيا

ان كانم - بحكم موقعها وحاجتها الى منفذ لمنتجاتها - كانت على اتصال بالشمال الافريقي منذ عهد بعيد · فمنذ اقدم العصور كانت تربط منطقة بحيرة تشاد بمدينة طرابلس طريق تجارية عبر زويلة بفزان وواحة كوار ، وكما هو الحال بالنسبة لتجارة غانة بالسودان الغربى مع بلاد المغرب ، فقد كانت ثمة صلة عبر الصحراء بين بلاد كانم - الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد - وبين مدينة طرابلس الغرب عن طريق بلما - احدى واحات كوار - وزويلة بفزان · ولا يمكن للمرء تفسير نمو دولة كانم دون الاشارة الى هذه التجارة عبر الصحراء · فما كانت اعظم دولة فى السودان الاوسط لتقوم لولا وقوعها عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل الكبرى المارة بواحة كوار وفزان

ولعل هذا الطريق كان مستعملا منذ ايام الرومان والقرطاجنيين ، وهو اهم الطرق للاتصال المباشر بين اقليم بحيرة تشاد وساحل البحر الابيض المتوسط (٤٦).

ان واحات فزان - وقد سماها ابن حوقل والمقدسي جزرا - كانت ذات اهمية حيوية للتجارة البعيدة المدى عبر الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب (افريقية - كانم) ومن الشرق الى الغرب (مصر - غانة - مالي - صنغاي) · وكان لا بد لصادرات كانم من عبور فزان مما يفسر ما كان يوليه سلاطين كانم - برنو من اهتمام وحرص على تأمين الطريق التجاري من بلادهم عبر فزان ولم يقتصر اهتمام ملوك كانم على الطريق الشمالي ، بل حاولوا كذلك بسط سيطرتهم على الأراضي الواقعة الى الغرب من بحيرة تشاد (برنو) للتحكم بالطرق التجارية من كوار الى الجنوب ·

كانت صادرات كانم تشمل الرقيق والعاج وريش النعام وحتى الحيوانات الحية فضلا عن الجلود والشب الكواري والثياب المطرزة ، وكانت واردات كانم تشمل الخيول فى المقام الأول والملابس والاسلحة الحديدية ·

ويلاحظ احد الباحثين بأنه فى حين ان الاتجار بالرقيق كان على نطاق محدود فى السودان الغربى حيث كان الذهب السلعة الرئيسية للتصدير ، فان السودان الاوسط - وهو خلو من الذهب - كان يتعاطى تجارة الرقيق · وكانت زويلة اشهر اسواق الرقيق فى الصحراء (٤٧) ·

---

(٤٣) Hiskett, p. 66.

(٤٤) الناصري ، احمد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٥ ، ٥/ص ١٠٣ ·

(٤٥) Hiskett, p. 67.

(٤٦) Lange, p. 247.

(٤٧) Levtzion, N., *Ancient Ghana and Mali,* New York – London 1980.

الا ان باحثا أخر يخالفه الرأي اذ يقول : «مهما بلغت قيمة تجارة الرقيق فان كانم ـ برنو تدين برخائها الى غلاتها الزراعية وتربية الحيوانات وتصدير الملح والشب اكثر مما تدين برخائها الى اتجارها بالرقيق» ، وكان بها صناعات تصدر منتجاتها الى البلدان المجاورة ، فابن بطّوطة يذكر ان برنو كانت تصدر ـ فضلا عن الرقيق ـ الثياب المزركشة وعند الحديث عن شب كوار اشاد الادريسى بجودته وذكر بانه كان عليه طلب واقبال كبيران فى بلدان شمال افريقيا (٤٨) ٠

تورد المصادر العربية ـ من اليعقوبى فى القرن التاسع الميلادي الى الحسن الوزان فى مطلع القرن السادس عشر الميلادي ـ معلومات مفيدة عن النشاط الاقتصادي فى كانم ـ برنو فى العصر الوسيط ، وعن علاقاتها التجارية بجيرانها فى شمال افريقيا ، فاليعقوبي يقول ان اهل زويلة يصدرون الرقيق الذى يبيعه لهم ملوك السودان مضيفا بأن اهل كوار يأتون بالرقيق ٠

ويذكر المهلبى ـ اواخر القرن العاشر الميلادي ـ ان زي ملك الزغاوة لبس سراويلات من صوف رقيق ، والإتشاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف بالاسماط والخز السوسي (المصنوع بمدينة سوسة التونسية) والديباج الرفيع وامواله المواشي من الغنم والبقر والجمل والخيل ٠٠ واكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود» (٤٩) ٠

ويقول البكري ـ بعد المهلبى بنصف قرن ـ انه «يجلب من زويلة الرقيق الى ناحية افريقية وما هنالك ٠٠ ومبايعاتهم بثياب قصار حمر ٠٠ وبين زويلة وبلد كانم اربعون مرحلة» (٥٠) ٠

ويورد الادريسى ـ منتصف القرن الثانى عشر الميلادي ـ تفاصيل اوفى عن مدن كانم وأعمال سكانها ، فيذكر انّ مانات «مدينة صغيرة ، وليس بها شيء من الصناعات المستعملة ٠ وتجاراتهم قليلة ، ولهم جمال وماعز» (٥١) ٠ اما الزغاوة فانهم «يشيلون بابلهم ، ولهم تجارات يسيرة وصنائع يتعاملون بها بين ايديهم ، ولباسهم الجلود المدبوغة يستترون بها» (٥٢) ٠ ويشيد الادريسى فى اكثر من موضع بالشب الكواري من حيث الجودة والوفرة فيقول إن من كوار «يخرج الشب المعروف بالشب الكواري ، ولا يعدله شيء فى الطيب ٠٠ وهذا الشب الذى يكون فى بلاد كوار بالغ فى نهاية الجودة وهو كثير الوجود ، ويتجهز به فى كل سنة الى سائر البلاد بما لا يحصى كثرة» (٥٣) ٠ وكان الشب الكواري يصدر الى مصر ، والى ورقلة بالمغرب الاوسط ويستعمل فى اغراض الصباغة والدباغة وفى الاغراض الطبية ايضا ٠

ويشير الادريسى الى الواحات الليبية مؤكدا أهميتها كمحطات على طرق التجارة الى كانم عبر الصحراء ٠ فمن اوجلة «يدخل الى كثير من ارض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو [على نهر النيجر] ، وهى [اوجلة] فى رصيف طريق الوارد عليها والصادر كثير» ٠ كما يدخل من زلة وودان وزويلة ابن الخطاب الى جُمَلٍ من بلاد السودان (٥٤) ٠

ان تربية المواشى كانت عملا رئيسيا للكثيرين من اهل كانم ، اذ كانوا مجتمعا رعويا بحكم المناخ الجاف السائد فى المنطقة الواقعة الى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد ٠ ولذلك فان الجلود الخام كانت من صادرات كانم الى عدد من الواحات الليبية حيث كان يتم دبغها وتصنيعها ٠ ويذكر البكري نوعا من الجلد يعرف بالزويلي ولعله كان يستورد خاما من كانم ٠ كما اشتهرت غدامس بدبغ الجلود حتى ان طريقة خاصة لدبغ الجلود عرفت باسمها ـ الغدامسية ـ ووصلت هذه التسمية الى الاندلس ومنها انتقلت الى اوربا فى القرون الوسطى باسم **Gundamci** ويبدو ان جلود الاغنام كانت تدبغ فى غدامس بنقعها فى الشب والملح . ولعل هذه الجلود كذلك كان منشأها بلاد كانم ، وقد ذكر ياقوت الحموي ان فى غدامس تدبغ «الجلود الغدامسية، وهى من اجود الدباغ ، لا شيء فوقها فى الجودة ، وكأنها ثياب الخز فى النعومة والاشراق» (٥٥) ٠

---

(٤٨) Lange, p. 250.

(٤٩) ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٣/ص ١٤٢ ٠

(٥٠) البكري ، ص ١١ ٠

(٥١) الادريسى ، ص ١٢ ٠

(٥٢) المصدر السابق ، ص ١٣ ٠

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ ، ٢٦ ٠

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٩٩ ٠

(٥٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤/ص ١٨٧ ٠

وقد ذكر ابن سعيد (ت ١٢٨٦م) ـ بصورة عابرة ـ انه فى عهد السلطان دونما ديبالامي كانت الملابس السوسية تستورد من العاصمة التونسية ـ «والثياب تحمل اليه من الحضرة التونسية» (٥٦) · وقبل ذلك ذكر المهلبى ان ملك الزغاوة فى القرن العاشر الميلادي كان يرتدي ثيابا صوفية وحريرية من صنع مدينة سوسة التونسية · ويذكر ابن خلدون ان سلاطين كانم كانوا على صلات ودية بالاسرة الحفصية فى تونس منذ قيامها فى اوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وأورد وصفا للهدية التى بعث بها ـ سنة ٦٦٥هـ/١٢٥٧م ـ ملك كانم وصاحب برنو الى الملك الحفصى المستنصر ، وكان فيها الزراعة (٥٧) · ويقول صاحب (كتاب الاستقصا) إن «اهل كانم هم اهل مملكة برنو المجاورة لافريقية [البلاد التونسية] من جهة قبلتها ·· وكانت لهم مع الدولة الحفصية فى المائة السابعة [القرن الثالث عشر الميلادي] وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لأهالي مالي مع بني مرين» (٥٨) ·

ان الطرق التجارية عبر الصحراء تحولت بعد المرابطين والموحدين شرقا بعد قيام دولة الحفصيين فى تونس ، وقيام شيء من الاستقرار فيها ، ولعل مما يلفت النظر ان كانم بلغت اوجها قوة واتساعا فى القرن الثالث عشر الميلادي فامتدت اراضيها شمالا وشملت فزان ، وقد تزامن ذلك مع قيام الدولة الحفصية فى تونس (٥٩) ·

وذكر ابن بطوطة ـ وقد زار السودان الغربى فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ـ ان من برنو «يؤتى بالجواري الحسان ، والفتيان ، وبالثياب المجسدة» (٦٠)

لقد عرفت زراعة القطن ـ عن طريق العرب ـ فى كل من السودان الاوسط والسودان الغربى» فانتشرت زراعته وقامت فى كافة انحاء بلاد السودان فى اواخر القرون الوسطى صناعات حياكة ونسج الملابس القطنية لسد حاجة السكان ، بل وللتصدير الى البلدان المجاورة ، وقد اجتذبت هذه الاقمشة القطنية المزركشة ـ لجودتها ورخص ثمنها ـ انظار المستعمرين البرتغاليين فى بداية حركة الكشوف الجغرافية فى القرن السادس عشر فأقبلوا على شرائها ـ بالمقايضة ـ وبيعها فى بلادهم وفى اسواق اخرى ·

يذكر القلقشندى (ت ١٤١٨م) أن معاملة اهل كانم «بقماش ينسج عندهم اسمه دندى طول كل ثوب عشرة اذرع فأكثر ، ويتعاملون ايضا بالودع «وكان يأتي به التجار العرب من منطقة المحيط الهندي» والخرز ، والنحاس المكسور ، والورق ، لكن جميعه يسعر بذلك القماش» (٦١) ·

وقد سبقت الاشارة الى ترجمة الشماخي لأبي عبدالله محمد بن عبدالحميد والى جبل نفوسة من الائمة الرستميين بتاهرت فى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وفيها يقول ان ابا عبدالله كان يعرف لسان اهل بلاد كانم ، مما يدل على انه كان يتردد على بلاد كانم تاجرا فتعلم لغتها · ان ذلك يدل كذلك على ان العلاقات التجارية بين كانم وبين منطقة طرابلس كانت قائمة منذ وقت مبكر (٦٢) ·

وفى اوائل القرن السادس عشر زار الحسن الوزان كلا من كانم وبرنو ، وهو يذكر فى كتابه (وصف افريقيا) ان برنو اقليم كبير وان الملك ـ بفضل الخيول التى كان يشتريها من التجار المغاربة ـ استطاع ان يغزو جيرانه ولكن التجار كانوا مستائين من الملك لمماطلته فى دفع ثمن الخيل التى يشتريها بالرغم من ثرائه · وقد وصف الوزان ثراء ملك برنو فقال : «وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز واعنة كلها من الذهب ، وكذلك القصاع والأوانى ·· معظمها من الذهب ، والسلاسل ـ حتى سلاسل كلاب الملك ـ كلها من الذهب الخالص ، ومع ذلك فان هذا الرجل ·· شديد البخل يفضل دفع الثمن رقيقا على دفعه ذهبا» (٦٣) · ولما زار الحسن الوزان كانم ـ ويسميها مملكة كاوكا ـ لاحظ اتساع رقعتها اذ تحدها غربا برنو ، وشرقا تمتد اراضيها الى حدود مملكة النوبة على النيل ، وتمتد شمالا الى صحراء

---

(٥٦) ابن سعيد المغربى ، ص ٩٦ ·
(٥٧) ابن خلدون ، عبدالرحمن : كتاب العبر ، بيروت ١٩٥٩ ، ٦/ص ٦٥٢ ·
(٥٨) الناصري ، ٥/ص ١٠٣ ·
(٥٩) Oliver and Fage, p. 92.
(٦٠) ابن بطوطة ، محمد : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٧٩ ·
(٦١) القلقشندي ، ٥/ص ٢٨٠ ·
(٦٢) Lewicki, p. 97.
(٦٣) الوزان ، ٢/ص ١٧٧ ·

سرت وتخوم مصر ٠ وكان ملكها حريصا على شراء الاسلحة الحديثة والخيل من مصر ، وبفضلها كان ينتصر على اعدائه دائما «لأن رجاله كانوا مسلحين بالاسلحة الحديثة ، بينما لم يكن لاعدائه غير قسي رديئة من الخشب» ٠ ونال ملك كانم «صداقة سلطان القاهرة بفضل هداياه ومجاملاته ، وحصل منه على الاسلحة والاقمشة والخيل التى كان يدفع فيها ضعف ثمنها متظاهرا بالسخاء ، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه ٠٠ ويعامل المثقفين ـ لا سيما ال البيت ـ بكثير من الاعتبار والاعزاز» (٦٤) ٠

وفى مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، كان لكانم ـ برنو تجارة مزدهرة مع مصر ٠ وقامت علاقات سياسية بينها وبين ولاية طرابلس الغرب العثمانية ، وتعززت هذه العلاقات بعد ايفاد بعثة الى طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م لابرام معاهدة صداقة وتجارة ، وكانت اهمية طرابلس الغرب بالنسبة لسلاطين كانم ـ برنو تكمن فى كونها مصدرا للحصول على البضائع الاوربية والاسلحة ، وقد تاجروا مع كافة محتلي المدينة فى القرن السادس عشر : الاسبان ، ثم فرسان مالطة ، ثم الاتراك العثمانيين ، وحصل السلطان ادريس علومه على جنود من العرب من راكبي الابل (٦٥) ٠

وكما تقدم فان اولاد محمد تمكنوا من انتزاع السلطة من ايدي الاتراك العثمانيين فى فزان بمساعدة سلطان برنو ٠ فاذا كان الامر كذلك ، فانه قد تكون ثمة ملصحة مشتركة جمعت بينهما ، وهى التجارة (٦٦) ٠

---

(٦٤) المصدر السابق ، ٢/ص ٨ ـ ١٧٩ ٠

(٦٥) Fage, J.D., *A History of Africa,* London 479, p. 82. Hiskett, p. 63

(٦٦) Martin, p. 486.

«لقد كان للعرب شرف حمل رسالة السماء الى شعوب الارض»

دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م

الدكتور
محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القومية الاشتراكية
الجامعة المستنصرية

التاريخ هو السجل الخالد لاحداث الماضي من خلاله تدرك طبيعة ذلك الماضي ، ويدرك مدى اسهام أمة ما من الامم في العطاء الانساني والحضارة الانسانية ارتفاعاً وعلواً ، أو مدى الانحطاط الحضاري لأمة ما ، وبالتالي اسهامها في تخريب الحضارة الانسانية وتعطيل دورها في التاريخ الانساني ، ولولا التاريخ لأفتقد البشر أي عنصر من مقومات التقييم المثالي لدور الأمم فيه ، وفي الحضارة الانسانية ، وهنا تنكشف الحالات الايجابية المشرقة لأمة ما ، وتتكشف الحالات السلبية المخجلة لأخرى ، وتتجسد افعال الامم ايجابيها وسلبيها في صورة بعض القادة الذين يعكسون الصورة العامة لمجمل جوهر حركة التاريخ في الأمة التي ينتمون اليها ، ولذلك فالتاريخ الايجابي لأمة ما يكون كالشجرة الطيبة التي فيها رزق للعباد ، والتاريخ السلبي يكون كالشجرة الخبيثة التي يؤذي ورقها وغيرها العباد ، وصدق الله تعالى عندما قال : «والبلدُ الطيّب يخرجُ نَباتُهُ بإذنِ رَبّهِ والذّي خَبُثَ لا يَخْرجُ إلّا نَكِداً ..» (١) ، وحينما نلتفت الى تاريخنا نجد فيه سلسلة مترابطة من الحلقات الحضارية المبدعة التي يكمل بعضها البعض ليغير للانسانية دروب الخير والمحبة والأمن والسلام ، فلن نكون في يوم ما عالة على أمة ما ، وما كنا في يوم ما سبباً في تعطيل حضارة أمة ما ، معاذ الله أن نكون هكذا ولن نكون باذن الله ، وبالمقابل فان للفرس مواقفهم السلبية التي يُحدثنا عنها التاريخ ، والتي لا يغفل عنها الصغير ، ولا ينأى عن ذكرها الكبير ، وما تاريخهم الا سلسلة من الحلقات المترابطة من الاندفاع بروحٍ مغامرة وبنوازع السيطرة والاستعلاء الأجوف من اجل ايقاف المدّ الحضاري لوادي الرافدين منذ القدم والى اليوم ، ولم تخلد حقبة ما من التاريخ من اي موقف سلبي من جانبهم تجاه بلاد الرافدين ، ويتجلى هذا الموقف السلبي بصورة جماعية أو فردية ، ففي مستوى الجماعة نجد ان هناك موجات بشرية فارسية حاولت وتحاول في اكثر من مناسبة ايقاف المد الحضاري ، اما على مستوى الافراد ، فنجد انه لم تمر مناسبة سانحة إلا وتستغل من أجل أن يحقق الافراد ما يصبو اليه المجموع .

ومن هنا يحدثنا التاريخ عن دور نصير الدين الطوسي الفارسي ، في عملية احتلال المغول لبغداد ، مركز الحضارة وموئل العلماء ، وحاضرة العالم الاسلامي ، التي احتضنت مراقد الأئمة والصالحين ، وشمخت فيها مآذن الموحدين الذين هدموا صروح الشرك والوثنية ، فبغداد كانت القبس النوراني الذي اشاع للعالم قيم الحضارة ومبادئها ، وبغداد كانت كما ذُكرت يعجز عن وصفها ، فهي الخيال الذي تغنى به الشعراء ، وهي المجد الذي افتخر به الابطال وتناخوا به ومن اجله ، تلك بغداد ، التي أرعبت قياصرة روما وبيزنطة ، واقضت مضاجع اتباع المجوسية والشرك والوثنية ، تلك دار السلام فمن تحدثه نفسه بتدنيسها ومن يجرؤ على انتهاك حرمتها ، فهو باغٍ أثيم ، وهكذا تعرضت بغداد لاعنف غزو وثني ، حاول تهديم كل قيم عربية اسلامية ، لينشر الخراب والدمار والفساد ، وليشيع اليأس في النفوس ، وليعيد الناس الى عبادة الاوثان والانصاب والازلام ليسجدوا للنار ، .. ، فكيف لمن يسمى نفسه مسلماً ، وكيف لمن يسميه الناس عالماً ومفكراً ، وكيف لمن يُؤمن به البعض فيهاً ومتفلسفاً ، كيف تسمح له نفسه القاءها في احضان الشرك والوثنية الم يقرأ ما قاله الرسول الكريم (ﷺ) : «من اعان على خصومة بظُلم فقد

باءَ بغضب من الله عز وجل» [١] ، الم يقرأ قول امير المؤمنين علي بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى قال : « .. لا خير فى عبادةٍ لا علم فيها ، ولا علمٍ لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها[٢] » ، وقول عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال لزياد بن حُديد : «هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت لا .. قال : يهدمه زَلَّة عالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحُكم الأئمة المضلين[٣] » ، فكيف يرضى المسلم أن يحل بمعقل الاسلام ما حل بها ، لولا أن تداركته فى نفسه حامية التعصب لقومه ولأبناء جنسه ، وقد قال الرسول الكريم(ﷺ) : «ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدي ، ولا يستنون بسُنتى ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان أنس[٤] » .

فكيف يبرر الطوسي تعاونه مع هولاكو الوثنى ، ولذلك فليس من المستغرب أن احتفلت ايران فى ذكراه يوم ٢٦ آيار لغاية حريزان من عام ١٩٥٦ ، بمناسبة مرور سبعة قرون على وفاته ، وفى جو عاصف بالروح الفارسية[١] .

اذن هذا الطوسي ، وهذه منزلته فى ايران ، وهذا موقفه الذى لا ينساه التاريخ الذى فى حديثه عبرة وعبر ، وذكرى وخبر تنفع الذاكرين ، فليتذكر كل عراقى موقف هذا الرجل من بغداد ، وحضارتها العريقة ، وليتذكر حكم التاريخ وحكم الله تعالى على لسان نبيه محمد (ﷺ) الذى قال : «أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» ، وقوله (ﷺ) : «من جامع المشرك وسكن مَعَهُ فهو مثله[٢]» .

وسنتطرق الى تتبع حياة الطوسى ، وكيف اتفق مع هولاكو ، وكيف إئتمنه وسار معه ، وكيف كان دوره فى تلك الأحداث .

اسمه ونسبه :

هو أبوعبدالله محمد بن الحسن[١] ، ويعرف بالمولى نصير الدين ، ويقال أيضا الخواجة نصير الدين[٢] ، الطوسي ، نسبة الى مدينة طوس الايرانية التى ولد فيها ، والتى تقع فى اقليم خراسان ، وتبعد مسافة عشرة فراسخ[٣] عن مدينة نيسابور[٤] .

ولادته :

ولد الخواجة الطوسي ، فى يوم السبت الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠ ـ ١٢٠١[٥] ، ولد فى ناحية جهرود ، من نواحى مدينة طوس[٦] .

نشأته وعلاقته بالاسماعيلية :

اتجه الطوسي الى الدراسة والتعليم فى مدينة نيسابور ، وعندما اجتاحها الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان (١٢١٥ ـ ١٢٢٧) عاد الى طوس ، ومن ثم أصبح مطمحاً لانظار الاسماعيليين فى شخص ناصر الدين عبدالرحيم بن أبى منصور الاسماعيلى حاكم قوهستان ، واكبر وزراء علاء الدين محمد بن جلال الدين حسين ، داعى الاسماعيلية الاكبر ، فوجه للطوسي دعوة لزيارته فى قوهستان ، وبقى فى قلاع الاسماعيلية زهاء (٢٨) سنة ،

---

(١) سورة الاعراف ، الآية (٥٨)
(١) محمد بن عبدالوهاب ، كتاب الكبائر ، (الرياض ، مطابع الفلاح) ص ٤٠
(٢) الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، أصول الايمان ، (الرياض ، مطابع الفلاح) ٤١
(٣) نفسه ، ٣٦
(٤) كتاب الكبائر ، ٥٣

(١) د . عبدالامير الاعسم ، نصير الدين الطوسي ، الطبعة الأولى (بيروت ، ١٩٧٥) ١٦
(٢) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد فى هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الارنؤوط وعبدالقادر الارنؤط ، ج٢ (بيروت ، ١٩٨٥) ص ١٢٢ ـ ١٢٣

(١) الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق د . احسان عباس ، ج٣ (بيروت ، ٢٤٦) ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ج٥ (القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١) ص ٣٣٩
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ (القاهرة ، ١٣٥٨) ٢٦٧
(٣) الفرسخ ت وحدة لقياس المسافة تساوى (٣) أميال ،انظر ڤالترهنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د . كامل العسلي (عمان ، ١٩٧٠) ص ٩٤
(٤) الكتبي ، فوات الوفيات ٣/٢٥٢
(٥) انظر ، رشيد الدين الهمدانى ، جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان (بيروت ،١٩٨٣) ص ٣٠٤ ، ابن الوردي ، تاريخ ج٢ (القاهرة ، ١٢٨٥) ٢٢٣
(٦) د ـ الاعسم ، نصير الدين الطوسي ، ١١ ،٢٢ ـ٢٣

الى ان كاتب المغول سراً فى حوالى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م[١] ·

والاسماعيلية طائفة من غلاة الباطنية الذين خرجوا عن الاسلام بكثير من العقائد التى يذهبون اليها ، ولهم فى الكيد للمسلمين تاريخ مسيء قبيح مشهور ، وبخاصة فى الشام ، وكان المسلمون يقفون لهم بالمرصاد وعلى مر الزمان والعصور[٢] ، ففى سنة ٥٧١هـ/ أحرق صلاح الدين الايوبى قلاعهم وديارهم ·

وفى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، أصدر امبراطور المغول مانغوخان امراً الى أخيه هولاكو خان ، يأمره فيه بالتوجه لاخضاع البلاد الغربية ، ومنها بغداد[٤] ، والمعروف عن المغول انهم كانوا يدمرون كل بلد يمرون فيه ، باستثناء ما فعلوه حين دخولهم ايران وبالاخص مدينة طوس : «حيث أمر هولاكو بتجديد عمارة بعض المدن ، ودفع التكاليف اللازمة من الخزانة حتى لا يتحمل الرعايا عبء هذه النفقات ، ثم حفرت الكظائم «الكهاريز» وشيدت المصانع[١] ، ويمكن أن يقارن المرء بين ما فعله هولاكو بطوس ، وما فعله فى بغداد من التدمير والتخريب ·

ثم اتجه هولاكو بعد ذلك الى قلاع طائفة الغلاة الاسماعيلية ، وكان الطوسي وزيراً لشمس الشموس ، ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين ، وكانوا ينتسبون الى نزار بن المستنصر[٢] ، وقال ابن كثير عن الطوسي : «وزر لأصحاب قلاع الألموت من الاسماعيلية[٣] ··» ، وفى يوم (٩) جمادى الآخرة من سنة ٦٥٤هـ/ شرع هولاكو بالهجوم على قلاع الملاحدة الاسماعيلية ، واذا بالطوسي ، وموفق الدولة «اليهودى الأصل» وآخرون قد مالوا الى الى هولاكو خان الى أقصى حد ، ومن قبل كانوا يرغبون فى ذلك ، فصاروا يتشاورون سراً ، لكى يجعلوا هذا الملك ـ أي الاسماعيلى ـ يخضع لهولاكو على الوجه الأحسن ، والطريق الاسهل ·· واتفقوا جميعاً على تحقيق هذا الهدف ، ولهذا السبب لم يدخروا وسعاً فى حث خورشاه الاسماعيلى على الخضوع والطاعة ، وصاروا يخوفونه مغبة المقاومة فاستجاب لنصحهم[٤]» ، وكان خورشاه قد استشار الامراء والاعيان ولايته وصار كل منهم يقول ما يمليه عليه رأيه وأخيراً استقر الرأى على ان يذهب الى هولاكو الخواجه الطوسي مع طائفة الوزراء والاعيان ، يحملون التحف والطرائف الكثيرة ، فوصلوا الى معسكر الإيلخان فى يوم الجمعة ٢٧ شوال ، فانزلهم المغول فى اماكن متفرقة وتحدثوا اليهم الواحد بعد الآخر [١] ·

---

(١) نفسه ، ٢٢ ـ٤٦

(٢) د · محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، الهيئة المصرية العامة لكتاب (القاهرة ، ١٩٧٧) ٤٠ ـ٤١

(٣) ابن الوردي ، المصدر السابق ، ٢/٨٧

(٤) د · خصباك ، العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ، (بغداد ، ١٩٦٨) ٣٥ ـ ٣٦

(١) رشيد الدين الهمدانى ، جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول الأول ، الايلخانيون (القاهرة ١٩٦٠) ٢٤٩ ـ ٢٥٠

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٠١

(٣) نفسه ، ١٣/٢٦٧

(٤) رشيد الدين الهمدانى ، المصدر السابق ، ج١/م٢/٢٤٩ ـ ٢٥٠

(١) نفسه ، م٢/ج١/٢٥٤ ـ٢٥٥

وكان للطوسي واصدقائه اكبر الاثر فى حمل خورشاه على التسليم لهولاكو ، فلما جاء هولاكو مالوا اليه وأظهروا الانقياد له والطاعة ، ومهدوا له الانتصار على الاسماعيلية ، قال المؤرخ رشيد الدين الهمدانى : «لما وضح لهولاكو صدق الخواجة نصير الدين الطوسي ، ورئيس الدولة ، وموفق الدولة ، وابنائهما ، الذين كانوا أطباء مشهورين وأهلهم من همدان تعطف عليهم وأحسن معاملتهم ، وامر باخراجهم مع أهليهم وذويهم وخدمهم ، وحشمهم ، وجميع ما يتعلق بهم ، والحقهم بخدمته فصاروا هم وابناؤهم مقربين عند هولاكو ومن ابنائه المشهورين[٢]» ٠

ومن الجدير بالذكر ان موفق الدولة هذا ، كان جد المؤرخ رشيد الدين الهمدانى ، وأصلهم من يهود همدان ، وقال رشيد الهمدانى معلقاً على ثقة هولاكو بالطوسي ، مانصه : «ولما تأكد هولاكو من صدق واخلاص الخواجة نصير الدين الطوسي ، وموفق الدولة ٠٠ شملهم بعطفه وانعامه ، واعطاهم الخيول اللازمة لحمل أهلهم ومواليهم واقاربهم اتباعهم وخدمهم واشياعهم ، واخرجهم من القلعة والزمهم حضرته ، وهم وابناؤهم حتى اليوم ملازمون للحضرة ، ومقربون من هولاكو خان لافراد اسرته المشهورين[١]» ٠ ومن ثم اتخذ هولاكو الطوسي وزيراً له[٢] ٠

وهكذا كان للطوسى دوره فى احتلال هولاكو لقلاع الاسماعيلية ، فودع بذلك حصن الاسماعيلية ليجد العناية والرعاية من قبل هولاكو ، وقال الطوسي شعراً بمناسبة احتلال هولاكو لقلاع الاسماعيلية قال فيه :

سال عرب چوششصد وپنجاه وچارشد
يك شنبه أول مه ذى القعدة بامداد
خورشاه پادشاه سماعيليان زنحت
برخاست پيش تحت هولاكو بايستاد

ومعناهما :

عندما صارت سنة العرب أربعاً وخمسين وستمائة
وفى صباح يوم الاحد الموافق غرة ذى القعدة
قام خورشاه ملك الاسماعيلية من على عرشه
ووقف بين يدى هولاكو[٣]

ويبدو انه كان للمغول علم بدور الطوسي ومكانته فى الاسماعيلية ويبدو ان ذلك مؤشر لعلاقة خفية بين هولاكو والطوسي فيروى ان ملك المغول منكوقاآن ، لما ودع اخاه هولاكو خان ، كلفه بأن يرسل اليه الخواجه نصير الدين الطوسي ٠

---

(٢) د ٠ الصياد ، د ٠ فؤاد المعطي ، مؤرخ المغول رشيد الدين الهمدانى (القاهرة ، ١٩٦٧) ٣٠

(١) رشيد الدين الهمدانى ، المصدر السابق ، ٢٥٧
(٢) ابن كثير ، المصدر السابق ، ١٣/٢٦٥ ـ ٢٦٨
(٣) رشيد الدين الهمدانى ، المصدر السابق ، م٢/ج١/٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، الصياد ، المرجع السابق ، ٢٩ ـ ٣٠

دور الطوسي في الغزو المغولي لبغداد :

بعد التنسيق الذى تم بين المغول والطوسي وجماعته فى احتلال قلاع الاسماعيلية ، اتخذه هولاكو وزيراً له ، وكان معه اعتباراً من ذى القعدة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وحتى الاحتلال المغولي لبغداد فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، اى ما يزيد على السنتين تقريبا ، ويسير رشيد الدين الهمدانى الى ثقة هولاكو بالطوسي فيقول : «ذلك لأنه كان قد اطلع على حسن سيرة نصير الدين وصدق سريرته ، فكان يريد أن يظل ملازماً له[٢] » ، وقال ابن العماد الحنيبلى عن الطوسي : «وكان ذا منفذ له عند هولاكو[٣] ، وقال ابن الوردى : «وخدم هولاكو وحظى عنده[٤] .

ويبدو ان المغول كانوا متهيبين من امر مهاجمة العراق ، واحتلال بغداد بسبب ما كان متداولاً حينذاك من المكانة الكبيرة لبغداد ، ولعظمتها ومنزلتها الدينية فى الوطن العربى والعالم العربى والعالم الاسلامى ، ولقد خَوّفَ المنجمين هولاكو من أمر التوجه للعراق ، ولذلك اجتمع المغول فى سنة ٥٦٥هـ/١٢٥٧م ، وتشاوروا تحت رئاسة هولاكو فى امر احتلال العراق[٥] ، وظل هولاكو يتشاور مع اركان الدولة فى أمر تصميمه على التوجه الى بغداد ، فكان كل منهم يبدى رأيه حسب ما يعتقد ، ثم طلب حسام الدين المنجم الذى كان مصاحباً له بأمر القآن ، ليختاروا وقت النزول والركوب ، فقال له هولاكو : «بيّن كل ما يبدو لك فى النجوم دون مداهنة» ولما كانت له جرأة بسبب تقربه منه ، فقد قال لهولاكو بصورة مطلقة : «انه ليس ميموناً قصد أسرة الخلافة والزحف بالجيش الى بغداد ، إذ أن كل ملك ـ حتى زماننا هذا ـ قصد بغداد والعباسيين لم يستمتع بالملك والعمر ، واذا لم يصغ الملك الى كلامى ، وذهب الى هناك فستظهر ستة انواع من الفساد :

اولها : ان تنفق الخيول كلها ، ويمرض الجند :
ثانيهما : ان الشمس لا تطلع
ثالثهما : ان المطر لا ينزل
رابعهما : تهب ريح صرصر ، وينهار العالم بالزلزال
خامسها : لا ينبت النبات فى الارض
سادسها : ان الملك الاعظم يموت فى تلك السنة

فطلب منه هولاكو شهادة بصحة هذا الكلام ، فكتبها[١] »

وكان حسام الدين المنجم يهدف من وراء ذلك تنحية هولاكو عن عزمه فى التوجه الى بغداد ، خاصة وان الخليفة المستعصم قد ارسل برسالة لهولاكو يشير فيها الى جانب من قُدسية الخلافة وحرمة بغداد على كل من حاول تدنيسها ، وكان نصها : «لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال ، إذ ان كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد اسرة بنى العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصد ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين ، فان بناء هذا البيت محكم للغاية ، وسيبقى الى يوم القيامة . وفى الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة ، وتوجه بجيش لجب الى بغداد ، فلم يبلغ مأربه اذ مات بعلة الزحار ، والأمر كذلك مع أخيه عمرو .. وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقى بغداد ، فعاد منهزماً وهلك فى الطريق ، وجاء محمد خوارزم شاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة فابتلى فى راوبي اسد آباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه ، وهلك اكثر جنده وعاد خائبا خاسراً ، ثم لاقى مالاقى من جدك جنكيزخان فى جزيرة آبسكون ، فليس من المصلحة ان يفكر الملك فى قصد اسرة العباسيين ، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر[١] » ولذلك كان هولاكو متردداً فى أمر مهاجمة بغداد ، غير انه استدعى نصير الطوسي واستشاره بالأمر ، فقال له الطوسي : «لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث» فقال هولاكو : «اذن ماذا يكون ..»

---

(١) ابن كثير ، المصدر السابق ، ٢٦٧/١٣ ، رشيد الدين الهمدانى ، م٢/ج١/٢٥١
(٢) رشيد الدين الهمدانى ، م٢/ج١/٣٠٣ ـ ٣٠٤
(٣) ابن العماد الحنبلي ، الشذرات ، ٣٢٩/٥ ـ ٣٤٠
(٤) ابن الوردى ، تاريخ ، ٢٢٣/٢
(٥) د . بدري محمد فهد ، تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخير (بغداد، ١٩٧٣) ٩٣

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ م٢/ج١/٢٧٩
(١) حسن الامين ، الغزو المغولي ، ١٢٩

قال الطوسي : «ان هولاكو خان سيحل محل الخليفة[1]» ؟! ثم احضر هولاكو المنجم حسام الدين ليتباحث مع الخواجة الطوسي الذى فند مزاعمه ، وقال لحسام الدين : «لقد استشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق آراء الجمهور وأهل الاسلام ولم يحدث فساد قط ، ولو قيل ان للعباسيين مكرمة خاصة بهم فان طاهراً جاء من خراسان بأمر المأمون ، وقتل أخاه محمد الأمين ، وقتل المتوكل ابنه بالاتفاق مع الأمراء ، كذلك قتل الامراء والغلمان المنتصر والمعتز ، وقتل عدد من الخلفاء على يد جملة اشخاص فلم تختل الامور[2]» ، وقال الهمدانى معلقاً على تشجيع الطوسي لهولاكو على غزو بغداد بقوله[3] :

فـاضـاء قلبّ الملـك من قـول الـعـالم
كـأنـه زهـرة الـعلـل فى الـربيـع البـاكـر

وكان الطوسي ذا تأثير كبير على هولاكو الذى كان يستمع ويصغي ويؤمن بما يشير عليه به ، وقال الكتبى : «وكان يعمل الوزارة لهولاكو ٠٠ واحتوى على عقله حتى انه لا يركب ولا يسافر الا فى وقتٍ يأمره به ، ٠٠[1]» ٠

وعلى اثر ما اشار به الطوسي على هولاكو قرر الاخير التوجه بجيشه الكبير نحو العراق ، وكان يرافقه فى هذا الجيش ، الامراء كوكاالكا ، وأرقتو نويان ، وارغون آقا ، والخواجه نصير الطوسي ، وعطا ملك الجوينى[2] ٠

وفى أوائل المحرم سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٨م ساز هولاكو خان بالجيوش فى القلب الذى يسميه المغول «تول» عن طريق كرمنشاه وحلوان ، وكان فى ركابه كبار الامراء ، والخواجه نصير الطوسي ، مع كافة السلاطين والملوك وكتاب بلاد ايران[3] ٠ وقد اشار هؤلاء على هولاكو ان لا يصالح الخليفة ، وحسنوا له قتل الخليفة[4] ، ثم انتخب هولاكو النصير الطوسي ليكون فى خدمته كالوزير المشير[5] ٠ وقد أرسل الخليفة العباسي المستعصم برسالة تحذيرية الى هولاكو ، ثم ارسل اليه برسل الا انه لم يأبه به ، وواصل مسيره باتجاه بغداد ، فلما كان يوم الاثنين ١١ محرم سنة ٦٥٦هـ هاجموا بغداد من جهة بُرج العجمى المجاور لمقبرة الشيخ عبدالقادر الكيلانى ، حيث صعدوا عليه وملكوه ، وامتلأ بين السورين منهم ، ولم يزالوا فى تدبير أمرهم واحكامه الى يوم الاثنين ١٨ محرم ، حيث دبوا فى بغداد ، واوغلوا فيها ، وفى يوم الأحد ٣ صفر أخرجوا اليهم الخليفة المستعصم بعد ان وثقوه بالايمان التى ظنها صادقة فنزل على حكمهم فى

---

(١) رشيد الدين الهمدانى ، جامع التواريخ م٢/ج١/ ٢٨٠
(٢) نفسه ، ٢٨٠
(٣) ٢٨٠

(١) الكتبى ، فوات الوفيات ، ٣/ ٢٥٠
(٢) د ٠ خصباك ، المرجع ، ٥٠
(٣) الهمدانى ، جامع التواريخ ، م٢/ج١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ٢٠١
(٥) نفسه ، ١٣/ ٢٠١

خيمة عندهم[1] ، حيث أمر بقتله ، وذكر ابن كثير : «ان من الناس من يزعم ان الطوسي هو الذى اشار على هولاكو خان بقتل الخليفة[2]» اذ ان هولاكو تهيب قتله فى بادىء الامر ، ولكن الوزير هون عليه ذلك فقتلوه رفسا ، وفى رواية ان الذى اشار على هولاكو بقتل الخليفة الوزير ابن العلقمى والمولى نصير الدين الطوسي[3] ، وكان الذى تولى الاهتمام بابن العلقمى عند هولاكو لما احتل بغداد ، هو نصير الدين الطوسي[4] ، إذ أن هولاكو أعجب بابن العلقمى ، والارجح ان شفاعة نصير الدين الطوسي له ، كانت أهم سبب فى نجاته على حد قول ابن الطقطقي[5] ٠

وقد أنشد الطوسي شعراً يؤرخ فيه احتلال هولاكو لبغداد

قال فيه[6] :

سـال هِجْـرَتْ شَشَصْـدْ وپنجـاه وشَشْ
رُوْز يَـكْ شنْبَـه جَـهـارَمْ از صفـر
شُـدْ خليفـة نِيْسـتْ هـولاكـو دَران
دَوْلتِ عبـاسيـان آمـد بسر

ومعناهما :

فى عـام سـتـة وخمسـين وستمائـة للهجـرة
وفى يـوم الأحـد الـرابـع مـن صفـر
انعـدم ذكـر الخليفـة وجـاء اسم هـولاكـو
ودالـت دولـة الـعـباسيـين

وكان الطوسي يقيم على بوابة الحلبة أماناً للناس ، فشرع الأهالى يخرجون من المدينة ، ثم يستلمهم الجند المغولى فيقتلونهم ٠ ثم أمر هولاكو بقتل جند بغداد جميعاً ، وقضوا على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين ، اللهم إلا افراداً قلائل لم يأبهوابهم[2] ٠

وفى يوم ٩ ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، اعاد هولاكو رُسل حلب الذين كانوا قد قدموا الى بغداد ، وحملهم رسالة كتبها بالعربية نصير الطوسي كان نصها : «اما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فساءَ صباح المُنْذرين ، فدعونا مالكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذاً وبيلا ، وقد دعوناك الى طاعتنا فان أتيت فروح وريحان ، وان أبيت فخزي وخسران ، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صُنعا ، فما ذلك على الله بعزيز والسلام على من أتبع الهدى[1] » ٠

بهذا الاسلوب وبهذه الروح وبهذا المنطلق يخاطب الطوسي العرب المسلمين فى الشام نيابة عن هولاكو الوثنى ٠

وبعد كل الدمار الذى لحق بحاضرة الاسلام والعرب ، نقل الطوسي كتب الأوقاف التى كانت ببغداد الى مدينة مراغة[2] ، وكان ذلك فى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ويروى بأن مجموع ما نقله الطوسي من خزائن بغداد الى مراغة حتى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م قد بلغ (٤٠٠) أربعمائة الف مجلد[1] ، وجمعت فى مرصد مراغة الذى بناه المغول بناءً على امر صادر من منكوقاآن ، حيث اقتضى رأيه ان يشيد مرصد ، وأمر أن يقوم بهذه المهمة نصير الطوسي ، وقد انشىء المرصد الايلخانى بعد مضى سبع سنوات من جلوس هولاكو خان على العرش ، وذلك بالاعتماد على الطوسي ومشاركة الحكماء الاربعة مؤيد الدين العرضى ،

---

(١) ابن الكازرونى ، مختصر التاريخ ، تحقيق د ٠ مصطفى جواد (بغداد ، ١٩٦٩) ، ٢٧ - ٢٧٣٠
(٢) ابن كثير ، المصدر السابق ، ٦٧/١٣ - ٢٦٨
(٣) نفسه ، ٢٠١/١٣
(٤) ابن الطقطقي ، الفخرى فى الأداب السلطانية (بيروت ، ١٩٦٦) ٣٢٨
(٥) نفسه ، ٣٣٨
(٦) ابن الكازرونى ، المصدر السابق ، ٢٧٢ - ٢٧٣

(١) الالوسي ، الاستاذ سالم ، هامش ٢٧٣ من الكازرونى ، مختصر التاريخ (وقال الاستاذ الالوسي نقل العلامة المحقق البيتين مصحفين لعدم معرفته بالفارسية فعرضناها على الاستاذ جعفر الخليلى الذى تفضل مشكوراً بقراءتهما وضبطهما بالشكل الذى يجده القارىء» ٠
(٢) رشيد الهمدانى ، المصدر السابق ، م٢/ج١/ ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ٢٩٤

(١) نفسه ، ٢٩٦ ، ٢٩٧
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢١٥/١٣
(٣) الاستاذ اسامة النقشبندي ، فنون الكتاب ، ضمت كتاب حضارة العراق (بغداد ١٩٨٥) ج١١/٢٢٣

وفخر الدين المراغي ، وفخر الدين الأخلاطي ، ونجم الدين دنران القزويني[٤] ، حيث رتب في هذا المرصد الفلاسفة والمتكلمين والأطباء وغيرهم [٥] .

آراء في الطوسي :

تتباين مواقف المفكرين في تقييم الموقف السياسي الذي وقفه الطوسي من الغزو المغولي لبغداد ، وسوف نطلع القارىء على جانب من بعض تلك المواقف المتباينة ، لنبين مدى حقيقة وأهمية كثير من الكتابات التاريخية التي توجب اعادة النظر فيها ، وضرورة كتابتها من قبل ابناء الأمة الذين آمنوا بقدرها وبدورها في صنع هذا التاريخ ، وان هذه الكتابات تكشف لنا عن كثير من المتناقضات التي لا سند لها ولا أصل لها من قريب او بعيد مع حقيقة الحدث أو الواقعة التاريخية ، وهنا نلاحظ ان ابرز الذين دافعوا عن الطوسي من المؤرخين القُدامى ، هو مؤرخ المغول رشيد الدّين فضل الله الهمداني الذي اشاد به في مواقع كثيرة نقتبس منها مايلي : «..مولانا الاعظم السعيد أستاذ البشر سلطان الحكماء ، الخواجه نصير الدين الطوسي تغمده الله بغفرانه[١] ، وقال عنه في موضع آخر : «وفي ذلك الوقت كان مولانا السعيد الخواجة نصير الدين الطوسي الذي كان اكمل واعقل عالم[٢] ..» ، واشاد به في مواضع عديدة ومنها قوله عنه : «سلطان المحققين» و «العقل الحادي عشر» وغيرها فمن هو المؤرخ رشيد الدين الهمداني هذا الذي اشاد بالطوسي الى هذا الحد؟ فقد قال ابن حجر العسقلاني عن والد رشيد الدين الهمداني ، ما نصه : «كان أبوه عطاراً يهودياً فاسلم هو ، واتصل بغازان فخدمه وتقدم عنده بالطب الى ان استوزره[١] ، وأكد العيني : ان أصله يهودي من يهود همدان ، ثم اسلم وهو شاب ابن ثلاثين سنة[٢] ، وأكد الدكتور الصياد ان ذلك الوقت كان التعصب فيه على اشده ضد المسلمين وايثار للطوائف الأخرى وبخاصة اليهود الذين ارتفع شأنهم الى حدٍ كبير في عهد السلطان أرغون ، وعلى يد وزيره سعد الدولة البويهي الذي كان شديد التعصب لكل ما هو يهودي[٣] ، ومن المسلم به أن رشيد الدين الهمداني كان يعرف اللغة العبرية معرفة تامة ، وكان يتخير اعوانه من بين صفوف اليهود الذين كانوا يكثرون في هذا العصر في البلاط المغولي ، وكان شائعاً في ايران اتهام رشيد الدين باليهودية ، وعلى أثر مقتله دفن في تبريز وفي مقابر اليهود [٤] ، وقد تألم رشيد الدين الهمداني على وفاة هولاكو بقوله : «وقعت الطامة الكبرى في ليلة الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، وكان عمره ثمان وأربعين سنة شمسية تامة اذ وصل من مرحلة الفناء الى مستقر البقاء على ساحل جغاتو[٥]» .

اذن هذا الهمداني كان يهودياً في اصله ، ويكفيه خزياً تعصبه لها ، فلا غرابة في امتداحه للطوسي ؟!

وممن اشاد بالطوسي ايضاً الميرزا محمد باقر الخونساري الاعجمي ، والذي قال مفتخراً باحتلال المغول لبغداد ، ومعجباً بالطوسي الذي كان سبباً في ذلك فيقول عن الطوسي وهولاكو : «ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم في محروسة ايران هولاكوخان ، ابن تولي خان بن جنكيزخان من عظماء سلاطين التتارية .. ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد الى دار السلام بغداد لارشاد العباد واصلاح البلاد وقطع دابر سلسلة البغي والفساد واخماد ثائرة الجور والالباس بابادة دائرة ملك بني العباس ، وايقاع القتل العام في اتباع اولئك الطغام الى ان أسال من دمائهم الاقذار

---

(٤) رشيد الهمداني ، المصدر السابق ، ٣٠٣ ـ ٣٠٤
(٥) ابن كثير ، المصدر السابق ، ٢٦٨/١٣

(١) جامع التواريخ ، م٢/ج١/٣٠٣
(٢) نفسه ، ٢٤٩

(١) ابن حجر ، العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ج٢ (حيدر أباد ، ٢١٣هـ) ٢٣٢
(٢) د . الصياد ، المرجع السابق ، ٩٨
(٣) نفسه ، ٩٩
(٤) نفسه ، ٩٩ ـ ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٤١
(٥) رشيد الدين الهمداني ، المصدر السابق ، ٣٤١

(١) ميرزا محمد باقر الخونساري ، روضات الجنان ، ٥٧٨

كأمثلة الانهار ، فانهار بها فى ماء دجلة ، ومنها الى نار جهنم دار البوار ومحل الاشقياء والأشرار[1] » ، وهكذا تلاحق وترادف هذا الاعجمى المتعصب بصاحبه الأول ، حيث أعمى الحقد بصيرتهم ، واعمى الباطل قلوبهم ، وان هذا الجاهل قاده تعصبه الى الافتخار بما قام به سيده الطوسي بالتعاون مع هولاكو من احتلال بغداد وسفك دماء الابرياء فيها ٠

وتناغما مع هذين الشخصين الاعجميين ، أبدى حسن الأمين مدافعا هو الآخر عن الطوسي حيث قال عنه : «كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر ، وهو فى ذلك آية من الآيات ٠٠» ، وكان الطوسي قدمات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بأرفع صوت واعلى نبرة ٠٠ مات الطوسي مودعا الامر الى تلميذه وأقرب المقربين اليه ٠٠ ليكون رسوله إلى العالم العربى والاسلامى» ٠٠ هكذا استطاع نصير الدين الطوسي ان يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية» ويختتم الامين دفاعه وتعصبه عن الطوسي بقصيدة فى مدح الطوسي من انشاء نظام الدين الاصفهانى [1] ، ومن الغريب حقاً ان حسن الأمين كان يُدافع عن الطوسي بدون علم أو دراية ، وساق الفاظا وعبارات غريبة حقاً وهو يفخر بانحلال الخلافة الاسلامية ، واحتلال بغداد على ايدى المغول الوثنيين ، وممن كتب عن الطوسي من العراقيين الدكتور عبدالأمير الاعسم ، فى كتاب مستقل ألفه عنه ، قال فيه : «مرت الذكرى السبعمائة على وفاة الفيلسوف نصير الدين الطوسي فى ٢٦ آيار/مايو ١٩٧٤ ، فاعادت الى ذهنى نشر الدراسة التى كتبتها عنه منذ عهد بعيد ٠٠ والكتاب برمته دراسة جادة فى نصير الدين ، وحاولنا ايضاح تقصير الدراسات المعاصرة فيها على العموم ، وفى الطوسي شخصيا على الخصوص ، والطوسي ، ليس بعد هذا ، بالشخصية الطارئة فى تاريخنا ، انه بارقة مدت بفكرنا وفلسفتنا وعلومنا ٠٠ وبعد فان ما نجده فى هذا الكتاب ليس هو كل ما يجب ان يُقال فى الطوسي ، ٠٠ ومهما قيل فى نزعة النصير السياسية ، يبقى الرجل إرثاً عاماً للحضارة العربية ، شأنه فى هذا الشأن الكثير من اعلام الفكر الذين ولدوا فى ايران وغزوا الحضارة العربية ، فلا أحسبَّن أحداً رآهم من زاوية العنصر بحسبانهم ايرانيين ، دون اعتبار لانتماء فكرهم الخالص للعربية[1] » ٠

ومن الذين جرحوا الطوسي ، عدد كبير من العلماء ، نقتبس من بينهم رأى العلامة شمس الدين ابن القيم الجوزية الذى قال عنه : «لما انتهت النوبة الى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو ، شفى نفسه من اتباع الرسول (ﷺ) وأهل دينه ، فعرضهم على السيف حتى شفى اخوانه الملاحدة ، واشتفى هو ، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم ، وجعلهم خاصته وأولياءه ، ونصَّر فى كُتبه قِدم العالم وبطلان المعاد ، وانكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ، وانه لا داخل العالم ولا خارجه ، وليس فوق العرش إله يُعبد البتة ، واتخذ للملاحدة مدارس ورام جعل اشارات امام الملحدين ، فكان القرآن ، فلم يقدر على ذلك ، فقال هو قرآن الخواص ، وذلك قرآن العوام ، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين ، فلم يتم له الامر وتعلم السحر فى آخر الامر فكان ساحرا[1] ، وسماه ابن تيمية : «نصير المشركين[2]» ٠

---

(١) حسن الامين ، الغزو المغولي ، (بيروت ١٩٧٦) ١٥٤ ـ ١٦٠

(١) ـ د ٠ عبدالأمير الاعسم ، المرجع السابق ، ٧ ـ ١٠ ، ١٦

(١) ابن قيم الجوزية ، اغاثة اللهفان من مكاييد الشيطان ج٢ (بيروت ، ١٩٧٥) ٢٦٧ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٥/٣٣٩ ـ ٣٤٠
(٢) ابن قيم الجوزية ، المصدر نفسه ، ج٢/١٤٦

مصادر ومراجع البحث

القرآن الكريم :

الاعسم ، د · عبدالامير

ـ نصير الدين الطوسي ، الطبعة الأولى (بيروت ، ١٩٧٥)

الأمين ، حسن الأمين ·

ـ الغزو المغولي ، دار التعارف ، (بيروت ، ١٣٩٦هـ /١٩٧٦م)

ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (ت ، ٨٥٢هـ) :

ـ الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة (حيدر آباد ٣/١٢هـ

خصباك ، الدكتور جعفر حسين

ـ العراق فى عهد المغول الأيلخانيين ، مطبعة العاني (بغداد ، ١٩٦٨)

الخونسارى ، الميرزا محمد باقر

ـ روضات الجنان ·

الذهبى ، مؤرخ الاسلام شمس الدين ابوعبدالله محمد بن أحمد (ت ، ٧٤٨هـ) :

ـ دول الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٧٤) ·

الصياد ، د · فؤاد عبدالمعطى

ـ مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله ، الطبعة الأولى (القاهرة ، ١٩٦٧)

ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا ·

ـ الفخرى فى الآداب السلطانية ، دار صادر (بيروت ، ١٩٦٦)

ابن العماد الحنبلي ، ابوالفلاح عبدالحي (ت ، ١٠٨٩هـ) :

ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ) ·

فهد ، الدكتور بدري محمد :

ـ تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخير ، مطبعة الارشاد ، (بغداد ، ١٩٧٣) ·

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين ابوعبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقى (ت ، ٧٥١هـ)

ـ اغاثة اللهفان من مكاييد الشيطان ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة (القاهرة ، ١٩٧٥ ·

ـ زاد المعاد فى هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، وعبدالقادر الارنؤوط ، (بيروت ، ١٩٨٥) طبع مؤسسة الرسالة ·

ابن الكازروني ، ظهير الدين علي بن محمد البغدادى (ت ، ٦٩٧هـ) :

ـ مختصر التاريخ ، تحقيق د · مصطفى جواد ، وضع فهارسه واشرف على طبعه الاستاذ سالم الالوسي (بغداد ، ١٩٦٩) ·

الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ، ٧٦٤هـ) :

ـ فوات الوفيات ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت ، ١٩٧٣) ·

ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقى (ت ، ٧٧٤هـ) :

ـ البداية والنهاية فى التاريخ ، (القاهرة ، ١٣٥٨هـ) ·

محمد بن عبدالوهاب (الشيخ) (ت ، ١٢٠٦هـ) :

ـ الكبائر ، قام بمراجعة نصوصه فى أصولها وبالتعليق عليه ، فضيلة الشيخ اسماعيل بن محمد الانصارى ، وقابله على مخطوطاته الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ (الرياض ، مطبعة الفتح) ·

ـ أصول الايمان ، حققه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ (الرياض) ·

ـ مطبعة الفتح ·

موسى ، د · محمد يوسف ·

ـ ابن تيمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٧٧) ·

النقشبندي ، اسامة ناصر ·

ـ فنون الكتاب ، وهو الفصل الثالث من كتاب حضارة العراق ، ج١٠ (بغداد ، ١٩٨٥) ·

ابن الوردي ، زين الدين عمر (ت ، ٧٥٠هـ) :

ـ تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الوهبية (القاهرة ، ١٢٨٥) ·

الهمداني ، رشيد الدين فضل الله ·

ـ جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من اكتاي قاآن الى تيمورقاآن ، نقله الى العربية د · فؤاد عبدالمعطي الصياد ، وراجعه وقدم له د · يحيى الخشاب ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى (بيروت ١٩٨٣) ·

ـ جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، الأيلخانيون ، تاريخ هولاكو ، نقله الى العربية ، محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوى ، فؤاد عبدالمعطي الصياد ، راجعه وقدم له د · يحيى الخشاب ، دار احياء الكتب العربية (القاهرة ، ١٩٦٠) ·

هنتس ، فالتر هنتس ·

ـ المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د · كامل العسلي ، (عمان ، ١٩٧٠) ·

الطبرى الفقيه المؤرخ

احمد عبدالباقى
عضو اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

(١) حياته ودراسته

يعتبر الطبرى من ابرز العلماء العرب فى القرن الثالث الهجرى فى علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ · وهو ابوجعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد ، وقيل يزيد بن كثير بن غالب[١] · وقد ولد بمدينة آمُل وبها نشأ وتلقى علومه الاولية · وكانت آمل انذاك قصبة اقليم طبرستان ، وهى اكبر مدنه واعمرها · وقد اتخدها الحسن بن زيد العلوى مقراً له عندما تغلب عليها فى سنة ٢٥٠هـ ، وبقيت كذلك فى عهد اخيه محمد بن زيد بعده حتى سنة ٢٨٧هـ ، عندما تغلب عليها السامانيون الذين كانوا اقاموا امارة شبه مستقلة فى ماوراء النهر ، وجعلوا مدينة بخارى قاعدة لهم · وهناك بعض الشك فى سنة مولد الطبرى فيقال انه ولد فى اواخر سنة ٢٢٤هـ او فى اوائل سنة ٢٢٥هـ ، وقد فسَّر الطبرى نفسه هذا الشك فقال : لان اهل بلدنا يؤرخون بالاحداث دون السنين فأرَّخ مولدى بحدث كان فى البلد ، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث ، فاختلف المخبرون لى فقال بعضهم كان ذلك فى اواخر سنة اربع وعشرين ومائتين ، وقال آخرون بل كان فى اول سنة خمس وعشرين ومائتين[٢] · واعتبره ابن النديم وابن خلكان من مواليد سنة ٢٢٤هـ[٣] ·

ولعل اول من كتب عن بعض جوانب حياة الطبرى ودراسته العلمية هو الخطيب البغدادى ، الذى حدد تاريخ ميلاده ووفاته وذكر جانبا من حياته الدراسية وشيئا عن سيرته ، وتلاه ياقوت الحموى الذى عنى بسيرة الطبرى وذكر جوانب متعددة من حياته الشخصية وصفاته الجسمية والخلقية ، وحياته الدراسية ، ومصنفاته ، فقد عقد فصلا طويلا عنه فى كتابه معجم الادباء[٤] · وسنتخذ هذين المصدرين اساساً لبحثنا هذا ، الا اذا ذكرنا مصادر اخرى ·

نشأ الطبرى فى اسرة متوسطة المال ، وكان ابوه يملك ضيعة يعتاش واهله على غلتها · وقد حرص الاب على تعليم ابنه لما لاحظه عليه من علائم الفطنة والنباهة · قال الطبرى عن نفسه «حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وانا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وانا ابن تسع سنين ·· وحرص ابى على معونتى على طلب العلم وانا حينئذ صبى صغير»[٥] · وبعد ان استنفذ الطبرى دراسته فى الحديث على شيوخ بلده آمل سمح له ابوه بالسفر الى البلدان الاخرى طلبا للحديث والعلم ، وكان يوجه اليه بالنفقة بين حين وآخر · فقصد مدينة الرى ودرس على شيوخها لاسيما المحدث محمد بن حميد الرازى المتوفى سنة ٢٤٨هـ ، ويقال انه كتب عنه فوق مائة الف حديث · ثم تنقل فى اكثر الاقطار الاسلامية طلبا للعلم ، والتعرف على كبار علماء زمانه فى الحديث والفقه[٦] · فاتجه الى مدينة السلام ، وقد مرَّ باهم المدن فى طريقه واتصل بالمشهورين من محدثيها وكتب عنهم · ودخل مدينة السلام وكان فى نفسه ان يسمع من ابى عبدالله احمد بن حنبل كبير محدثى عصره ، فلم يتفق له ذلك لموت الامام احمد ، قبل دخوله المدينة ·

---

(١) الفهرست /٣٤٠ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٣٢ ومعجم الادباء د/٤٢٣
(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٦ ، ومعجم الادباء ٦/٤٢٩ ، والمنتظم ٦/١٧٠
(٣) الفهرست /٣٤٠ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٣٢
(٤) تاريخ بغداد ٢/١٦٢/١٦٩ ومعجم الادباء ٦/٤٢٣ ـ ٤٦٢
(٥) معجم الادباء ٦/٤٣٠
(٦) الفهرست /٣٤١

اخذ ابوجعفر عن علماء مدينة السلام في الحديث والفقه والقرآن ، ثم انحدر الى البصرة فسمع من كان بها من شيوخ الحديث في وقته . وكتب في طريقه عن شيوخ الكوفة وواسط . وكان اشهر من اخذ عنهم في المدن آنفة الذكر احمد بن منيع البغوى المتوفى سنة ٢٤٤هـ ، وابوكريب محمد بن العلاء المتوفى سنة ٢٤٨هـ ، وهناد بن السرى بن مصعب التميمى المتوفى سنة ٢٤٣هـ ، وابويعقوب اسحاق بن اسرائيل المتوفى سنة ٢٤٥هـ . وقرأ القرآن على سلمان بن عبدالرحمن الطلحى . وعند عودته الى مدينة السلام بقى بها مدة انصرف فيها الى دراسة الفقه وعلوم القرآن واللغة وآدابها . وقد سمع ثعلب شيخ اللغويين الكوفيين في زمنه يقول : قرأ عليَّ ابوجعفر الطبرى شعر الشعراء قبل ان يكثر الناس عندى بمدة طويلة ، وقال عنه انه كان من حذّاق الكوفيين

وكان الطبرى قد ابتدأ بدراسة الفقه بمدينة السلام على مذهب الامام الشافعي ، وهو حدث ، قبل خروجه الى الفسطاط . ثم غادر بغداد فغرَّب الى مصر ، وكتب في طريقه عمن لقيهم من المحدثين والفقهاء باجناد الشام والسواحل والثغور . ثم صار الى الفسطاط في سنة ٢٥٣هـ ، وكان بها عدد من شيوخ اهل العلم فاكثر عنهم الكتابة من علوم مالك والشافعي وابن وهب وغيرهم . ثم عاد الى الشام ، ورجع ثانية الى مصر . وكان بمصر آنذاك ابوالحسن علي بن سراج المصرى ، فلقيه الطبرى فبان فضله في علوم القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر . كما لقى بها ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم المزنى فتكلم في مواضيع عديدة منها الكلام في الاجماع . قال ابوجعفر «لماوردت مصر في سنة ٢٥٦هـ نزلت على الربيع بن سليمان .. ولم يبق احد من العلماء الا لقينى وامتحننى في العلم الذى يتحقق به . فجاءنى رجل فسألنى عن العروض ، ولم اكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له عليَّ قول الا اتكلم اليوم في شيء من العروض ، فاذا كان غد فصر اليَّ وطلبت من صديق لى العروض للخليل بن احمد فجاء به ، فنظرت فيه ليلتى ، فامسيت غير عروضى واصبحت عروضيا» .

ثم عاد الطبرى الى مدينة السلام ، ومنها ذهب الى طبرستان ، وهى الرقعة الاولى ، ثم الثانية التى كانت في سنة ٢٩٠هـ . ثم رجع الى بغداد واستقر مقامه فيها حتى وفاته . وكان قد نزل قنطرة البردان ، فاشتهر اسمه في العلم وشاع خبره بالفهم والتقدم[7] . ويقول ابن النديم ان الطبرى اخذ فقه الشافعى عن الربيع بن سليمان بمصر ، وعن الحسن بن محمد الزعفرانى ببغداد ، واخذ فقه مالك عن يونس بن عبد الاعلى وعن ابناء عبدالحكم : محمد وعبدالرحمن وسعد في مصر ، واخذ فقه اهل العراق عن ابى مقاتل بالرى[8] .

وكان الطبرى لما قدم بغداد من طبرستان قدومه الاخير ، قصده الحنابلة فسألوه في الجامع يوم الجمعة عن احمد بن حنبل وعن حديث الجلوس على العرش . فقال ابوجعفر اما احمد بن حنبل فليس له خلاف في الفقه يعتد به ، فقالوا له فقد ذكره العلماء في الاختلاف . فقال ما رأيته روى عنه ولا رأيت له اصحابا يعوَّل عليهم . واما حديث الجلوس على العرش فمحال . فلما سمع الحنابلة واصحاب الحديث منه ذلك وثبوا به ورموه بالمحابر[9] . ويقول ابن الجوزى لما اشتد خلاف الحنابلة على الطبرى اراد مناظرتهم في اجتماع يعقد في حضرة الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادى وزير المقتدر بالله وبعده القاهر بالله ، واحضر العلماء الرؤساء من اهل بغداد . فحضر الطبرى في ذى القعدة من سنة ٣٠٩هـ دار الوزير للمناظرة الا ان احدا لم يحضر الدار من فقهاء الحنابلة ، فعاد الطبرى الى منزله[10] .

ومما ذكر عن صفات الكندى وسلوكه ، فقد وصف بأنه كان اسمر الى الادمة ، اعين ، نحيف الجسم ، مديد القامة ، فصيح اللسان[11] . وكان شديد العناية بصحته لا يأكل كل ما يضره او يعسر هضمه ، وقد كتب كتاب فردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبرى اخذه عن مصنفه سماعا ، فكان يسترشد به في اموره الصحية ، ويحفظه تحت وسادته . وقد نظم حياته اليومية فكان يصلى الظهر في بيته ، ويكتب في تصانيفه الى العصر فيخرج فيصلى ، ثم يجلس للناس يقرىء ويقرأ عليه الى المغرب . ثم

---

(٧) يراجع عن سفرات الطبرى العلمية : معجم الادباء ٤٣٠/٦ ـ ٤٣٥

(٨) الفهرست /٣٤٠

(٩) معجم الادباء ٤٣٦/٦

(١٠) المنتظم ١٥٩/٦

(١١) تاريخ بغداد ١٦٦/٢

يجلس للفقه والدرس بين يديه الى عشاء الآخرة ، فيدخل منزله · فاذا دخل منزله بعد المجلس لا يكاد يدخل اليه احد لتشاغله بالتصنيف ، الا لأمر مهم ، ووصف بانه كان ظريفا فى ظاهره ، نظيفا فى باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، متفقدا لاحوال اصحابه ، مهذبا فى جميع احواله جميل الادب فى مأكله وملبسه وما يخصه فى احوال نفسه ، منبسطا مع اخوانه وربما داعبهم احسن مداعبة · وربما جيء بين يديه بشيء من الفاكهة فيجرى فى ذلك المعنى مالا يخرج عن العلم والفقه ، حتى يكون كاجد جد واحسن علم · وكان اذا اهدى اليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليها قبلها وكافأه ، وان كانت ممالا يمكنه المكافأة عليها ردها واعتذر الى مهديها · وكان فيه من الزهد والورع والخشوع والامانة وتصفية الاعمال وصدق النية ما دلَّ عليه كتابه فى اداب النفوس ، متوقفاً عن الاخلاق التى لا تليق باهل العلم ولا يؤثرها ، يحب الجد فى جميع احواله[12] ·

وقد ورث الطبرى عن ابيه ضيعة فى طبرستان يأتيه ايرادها سنويا ، ويظهر ان الايراد كان يسد نفقاته فلم يحتج الى ان يعمل ليعيش · وكان الوزير عبيدالله بن يحيى بن خاقان عرض القضاء عليه فامتنع[13] ·

اما وفاة الطبرى فتكاد تجمع المصادر الاولية على السنة التى توفى فيها وهى بسنة ٣١٠هـ ، الا انها تختلف حول يوم وفاته وتاريخه · وقد ذكر الخطيب البغدادى انه مات يوم السبت بالعشى ودفن غداة يوم الاحد لاربع بقين من شوال سنة ٣١٠هـ · وقال ان هناك رواية اخرى عن وفاته بانها كانت وقت المغرب من عشية يوم الاحد ليومين بقيا من شوال سنة ٣١٠هـ ،دفن وقد اضحى النهار من يوم الاثنين فى داره برحبة يعقوب[14] · ويؤيد القول الاول كل من ابن خلكان وياقوت الحموى[15] · ومن الذين يقولون بوفاته يوم الاحد ابن الجوزى والذهبى وابن كثير[16] · ويستدرك ياقوت فيقول : وهناك من يقول انه مات سنة احدى عشرة او ست عشرة وثلثمائة[17] وقد اكتفى ابن النديم بان الطبرى مات فى شوال سنة ٣١٠هـ وله سبع وثمانون سنة[18] · وكذلك اكتفى مسكويه بالقول بانه مات فى سنة ٣١٠هـ دون ان يعين اليوم والشهر[19] · كما يشير ابن الجوزى الى انه دفن بازاء داره ، ويقول : وقيل بل دفن ليلا ، وان ثابت بن سنان ذكر فى تاريخه ان حاله اخفيت لان العامة اجتمعوا ومنعوا من دفنه بالنهار ، وادعوا عليه الرفض والالحاد[20] · ويقول ابن الاثير ان ماذكر عن تعصب العامة ضده ليس صحيحا · وانما تعصب عليه بعض الحنابلة فتبعهم غيرهم ، ولهذا سبب هو ان الطبرى عندما صنف كتابه اختلاف الفقهاء لم يذكر فيه الامام احمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك ، فقال انه لم يكن فقيها وانما كان محدثا · فاشتد ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه[21] ·

وكان سبب وفاة الطبرى ، كما يقول ياقوت الحموى انه كان يشكو من مرض صدرى يعتاده وينتقض عليه ، فوجه اليه الوزير علي بن عيسى طبيبا ، فسأله الطبيب عن حاله فعرَّفه حاله وما استعمل واخذ لعلته وما انتهى اليه فى يومه ذاك ، وما كان رسمه ان يعالج به وما عزم على اخذه من العلاج · فقال له الطبيب ماعندى فوق ما وصفته لنفسك شيء ، والله لوكنت فى ملتنا لعددت من الحواريين ، وفقك الله[22] ·

ولعلو منزلة الطبرى العلمية ، ولآثاره العظيمة التى تركها فى حقل التفسير والفقه والتاريخ ، فقد رثاه بعض

---

(١٢) معجم الادباء ٤٥١/٦ ـ ٤٥٨

(١٣) طبقات السبكى ١٣٨/٢ ، وتذكرة الحفاظ ٧١٢/٢

(١٤) تاريخ بغداد ١٦٦/٢

(١٥) وفيات الاعيان ٣٣٢/٣ ، ومعجم الادباء ٤٢٣/٦

(١٦) المنتظم ١٧٢/٦ ، وتذكرة الحفاظ ٧١٥/٢ ، والبداية والنهاية ١٤٦/١١

(١٧) معجم الادباء ٤٦٢/٦

(١٨) الفهرست / ٢٤٠

(١٩) تجارب الامم ٨٤/١

(٢٠) المنتظم ١٧٢/٦

(٢١) الكامل ١٣٤/٨ ـ ١٣٥

(٢٢) معجم الادباء ٤٦١/٦ ـ ٤٦٢ ، وفيه انه كان يشكو من ذات الجنب ، الا ان هذا المرض ليس من الامراض المزمنة ، ويبدو ان ياقوتا قد توهم فى تسمية المرض

معاصريه منهم : ابن الاعرابى وهو احمد بن محمد بن ياد بن بشير ، مؤرخ ومن علماء الحديث ، بصري انتقل الى الحجاز فكان شيخ الحرم المكى ، توفى بمكة فى سنة ٣٤٠هـ[٢٣] . وقد رثاه بقصيدة منها قوله[٢٤] :

حدث مفظع وخطب جليل
دقَّ عن مثله اصطبار الصبور
قام ناعى العلوم اجمع لمّاً
قام ناعى محمد بن جرير
فهوت انجم زاهرات
مؤذنات رسومها بالدثور
وغدا روضها الانيق هشيماً
ثم عدت سهولها كالوعور
ياابا جعفر مضيت حميدا
غير وانٍ فى الجد والتشمير
بين أجرٍ على اجتهادك
موفور وسعى الى التقى مشكور
مستحقا به الخلود لدى
جنة عدن فى غبطة وسرور

كما رثاه ابوبكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى ، وكان اشعر العلماء واعلم الشعراء ، وهو صاحب المقصورة الشهيرة ، توفى سنة ٣٢١هـ ، بقصيدة طويلة مطلعها[٢٥] :

لن تستطيع لامر الله تعقيبا
فاستنجد الصبر او فاستشعر الحوبا
وافزع الى كنف التسليم وارض بما
قضى المهيمن مكروها ومحبوبا

***

من صاحب الدهر لم يعدم مجلجلة
يظل منها طوال العيش منكوبا
ان البلية لا وفر تزعزعه
ايدى الحوادث تشتيتا وتشذيبا
ولا تفرق الأُلاف يفوت بهم
بَيْن يغادر حبل الوصل مقضوبا
لكن فقدان من اضحى بمصرعه
نور الهدى وبهاء العلم مسلوبا
اودى ابوجعفر والعلم فاصطحبا
اعظم بذا صاحبا اذ ذاك مصحوبا
ان المنية لم تتلف به رجلا
بل اتلفت علماً للدين منصوبا

***

ان يندبوك فقد ثُلَّت عروشهم
واصبح العلم مرثيا ومندوبا
ومن اعاجيب ماجاء الزمان به
وقد يبين لنا الدهرُ الاعاجيبا
ان قد طوتك غموض الارض فى لحق
وكنت تملأ منه السهل واللوبا

وقد صنفت بعض الكتب فى سيرة الطبرى ، منها كتاب فى سيرته الفه عبدالعزيز بن محمد الطبرى ، وكتاب فى أخباره وضعه ابوبكر بن كامل وهو من طلاب الطبرى . وقد اعتمد ياقوت الحموى فيما كتب عن سيرة الطبرى فى معجمه على هذين الكتابين اضافة الى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

---

(٢٣) الاعلام ١/١٩٩
(٢٤) تاريخ بغداد ٢/١٦٧
(٢٥) تاريخ بغداد ٢/١٦٧ ـ ١٦٨ وفيه كامل القصيدة

(٢) الطبرى وعلم الفقه

الفقه واصوله :

الفقه هو معرفة احكام الشرع فى افعال المكلفين من حيث الخطر والكراهة والاباحة ، بالاستدلال بالكتاب والسنة النبوية[١] ٠ ورغم وضوح مصادر الفقه فقد اختلف الفقهاء فيما بينهم لاختلاف طرق ثبوت الحديث ، وتأويل آى القرآن الكريم ٠ فتعارضت كثير من الاحكام واحتاجت الى الترجيح والقياس لاسيما وان بعض الوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص المتوفرة ، وكانت تحمل على نصوص اخرى للتشابه بين الوقائع ٠ وقد سمى المختصون من العلماء بهذه الامور الفقهاء ٠

وكان الفقه فى القرن الثانى قد اتخذ طريقتين : طريقة اهل الرأى والقياس وهم اهل العراق «وانما سمُّوا اصحاب الرأى والقياس لان اكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الاحكام وبناء الحوادث عليها»[٢] ٠ علماً ان الرأى والقياس اخضعا لما عرف باجماع الامة ، اى ما اتفق عليه الصحابة من المهاجرين والانصار ، وما اتفق عليه علماء الامة ، دون غيرهم من العامة ، فى كل زمن[٣] ٠ وطريقة اهل الحديث وهم اهل الحجاز «وانما سمُّوا اصحاب الحديث لان عنايتهم بتحصيل الاحاديث ونقل الاخبار ، وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلى والخفى ما وجدوا خبرا او اثرا»[٤] ٠ وشهد القرن الثالث انتصار الطريقة الثانية القائمة على النصوص ٠ اذ انكر القياس طائفة من العلماء وابطلوا العمل به ، منهم الحنابلة اتباع الامام احمد بن حنبل ابرز علماء عصره فى الحديث وقد شجب قول القائلين بالاراء والتزم بالقرآن والحديث ، ويعتبرون اكثر الناس حفظا للحديث ورواية للسنة ٠ والظاهرية الذين جعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والاجماع ، وكان امام هذا المذهب داود بن علي ٠ الا ان المذهب الظاهرى لم يكتب له الاستمرار فاندرس بالتدريج ٠ فبقى مذهب اهل الرأى فى العراق ، ومذهب اهل الحديث فى الحجاز ، وكان امام اهل العراق ابوحنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ ببغداد ، واما اهل الحجاز مالك بن انس الملقب بامام دار الهجرة ، وقد توفى بالمدينة المنورة فى سنة ١٧٩هـ ٠ ثم كان بعد مالك محمد بن ادريس الشافعى الذى رحل الى العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا فى كثير من الامور ، وتوفى بمصر سنة ٢٠٤هـ ٠ وجاء بعده احمد بن حنبل وكان من علية المحدثين فابتعد عن الاجتهاد وقد توفى ببغداد سنة ٢٤١هـ ٠ وقد وقف التقليد فى الامصار عند هؤلاء الائمة الاربعة ، وسد باب الخلاف وطرقه لماكثر تشعب الاصطلاحات وخشى من اسناد الاجتهاد الى غير اهله ومن لا يوثق برأيه ٠ الا ان الشيعة قد انفردوا بمذهب فقهى يقر الاجتهاد ويقوم على عصمة الائمة[٥] ٠

ولاينكر ان الرأى والقياس والاجماع مما وسع اسس التشريع الاسلامى وزاد فى مرونته ومكّنه من مسايرة تطور الحياة الاجتماعية ، ومواجهة القضايا الشرعية المستجدة فى المجتمع العربى ٠

لقد تميز علم الفقه فى خلال القرن الثالث على غيره من العلوم الدينية واصبح رجال الدين طائفتين : العلماء والفقهاء ، وكان الفقهاء حملة العلوم الشرعية اكثر طلابا لانهم يعلمون ما يؤهل اصحابه لتولى المناصب الدينية فى الدولة ، كالقضاء والامامة والخطابة فى المساجد ٠ ولابى عثمان الجاحظ قول يعبر عن حالة الفقهاء واهميتهم آنذاك ، فيقول «وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ، ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها وهو لا يجعل قاضيا ٠ فما هو الا ان ينظر فى كتب ابى حنيفة واشباهه ، ويحفظ كتب الشروط ، فى مقدار سنة او سنتين حتى تمر ببابه فتظن انه من بعض العمال ، وبالحرى لا يمر عليه من الايام اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الامصار ، او بلد من البلدان»[٦] ٠

---

(١)مقدمة ابن خلدون /٢٤٣
(٢) الملل والنحل ٢٠٧/١
(٣) مفاتيح العلوم /٧
(٤) الملل والنحل ٢٠٦/١
(٥) راجع عن تطور المذاهب مقدمة ابن خلدون /٢٤٣ ـ ٢٤٤
(٦) كتاب الحيوان ٨٧/١

وقد ظهر فى خلال هذا القرن عدد كبير من الفقهاء ممن تفقهوا على فقه الائمة المذكورين ، وكانت لهم مصنفات فى علوم الفقه عديدة مهمة . كما ظهر بعض الفقهاء المجتهدين الذين لم يقلدوا احد ائمة ، وانما اتخذ كل منهم لنفسه فقها خاصا به يقوم على الكتاب والسنة وعلى اجتهاده فى القضايا الفقهية . وقد اشتهروا اضافة الى علمهم بالفقه والحديث ، بسعة العلم والزهد والورع والذب عن الدين وشرائعه . ومنهم من قلده فقهاء آخرون الا ان هذه المذاهب الفردية مالبثت ان اندثرت بمرور الزمن . ومن اشهر هؤلاء الفقهاء المؤرخ الفقيه محمد بن جرير الطبرى الذى سنستعرض الجانب الفقهى من سيرته .

الطبرى الفقيه :

من العلوم التى اتقنها الطبرى وكان ماهرا فيها علم الفقه ، فكان اماما فيه . يقول الخطيب البغدادى «وله فى اصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من اقاويل الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه»[7] وقد وصفه ابن النديم بانه امام عصره وفقيه زمانه[8] . درس الفقه الحنفى عندما كان بمدينة الرى اول خروجه من مسقط رأسه آملا فى طلب العلم ، ودرس الفقه الشافعى فى العراق ومصر ، وفقه الامام مالك فى مصر ايضا[9] . وقد الم بالاحكام الفقهيه للمذاهب المذكورة اضافة الى مذهبه ، وكان يمنى نفسه بلقاء الامام احمد بن حنبل بمدينة السلام ليأخذ عنه ، الا ان المنية عاجلت بن حنبل قبل دخول لطبرى المدينة . ومما يدل على عمق دراسته هذه المذاهب الفقهية انه شخّص مواضيع الاختلاف بينها ، وصنف فى ذلك كتابه المشهور «كتاب اختلاف علماء الامصار فى احكام شرائع الاسلام»[10] . وهو اول ماصنفه من كتبه الفقهية ، والكتاب مشهور شرقا وغربا ، قصد به الى ذكر اقوال الفقهاء ، ونقاط اجتماعهم ، وما اختلفوا فيه ، وهم : الامام مالك بن انس فقيه اهل المدينة بروايتين ، وعبدالرحمن بن عمرو الاوزاعى فقيه اهل الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ ، وسفيان الثورى من اهل الكوفة بروايتين ـ وقد توفى سنة ١٦١هـ ، والامام محمد بن ادريس الشافعى برواية الربيع بن سليمان عنه ، ثم الامام ابوحنيفة النعمان بن ثابت عالم العراقين وتلميذاه ابويوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصارى المتوفى سنة ١٨٢هـ ، وابوعبدالله محمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩هـ ، وابوثور ابراهيم بن خالد بن ابى اليمان الكلى المتوف سنة ٢٢٠هـ . ويقال انه صنف هذا الكتاب ليتذكر به اقوال من يناظره من اتباع الائمة المشار اليهم[11] .

وبلغ علم الطبرى فى الفقه درجة عالية فاجتهد فى بعض الاحكام الفقهية ، واداه اجتهاده الى ما اختاره من الاحكام من مذاهب الفقها ، فلم يعد يقلد احدا من ائمة المذاهب الفقهية المذكورة . بعد ان كان كما قال ، قد اظهر ببغداد فقه الامام الشافعى واقتدى به وافتى فيه عدة سنوات[12] . وقد لخص ياقوت مذهب الطبرى بانه «كان يذهب فى جل مذاهبه الى ما عليه الجماعة من السلف ، وطريق اهل العلم المتمسكين بالسنن ، شديدا عليه مخالفتهم ، ماضيا على منهاجهم ، لا تأخذه فى ذلك ولا فى شىء لومة لائم . وكان يذهب الى مخالفة اهل الاعتزال فى جميع ماخالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر وخلق القرآن وابطال رؤية الله فى يوم القيامة .. وكان ابوجعفر يزعم ان مافى العالم من افعال العباد فخلق الله وان مامنّ الله به على اهل الايمان من الاستطاعة التى وفقهم لها غير ما اعطاه لاهل الكفر من الدار والعقل ، وان الله ختم على قلوب من كفر به مجازاة لهم على كفرهم .. وكان ابوجعفر يعتقد ان ما اخطأه ماكان ليصيبه ، وان ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وان جميع مافى العالم لا يكون الا بمشيئة الله ، وان الله عز وجل لم يزل موصوفا بصفاته التى هى علمه وقدرته وكلامه غير محدث ..

(٧) تاريخ بغداد ١٦٣/٢
(٨) الفهرست /٣٤٠
(٩) نفس المصدر
(١٠) جاء اسمه فى الفهرست : كتاب اختلاف الفقهاء /٣٤١
(١١) معجم الادباء ٤٤٥/٦ ـ ٤٤٦
(١٢) طبقات السبكى ١٣٧/٢ ، وتذكرة الحفاظ ٧١٢/٢

وكان ابوجعفر يذهب فى الامامة الى امامة ابى بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم وماعليه اصحاب الحديث فى التفضيل مكان يكفر من خالفه فى كل مذهب اذ كانت ادلة العقول تدفع كالقول فى القدر وقول من كفر اه حاب رسول الله (ﷺ) من الخوارج ولا يقبل اخبارهم ولاشهاداتهم ، وذكر ذلك فى كتابه فى الشهادات ٠ وكان لا يورث الكفرة منهم وكان لا يورث متكافرين لا يورث يعقوبيا من النصارى من ملكى ولا ملكيا من نسطورى فاذا اختلفت الكنائس والبيع لم يورث بعضهم من بعض ٠٠ وكان اذا عرف من انسان بدعة ابعده وطرحه»[١٣] ٠

وكان الاجماع عندالطبرى هو نقل المتواترين لما اجمع عليه اصحاب رسول الله (ﷺ) من الآثار ، دون ان يكون ذلك رأيا مأخوذا على القياس[١٤] ويظهر ان الطبرى اخذ موقفا وسطا بين اهل الحديث واهل الرأى والقياس ٠ ولعدم وصول احد مصنفاته فى شئون مذهبه الفقهى ، وعدم ذكره فى الكتب الفقهية الاخرى فاننا لا نعرف شيئا عن اسس واوجه الخلاف بينه وبين المذاهب الفقهية الاخرى سوى بعض القضايا القليلة التى ذكرها ياقوت الحموى فى ثنايا كتابه ، وقد اشرنا اليها توا ٠

لقد وضع الطبرى عددا من الكتب فى شرح مذهبه الفقهى ، منها : (كتاب لطيف القول فى احكام شرائع الاسلام) ويسمى اختصارا (الكتاب اللطيف) ٠ وهو مجموع مذهبه الذى يعول عليه جميع اصحابه ، ويعتبر من انفس كتبه وكتب غيره من الفقهاء ، وافضل امهات المذاهب واسدُّها تصنيفا ٠ وقيل عنه : ماعمل كتاب فى مذهب اجود من كتاب ابى جعفر اللطيف لمذهبه ٠ ولم يقصد باللطيف صغر الكتاب وخفة محمل وزنه ، وانما اراد بذلك لطيف القول فيه ودقة معانيه وكثرة ما احتواه من الاراء والتعليلات[١٥] ٠ ثم اختصره فى (كتاب الخفيف فى احكام شرائع الاسلام) بناء على طلب الوزير العباس بن الحسن الجرجرائى وزير المكتفى بالله المتوفى سنة ٢٩٦هـ ، الذى ارسل الى الطبرى بانه قداحب ان ينظر فى علم الفقه ، وسأله ان يعمل له مختصرا ٠ فعمل الطبرى كتاب الخفيف ٠ ويقال ان الوزير بعث اليه بالف دينار فلم يقبلها [١٦] ٠

ومن كتب الطبرى الفقهية الاخرى (كتاب بسيط القول فى احكام شرائع الاسلام) ، ذكر فيه اصحاب رسول الله (ﷺ) ومن اخذ عنهم من فقهاء الامصار فى المدينة والكوفة والبصرة والشام وخراسان ٠ كما ذكر فيه اختلاف المختلفين واتفاقهم فيما تكلموا فيه من الاحكام ، ونوَّه بالصائب من الاقوال[١٧] ٠ وهو قريب فى موضوعه من كتاب اللطيف ٠

و(كتاب الشروط) المسمى امثلة العدول ، وهو من جيد كتبه التى يعوِّل عليها اهل مدينة السلام ٠ وكان الطبرى مقدما فى علم الشروط قيِّما به[١٨] ٠

و(كتاب آداب القضاء) وهو تفصيل لماورد فى كتاب بسيط القول عن القضاء وأدابه ، من حيث واجبات القاضى وما ينبغى له ان يعمل به اذا ولى القضاء ٠ والكلام فى الشهادات والسجلات والبينات وما يحتاج اليه القاضى من الاراء الفقهية[١٩] ٠

وللطبرى كتاب آخر شرح فيه اصول مذهبه سماه (كتاب صريح السنة) ذكر فيه مذهبه الفقهى وعقيدته[٢٠] ٠

ومن الفقهاء الذين اخذوا بفقه الطبرى ونسبوا اليه القاضى ابوالفرج المعاق بن زكريا ، المعروف بابن طرار الجريرى المتوفى سنة ٣٩٠هـ ، وهو من كبار المحدثين فى زمنه ، ثقة مأمونا فى روايته ، ومن المتفنين فى مختلف العلوم حتى قيل عنه : اذا حضر القاضى ابوالفرج حضرت العلوم كلها ٠ وكان واحد عصر فى مذهب ابى جعفر الطبرى ، وقد حفظ كتبه ٠ وله من الكتب الفقهيه : كتاب التحرير ، وكتاب اصول الفقه ، وكتاب الحدود والعقود ،

---

(١٣) معجم الادباء ٤٥٣/٦ ـ ٤٥٥
(١٤) نفس المصدر ٤٤٦/٦
(١٥) نفس المصدر /٤٤٧/٦
(١٦) نفس المصدر ٤٤٨/٦ ، وطبقات السبكى ١٣٧/٢
(١٧) معجم الادباء ٤٤٩/٦ ، وجاء اسمه فى الفهرست /٣٤١ : كتاب البسيط فى الفقه
(١٨) نفس المصدر ٤٤٧/٦
(١٩) نفس المصدر ٤٤٧/٦
(١٩) نفس المصدر ٤٤٩/٦ وجاء اسمه فى الفهرست ٣٤١ : ادب القاضى
(٢٠) نفس المصدر /٤٥٢

وكتاب المرشد فى الفقه ، وكتاب شرح كتاب الخفيف للطبرى · وقد ولى ابن طرار قضاء بغداد ، وله كتب اخرى فى التفسير والقراءات[21] · ومنهم ابوالحسن احمد بن يحيى وهو حفيد علي بن يحيى المخينم نديم المتوكل على الله ، وله من الكتب : كتاب المدخل الى مذهب الطبرى ونصرة مذهبه ، وكتاب الاجماع فى الفقه على مذهب ابى جعفر[22] · وعلي بن عبدالعزيز الدولابى ، وله من الكتب الفقهية كتاب القراءات ، وكتاب افعال النبى (ﷺ) ، وكتاب التبصير ، وكتاب الاصول الاكبر ، وكتاب الاصول الاوسط ، وكتاب الاصول الاصغر · وله كتاب فى اصول الكلام[23] · ومنهم ابوبكر بن كامل ـ وهو تلميذ الطبرى ـ وله من الكتب الفقهية على مذهب الطبرى : كتاب جامع الفقه ، وكتاب الشروط ، وكتاب الوقوف[24] ·

وذكر ابن النديم فقهاء آخرين ممن تفقهوا بفقه ابن جرير الطبرى · منهم ابوبكر محمد بن احمد الكاتب ، وابوالحسن الدقيقى الحلوانى المصرى ، وابواسحاق ابراهيم بن حبيب السقطى ، وابومسلم الكجى[25] ·

---

(٢١) الفهرست /٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ووفيات الاعيان ٣/٣٩٢ و٤/٣٠٩

(٢٢) الفهرست /٣٤٢

(٢٣) الفهرست /٣٤١

(٢٤) نفس المصدر

(٢٥) نفس المصدر

(٣) الطبرى والتفسير

مقدمة :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم ، ومع ذلك كان رسول الله (ﷺ) يوضح لاصحابه المبهم من آياته ، او ما يشكل عليهم فهمه من الفاظه ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرف اسباب نزول الآيات . ونقل الصحابة ذلك عنه ، وتداوله التابعون من بعدهم[١] . ولما انتشر العرب ودخل الاسلام اقوام اخرى يستعصى عليهم فهم القرآن الكريم دون شرح او توضيح ، ظهرت الحاجة الى تفسيره . الا ان كثيرا من الصحابة وتابعيهم كانوا يتحرجون من ذلك خوف الزلل والخطأ . فقد روى عن ابى بكر الصديق قوله «اى ارض تقلنى واى سماء تظلنى ، اذا قلت فى القرآن برأى او بما لا اعلم»[٢] . وسئل سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ عن تفسير آية فقال : لأن يسقط شقى احب الى من ذلك[٣] . وكان الاصمعى ، وهو صاحب اللغة والاخبار ، يتقى ان يفسر حديث رسول الله (ﷺ) كما يتقى ان يفسر القرآن[٤] . على ان بعضهم كان لا يتحرج من التفسير ولكنه لا يخرج عما ورد عن رسول الله (ﷺ) من فعل او قول . وقد سار الاولون على عدم السماح بالتفسير الا اذا استند الى حديث او عمل ثبتت روايته عن رسول الله (ﷺ) او عن صحابته ، وليس الى الاجتهاد والتأويل ، او كان التفسير لغويا محضا .

واستطاع بعض الثقاة من العلماء الفقهاء ان يتجاوزوا هذا الحرج باجتهاد مقبول يقوم على اساس ان من المحال ان يطلب ممن لا يفهم مايقال له ولا يعرف تأويله ان يعتبر بما لا يفهمه ، الا على معنى الامر بان يتفهمه ويفقهه ، ومن ثم يتدبره ويعتبر به ، ومن المحال ان يقال ذلك لبعض الاقوام الذين لا يعرفون كلام العرب ولا يفهمون الا بعد العلم بمنطقه ومعانيه[٥] . وقد اتجه المفسرون اتجاهين ، يقوم احدهما على الالتزام بالمأثور من احاديث رسول الله (ﷺ) واعماله ، او ماروى عن كبار الصحابة ، وهو ماعرف بالتفسير المأثور . ويعتمد الاتجاه الآخر على العقل اكثر من اعتماده على النقل ، وهو الاتجاه الذى سلكه المعتزلة وغيرهم من اصحاب الرأى . على ان الاتجاه الاول قد توسع فى الاعتماد على المنقول ، فلم يفتقر على مايروى من احاديث رسول الله (ﷺ) واعماله ، واقوال الصحابة واعمالهم ، بل تعدى الى الاستعانة بالشعر الاسلامى وشعر ماقبل الاسلام ، وبالامثال العربية القديمة ، وببعض الاقوال المستمدة من الكتب المقدسة الاخرى .

ويصنف ابن خلدون التفسير بشكل أخر الى صنفين ايضا ، اولهما تفسير نقلى مسند الى الآثار المنقولة عن السلف ، وهولا يتعدى الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقاصد الآيات ، وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين . وقد عنى المتقدمون بذلك ، الا ان منقولاتهم اشتملت على الغث والسمين والمقبول والمردود . وذلك لان العرب كانوا اول امرهم تغلب عليهم البداوة والامية ، فاذا تشوقوا الى معرفة شىء من اسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود سئلوا عنها اهل الكتاب . واهل الكتاب الذين بين العرب يومئذ بدو مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب . ومعظمهم من حمير الذين اخذوا بدين اليهودية فلما اسلموا ابقوا على ماكان عندهم مما لا علاقة له بالاحكام الشرعية ، مثل اخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم ، فامتلأت التفاسير الاولى من منقولات هؤلاء فى امثال هذه الاغراض ، وقد تساهل المفسرون الاولون فى قبولها . فلما ارتفع مستوى الامة العلمى وركنوا الى التحقيق والتمحيص اخذوا يتحرون تلك الاخبار ، ولا يقبلون الا ماهو اقرب الى الصحة منها . والصنف الثانى من التفسير هو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة

---

(١) مقدمة ابن خلدون /٢٣٩
(٢) جامع البيان ٣٦/١
(٣) وفيات الاعيان ١١٣/٢
(٤) نزهة الالباء/٧٧
(٥) جامع البيان ٣٥/١

والاعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا الصنف قل ان ينفرد عن الصنف الاول ، اذ الاول هو المقصود بالذات ، وانما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعة(٦) ·

وقد برز فى خلال القرن الثالث بعض الفقهاء الذين صنفوا عددا من التفاسير ، منهم الحافظ اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلى النخعى المتوفى سنة ٢٣٨ ، وابوسعيد الاشج عبدالله بن سعيد الكندى المتوفى سنة ٢٥٧ ، وامام المحدثين محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ ، وابوحنيفة احمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٩٠ ، وابراهيم بن معقل الحنفى المتوفى سنة ٢٩٥ ، وابوسعيد اسحاق بن ابراهيم بن اسحاق الانباطى المتوفى سنة ٣٠٣ ، والنحوى ابواسحاق ابراهيم بن السرى الزجاج المتوفى سنة ٣١٠ ، وابوالقاسم عبدالله بن احمد الكعبى المعتزلى المتوفى سنة ٣١٩ ، وابوالحسن علي بن اسماعيل الاشعرى المتوفى سنة ٣٢٠(٧) ·

تفسير الطبرى :

ويعتبر ابوجعفر الطبرى ابرز من تصدى لتفسير القرآن الكريم فى القرن المذكور · وقد وضع تفسيره على اساس المأثور من الحديث بالدرجة الاولى ، واتبع فيه منهجا ثابتا يقوم على طريقة اهل الحديث ، وسماه «جامع البيان عن تأويل القرآن» · وهو يذكر الآية ثم يذكر اشهر ما يؤثر فى تفسيرها عن الصحابة والتابعين ، ويورد مختلف الروايات التى تتفاوت فى درجة وثوقها ، مما قيل فى تأويلها كلها او بعضها ، ويذكر كذلك الاختلاف فى قراءتها · ولا يتحرج من فقد بعض الروايات التى يرى فيها ضعفا · ثم يعقب بما يراه اولى من غيره من الروايات على ضوء ما يعرفه عن رجال السند ، والصحابى او التابع المروى عنه ، بالنظر لاختلافهم فى درجة صحة روايتهم ومتانة عقيدتهم ، وعلمهم بالفقه فى الدين ،ومعرفتهم باللغة واساليبها · وكان الى جانب اهتمامه بالسند يهتم كذلك بالنص المروى نفسه ، مستفيدا مما تمت دراسته فى ميدان الحديث على يد البخارى وتلميذه مسلم واصحاب الصحاح الاخرين وغيرهم من اصحاب الاسانيد · وقد اعتمد الى حد كبير على روايات اشهر المفسرين من الصحابة والتابعين ، وهم : عبدالله بن عباس ، حبر الامة ، نشأ فى بدء عصر النبوة ولازم رسول الله (ﷺ) ورد عنه كثير من الاحاديث · وهو ثقة واسع العلم ، قال عنه ابن مسعود انه ترجمان القرآن ، وينسب له كتاب فى تفسير القرآن ، وقد توفى سنة ٦٨هـ(٨) · وسعيد بن جبير الاسدى الكوفى المتوفى سنة ٩٥هـ ، كان اعلم التابعين فى علوم القرآن ، اخذ العلم عن عبدالله بن عباس ، قال عنه الامام احمد بن حنبل : قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الارض احد الا وهو مفتقر الى علمه(٩) ·

وابوالحجاج مجاهد بن جبر المكى ، وهو مفسر من اهل مكة اخذ التفسير عن ابن عباس ، قال عنه الذهبى : شيخ القراء والمفسرين · وكان قد استقر فى الكوفة وبها توفى عام ١٠٤هـ(١٠) ·

وابوالخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى ، احد الحفاظ المفسرين ، قال عنه الامام احمد بن حنبل : احفظ اهل البصرة · ومع علمه فى الحديث كان رأسا فى اللغة العربية ومفرداتها وفى ايام العرب وانسابهم · مات بمدينة واسط فى سنة ١١٨هـ(١١) ·

والحسن البصرى ابن يسار ، تابعى كان امام اهل البصرة وحبر الامة فى زمنه ، ولد بالمدينة وشب فى كنف الامام علي كرم الله وجهه ، وسكن البصرة وبها اشتهر علمه ، وبها كانت وفاته فى سنة ١١٠هـ(١٢) ·

---

(٦) مقدمة ابن خلدون /٢٣٩ ـ ٢٤٠
(٧) راجع عن هذه التفاسير : كشف الظنون ١/٤٣٦ ـ ٤٤٨
(٨) الاعلام ، ٢٢٩/٤
(٩) نفس المصدر ١٤٥/٣
(١٠) نفس المصدر ١٠٤/٦
(١١) نفس المصدر ٢٧/٦
(١٢) نفس المصدر ٢٤٢/٢

وعكرمة بن عبدالله المدنى ، مولى عبدالله بن عباس ، كان من اعلم الناس بالتفسير والمغازى والشعر ، طاف البلدان وروى عنه كثير من التابعين وغيرهم · ولما مات قيل عنه : مات اعلم الناس واشعر الناس ، وكانت وفاته فى سنة ١٠٥هـ[١٣] ·

والضحاك بن مزاحم ، وهو عالم مفسر ، وله كتاب فى التفسير · توفى عام ١٠٥هـ[١٤] · وعبدالله بن مسعود الهدبى ، صحابى كان خادم رسول الله (ﷺ) ورفيقه ، وهو من اهل مكة ومن السابقين الى الاسلام · روى كثيرا من الاحاديث ، قال عنه عمر بن الخطاب : وعاء ملىء علما · سكن المدينة ، وبها توفى سنة ٣٢ وعبدالرحمن بن زيد العودى القرشى ، روى الحديث عن ابيه ، وولى مكة مرة ، وبها توفى سنة ٦٥هـ[١٦] ·

وعبدالملك بن عبدالعزيز المعروف بابن جريج ، فقيه الحرم المكى وامام اهل الحجاز فى عصره ، وهو رومى الاصل من موالى قريش ، مكى المولد والوفاة ، مات فى سنة ١٥٠هـ[١٧] ·

ولم يتعرض الطبرى لتفسير غير موثوق به ، فلم يدخل فى كتابه شيئا من تفسير محمد بن السائب الكلبى ، ولا مقاتل بن سليمان ، ولا محمد بن عمر الواقدى ، لانهم كانوا اظناء عنده[١٨] · وقدم لتفسيره مقدمة مسهبة استغرقت الجزء الاول منه ، يقول فى اولها «ونحن فى شرح تأويله ، وبيان مافيه من معانيه ، منشئون ـ ان شاء الله ذلك ـ كتابا ، مستوعبا لكل ما بالناس اليه الحاجة من علمه جامعا ، ومن سائر الكتب غير فى ذلك كافيا ومخبرون فى كل ذلك ، بما انهى اليه من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الامة ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ، ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم ، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك ، باوجز ما امكن من الايجاز فى ذلك ، واخصر ما يكون من الاختصار فيه · والله نسأل عونه وتوفيقه ، لما يقرب من محابه ، ويبعد عن مساخطه»[١٩] ·

ثم يوضح القول فى البيان عن معانى أى القرآن ، وفضل المعنى الذى به باين القرآن سائر الكلام · ويتكلم عن الاحرف التى اتفقت فيها الفاظ العرب والفاظ غيرها من بعض اجناس الامم ، والقول فى اللغة التى نزل بها من لغات العرب · ويذكر بعض الاخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تأويل أى القرآن بالرأى ، ويقول ان هذه الاخبار تؤيد ماكان من تأويل أى القرآن غير جائز لاحد القول فيه برأيه لأن القائل فى ذلك برأيه ، وان اصاب الحق فيه ، فيخطىء فيما كان من فعله بقيله فيه من رأيه ، لان اصابته اصابة موقن انه محق ، وانما هو اصابة خارص وظان · والقائل فى دين الله بالظن قائل على الله مالا يعلم ، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه · وان القائل فى تأويل كتاب الله الذى لايدرك علمه الا ببيان رسول الله (ﷺ) الذى جعل اليه بيانه ، قائل بما لا يعلم ، وان وافق قيله ذلك فى تأويله ما اراد الله به من معناه ، لان القائل فيه بغير علم قائل على الله مالا علم له به · وهذا هو معنى الحديث «من قال فى القرآن برأيه فاصاب ، فقد اخطأ» اى انه اخطأ فى فعله بقيله فيه برأيه وان وافق قيله عين الصواب عند الله ، لان قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم ، وان الذى قال فيه من قول حق وصواب ، فهو قائل على الله مالا يعلم ، آثم بفعله ماقد نهى عنه وخطر عليه[٢٠] · ويقصد بالعلم هنا هو ماتتصل روايته بسند صحيح الى رسول الله (ﷺ) او صحابته المقربين ممن كانوا يعنون بشئون الدين ·

ويذكر الطبرى بعد ذلك بعض الاخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة ، وبعض الاخبار التى غلط فى تأويلها منكرو القول فى تأويل القرآن · ويناقش هذه الاخبار باسلوب منطقى وامثله عديدة مما ورد عن السلف ، فيقول ان الله تعالى اذا امر عباده وحثهم على الاعتبار بامثال أى القرآن والاتعاظ بمواعظه ، مما يدل على ان عليهم معرفة تأويل مالم يحجب عنهم تأويله : اعتبر بما لافهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان ، الاعلى معنى الامر باقفيفهمه ويفقهه ، ثم يتدبره ويعتبر به»[٢١] · «ولا يجوز ان يقال :

---

(١٣) نفس المصدر ٤٤/٥
(١٤) نفس المصدر ٣١٠/٣
(١٥) الاعلام ٢٨٠/٤
(١٦) نفس المصدر ٧٨/٤
(١٧) نفس المصدر ٣٥٠/٤
(١٨) معجم الادباء ٤٤٠/٦ ـ ٤٤١
(١٩) جامع البيان ٥/١
(٢٠) جامع البيان ٣٥/١
(٢١) نفس المصدر ٣٦/١

اعتبر بها الا لمن كان بمعانى بيانها عالما ، وبكلام العرب عارفا ، والا بمعنى الامر لمن كان بذلك منه جاهلا ، اى بعلم معانى كلام العرب ، ثم يتدبره بعد ، ويتعظ بحكمه وصفوف غيره · فاذا كان ذلك كذلك · فسد قول من انكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيل مالم يحجب عن خلقه وتأويله»[٢٢] · ويخلص الى القول : ان تأويل جميع القرآن على ثلاثة اوجه : احدها لاسبيل الى الوصول اليه ، وهو الذى استأثر الله بعلمه ، وحجب علمه عن جميع خلقه ، وذلك مافيه من الخبر عن آجال حادثة واوقات آتية كوقت قيام الساعة والنفخ فى الصور ، وماأشبه ذلك ، فانه تعالى استأثر بعلمها عن خلقه · والوجه الثانى : ماخص الله بعلم تأويله نبيه (ﷺ) دون سائر امته ، وهو مافيه مما لعباده الى علم تأويله الحاجة ، مثل وجوه امره : واجبه وندبه وارشاده ، وصنوف نهيه ومبالغ فرائضه وحدودها ، وما اشبه ذلك من الاحكام · والثالث منها : ماكان علمه عند اهل اللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك علم تأويل عربيته واعربه · فاذا كان الامر كذلك فأحق المفسرين باصابة الحق فى تأويل القرآن الذى الى علم تأويله للعباد السبيل ، واوضحهم حجة فيما تأول وفسر[٢٣] ·

وقد تمكن الطبرى بنهجه الذى سلكه فى تأويل القرآن ان يجعل تفسيره جماع التفسير المأثور · ومما ساعده على ذلك احاطته باللغة العربية من حيث مفرداتها ومشتقاتها واساليبها ، واطلاعه الواسع على الشعر العربى ، ودرايته بالقراءات ، اضافة الى تخصصه بعلوم الفقه والحديث · اذ كان كما يقول ابن النديم «علامة وقته وامام عصره وفقيه زمانه ·· وكان متقنا جميع العلوم : علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه»[٢٤] · و«كان احد ائمة العلماء يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله · وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعانى ، فقيها فى احكام القرآن ، عالما بالسنن وطرُقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفا باقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الاحكام وسمائل الحلال والحرام ، عارفا بايام الناس واخبارهم»[٢٥] · كما كان دقيقا فى نقل الروايات المختلفة وانتقاد مايراه فيها من ضعف او نقص ، لا يرتضى منها الا ما يجمع عليه الرواة ويتفق مع حكم العقل والمنطق · وكان فى مسائل العقائد الحساسة يأتى بالاراء المختلفة دون ان يبين رأيه فيها تاركا ذلك للقارىء · وفى ذلك حياد وموضوعية كانت من اخص صفات الطبرى اذا كتب فى التفسير او فى التاريخ · وقد انعكست اراء الطبرى الفقهية على تفسيره ، اذا كان «يذهب فى جل مذاهبه الى ما عليه الجماعة من السلف ، وطريق اهل العلم المتمسكين بالسنن ، شديدا عليه مخالفتهم ، ماضيا على منهاجهم ، لا تأخذه فى ذلك لومة لائم»[٢٦] ·

وللتعرف على النهج الذى سلكه الطبرى فى تفسيره وعرضه مختلف الروايات للخبر الواحد ونقدها وترجيح احداها ، ننقل فى ادناه نص ماقاله فى تأويل قوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»[٢٧] ، اذ يقول : اختلف اهل التأويل فى معنى شهود الشهر ، فقال بعضهم : هو مقام المقيم فى داره ، قالوا : فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم فى داره فعليه صوم الشهر كله ، غاب بعد فسافر او اقام فلم يبرح ·

ذكر من قال ذلك : (حدثنا) محمد بن حميد ومحمد بن عيسى الدامغانى ، ثنا ابن المبارك عن الحسن بن يحيى ، عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» قال : هو اهلاله بالدار ، يريد اذا هل وهو مقيم · (حدثنى) يعقوب بن ابراهيم ، قال : ثنا هشيم ، قال : اخبرنى حصين عمن حدثه ، عن ابن عباس انه قال فى قوله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» فاذا شهده وهو مقيم فعليه الصوم اقام او سافر ، وان شهده وهو فى سفر ، فان شاء صام ، وان شاء افطر ·

(٢٢) جامع البيان ٣٧/١
(٢٣) نفس المصدر ٤١/١
(٢٤) الفهرست /٣٤٠ _ ٣٤١
(٢٥) تاريخ بغداد ١٦٣/٢
(٢٦) معجم الادباء ٤٥٣/٦

(حدثنى) يعقوب قال : ثنا ابن عُلَيَّه عن ايوب عن محمد عن عبيدة فى الرجل يدركه رمضان ثم يسافر ، قال : اذا شهدت اوله فصم آخره ، الاتراه يقول «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» • (حدثنى) يعقوب قال : ثنا ابن عُلَية عن هشام الفردوسى عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة عن رجل ادرك رمضان وهو مقيم ، قال : من صام اول الشهر فليصم آخره ، الاتراه يقول «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» • (حدثنى) موسى قال : ثنا عمرو ، قال : ثنا اسباط عن السدى : اما من شهد منكم الشهر فليصمه ، فمن دخل عليه رمضان وهو مقيم فى اهله فليصمه ، وان خرج فيه فليصمه ، فانه دخل عليه وهو فى اهله • (حدثنى) المثنى قال : ثنا حجاج ، قال : ثنا حماد ، قال اخبرنا قتادة عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلمان عن على فيما يحسب حماد ، قال : من ادرك رمضان وهو مقيم لم يخرج فقد لزمه الصوم ، لان الله يقول «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» • (حدثنا) هناد بن السرى قال : ثنا عبدالرحمن عن اسماعيل بن مسلم عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلمان عن قول الله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، قال : من كان مقيما فليصمه ، ومن ادركه ثم سافر فيه فليصمه • (حدثنا) هناد قال : ثنا وكيع عن ابن عون عن ابن سيرين عن عبيدة قال : من شهد اول رمضان فليصم آخره • (حدثنا) هنا قال : ثنا عبيدة عن سعد بن ابى عروية عن قتادة ان عليا كان يقول : اذا ادركه رمضان وهو مقيم ثم سافر ، فعليه الصوم • (حدثنا) هناد قال : ثنا عبد الرحيم عن عبيدة الضبى عن ابراهيم قال : اذا ادركك رمضان فلا تسافر فيه ، فان صمت فيه يوما او اثنين ثم سافرت فلا تفطر ، صمه • (حدثنا) ابن المثنى قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن ابى النجترى قال : كنا عند عبيدة فقرأ هذه الآية «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» قال : من صام شيئا منه فى المصر فليصم بقيته اذا خرج ، قال : وكان ابن عباس يقول : ان شاء صام وان شاء افطر • (حدثنا) محمد بن بشار قال : ثنا عبدالوهاب ، وحدثنى يعقوب به ابراهيم قال ؛ ثنا ابن عُلَية ، قالا جميعا : ثنا ابوب عن ابى زيد عن ام درَّة قالت : اتيت عائشة فى رمضان ، قال : من اين جئت ؟ قلت : من عند اخى حنين ، قالت : ما شأنه ؟ قلت : ودَّعته يريد يرتحل ، قالت : فاقرئية السلام ومريه فليقم ، فلو ادركنى رمضان وانا ببعض الطريق لاقمت له • (حدثنا) هناد قال : ثنا اسحاق بن عيسى ، عن افلح عن عبدالرحمن قال : جاء ابراهيم بن طلحة الى عائشة يسلم عليها ، قالت : واين تريد ؟ قال : اردت العمرة ، قالت : اجلس حتى اذا دخل عليك الشهر خرجت فيه • قال : قد خرج ثقلى ، قالت : اجلس حتى اذا افطرت فاخرج ، يعنى شهر رمضان •

وقال آخرون : فمن شهد منكم الشهر فليصم ماشهد منه • ذكر من قال ذلك :

(حدثنا) هناد بن السرى قال : حدثنا شريك عن ابى اسحاق ان ابا ميسرة خرج فى رمضان ، حتى اذا بلغ القنطرة دعا ماء فشرب • (حدثنا) هناد قال : حدثنا جرير عن مغيرة قال : خرج ابوميسرة فى رمضان مسافرا فمر بالفرات وهو صائم فاخذ منه كفا فشربه وافطر • (دثنا) هناد قال : ثنا وكيع عن سفيان عن ابى اسحاق عن مرثد ان ابا ميسرة سافر فى رمضان فافطر عند باب الجسر • هكذا قال هناد عن مرثد وانما هو ابو مرثد • (حدثنى) محمد بن عمارة الاسدى قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، قال : اخبرنا اسرائيل عن ابى اسحاق عن مرثد انه خرج مع ابى ميسرة فى رمضان ، فلما انتهى الى الجسر افطر • (حدثنا) هناد وابوهشام قالا : عن المسعودى عن الحسن بن سعد عن ابيه قال : كنت مع على فى ضيعة له على ثلاث من المدينة ، فخرجنا نريد المدينة فى شهر رمضان ، وعلى راكب وانا ماش ، قال فصام • قال هناد وافطرت • قال ابوهشام : وامرنى فافطرت • (حدثنا) هناد قال : حدثنا عبد الرحيم عن عبدالرحمن بن عتبه عن الحسن بن سعد عن ابيه قال : كنت مع علي بن ابى طالب وهو جاء من ارض له فصام ، وامرنى فافطرت ، فدخل المدينة ليلا وكان راكبا وانا ماش • (حدثنا) هناد قال ؛ حدثنا وكيع ، وحدثنا ابن بشار قال : حدثنا ابن مهدى ، قالا جميعا : حدثنا سفيان عن عيسى بن ابى عزة عن الشعبى انه سافر فى شهر رمضان فافطر عند باب الجسر • (حدثنا) ابن بشار قال : حدثنا عبدالرحمن قال ، قال لى سفيان : احب الى ان تتمه • (حدثنا) ابن المثنى قال : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة قال : سألت الحكم وحمادا واردت ان اسافر فى رمضان ، فقالا لى : اخرج • وقال حماد : قال ابراهيم : اما اذا كان العشر فأحب الى ان يقيم • (حدثنا) ابن المثنى قال : حدثنا ابوالوليد قال : حدثنا عماد عن قتادة عن الحسن وسعيد بن المسيب قالا : من ادركه الصوم وهو مقيم ثم سافر ، قالا : ان شاء افطر •

وقال آخرون : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» يعنى فمن شهده عاقلا بالغا مكلفا فليصمه • وممن قال ذلك ابوحنيفة واصحابه ، كانوا يقولون : من دخل عليه شهر رمضان وهو صحيح عاقل بالغ فعليه صومه ، فاذا جن بعد دخوله عليه وهو بالصفة التى وصفنا ثم افاق بعد انقضائه لزمه قضاء ماكان فيه من ايام الشهر مغلوبا على عقله ، لانه كان ممن شهره وهو ممن عليه فرض •

قالوا : وكذلك لو دخل عليه شهر رمضان وهو مجنون الا انه ممن لو كان صحيح العقل كان عليه صومه ، فلن ينقضي الشهر حتى صح وبرأ او افاق قبل انقضاء الشهر بيوم او اكثر من ذلك ، فان عليه قضاء صوم الشهر كله سوى اليوم الذى صامه بعد افاقته ، لانه ممن شهد الشهر قالوا : ولو دخل عليه شهر رمضان وهو مجنون فلم يفق حتى انقضى الشهر كله ثم افاق لم يلزمه قضاء شيء منه ، لانه لم يكن ممن شهده مكلفا صومه ٠ وهذا تأويل لا معنى له ، لان الجنون ان كان يسقط عمن كان به فرض الصوم من اجل فقد صاحبه عقله جميع الشهر ، فقد يجب ان يكون ذلك سبيل كل من فقد عقله جميع شهر الصوم ٠ وقد اجمع الجميع على ان من فقد عقله جميع شهر الصوم باغماء او برسام ، ثم افاق بعد انقضاء الشهر ، أن عليه قضاء الشهر كله ، لم يخالف ذلك احداً يجوز الاعتراض به على الأمة ٠ واذا كان اجماعا فالواجب ان يكون سبيل كل من كان زائل العقل جميع شهر الصوم سبيل المغمى عليه ٠ واذا كان ذلك كذلك كان معلوما ان تأويل الآية غير الذى تأولها قائلو هذه المقالة من ان شهود الشهر او بعضه مكلف صومه ٠ واذا بطل ذلك فتأويل المتأول الذى زعم ان معناه : فمن شهد اوله مقيما حاضراً فعليه صومه جميعه ابطل وافسد ، لتظاهر الاخبار عن سول الله (ﷺ) انه خرج عام الفتح من المدينة فى شهر رمضان ، بعدما صام بعضه ، وافطر وامر اصحابه بالافطار ٠ (حدثنا) هند قال : ثنا ابو الاحوص عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس قال : سافر رسول الله (ﷺ) فى رمضان من المدينة الى مكة ، حتى اذا اتى عسفان نزل به ، فدعا باناء فوضعه على يده ليراه الناس ، ثم شربه ٠ (حدثنا) ابن حميد وسفيان بن وكيع قالا : حدثنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاووس عن ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) بنحوه (حدثنا) هنيد وابوكريب قالا : ثنا يونس بن بكير قال : ثنا ابن اسحق ، قال : حدثنى الزهرى عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس قال : مضى رسول الله (ﷺ) لسفر عام الفتح لعشر مضين من رمضان ، فصام رسول الله (ﷺ) وصام الناس معه ، حتى اذا اتى الكدير ما بين عسفان وافج افطر ٠ (حدثنا) هناد وابوكريب قالا : ثنا عبيدة عن محمد بن اسحاق عن الزهرى عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس قال : خرج رسول الله (ﷺ) لعشر او لعشرين مضت من رمضان عام الفتح فصام حتى اذا كان بالكدير افطر : (حدثنا) ابن بشار قال : حدثنا سالم بن نوح قال : حدثنا عمر بن عامر عن قتادة عن ابى نظرة عن ابى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع النبى (ﷺ) لثمان عشرة مضت من رمضان ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب المفطر على الصائم ولا الصائم على المفطر ، فاذا كان فاسدين هذان التأويلان بما عليه دللنا من فسادهما فتبين ان الصحيح من التأويل هو الثالث ، وهو قول من قال «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» جميع ماشهد منه مقيما ، ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر ٠ وتأويل قوله تعالى «ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام آخر ، يعنى تعالى ذكره بذلك : ومن كان مريضا او على سفر فأفطر فعليه صيام عدة الايام التى افطرها من ايام اخر غير ايام شهر رمضان[28] ٠

لقد استطاع الطبرى لسعة علمه بالحديث والمذاهب الفقهية ان يجمع بين الرواية والرأى ، وقد اتخذ موقفا وسطا بين اتجاهى التفسير ، معتمدا على معرفته باللغة العربية من حيث اعرابها واساليبها البلاغية ، مما جعل تفسيره يلقى قبولا فى اوساط العلماء والفقهاء على مر العصور ٠ «فقد حمل مشرقا ومغربا ، وقرأه كل من كان فى وقته من العلماء ، وكل فضله وقدمه»[29] ٠ وقال عنه الفقيه المجتهد ابوبكر محمد بن اسحاق بن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ ، بعد ان نظر فيه من اوله الى آخره «ما اعلم على اديم الارض اعلم من محمد بن جرير»[30] ٠

---

(٢٧) سورة البقرة ، الآية ١٨٥

(٢٨) جامع البيان ٢/١٤٦ ـ ١٤٩

(٢٩) معجم الادباء ٦/٤٣٩

(٣٠) تاريخ بغداد ٢/١٦٤

وقال عنه الفقيه ابوحامد احمد بن ابى طاهر لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرا[٣١] ٠ وقال عنه الفقيه المحدث ابوزكريا يحيى بن شرف المتوفى سنة ٦٧٦هـ : اجمعت الامة على انه لم يصنف مثل تفسيرا الطبرى[٣٢] ٠ وقال عنه الجلال السيوطى عبدالرحمن بن ابى بكر الفقيه المؤرخ المتوفى سنة ٩١١هـ : وكتابه اجل التفاسير واعظمها ، فانه يتعرض لتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض ، والاعراب والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الاقدمين[٣٣] ٠

ويظهر ان الطبرى كان يزمع ان يجعل تفسيره اكثر تفصيلا ، الا ان طلابه استكثروا سعته فاختصره الى ماهو عليه ٠ فقد روى الخطيب البغدادى «ان ابا جعفر الطبرى قال لاصحابه : اتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال : ثلاثون الف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى الاعمار قبل تمامه ٠ فاختصره فى نحو ثلاثة الاف ورقة[٣٤] ٠

وقد طبع الكتاب كاملا لاول مرة بالمطبعة الاميرية ببولاق بمصر سنة ١٣٢٢هـ فى ثلاثين جزءا[٣٥] ٠

---

(٣١) تاريخ بغداد ١٦٣/٢

(٣٢) كشف الظنون ٣٧/١ط

(٣٣) نفس المصدر

(٣٤) تاريخ بغداد ١٦٣/٢

(٣٥) معجم المطبوعات العربية ١٢٣١/٢

(٤) الطبرى المؤرخ

مقدمة :

بلغ التدوين التاريخى عند العرب فى القرن الثالث ذروته ممثلا بكتاب تاريخ الرسل والملوك للامام الفقيه المؤرخ ابى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، الذى اراد لكتابه هذا ان يكون متمما لكتابه العظيم فى التفسير - جامع البيان عن تأويل القرآن - ولعل هذا ما يفسر لنا الوضوح ودقة التحرى وتعدد الروايات مما اتسم به تاريخه · والواقع ان كتابه المعزز بالاسانيد صار مصدرا اساسيا لمن جاء بعده من المؤرخين ·

وقد يكون من المستحسن ان نستعرض بإيجاز الطرق التى اتبعها مؤرخو القرن الثالث فى تدوين التاريخ ، قبل ان نبحث فى كتاب الطبرى التاريخى · فقد سلك معظم مؤرخى القرن المذكور فى عرض المادة التاريخية طريقتين رئيستين ، تقوم الاولى على عرض الحوادث والاخبار بحسب سنوات وقوعها بحيث تجمع الحوادث فى سنة حدوثها ، وتعرف بالطريقة الحولية · ويقول المستشرق روزنثال ان كتابة التاريخ على طريقة الحوليات معروفة فى الكتب الاغريقية[١] ، وهو ينوه بذلك الى تأثر المؤرخين العرب فى طريقتهم الحولية بما جاء فى الكتب المذكورة · الا ان المؤرخ عبدالحميد العبادى يؤكد فى كتابه «علم التاريخ» ان كتابة التاريخ بحسب سنوات وقوع الحوادث قد ابتكرها مؤرخو المسلمين ولم ينقلوها عن اليونان او الروم[٢] · وسوف نرى ان بعض قدامى المؤرخين ممن سبقوا الطبرى ، قد كتبوا تواريخهم بهذه الطريقة · ومما يؤخذ على الطريقة الحولية انها تشتت الخبر او الحادث وتجزؤه ، فان الحادث الذى يستغرق اكثر من سنة تتجزأ روايته فيذكر متفرقا فى حوادث السنوات التى استغرق حدوثه فيها · الا انها مع ذلك فهى اكثر تقدما من تاريخ الخبر من حيث ا نها ضمنت على الاقل الاستمرار الظاهرى وتنسيق مواد متنوعة ، وهى خصائص لا تتوفر فى اسلوب رواية الخبر ·

وقد انتبه احد كبار مؤرخينا القدماء هو ابوالحسن عز الدين محمد المعروف بابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ الى عيب الطريقة الحولية ، فقال فى مقدمة كتابه (الكامل فى التاريخ) ورأيتهم - اى المؤرخين الذين سبقوه وساروا على الطريقة الحولية - يذكرون الحادثة الواحدة فى سنين فتأتى الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا يفهم الا بعد امعان النظر ، فجمعت انا الحادثة الواحدة فى موضوع واحد ، وذكرت كل شىء عنها فى اى شهر او سنة كانت ، فاتت متناسقة متتابعة وذكرت فى كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها · فاما الحوادث الصغار فاننى افردت لجميعها ترجمة واحدة فى آخر كل سنة»[٣] ·

اما الطريقة الاخرى لعرض المادة التاريخية فانها تقوم على عرض الاخبار والحوادث وربطها بسياق تاريخى متصل على اساس العهود · وتعتبر هذه الطريقة متقدمة على الطريقة الحولية ·

ورغم عناية اولئك المؤرخين بكلتا الطريقتين ، بضبط الحوادث من حيث اسنادها وتوثيقها ، فانهم صرفوا جل اهتمامهم الى شئون السلطة الحاكمة · اذ اقتصروا فيما دونوه من الاخبار على الافراد من خلفاء ووزراء وقادة ، وعلى حوادث الحروب والقتال ، من غير تحليل او تعليل · هذا مع اهمال شئون عامة الناس وتأثيرهم على مجرى الاحداث · فلم يدونوا شيئا كافيا عن احوالهم الاجتماعية والاقتصادية والفنية الانادرا وعرضا · ومع اهتمامهم باخبار السلطة ورجالها فان ما اوردوه عن هؤلاء تغلب عليه النظرة السطحية والاهتمام بالمظاهر دون تقصى ماوراءها من حوافز واسباب ، وما ترتب عليها من نتائج · ولكن مع هذا فان ماحدث من تطور فى تدوين التاريخ كان تمهيدا للمؤرخ العربى ابن خلدون لان يصل فى مقدمته المشهورة الى المفهوم الصحيح لعلم التاريخ ، وما ذكره فيها من اراء تاريخيه لاتكاد تختلف عن الآراء الحديثة[٤] ·

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين /٢٧٤

(٢) علم التاريخ /٦٥

(٣) الكامل ١/٤

(٤) الحضارة العربية /١٠٤

تاريخ الطبرى :

لقد اشتهر كتاب الطبرى فى التاريخ كثيرا ، وقد اثنى عليه وعلى مصنفه عدد من قدامى المؤرخين · قال عنه علي بن الحسين المسعودى فى معرض اشارته الى ماصنف من كتب التاريخ «انما هى على جميع المؤلفات ، والزائد على الكتب المصنفات ، وقد جمع انواع الاخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته ، وكيف لا يكون ذلك ومؤلفه فقيه عصره وناسك دهره ، اليه انتهت علوم فقهاء الامصار وحملة السنن والآثار»(٥) · وقال عنه ياقوت الحموى بعد ان ذكر محتوياته «وهذا الكتاب من الافراد فى الدنيا فضلا ونباهة ، وهو يجمع كثيرا من علوم الدين والدنيا»(٦) · وقال عنه القاضي ابن خلكان «كان ثقة فى نقله ، وتاريخه اصح التواريخ واثبتها»(٧) ·

واعتمد الطبرى فى تصنيف كتابه التاريخى على ثقافته الواسعة ومعلوماته الغزيرة التى احاط بها كعالم نابه ، يضاف الى ذلك معاصرته قسما كبيرا من احداثه وحوادثه ، كما انه نقل اخبارا كثيرة عن رواتها الاولين مع ذكر اسانيدها · ومن اهم من روى عنهم ، عروة بن الزبير الاسدى القرشى ، احد فقهاء المدينة ، وكان عالما بالمغازى ، سكن البصرة مدة ، ثم مات بالمدينة فى سنة ٩٤هـ ، وهو اخو عبدالله بن الزبير(٨) · وشرحبيل بن سعد الخطمى المدنى ، وهو احد العلماء بالمغازى والبدريين ، ومن رواة الحديث ، توفى سنة ١٢٣هـ(٩) · ومحمد بن اسحاق وهشام بن عروة بن الزبير القرشى العالم بالانساب ، المطلبى المدنى اقدم مؤرخى العرب وله كتاب فى السيرة النبوية رواها عنه ابن هشام ، توفى سنة ١٥٠(١٠) · واحد محدثى المدينة ورواة الاخبار ، توفى سنة ١٤٦(١١) ·وابومخنف لوط بن يحيى الازدى المتوفى سنة ١٥٧هـ ، النسابة واشهر الاخباريين فيما يختص باخبار فتوح العراق(١٢) · وسيف بن عمر الاسدى التميمى ، وهو من اصحاب السير وله كتب فى الفتوح وحروب الردة والجمل ، وقد توفى عام ٢٠٠هـ(١٣) · وهشام بن محمد السائب الكلبى النسابة المشهور ، وقد الف فى اخبار الاسلام وتاريخ الخلفاء ، والانساب ، توفى سنة ٢٠٦هـ(١٤) · ومحمد بن عمر الواقدى السهمى المدنى وهو من اقدم المؤرخين العرب ومن حفاظ الحديث ، صنف فى المغازى والفتوح والطبقات ، توفى سنة ٢٠٧هـ(١٥) · والهيثم بن عدى بن عبدالرحمن الطائى الكوفى وكان عالما بالشعر والتاريخ والانساب ، صنف فى الطبقات والطوائف ، توفى سنة ٢٠٧هـ(١٦) · ومحمد بن سعد الزهرى المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، وهو الحافظ المحدث المؤرخ صاحب كتاب الطبقات الكبرى(١٧) · وعمر بن شيبة بن عبيد النميرى ، كان راوية للاخبار وعالما بالآثار ، وفقيها اديبا ، توفى سنة ٢٦٢هـ(١٧) ·

وبهذا تكون مصادر كتاب تاريخ الطبرى كلها عربية صرفة ، وقد اخذ من كل من هؤلاء الرواة ما اختص به من الاخبار والاحداث والمعلومات الاخرى ·

---

(٥) مروج الذهب ٦/١
(٦) معجم الادباء ٤٤٥/٦
(٧) وفيات الاعيان ٣٣٢/٣
(٨) المعارف /٢٢٢ ، والاعلام ١٧/٥ وفيه انه توفى سنة ٩٣هـ
(٩) الاعلام ٢٣٣/٣
(١٠) الفهرست ١٤٢
(١١) المعارف /٢٢٣
(١٢) الفهرست /١٤٣ ، والاعلام ١١/٦
(١٣) الفهرست /١٤٣ ، والاعلام ٢٢٠/٣
(١٤) الفهرست /١٤٦ ـ ١٤٩
(١٥) نفس المصدر /١٥٠ ، والاعلام ٢٠٠/٧
(١٦) الفهرست /١٥١ ـ ١٥٢
(١٧) وفيات الاعيان ٤٧١/٣ ـ ٤٧٤

لقد حدد الطبرى مضامين كتابه فى مقدمته التى وضعها لكتابه ، بقوله «وانا ذاكر فى كتابى هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه الى حال فنائهم ، من انتهى الينا خبره ·· مقرونا ذكر ذلك من انا ذاكره فى كتابى هذا بذكر زمانه ، وجملة ماكان من حوادث الامور فى عصره ·· بوجيز الدلالة غير طويل ، اذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من اخبارهم ، وازمان ومبالغ ولاياتهم والكائن من الاحداث فى اعصارهم»[19] ·

والواقع ان الكتاب تضمن الى جانب ماذكرناه من مواضيع اكد عليها الطبرى نفسه ، مواضيع اخرى تتصل باخبار عصره واحداث ايامه · اى انه ارخ المدة التى عاشها ايضا ، ويعتبر هذا القسم اوثق ماجاء فى الكتاب من المعلومات التاريخية · وقد انتهى الطبرى من كتابه بعد ان ذكر ما وقع من احداث فى سنة ٣٠٢هـ حتى نهايتها[20] · ويقول ياقوت الحموى ان الطبرى فرغ من تصنيفه فى يوم الاربعاء من شهر ربيع الاخر سنة ٣٠٣هـ وقطعه على آخر سنة ٣٠٢هـ[21] ·

لقد اتبع الطبرى فى عرض مادة كتابه التاريخية طريقة الترتيب الزمنى للحوادث على السنين ، اى الطريقة الحولية · وهو لم يبتكر هذه الطريقة ، فقد سبقه مؤرخون آخرون الى ذلك · يقول ابن النديم ان الهيثم بن عدى الف كتابا فى التاريخ مرتبا حسب السنين[22] · كما ان كتاب تاريخ خليفة بن خياط وضع على نفس الطريقة · والاثنان اقدم من الطبرى ، وقد اشرنا آنفا الى ان الهيثم بن عدى احد المصادر التى اعتمد عليها الطبرى · لقد جعل الطبرى لكل سنة تاريخها يسرد فيه ما وقع فيها من احداث من بدايتها حتى انتهائها · وتتوقف التفصيلات التى يوردها على اهمية الحدث من وجهة نظره ، وما يتوفر لديه من المعلومات الموثقة عنه · ثم ينتقل وهو يبدأ فى اول كل سنة بقوله : ثم دخلت سنة كذا ويضيف احيانا : ذكر الخبر عما كان فيها من الاحداث او مافى معناه من العبارات · واذا ما ذكر حدثا مهما افرد له عنوانا خاصا ·

وقد اعتاد الطبرى ان يورد الحوادث والاخبار منفصلة عن بعضها ، مستعملا عبارة «فمن ذلك» او «وفيها» · ومثل هذه العبارات هى الروابط الوحيدة بين الاخبار التى وقعت فى خلال السنة التى يؤرخ احداثها واخبارها ·

اما فيما يتعلق بالخلفاء فقد درج على ان يضع عنوانا كاملا لكل خليفة تنطوى تحته اخباره فى تلك السنة ، ويهتم بصفة خاصة بحوادث المبايعة ، والولاية بالعهد ويحرص على ذكر نصوص العهود الخاصة بذلك · وعند وفاة الخليفة يجمل ترجمته وما عرف عنه واشتهر به · ويذكر سبب وفاته ومدة خلافته وما بلغه من عمره ، وما قيل فيه من رثاء · ولابد من ان يذكر اسم من تولى الحج بالناس فى كل سنة ، ويشير الى بعض الحوادث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والادبية التى وقعت فى انحاء الدولة العربية · وما صادف الحجاج من مصاعب ومشاكل فى موسم السنة ويؤكد على قلة المياه ووفرتها · كما يذكر احيانا وفيات بعض الامراء والقادة او الاعيان من العلماء والفقهاء والادباء والشعراء ممن توفوا فيها ·

وغلبت على الطبرى طريقة المحدثين ومنهجهم فى التحرى عن صدق الحديث وروايته ، فيهتم بتعدد الروايات عن الخبر الواحد ، واسناد كل منها الى صاحبها · وذلك لانه كان فقيها مجتهدا ومحدثا ثقة وقد وصل مرتبة عالية بالرواية الفقهية ، مما اثر على اسلوبه فى كتابة التاريخ بدقة وحرص ، مما جعل لكتابه مكانة مرموقة دائمة فى الاوساط الفكرية ، واتخذه من جاء بعده مثالا يحتذى به فى كتابة التاريخ · بل ان الناس عنوابه كثيرا حتى ليكاد يكون عماد كل مؤرخ جاء بعده[23] · ويذهب المستشرق هاملتون جب ابعد من ذلك بقوله «وكتابه بما يتمتع به من صدق وشمول يعنى لنا خاتمة حقبة كاملة ، ولا نجد بعده مصنفا يأخذ على عاتقه من جديد جمع المواد عن تاريخ صدر الاسلام . والنظر فيها وانما المصنفون بعده ، اما نقلة للروايات من تاريخ الطبرى ، واما مؤرخون من حيث انتهى الطبرى»[24] ·

---

(١٨) الفهرست /١٦٩ ، ووفيات الاعيان ١١٤/٣
(١٩) تاريخ الطبرى ٣/١ ـ ٨
(٢٠) نفس المصدر ١٥٠/١٠ ـ ١٥١
(٢١) معجم الادباء ٤٢٦/٦
(٢٢) الفهرست /١٥٢
(٢٣) ظهر الاسلام ٢٠٤/٢
(٢٤) دراسات فى حضارة الاسلام /١٥٦

والواقع ان أهمية الطبرى التاريخية لاتدانيها اهمية اى مؤرخ آخر سبقه او جاء بعده ، اذ انه بذل جهود جبارة فى اختيار الروايات الموثوقة المتفق عليها من بين الروايات العديدة عن احداث التاريخ العربى منذ ظهور الاسلام حتى نهاية القرن الثالث ، وهى الحقبة التى انتهى عندها الطبرى فى تاريخه · وقد رتبها منسقة بحسب سنوات حدوثها ، مما وفر كثيرا من الوقت والجهد لمن جاء بعده من مؤرخى ودارسى التاريخ العربى الاسلامى · وقد احتفظ لنا الطبرى ، اضافة الى ماذكره من حوادث واخبار ، بكثير من نصوص العهود ، والاشعار ، والاقوال ، وقد نسب كل قول او شعر الى قائله ومقتطفات من كتب لم تصلنا ، وكلها ذات قيمة تاريخية مهمة ·

ان تحرى الطبرى الدقة ، وحياده فى الروايات التى يذكرها ، كفاه مؤونة بيان رأيه فيها ، تاركا للقارىء ان يختار مايراه من تلك الروايات والآراء ، الا اذا كان له رأى يختلف عما رواه ، فيرويه عن لسانه بقوله : يقول ابوجعفر ··

ومن الجدير بالذكر ان نشير الى جزالة اسلوب الطبرى ، اذ رغم ان كتابه تاريخى فى اساسه ، فانه كتب باسلوب شيق احتوى على ثروة ادبية ولغوية غزيرة · وذلك عند عرضه الروايات المختلفة لكثير من الاحداث بلغتها الاصلية البليغة ، وباسلوبها السهل الممتنع ·· كما ان معايشته لقسم غير قليل من الاحداث المهمة واطلاعه على تفاصيلها بنفسه زاد فى قيمة كتابه واهميته ·

وخلاصة مايمكن قوله عن الطبرى المؤرخ انه كانت تغلب عليه الرغبة فى ان تكون جميع الاخبار والاقوال معززه باسانيدها ، ويحرص على ان يكون مايقدمه من المادة التاريخية يعتمد على مصادر معتمدة · ولذا نراه يروى عن الخبر الواحد ، فى كثير من الاحيان ، عن اكثر من راوية واحد ، ولو تباينت رواياتهم ، تاركا للقارىء ان يستنتج مايراه ، الا اذا كان له رأى خاص حول موضوع معين فانه يدلى به بتواضع ، بعد ان يستنفد جميع الروايات · وواضح تأثر الطبرى فى طريقته هذه القائمة على جميع الاخبار والاقوال دون حكم او تأويل ، باسلوب المحدثين ، ولاغرابة فهو من كبار المحدثين ·

وكان حرص الطبرى على تيسير المادة التى يقدمها للقارئ قد دفعه الى ان يجزأها ليسهل له الاحاطة بها · وكانت التجزئة لاتقوم على نوع المادة وكميتها ، وانما على زمن حدوثها · درج على عرض الاحداث التى وقعت فى كل سنة رغم انها قد تكون غير مرتبطة ببعضها ، ورغم انها جزء من الخبر لاكله ·

ونراه يركز اهتمامه حول الاشخاص والحروب والوقائع الحربية ، فيظهر الاحداث كأنها نتائج اعمال الخلفاء والقادة وحدهم ، ومع ان ذلك يصدق فى بعض الاحوال ، الا ان هناك عوامل عديدة اخرى اقتصادية واجتماعية اثرت فى تكوين تلك الاحداث تتصل بذوى العلاقة بها من الناس وبمكان حدوثها ·

كما انه لم يذكر شيئا عن نواحى التقدم الثقافى ومظاهر الحياة الاخرى التى ازدهرت فى ايامه سواء فى مدينة السلام او فى سامراء · على اننا يجب ان لا ننسى ان ذلك كان شأن مؤرخى عصره ومن جاء بعدهم الى امد طويل · كما انه اغفل اخبار وحوادث الجانب الغربى من العالم العربى ، فلم يذكر شيئا عن افريقية والمغرب والاندلس ، مما تلافاه ابن الاثير بعده فى تاريخه ·

على ان ما اسبغه الطبرى على كتابه من تدقيق المتكلمين وطول نفسهم ، وما للفقيه من دقة وحب للنظام ، وما للسياسى القانونى العملى من بصيرة فى الامور السياسية ، ادى الى احلاله مكانة مرموقة دائمة ومتزايدة فى الاوساط الفكرية ، وان دقته وطريقته اكسبت كتابه ميزة مهمة جعلته مثالا يحتذى به فى كتابة التاريخ[٢٥] ·

ويبدو ان الطبرى قال لطلابه عن كتابه هذا نحو ما ذكره عن كتابه فى تفسير القرآن الكريم ، فاجابوه بمثل ذلك فاختصره فى نحو مما اختصر التفسير[٢٦] ·

---

(٢٥) علم التاريخ عند المسلمين /١٨٦ ـ ١٨٧
(٢٦) تاريخ بغداد ١٦٣/٢

(٥) كتب الطبرى الاخرى

تدل مصنفات الطبرى التى وصلتنا على تعدد معارفه وعمقها وسعة اطلاعه فيما بحثه وصنف فيه من المواضيع ٠ وانه كان عالما دينيا بارعا فى العلوم القرآنية والحديث والفقه ، كما كان مؤرخا قديرا واسع الاطلاع ٠ قال عنه ابن النديم «علاّمة وقته وامام عصره وفقيه زمانه وكان متقنا فى جميع العلوم : علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه ، كثير الحفظ»[١] ٠ وقاله عنه ياقوت الحموى «كان الطبرى عالما بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض ، وله فى جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين»[٢] ٠ وقال ايضا «وكان ابوجعفر قد نظر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكان كالقارىء الذى لا يعرف الا القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف الاّ الحديث ، وكالفقيه الذى لا يعرف الا الفقه ، وكالنحوى الذى لا يعرف الا النحو ، وكالحاسب الذى لا يعرف الا الحساب ٠ وكان عاملا للعبادات جامعا للعلوم واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها»[٣] ٠ ووصفه ابن خلكان بقوله «كان اماما فى فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك ، وله مصنفات فى علوم عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله»[٤] ٠ وقال عنه ابن الجوزى «وكان قد جمع من العلوم ما رأس به اهل عصره ، وكان حافظا للقرآن ، بصيرا بالمعانى ، عالما بالسنن ، فقيها فى الاحكام ، عالما باختلاف العلماء ، خبيرا بايام الناس واخبارهم ، وتصانيفه كثيرة منها كتاب التاريخ وكتاب التفسير ، وتهذيب الآثار الا انه لم يتمم تصنيفه ، وله فى اصول الفقه وفروعه كتب كثيرة»[٥] ٠

ويعتبر الطبرى من المكثرين فى التصنيف ، حدث عبدالله بن احمد الفرغانى فى كتابه المعروف بكتاب الصلة وهو كتاب وصل به تاريخ الطبرى «ان قوما من تلاميذ ابن جرير حصلوا ايام حياته منذ بلغ الحلم الى ان توفى وهو ابن (٨٦) سنة ، ثم قسموا عليها اوراق مصنفاته ، فصار منها على كل يوم اربع عشرة ورقة ، وهذا لا يتهيأ لمخلوق الا بحسن عناية الخالق»[٦] ٠

وقد اعتاد الطبرى ان يقدم كل كتاب يصنفه بخطبة على معنى كتابه فيأتى الكتاب منظوما على ما تقتضيه الخطبة[٧] ٠ مما يستدل منه ان الطبرى كان يضع ما نسميه برؤوس الاقلام او الخطة لمضمون الكتاب الذى يعتزم تصنيفه دالا بذلك على سعة علمه فى الموضوع الذى يصنف فيه ٠ وقد عنى الطبرى بالعلوم القرآنية ، فكان الى جانب علمه بالتفسير (وقد افردنا لذلك فصلا خاصا) يحسن القراءة مجودا فيها ، وقد الم بانواع القراءات وصنف فيها ٠ وكان اول امره يقرأ بقراءة حمزة ، وقد اخذها بروايتين الاولى عن سليمان بن عبدالرحمن الطلحى ، والاخرى عن علي بن كيسة[٨] ٠ وبالنظر لالمامه بمختلف القراءات فقد اختار قراءة خاصة به لم يخرج بها عن المشهور ، الا انه لم ينتصب للاقراء ، فلم يقرأ عليه سوى آحاد من الناس[٩] ٠ وقد امتدح المقرىء الشهير ابوبكر بن مجاهد قراءته ، وقال وقد سمعه يتلو سورة الرحمن فى صلاته «ماظننت ان الله تعالى خلق بشرا يحسن يقرأ هذه القراءة»[١٠] وله «كتاب الفصل بين القراءة» ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ واختلاف القراء فى حروف القرآن ، وعلل ذلك

---

(١) الفهرست / ٣٤٠
(٢) معجم الادباء ٦/ ٤٢٧
(٣) نفس المصدر ٦/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩
(٤) وفيات الاعيان ٣/ ٣٣٢
(٥) المنتظم ٦/ ١٧١
(٦) معجم الادباء ٦/ ٤٢٦
(٧) نفس المصدر ٦/ ٤٤٢
(٨) نفس المصدر ٦/ ٤٤٢
(٩) نفس المصدر ٦/ ٤٢٧
(١٠) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤

وشرحه ، وفصل فيه اسماء القراء بالمدينة ومكة والبصرة والشام وغيرها ، والفصل بين كل قراءة ، فيذكر وجهها وتأويلها والدلالة على ماذهب اليه كل قارىء لها ، واختياره الصواب منها والبرهان على صحة ما اختاره ، مستظهرا فى ذلك بقوته على التفسير والاعراب ، وصدره بخطبة تليق به[11] . وقال ابن مجاهد عن هذا الكتاب «ماصنف فى معنى كتابه مثله»[12] .

وله كذلك كتاب فى «عدد آى القرآن واسباب نزولها» .

وكذلك عن الطبرى بالحديث وقد سمعه على كبار محدثى زمنه ممن اشرنا اليهم فى الفصل الخاص بفقه الطبرى ، وصنف عدداً من الكتب منها : كتاب المذيل ، وهو يشتمل على من قتل او مات من اصحاب رسول الله (ﷺ) فى حياته ، او بعده ، على ترتيب الأقرب فالاقرب منه او من قريش او من القبائل ثم ذكر موت من مات من التابعين والسلف بعدهم ثم الخلق الى ان بلغ شيوخه الذين سمع منهم ، وذكر جملاً من اخبارهم ومذاهبهم . وتكلم فى الذب عن ذوى الفضل منهم ممن رمى بمذهب هو برىء منه كنحو الحسن البصرى وقتادة وعكرمة وغيرهم . وذكر ضعف من نسب الى ضعف من الناقلين.

وذكر فى آخر الكتاب ابواباً تتناول من حدَّث عنه الاخوة ، او الرجل وولده ، ومن اشتهر بكنيته دون اسمه ، او باسمه دون كنيته . وهو من محاسن الكتب وافضلها يرغب فيه طلاب الحديث واهل التواريخ . وكان قد انجزه واخذ باملائه سنة (٣٠٠)[13] .

ومن كتب الطبرى الاخرى فى الحديث : كتاب تهذيب الآثار ، وفيه تفصيل الثابت من الأخبار عن رسول الله (ﷺ) ، وهو كتاب يتعذر على العلماء عمل مثله ويصعب عليهم تتمته[14] . يقول عنه السبكى : ويعتبر من عجائب كتبه ابتدأ به بماروواه ابوبكر الصديق (رض) مما صح عنده بسنده ، وتكلم عن كل حديث بعلله وطرقه ومافيه من الفقه والسنن واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعانى والغريب ، فتم منه مسند العشرة واهل البيت والموالى ، وفيه قطعة كبيرة من مسند ابن عباس ، ومات قبل تمامه[15] .

وكتاب المسند المجرد ، وقد جمع فيه ما قرأه من حديث على الناس مما سمعه عن شيوخه[16] .

ومن كتب الطبرى الاخرى الذى هو اقرب الى الكتب الدينية ، كتابه المسمى «ادب النفوس الحميدة والاخلاق النفيسة» وربما سمى بادب النفس الشريفة والاخلاق الحميدة . ويتضمن اضافة الى علوم الدين ، الكلام عن الورع والاخلاص والشكر والتخاضع والخشوع والصبر والامر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبدأه بالكلام فى الوسوسة واعمال القلوب ، ثم ذكر شيئا من الدعاء وفضل القرآن ، وما روى عن ذلك من السنن واقوال الصحابة والتابعين فى ذلك وكان هذا الكتاب آخر مصنفاته ، اذ ابتدأ به فى سنة (٣١٠) ومات بعد مدة قصيرة من ذلك[17] .

واضافة الى ماذكره من كتب الطبرى ، ذكر له صاحب هدية العارفين : كتاب الشذور ، وكتاب الفضائل ، وكتاب المسترشد[18] .

---

(11) معجم الادباء ٦/٤٤١ ـ ٤٤٢

(12) نفس المصدر ٦/٤٤٢ وسماه فى هدية العارفين ٢/٢٧ الجامع من القراءات (13) معجم الادباء ٦/٤٤٥ ، وفى هدية العارفين ٢/٢٧ سماه : تاريخ الرجال

(14) نفس المصدر ٦/٤٤٥ ، وتاريخ بغداد ٢/١٦٣

(15) طبقات السبكى ٢/١٣٦

(16) معجم الادباء ٦/٤٥٠

(17) معجم الادباء ٦/٤٥٠

(18) هدية العارفين ٢/٢٧

مصادر البحث :

ابن الاثير ، عز الدين او الحسن علي بن ابى الكرم الشيبانى :
الكامل فى التاريخ (الجزء الثامن)
دار صادر - بيروت ، ١٣٨٥ - ١٩٦٥

ابن الجوزى ، ابو الفرج عبدالرحمن بن علي :
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم
مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن ، ١٣٥٧

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد الحضرمى :
المقدمة
المطبعة الخيرية بمصر - الطبعة الاولى ، ١٣٢٢

ابن خلكان ، ابوالعباس شمس الدين احمد بن محمد :
وفيات الاعيان وانبا ابناء الزمان (الجزء الثالث)
تحقيق : محمد محى الدين عبدالحميد
مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٤٨

ابن قتيبة ، ابومحمد عبدالله بن مسلم :
المعارف
حققة وقدم له : ثروت عكاشة
مطبعة دار الكتب بمصر ، ١٩٦٠

ابن كثير ، الحافظ اسماعيل بن عمر :
البداية والنهاية
مكتبة المعارف ببيروت ، ومكتبة النصر بالرياض
الطبعة الاولى سنة ١٩٦٦

ابن النديم ، محمد بن اسحاق :
الفهرست
مطبعة الاستقامة بالقاهرة

البغدادى ، ابوبكر احمد بن علي الخطيب :
تاريخ بغداد (الجزء الثانى)
دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان

البغدادى ، اسماعيل باشا :
هدية العارفين
طبع وكالة المعارف بمطبعتها باستانبول - ١٩٥١

الانبارى ، ابوالبركات محمد بن ابى السعد النحوى :
نزهة الالباء فى طبقات الادباء
تحقيق : الدكتور عطية عامر
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٦٣

الجاحظ ، ابوعثمان عمرو بن بحر :
كتاب الحيوان (الجزء الاول)
تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون
مطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٩ ـ ١٩٤٠

حاجى خليفة ، مصطفى بن عبدالله :
كشف الظنون (الجزء الثانى:
عنى بتصحيحة محمد شرف الدين يالتقايا ورفعة الكليسى
مطبعة المعارف باستانبول ، ١٩٤١

الحموى ، ياقوت الرومى :
ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ـ معجم الادباء ـ (الجزء السادس)
اعتنى بتصحيحه د.س. مرجليوث
مطبعة هفوية بالموسكى بمصر ، ١٩٣٠

الخوارزمى ، محمد بن احمد بن يوسف :
مفاتيح العلوم
مطبعة الشرق بمصر ، ١٣٤٢

الذهبى ، ابوعبدالله شمس الدين :
تذكرة الحفاظ (الجزء الثانى)
دار احياء التراث العربى ـ ١٣٧٤

السبكى ، تاج الدين عبدالوهاب بن تقى الدين :
طبقات الشافعية الكبرى (الجزء الثانى)
المطبعة الحسينية بمصر

الشهرستانى ، ابوالفتح محمد بن عبدالكريم :
الملل والنحل (الجزء الاول)
تحقيق محمد سيد كيلانى
مطبعة ومكتبة البابى الحلبى بمصر ، ١٣٨١ ـ ١٩٦١

الطبرى ، ابوجعفر محمد بن جرير :
(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن
شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر ـ الطبعة الثانية ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤
(٢) تاريخ الرسل والملوك (الجزآن ٨،١)
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩

مسكويه ، ابوعلي احمد بن محمد :
كتاب تجارب الامم (الجزء الاول)
نسخه وصممه : هـ٠ف٠ امدروز
مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر ـ ١٣٣٥ ـ ١٩١٤

المسعودى ، ابوالحسن علي بن الحسين :
مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الاول)
المطبعة البهية المصرية ، ١٣٤٦

امين ، احمد :
ظهر الاسلام (الجزء الثانى)
مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٢

جب ، هاملتون :
دراسات فى حضارة الاسلام
ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرون
دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤

روزنتال ، فرانز :
علم التاريخ عند المسلمين
ترجمة الدكتور صالح احمد العانى
مراجعة محمد توفيق حسنى
نشرته مكتبة المثنى ببغداد منه ١٩٦٣

سركيس ، يوسف اليان :
معجم المطبوعات العربية والمعربة
مطبعة سركيس ، بمصر ، ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨

هرنشو :
علم التاريخ
ترجمة عبدالحميد العبادى
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٧

هل ، يوسف :
الحضارة العربية
ترجمة ابراهيم احمد العدوى
مكتبة الانجلو المصرية ، ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦

بحوث التاريخ القديم والآثار

دراسة مركزة فى نقاط للفكر العسكرى العراقى القديم عبر ألفى عام قبل الميلاد ٢٥٠٠ ـ ٥٣٩ ق ٠م

اعداد
الدكتور فاضل عبدالواحد علي
الدكتور فاروق ناصر الراوي

لابد من الاعتذار فى البدء عن التأخر فى تقديم هذا البحث لأسباب خارجة عن امكانية الباحثين ٠ ولابد ايضا من التنويه بأن هذا البحث المركز هو حصيلة دراسة مستفيضة فى الوثائق المسمارية السومرية والبابلية وفى الآثار الفنية ٠ وحرصا من الباحثين على ابراز جوانب الفكر العسكرى العراقى القديم بحجمه وزخمه الفعال فقد حرما على حذف كل التفاصيل والاقتصار على طرح الاسس المهمة لتلك الجوانب بشكل نقاط مركزة جدا ادراكا منهما ان مثل هذا الموضوع يصلح لبحث مستفيض قد يأخذ حجم كتاب فى الأقل ٠

هناك حقيقة ادركها سكان وادى الرافدين ابتداء بالسومريين وانتهاء بالآشوريين هى انهم امام تحديات خطيرة وان لاسبيل للحفاظ على الوطن وعلى المنجزات الحضارية فيه الا بوجود قوة ضاربة تدفع عن الوطن شرور الطامعين وتحفظ ازدهاره الحضارى ٠ لذلك حظى الجيش وفى عصر مبكر جدا من الالف الثالث ق ٠م باهتمام الحكام السومريين الذين يعود اليهم الفضل فى تأسيس اقدم الجيوش المعروفة فى العالم القديم ٠ وعلى الرغم من ان الجيش السومرى فى عصر فجر السلالات لم يكن دائميا ، كما هو الحال فى العصر الآشورى ، فانه أسهم وبشكل فعال فى درء الاخطار عن البلاد وخاض بنجاح كبير اقدم الحروب الطاحنة على الجبهة الشرقية مع العيلاميين على وجه الخصوص ٠

وتدل الآثار المكتشفة فى المدن السومرية من عصر فجر السلالات فى حدود ٢٥٠٠ ق ٠م على ان الجيش السومرى كان يتكون من صنف المشاة وصنف العربات بصورة رئيسية وكان الرمح والفأس هما السلاحان الأساسيان لهذين الصنفين ٠ اما القوس فانه كان من النوع البسيط والراجح انه لم يستعمل فى المجال العسكرى لكنه بالتأكيد استخدم فى الصيد ٠ وفى العصر الاكدى اللاحق (٢٣٧١ ـ ٢٢٣٠ق ٠م) ادخل القوس المركب كسلاح فعال اعطى تفوقا واضحا للجيش الاكدى كما ان اتباع اسلوب المناورة والحركة بدلا من القتال باسلوب الكراديس (الصف) ، كان من التغييرات الاساسية التى نلاحظها فى النحوتات الاكدية ، ومن العصر الاكدى تأتينا اقدم الاشارات على اقطاع ضباط الجيش أراضى يستغلونها مقابل خدماتهم فى الجيش ٠ وقطع الجيش العراقى القديم مرحلة مهمة من التطور فى زمن سلالة اور الثالثة والعصر البابلى القديم (٢١١٣ ـ ١٥٩٥ ق ٠م) ويتضح ذلك جليا من المواد القانونية العديدة فى شريعة حمورابى التى نظمت حقوق وواجبات العسكريين بشكل واضح ودقيق ٠

ووصل الجيش العراقى القديم ذروة التطور زمن الآشوريين الذين خلقت منهم طبيعتهم الجبلية والتحديات الخطيرة التى كانوا يواجهونها من الاقوام المجاورة لهم شعبا ذا روح عسكرية عالية ٠ وقد استطاع الآشوريون بفضل هذه الروح العالية وبفضل خبرتهم الجيدة فى صنع سلاحهم بأيديهم ان يكونوا فى العصر الآشورى الحديث (٩١١ ـ ٦١٢ ق ٠م) جيشا نظاميا دائميا يعمل على مدار اشهر السنة حتى صار بحق اشهر قوة ضاربة فى الشرق الأدنى القديم دون منازع ٠

والحديث عن الجيش فى العصور القديمة يقودنا بالضرورة الى الرجوع الى مصدرين اساسيين :

الأول : الوثائق المسمارية المدونة بالسومرية والبابلية والتى تتعلق بأخبار الحروب والحملات العسكرية والأسلحة والرتب وكل ماله علاقة بالاسرى والغنائم

وكذلك القوانين التى تنظم حقوق وواجبات الفرد من الخدمة العسكرية ثم المراسلات والتقارير ذات الطابع العسكرى ٠

الثانى : مشاهد المعارك التى صورها الاقدمون على المنحوتات الجدارية وغيرها من الآثار الاخرى التى تعتبر سجلات تاريخية مهمة عن المعارك فى العصور القديمة ٠

ومن خلال الدراسة المستفيضة لهذه المراجع يمكننا ان نسجل النقاط الآتية كمعالم بارزة فى الفكر العسكرى العراقى القديم اى فى زمن السومريين والبابليين والآشوريين اى فى عصور زمنية شملت حوالى الفى عام (٢٥٠٠ ـ ٥٣٩ ق ٠م) ٠

١ ـ كان الملك باعتباره رئيس الدولة ، يعتبر القائد العام للقوات المسلحة وكان يشارك فعلا فى قيادة المعركة ٠ وقد بقى هذا المفهوم سائدا فى وادى الرافدين منذ عصر فجر السلالات وحتى آخر الادوار الحضارية ٠ واقدم دليل على هذا المفهوم هو مسلة العقبان من لكش التى تصور الامير السومرى اياناتم وهو فى عربة قتالية فى مقدمة جيشه (يعود تاريخ هذه المسلة الى حدود ٢٥٠٠ق ٠م) ٠

٢ ـ مع كل الاستعدادات التى كانت تستحضر للمعركة على صعيد الاعداد والتخطيط والتجهيزات فقد كان الايمان عميقا وفى كل العصور بأن النصر من صنع الالهة ٠ وايا كان الملك المنتصر وفى أى عصر فانه لا يعزو نصرا حققه الا الى فضل اسناد وعون الإله ، كأن يكون الاله ننكرسو زمن اياناتم فى لكش ، والاله مردوخ زمن نبوخذنصر الاول وعشتار واشور فى عهد الملوك الآشوريين ٠ ثم ان زيارة معابد الالهة على الطريق الى ساحة الحرب كان امرا معروفا فى العصور القديمة ٠ ومن الوثائق القديمة التى سجلت مثل هذه الممارسة وثيقة التحرير للملك السومرى اوتوحيكال (٢١٢٠ ـ ٢١١٤ ق ٠م) الذى زار معابد عدة مدن فى الطريق لملاقاة جيوش الكوتيين المحتلين فقدم الصلوات والقرابين وحقق فى النهاية نصرا حاسما على الاعداء ٠

٣ ـ كان الثبات واستذكار الالهة وقت الظروف الحرجة من المعتقدات الاساسية عند القائد ٠ يقول الملك الآشورى سنحاريب فى هذا الخصوص ، ان العيلاميين زحفوا لملاقاته عند مدينة خالوى على نهر دجلة حتى بدوا له ولجنده كالجراد وان الغبار المنبعث من اقدامهم ارتفع غيمة سوداء فوق ارض المعركة ، ويعترف سنحاريب بأن العيلاميين سدوا عليه الطريق وانه عندئذ : راح يدعو الالهة سين وشمس وبعل ونابو ونركال وعشتار لتنصره على اعدائه ، ثم يقول سنحاريب ما نصه : «استجابت الالهة لدعائى فجاءت مسرعة لعونى وعندئذ انقضضت على اعدائى كالاسد الهصور» ٠

٤ ـ ان عمق الايمان بقدرة الالهة على صنع النصر اعطى رجال الدين فى العراق القديم دورا بارزا اثناء الحروب ، اذ كان الملوك يستشيرونهم قبل الاقدام على خوض المعارك لمعرفة ما تخفيه الالهة لتلك الحملة من اسباب النجاح او الفشل من جهة اخرى كان بعض رجال الدين يصاحبون الحملة العسكرية ٠ وهناك اشارة الى رفع شعار او رمز الالهة، والى قيام بعض الكهان بتسجيل تفاصيل المعارك باعتبارهم فى مقدمة من يجيد الخط المسمارى ٠

٥ ـ الاهتمام بتوفير مورد مضمون لافراد القوات المسلحة بمنحهما أراضى زراعية ليستغلوها مقابل خدمتهم فى الجيش ٠ كما خصصت لهم فى العصر الآشورى الحديث جرايات عينية تصرف لهم بصورة منتظمة وبكميات معينة ٠

٦ ـ وضع تشريعات قانونية صريحة وواضحة تنظم الخدمة العسكرية ٠ لقد كانت الخدمة العسكرية فى العراق القديم الزامية على كل مواطن ، ومنع القانون قبول بديل عن المكلف ، كما فرض عقوبة الاعدام على كل فرد يتهرب من الخدمة العسكرية او قدم بديلا عنه ٠ وفرض المشرع نفس العقوبة على مأمور التجنيد الذى يقبل بديلا عن شخص كلف بالخدمة او تجنيد شخص معفو منها ٠

٧ ـ كان تكريم المتميزين من القادة والجند من الامور التى اهتم بها ملوك وادى الرافدين ٠ واقدم دليل جاءنا فى هذا الصدد وثيقة بابلية من زمن الملك نبوخذنصر الاول (١١٢٤ ـ ١١٠٣ق ٠م) ملك سلالة ايسن الثانية ٠ فبعد ان تتحدث هذه الوثيقة عن تفاصيل النصر الحاسم الذى حققه هذا الملك على العيلاميين فى معركته الشهيرة على ضفاف نهر اولاى (احد فروع الكرخة) تذكر تكريمه لقائد قوات صنف العربات وهو رتي ـ مردوخ ولافراد قبيلته (كرز يابكو) ممن شاركوا فى هذه المعركة وكان لهم دور بارز فى تحقيق النصر ٠

٨ ـ عدم التقليل من اهمية العدو او الاستخفاف بقوته الى الحد الذى دفع بعض الملوك الآشوريين الى الاشادة بقدرات الخصم والقول بأنهم كانوا يقاتلون عدوا ندا له قيادة متمرسة ٠

٩ ـ اختلاف اساليب القتال والخطط العسكرية والصنوف حسب طبيعة ارض المعركة :

أ ـ حروب المناطق الجبلية ، صنف الخيالة والمشاة ٠

ب ـ حروب الاراضى السهلية ، صنف العربات والمشاة مع اسناد من المقلاعيين ٠

جـ ـ حصار المدن ، صنف الاكباش والسلالم والهندسة والمشاة مع اسناد من المقلاعيين والنبالين ٠

د ـ حروب الاهوار ، محاربون فى سفن وقوارب ، مع صنف الهندسة لبناء الجسور المتنقلة لعبور الموانع المائية ونقل الخيول والعربات والمعدات فى سفن خاصة ٠

١٠ ـ ضرب الاحلاف العسكرية المعادية والاسراع فى القضاء على حركات التمرد والعصيان فى الاقاليم التابعة ٠ وقد تجلت هذه السياسة بشكل واضح زمن الآشوريين وخاصة فى معالجة حركات التمرد فى بابل التى كانت تغذيها عيلام بصورة علانية ٠ لقد ادرك الآشوريون خطورة نجاح عيلام فى التحالف مع بابل وبالتالى اقامة حكم معاد فى وسط وجنوب البلاد ٠ ومعروف ان عيلام وراء حركة التمرد التى قام بها مردوخ ـ بلادان زمن سرجون الثانى (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق ٠م) والتى استلزمت جهدا عسكريا كبيرا للقضاء عليها ٠ كما نجحت السياسة العيلامية وبذكاء فى استغلال الخلافات الشخصية بين الملك الآشورى آشوربانيبال واخيه شمش ـ شوم ـ اوكن حاكم بابل بحيث دفعت الاخير الى اعلان العصيان ضد اخيه مما اضطر الملك الآشورى الى الاسراع لفرض الحصار على بابل واقتحامها ، لكن أخاه المحاصر ابى الاستسلام وفضل الانتحار حرقا فى قصره المشتعل بالنيران ٠

امام هذه الحقائق عن الاطماع العيلامية لم يبق من بديل لدى الملك الآشورى سوى اجتثاث بؤرة الشر نفسها ٠ وبالفعل فمن خلال عمليات عسكرية فى عيلام استمرت ثلاث سنوات (٦٤١ ـ ٦٣٩ ق ٠م) استطاع الملك الآشورى القضاء على الحكم العيلامى بعد اندحار قوات الملك العيلامى تيومان وسقوط عاصمته شوشة بأيدى الآشوريين ٠

١١ ـ امتلاك صنف استخبارات كفوء وبريد سريع لنقل الاخبار فبالاضافة الى التقارير والرسائل التى كان يبعثها الحكام الآشوريون من المقاطعات فقد كان لهؤلاء الحكام بدورهم «عيون» او معتمدون يزودونهم بالمعلومات والاوضاع العسكرية فى الاقاليم وتدل الرسائل الرسمية المتبادلة بين الملوك الآشوريين وحكام الاقاليم ان «عيون» الملك كانوا ينتشرون فى كل اقاليم الامبراطورية وما يجاورها من اقصى الجنوب وصولا الى بحيرتى وان وارميه فى بلاد اورارتو (ارمينيا) شمالا ٠ وتذكر تلك الرسائل ان تلك «العيون» كانت ترصد تحركات ملك اورارتو وقواه وكل تغير فى ولاء قبائل تلك المنطقة للسلطة الآشورية ٠ ولذلك لم تكن مفاجأة حين حاول ملك اورارتو روساس التمرد فأسرع الملك الآشورى سرجون بشن حملة تأديبية انتهت باحتلال عاصمته مصاصر وبانتحار روساس الذى طعن نفسه بخنجره ٠

١٢ ـ لقد استعمل العراقيون القدماء وطوروا اسلحة كثيرة متنوعة فى مقارعة الاعداء ولعل آخر واخطر اسلحتهم فى هذا المجال ما استعملوه من اساليب الحرب النفسية ، لقد اتخذت الحرب النفسية صورا متعددة منها :

أ ـ التفصيل الى حد المغالاة احيانا فى خسائر العدو البشرية وفى ما تركه من سلاح مهان وغنائم ٠

ب ـ تصوير العدو على المنحوتات الجدارية فى حالات الانكسار والاندحار والاستسلام امام قوة الجيش الآشورى المتفوق ٠

جـ ـ وضع هذه المنحوتات فى القاعات الملكية الخاصة باستقبال الضيوف والمعتمدين والسفراء لتذكرهم دائما بقوة الجيش الآشورى الذى لا يقهر لكى يحسب حكامهم الف حساب قبل التفكير بالخروج عن طاعة الملك الآشورى ٠

د ـ تمكين بعض الاسرى عن عمد من الهرب والنجاة من الموت لكى يقصوا على اهليهم قصصا تروى عظمة الجيش الآشورى وتفوقه المستمر مما يبعث الخوف والهلع فى نفوس الآخرين ٠

هـ ـ اتقان لغة العدو ومخاطبة الناس بلغتهم مباشرة بعد فرض الحصار عليهم فى المدينة المقصودة وذلك لبعث روح الخوف والفزع فى نفوسهم ولزعزعة ثقتهم بحكامهم ، عن

طريق استعراض قوة وقدرة الجيش الآشورى ، وطرح عروض مغرية عليهم مقابل الاستسلام والتخلى عن الوقوف الى جانب حاكمهم ٠

١٣ ـ حجب العراقيون القدماء ذكر خسائرهم فى المعارك ولم يحدث ان ذكر احد ملوكهم ذلك فى عصر من العصور بينما نراهم يعطون تفاصيل دقيقة عن خسائر العدو البشرية والمادية فالملك سينحاريب يذكر التفاصيل التالية فيقول انه كبد العدو ٢٠٨ر٠٠٠ رجلا و٧٢٠٠ حصانا وبغلا و١١ر٥٧٣ حمارا و٥١٣٠ جملا و٨٠ر٠٠٥٠ من الماشية و٨٠٠ر١٠٠ من الاغنام ٠

١٤ ـ تشجيع المقاتلين والشخصيات المهمة من سكان البلاد المعادية على الهجرة والهروب الى وادى الرافدين عن طريق تقديم المكافآت والاغراءات المادية ٠

١٥ ـ التأكيد على رعاية اسرى الحرب والعناية بهم وقد صوروهم على بعض المنحوتات وهم يتناولون وجبات الطعام وينقلون على ظهور الحيوانات وفى العربات ، وكانت شئون الاسرى موكولة بموظفين خاصين وكان يجرى تشغيل بعض الاسرى فى الاعمال الإنشائية والبعض الآخر يجند فى الاقاليم التابعة للامبراطورية ٠

١٦ ـ اتبع الآشوريون سياسة نقل بعض سكان البلاد التابعة للامبراطورية الى مناطق اخرى وخاصة عندما يكون سكان تلك المدينة سببا فى احداث الشغب واعمال التمرد على السلطة الآشورية ، ويعتبر الملك شلما نصر الاول (١٢٧٤ ـ ١٢٤٥ ق ٠م) اول من اتبع هذه السياسة عندما نقل اعدادا من سكان بلاد اورارتو (ارمينيا) وبلاد الحوريين (جنوب غرب تركيا) بسبب اعمال الشغب وتعرضهم للقوافل التجارية وهناك من الباحثين من يرى ان اقدام الآشوريين على مثل هذه السياسة كان احيانا بدافع حاجتهم الى الفنيين والحرفيين كعمال التعدين والبناء وذوى الخبرة فى تربية الخيول وقيادة العربات العسكرية ٠

وعلى الرغم مما يقوله بعض المستشرقين حول هذه السياسة فانها خلقت من دون شك مجتمعا فريدا حيث امتزج بسببها كثير من المجموعات العراقية دون تفضيل الواحدة منها على الاخرى ٠ ان اقواما كثيرة من بلدان الشرق القديم نقلت واسكنت فى بلاد آشور واستخدمت للعمل فى الحقول والاعمال الحرفية والتجارة والجيش ، وهكذا التحمت تلك المجموعات لتكون الامبراطورية الآشورية وجدير بالذكر ان هؤلاء المهجرين كانوا يعتبرون احرارا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ٠

ان الفكر العسكرى العراقى القديم قد حظى باهتمام عدد كبير من المستشرقين المختصين بالآشوريات وبعض العسكريين الصهاينة وفسر موضوع نقل المستوطنين على يد الآشوريين بشكل يتنافى مع الحقائق التاريخية وقد صدر مؤخرا كتاب بعنوان :

B.ODED, MASS DEPORTATIONS AND DEPORTEES IN THE NEO-ASSYRIAN EMPIRE DR., LUDWIG REICHERT VERLAG, WIESBADEN, W.G. 1979.

١٧ ـ جعل ارض العدو مسرحا للعمليات العسكرية لالحاق اكبر قسط ممكن من الخسائر الاقتصادية والعمرانية ٠

١٨ ـ استخدام عنصر المباغتة والسير نحو الهدف على طرق متعددة وعدم العودة من المعركة على نفس طريق الذهاب ٠

١٩ ـ بالتحصينات الدفاعية وبناء الاسوار والخنادق حول العواصم والمدن وبناء القلاع فى المناطق الحدودية وعلى الطرق التجارية المهمة ٠

مراجع مختارة عن الفكر العسكرى فى العراق القديم

١ ـ طه باقر ، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ١٩٧٣ ٠

٢ ـ مجموعة من الاساتذة والباحثين ، العراق فى التاريخ بغداد ، ١٩٨٣ ٠

٣ ـ مجموعة من الاساتذة والباحثين ، الصراع العراقى الفارسى بغداد ، ١٩٨٣ ٠

٤ ـ د ٠ فاضل عبدالواحد علي «الاكديون طلائع على الجبهة الشرقية» آفاق عربية ، ٣ ـ ٤ ، ١٩٨٠ ٠

٥ ـ د ٠ فاضل عبدالواحد علي «اقدم حرب للتحرير عرفها التاريخ» ، سومر ، ٣ ، ١٩٧٤ ٠

٦ ـ د ٠ فاضل عبدالواحد علي «دقيقة النصر للملك نبوخذ نصر الاول» تاريخ العرب العسكرى المؤتمر العلمى الاول لجمعية المؤرخين والآثاريين فى العراق بابل بغداد ٢٢ ـ ٢٦ ايلول ١٩٨١ ٠

٧ ـ د ٠ فاروق ناصر الراوى ، «معارك النصر : سجلاتها فى الكتابات المسمارية تاريخ العرب العسكرى المؤتمر العلمى الاول لجمعية المؤرخين والآثاريين فى العراق بغداد ـ بابل ٢٢ ـ ٢٦ ايلول ١٩٨١ ٠

٨ ـ د ٠ فاروق ناصر الراوى «الوثائق المسمارية شواهد على انتصاراتنا فى عيلام» ، بين النهرين ، العددان ٣٤ ، ٣٥ ، ١٩٨١ ٠

٩ ـ د ٠ فاروق ناصر الراوى التحدى الحضارى للامة الندوة الفكرية الثانية فى فكر الرفيق القائد صدام حسين ٥ ـ ٥ ـ ١٩٨٤ ٠

١٠ ـ يوسف خلف عبدالله ، السلاح والجيش فى العصر الآشورى الحديث ، بغداد ١٩٧٧ ٠

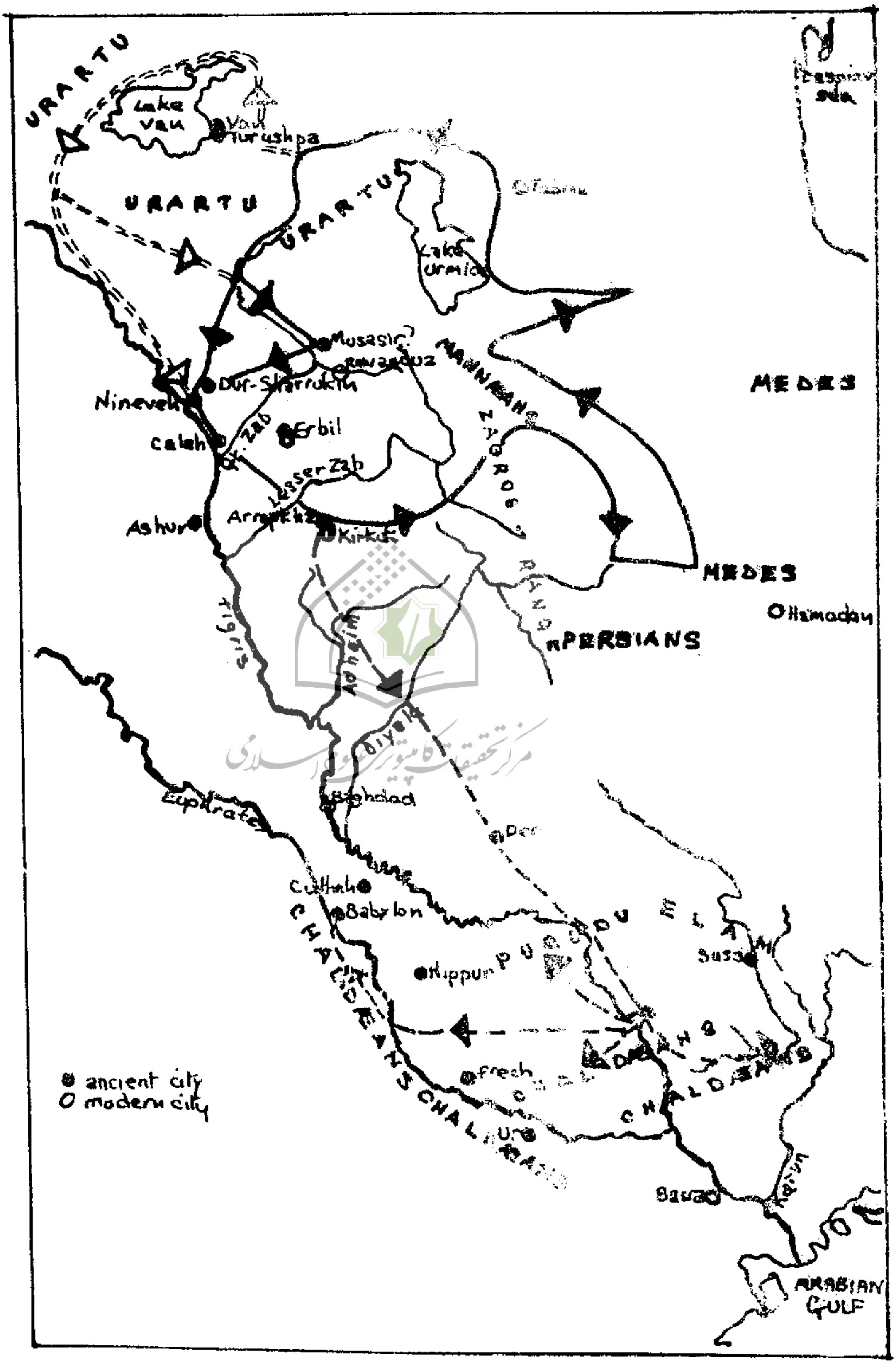
11. A.K.GRAYSON, ASSYRIAN ROYAL INSCRIPTIONS, WIESBADEN, 1972 – 1976.
12. A.K. GRAYSON, (THE EMPIRE OF SARGON OF AKKAD), AFO, 25, 1974 PP. 56 –64.
13. A.K.GRAYSON, ASSYRIAM AND BABYLONIAN CHRONICLES, NEW YORK, 1975.
14. A.K.GRAYSON, (ASSYRIAS'S FOREIGH POLICY IN RELATION TO ELAM IN THE EIGHT AND SEVENTH CENTURIES B.C.) BASHDAD, 1981.
15. F.M. FALES, (THE ENEMY IN ASSYRIA'S ROYAL INSCRIPTION YIONS) (THE MORAL JUDGEMENT) MESOPOLAMIEN UND SEINE NACHBARN. BERLIN, 1978.
16. B.ODED, MASS DEPORTATIONS AND DEPORTEES IN THE NEO ASSYRIAN EMPIRE, WIESBADEN, 1979.
17. D.POTTS, THE ZAGROS FRONTIER AND THE PROBLEM OF RELATIONS BETWEEN THE IRANIAN PLATEAU AND SOUTHERN MESOPOTAMIE IN THE THIRD MILLENNIUM B.C. (MSN, 1978).
18. PETER CALMEYER, MESOPOTUMIEN UND IRAN IM II UND 1 JAHRTAUSEND. MSN. 1978.
19. M. LIVERANI, (THE IDEOLOGY OF THE ASSYRIAN EMPIRE) MESOPOTAMIA, 7, 1979. COPENHAGEN STUDIES IN ASSYRIOLOGY.

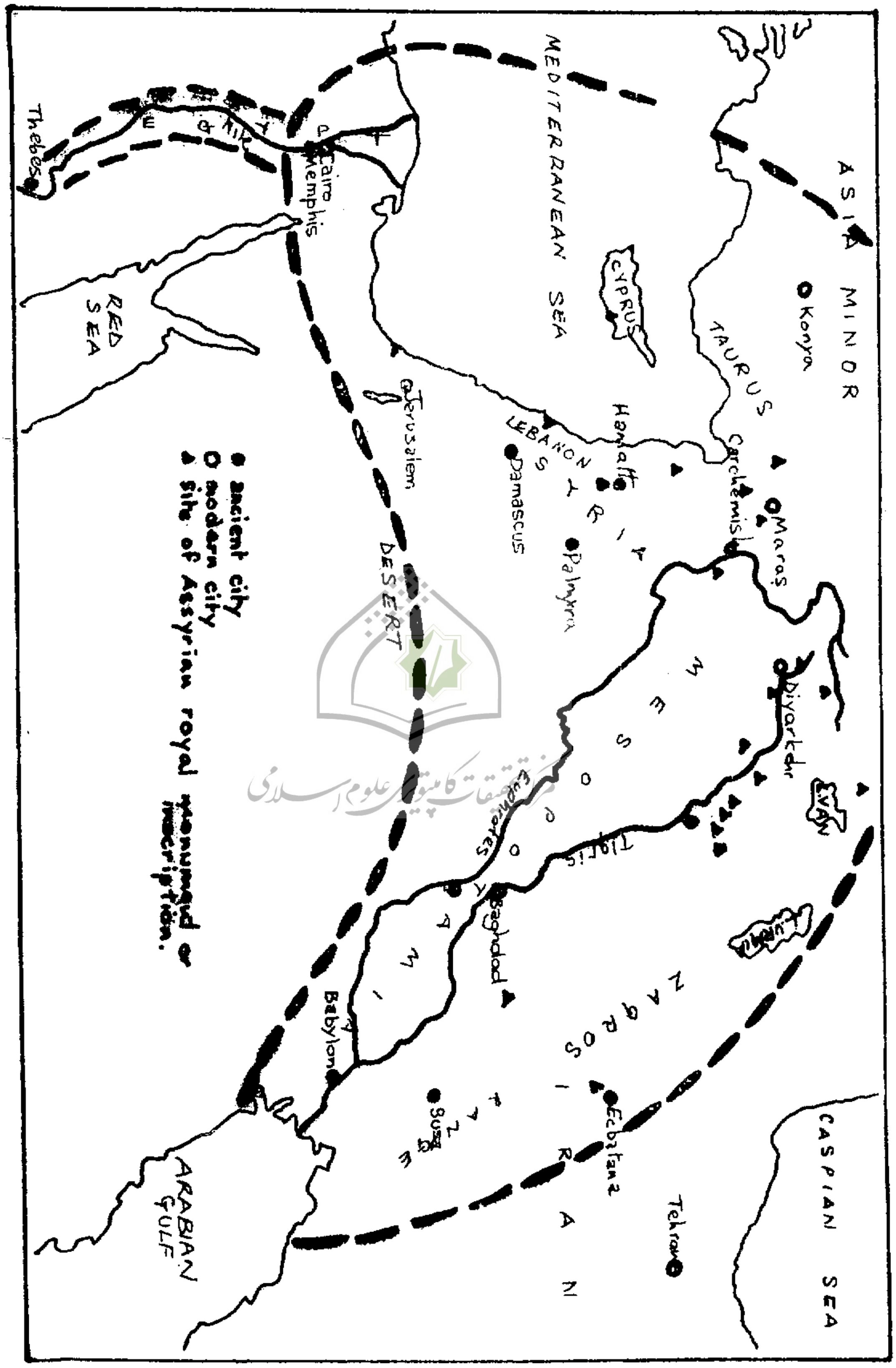
20. D.D. LUCKENBILL, ANCIENT RECORDS OF ASSYRIA AND BABYLONIA, NEW YORK, 1968.
2 VABUMES.
21. JULIAN. READE, (IDEOLOGY AND PROPAGANDA IN ASSYRIAM ART), MESOPOTAMUIA.
7, PP. 329 - 343.
22. H.W.F. SAGGS, THE GREATNESS THAT WAS BABYLON. LONDON, 1968.
23. H.W.F. SAGGS, THE MIGHT THAT WAS ASSYRIA 9 LONDON, 1984.
24. H.W.F. SAGGS, (ASSYRIAN WAR FARE IN THE SARGONID PERIOD), IRAQ, 25, 1963.
25. H.W.F. SAGGS, (ASSYRIAN PRISONERS OF WAR AND THE RIGHT LIVE), AFO, 19, 1982.
26. J.D.HALL, AN ANALYSIS OF POWER IN ASSYRIAN PALACE RLIEF SCULPTURES, MACQUARIE.
UNIVERSITY HISTORY HONOWRS THESIS, 1982.
27. YIGAEL YADIN, THE ART OF WAYARE IN BIBLICAL LANDS LONDON. JARROLD AND SONS LTD., 1963.
28. JACK M. SASSON. THE MILITARY ESTABLISHMENTS AT MARI, ROME, 1969.
29. ZADOK, THE JEWS IN BABYLONIA ; TEL- AVIV, 1976; WEST SEMILTK IN BABYLONIA, JERUSALEM, 1977.
30. C. ZACCAGINNIG (THE ENEMY IN THE NEO-ASSYRIAN ROYAL INSCRIPTIONS : THE (ETHNOGRAPHIC DESCRIPTION) MSN, 1978.

الملاحق

١ ـ خارطة تبين الحدود التقريبية للامبراطورية الآشورية الحديثة ٠

٢ ـ خارطة تبين مسيرة جيش سرجون الثانى فى احدى حملاته على الحدود المتاخمة لحدودنا الشمالية الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية ٠


URARTU
Lake Van
Van
Turushpa
URARTU
URARTU
Lake Urmia
Musasir
Rawanduz
Dur-Sharrukin
Nineveh
MANNANS
MEDES
Erbil
Calah
Lesser Zab
ZAGROS
Ashur
Arrapkha
Kirkuk
MEDES
Hamadan
Tigris
PERSIANS
Adhaim
Diyala
Euphrates
Baghdad
Cuthah
Babylon
CHALDEANS
ELAM
Nippur
Susa
ancient city
modern city
CHALDEANS
Ur
Basra
Karun
ARABIAN GULF


ASIA MINOR
MEDITERRANEAN SEA
CYPRUS
TAURUS
Konya
Carchemish
Maras
LEBANON
Hamath
SYRIA
Damascus
Palmyra
Jerusalem
DESERT
RED SEA
Thebes
Cairo
Memphis
MESOPOTAMIA
Euphrates
Tigris
Diyarkdr
VAN
Baghdad
Babylon
ZAGROS
IRAN
Ecbatana
Tehran
Susa
ELAM
CASPIAN SEA
ARABIAN GULF
● ancient city
O modern city
▲ site of Assyrian royal monument or inscription.

«اعادة كتابة تاريخ الأمة ، ضرورة وطنية وقومية»

الفن والعمارة
فى
مسجد قبة الصخرة المشرفة

د . شحاده الناطور
كلية الآداب/جامعة اليرموك

لاشك أن بناء المساجد أحد فنون العمارة الاسلامية الهامة ، الذى يعبر عن الخلفية التاريخية المتصلة جذورها بمرحلة زمنية متقدمة ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا : انه أول وأهم المحاور التى قامت عليها الفنون ، وشكلت أهم عناصر استقطاب الفنانين على مر العصور .

واذا كان فن عمارة المساجد يلحقه بين الحين والآخر عملية الاضافة والتحسين [1] ، فان هذا الفن يحتفظ بملامحه الأصلية لفكرة التخطيط الأولى التى وضعها الرسول (ﷺ) ، بأجزائه الأساسية من صحن وحرم ومحراب[2] .

ولما كانت تعاليم الاسلام شديدة الالتصاق بالمسلمين ، وتدعو للاجادة والاتقان فى العمل عملا بقوله تعالى «صُنع الله الذى أتقن كل شىء»[3] ، وقوله عليه السلام «إنَّ الله يحب اذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه «وتمثلاً للعديد ، فقد تأثر الفنانون بتعاليم العقيدة ، وظهر هذا واضحا بما انعكس على انتاجهم من تجميل وتزيين وتنميق ، وخير مثال على هذا ، مسجد قبه الصخرة المشرفة الذى يعد من أعجب المبانى وأتقنها ، فقد أخذ من كل بديعة بطرف[5] ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا مع لوبون أنه أعظم بناء يستوقف النظر فى فلسطين وأهم ما شاده الانسان[6] .

---

(١) ان الاضافة والتحسين تتم فى النسب والأحجام والظلات واساليب البناء .. الخ .

(٢) جورج مارسيه : الفن الاسلامى ، ص ١٣ .

(٣) سورة النحل آية ٨٨ .

(٤) سورة الأعراف آية ٣٢ (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) سورة الحجر آية ١٦ «وقد جعلنا فى السماء بروجا وزيّناها للناظرين»

(٥) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص٥٤

(٦) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ١٧٦

لقد بنى هذا المسجد الخليفة الأموى ، عبدالملك بن مروان وسماه الأوروبيون خطأ مسجد عمر ، وقد رصد الخليفة لإعماره خراج مصر مدة سبع سنوات[1] ، وأشرف على بنائه رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام وولداه • وقد شرع ببنائه عام ٦٦هـ (٦٨٥م) ، وانتهى بناؤه سنة ٧٢هـ (٦٩١م) ، والجدير بالذكر انه زاد من المبلغ المرصود مائة ألف دينار ، فأمر الخليفة لهما بالمبلغ جائزة ، فكتبا له : «نحن أولى أن نزيده من حلي نسائنا ، فضلا عن أموالنا ، فأصرفها فى أحب الأشياء اليك» فكتب اليهما بأن تُسبك على القبة [2] •

يقع مسجد القبة فى وسط فناء واسع ، طوله من الشمال الى الجنوب ٢٢٩ ذراعا (١١٥م) وعرضه من الشرق الى الغرب ٢٢٣ر٥ ذراعا (١١١ر٧٥م) ، ويرتفع ١٢ قدما من الجهات الأربع (سبعة أذرع) •

وبناء المسجد ثمانى الشكل ، طول كل ضلع ٢٠ر٩٥م وارتفاعه ٩ر٥٠م ، وفى كل واجهة من الأضلاع الثمانية ،

سبع نوافذ ، خمس منها يدخلها النور ، واثنتان مسدودتان ، ما عدا الأضلاع الأربع على الجهات الأربع ، ففى كل واحدة منها أربع نوافذ ، اثنتان عن يمين الباب واخرتان عن شماله ينفذ النور منها جميعها ، وفوق كل نافذة آية قرآنية ، ويغطى الأجزاء الخارجية وعلى ارتفاع متر واحد الواح من الرخام الأبيض ، وأما الباقى فمكسو بالفسيفساء المتعددة الألوان • تظهر خلاله الآيات القرآنية •

والمسجد من الداخل ، مؤلف من جدران المسجد ، وأعمدة حاملة للقبة ، يتركز عليها السقف ، وهى مؤلفة من ثمانى اسطوانات ملبسة بالرخام ، وستة عشر عمودا مختلفة الألوان • وبين كل عمود توجد اسطوانة ، ويرى فوق أقواس التثمينة الوسطى إفريز كتب عليه سورة النساء بخط كوفي •

والأعمدة مثبتة جيدا ، وعلى رؤوسها تيجان ، وهى تحمل الأعمدة مع جدار المسجد وسقف القبة الكبيرة ، المرصع بفصوص الذهب •

ويحتل الرخام القسم السفلى من الجدران ويعلوه القاشانى ، وفيه أفريز مكتوب عليه سورة ياسين (ويقال انها كتبت من زمن السلطان عبدالحميد الثانى) •

ولمسجد قبة الصخرة اربعة ابواب مزدوجة من الخشب ، ومصفحة بالرصاص ، ويعرف الباب الشرقى بباب اسرافيل او باب داود والغربى باب القطانين والشمالى بباب الجنة والجنوبى فهو المقابل للمسجد الاقصى •

أما القبة ، فهى مستديرة قطرها ٢٠ر٤٤م وارتفاعها ٢٠ر٤٨م ، وتتألف من طبقتين العليا كانت من صفائح الرصاص (وعند تجديدها فى العهد الاردنى ١٩٦٤م استبدل الرصاص بالبرونز) • يراها الناظر من الخارج ، وطبقة أخرى من الداخل ، كتب قرب القمة آية الكرسى بماء الذهب ، ويفصل بين الطبقتين الداخلية والخارجية لباد خفيف لمنع الحرارة فى الصيف خشية الحريق ، وتقع فوق الصخرة التى عرج بالنبى ـ عليه السلام ـ الى السماء •

وللقبة رقبة ، كتب عليها من الداخل سورة طه بماء الذهب ، وفى الرقبة ست عشرة نافذة من الزجاج المذهب ، وتعلو كل نافذة طبقة من الجص ومغطاة بقطع من الزجاج المختلف الألوان والأشكال •

والقبة مرفوعة على اثنى عشر عمودا من الرخام على أربعة سوارى ، وبين كل ثلاثة أعمدة سارية مربعة طول كل من أضلاعها الأربعة ثلاثة امتار وهى مكسوة بالرخام [1] •

---

(١) انظر اليعقوبى : البلدان ، ص٣٢٩ (خراج مصر فى عهد عمر بن الخطاب السنة الأولى ١٤ مليون ، الثانية ١٠ مليون ، فى عهد عثمان عشرة ملايين) • المقريزى : الخطط ، حـ١ ، ص ٧٢ ، ٩٨ ، ٩٩ تقدر تكاليفه ٨٤ ـ ٩٨ مليون دينار ذهبا لأن خراج مصر كان فى عهد عمر بن الخطاب ١٢ مليون ، وفى عهد عثمان ١٤ مليونا وفى عهد سليمان بن عبدالملك ١٢ مليونا •
انظر التفاصيل : الحميرى : الروض المعطار ، ص ٦٩ (تحقيق احسان عباس)
(٢) مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

(١) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٦ ـ ١٧١
الحنبلي : الأنس الجليل ، حـ ١ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٢ ، عارف العارف : تاريخ أحرم القدسي ، ص ٣٩

ويعد مسجد قبة الصخرة أقدم أثر معمارى عربى اسلامى متكامل ، وهو ينفرد عن غيره من المساجد بشكله الثمانى الفريده التصميم والابتكار مما يدهش المشاهد حتى اعتبر أعظم المبانى الأثرية لما فيه من زخرفة متزنة ، فقد كان ـ ولا يزال ـ صورة للمثل الأعلى للفن عند المسلمين (٢) ، وتدل زخرفته على مقدار ما وصل اليه تقدم الزخرفة عند المسلمين والتى انتجتها العبقرية الاسلامية (١) وذلك انعكاس لتحريم الاسلام للرسم البشرى الذى أجبر الفنانين على استخراج طراز جديده بميزات جديدة (٢) .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه : هل بناء مسجد قبة الصخرة وزخرفته كان ابتكارا عربيا أصيلا لم يسبق له مثيل ؟

يرى عدد من الباحثين ان شكلها الثمانى ، وتلبيس جدرانها بالفسيفساء الذهبية ينطق بأثر الفن البيزنطى (٣) ، وقد نسب شكلها لبعض الكنائس فى فلسطين (٤) كانت قائمة حينئذ ، بينما رأى آخرون انه مقتبس عن كاتدرائية بصرى (٥) .

ولكن اذا عدنا الى ما كتبه مجير الدين الحنبلى نجد ان عبدالملك «وصف ما يختاره من عمارة وتكوينها للصناع ، فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة وهى شرقى قبة الصخرة التى يقال لها قبة السلسلة ، فأعجبه تكوينها ، وأمر ببنائها كهيئتها (٦) » .

ويتضح من هذه المعطيات أن التصميم جاء بناء على رغبة الخليفة وبالتالى لايمت الى الاقتباس بصلة الا اذا افترضنا ان الخليفة قد زار الكاتدرائية المثمنة او كنيسة مثلها ، وهذا مالا نستطيع أن نجزم به بينما عرفت الزخرفة الاسلامية المثلثات والمربعات المتداخلة .

ومن هذا المنظور يرى الباحث ان هذا التصميم للشكل الثمانى عربى اسلامى صميم ، جاء انتصارا او تتويجا لتطبيق عملى لقبة السلسلة مع مراعاة مضاعفة النسب فى مسجد قبة الصخرة وقد حاول عدد من الباحثين التصدى لطريقة تخطيط هذا المسجد ، وكان اشهر هؤلاء المهندس الفرنسى «ماوس Mauss (٧) » وقدم بحوثه بنظرية هندسية نالت استحسان عدد من علماء الآثار كريشموند (١) وكرنسول (٢) ، الا أن هذه النظرية اعتمدت على دائرة وهمية ثم رسم مربعين متداخلين محصورين فى محيط الدائرة بينما رأى العالم المصرى احمد فكرى ان الأساس كان المربعين المتداخلين اللذين انتجا مثمنا متساوى الاضلاع (٣) وهو بذلك ينكر ما توصل اليه ماوس من رسم دائرة وهمية وانما «الدائرة» اساس التثمين (٤) .

---

(٢) كريستي : تراث الاسلام (فصل الفنون الفرعية) ، جـ ٢ ، ص ٧(القاهرة لجنة التأليف والترجمة) .

(١) كريستي : تراث الاسلام (فصل الفنون الفرعية) ، جـ ٢ ، ص١٣٠
(٢) مارتن بريجز : تراث الاسلام (فصل فن العمارة) جـ ٢ ، ص ١١٦
Encyclopedia Britinnica .Vol 15 ,P480

حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ ، اسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب جـ ١ ، ٢٨٧ .
(٤) بريجز : تراث الاسلام ، جـ ٢ ،ص ١٢٤ (فصل فن العمارة)
(٥) حتى : تاريخ سوريا ، جـ ٢ ، ص ١٣ Dussund : Surie Antique, P 110
(٦) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .
(٧) C.Mauss: Note sur la methode prir tracer la plan de la Mosquee d'Omar revue Archeologique, zsereexll, 1888,12 21,et23630

(١) E.T.Richmond: The Dome of the Rock in Jerusalem,London 1925
(٢) K.A.Creswell: Early Muslim Architecture,8019
(٣) مجلة عالم الفكر ، ص ٢٢٦ (المجلد الحادى عشر ، العدد الأول)
(٤) مجلة عالم الفكر ، ص ٣٠ (المجلد الحادى عشر ، العدد الأول)

أما النقوش والفسيفساء ، فقد استعمل على الاسلوب البيزنطي[٥] الذى لم يخرج أصلا عن الاطار الهلنستى من حيث الموضوعات والعناصر [٦] ، وان كان هناك عناصر متميزة يظهر فيها التأثير الساساني وبخاصة الأجنحة المتناظرة والأشرطة المتماوجة المستعارة من تيجان الأكاسرة [٧] ·

لقد تحقق هذا الابداع الزخرفي والفني نتيجة الامتزاج والاختلاط والتأثر مع الأقاليم المفتوحة ، وتلبية لكتب الخليفة الى سائر الأمصار لاعمار هذا المسجد [٨] ، فقام هؤلاء الفنانون المهرة بزخرفة المسجد من الداخل والخارج بزخارف فسيفسائية متعددة العناصر ، نباتية حينا ، وهندسية بأشكال متعددة فى مثلثات ومربعات ومستطيلات تتداخل وتتلاقى بتناسق رشيق حينا آخر ، ثم تم الاستفادة من الكتابة العربية فاستخدمت فى الزخرفة ايضا ، وساعد الخط الكوفى الطيع فى اعطاء أشكال هندسية بتشكيلات جميلة بجانب المضمون ، مما جعل الخط فى هذا المسجد أحد الفنـون الرئيسيـة فيه [٩] ·

وهكذا جسّد الفنانون من مختلف الأقطار عملا متكاملا فى فن العمارة ، وفن التقنية الزخرفية لا مثيل له فى عصره ، استخدمت فيه سائر عناصر الفنون السائدة حينئذ مجتمعة ، بعد أن طور البعض وأصاب التحسين والاضافة بما يتفق مع ذوق وثقافة العصر · ونحن لا نغالى : اذا قلنا أن هذا المسجد كان النواة للمدرسة الأموية الفنية ، التى قامت على الجمع والتحوير والاضافة [١] ·

ولما كانت الحضارة ملكا للانسانية ، وان كل امة تساهم فيها بقدر ما وصلت اليه من درجات الحضارة ، فلا عجب أن يتأثر مصممو قبة الصخرة بقبة كنيسة القيامة التى تبعد عنها مئات من الأمتار [٢] ، كما أثر طراز هذا المسجد على الأوروبيين كذلك ، فحاولوا بناء كنائس على طرازه ، فقد ذهب لوبون بأن هناك كنائس كثيرة بنيت فى اوروبا على طرازه منها اكس لا شابل وكنيسة الهيكل (لندن) [٤] ·

ومما يلفت النظر عند زيارة هذا المسجد ، أن الزائر يرى ما فيه من الأعمدة والأساطين أمامه مباشرة بما فى ذلك ما هو موجود فى الجهة المقابلة بحيث لا يحتجب عن نظره منها شيء ، مما يدل على مقدار الفن المعمارى عند من أقاموه وأشرفوا عليه · وقد حير هذا الباحثين ، وحاولوا أن يجدوا سبب ذلك بعد مرور اثنى عشر قرنا ، فوجدوا أن ذلك يعود الى وجود انحناء بسيط فى دائرة دعامات القبة ، وقد وجد هذا الإنحناء كريزول ثلاث درجات ، ولولا هذا الانحاء لحجبت الأعمدة الأمامية الأخرى التى فى الطرف الآخر لانها تكون واقعة على خط مستقيم واحد [١] ·

وهناك أسئلة تطرح نفسها : ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الاتقان والابداع ؟ ولماذا تزامن مع ثورة عبدالله بن الزبير فى الحجاز ؟

---

(٥) جورج مارسيه : الفن الاسلامى ، ص ٤٥
(٦) نعمت علام : فنون الشرق الأوسط ، ص ٣٢
(٧) المرجع والصفحة
(٨) انظر مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٢٧٢
(٩)الجاحظ : التبصير بالتجارة ، ص ٢٦

(١) جورج مارسيه : الفن الاسلامى ، ص ١٧
(٢) نعمت علام : فنون الشرق الاوسط ، ص ٤٠
عبدالقادر الريحاوى : العمارة العربية الاسلامية ، ص ٣٣
(٣) Cresell: The Origin of theplace of the Dome of the rock,P,27
قام كريزول عندما كان مفتشا للآثار الاسلامية فى فلسطين فى عهد الانتداب ، وعقد مقارنة بين قبة الصخرة وارتفاعها وكنيسة القيامة ، فوجد أن قطر قبة الصخرة من الداخل ٣٠ر٢٠م وارتفاعها ٤٨ر٢٠م بينما كنيسة القيامة قطرها ٩٠ر٢٠م وارتفاعها ٠٥ر٢١م
(٤) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ١٥٦

(١) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ، ص ٣٩

ان أول المؤرخين الذين حاولوا ايجاد التسويغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفة هو اليعقوبى [٢] «ت ٢٨٤» ، وقد ربط بالحكم والخلافة حينئذ ، وأوجد صيغة مشتركة فى التعامل بين السلطة الأموية والمجتمع ، لأن معظم العالم الاسلامى كان قد بايع عبدالله بن الزبير بالخلافة (٦٤ ـ ٧٣) ، ما عدا أقليم الاردن ·

فقد قال فى كتابه «ومنع عبدالملك أهل الشام من الحج وذلك لأن ابن الزبير يأخذهم اذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبدالملك ذلك منعهم من الخروج الى مكة ، فضج الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام ، وهو فرض علينا : فقال : هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم ان رسول الله (ﷺ) قال : (لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، ومسجد بيت المقدس) وهو يقوم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع عليها قدمه لما صعد الى السماء[٣] ·

وعلى الرغم من أن المؤرخين المتزامنين مع اليعقوبى لم يذكروا اية اشارة لذلك بما فيهم المؤرخون الثقاة كالبلاذرى «ت٢٧٩» والدينورى و«ابن خرداذبه ت ٢٩٠» والطبرى «ت ٣١٠ الا اننا نجد عددا من المتأخرين الذين جاءوا بعد اليعقوبى بعدة قرون قد ذكروا ذلك ، ولعلهم قد وقعوا تحت تأثيره كالاصطخرى [٤] «ت منتصف القرن الرابع الهجرى» و«ابن كثير [٥]» «ت ٧٧٤ والقلقشندى [٦] ت ٨٢١هـ» وغيرهم [١] فالى أى مدى يمكن ان تقبل رواية اليعقوبى السابقة ، وبخاصة اذا علمنا انه من أكثر المؤرخين الأوائل تعاطفا مع العلويين انطلاقا من شيعية الانتماء ، مما جعل كتابته تبدو شديدة التحامل على الأمويين احيانا [٢] والمبالغة [٣] احيانا اخرى وفى شدة القسوة على عبدالملك وبخاصة قوله عنه : «ولا أعلم فرعون هذا الوقت الا عبدالملك» وهذا الوصف يناقض تسمية عبدالله بن عمر له ـ قبل الخلافة «حمامة المسجد» وانه الثقة للمسلمين فى العلوم الشرعية بعد الصحافة [٤] وكذلك رأى الشعبى فيه «فإنى ما ذاكرته حديثا الا زادنى فيه» وقول ابى الزياد «كان فقهاء المدينة اربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، قبيصة بن ذؤيب ، وعبدالملك بن مروان [٦]» · هذا الى جانب ان الزهرى فى ذلك الوقت كان طالب علم وليس براو [٧]

وبناء على ما تقدم لعلنا لا نبالغ اذا تحفظنا من رواية اليعقوبى الآنفة الذكر واعتبرناها خارجة عن الاطار المقبول ·

(٢) علما انه لا توجد اية اشارة لدى البلاذرى (ت٢٧٩) ، او الدينورى (ت٢٨٢) ، ابن خرداذبه (ت٢٩٠) ، أو الطبرى (ت ٣١٠) ·
(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص٢٦١ (دار صادر) ·
(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص٢٦١ (دار صادر) ·
(٤) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤٤
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، حـ٨ ، ص٢٨٠
(٦) القلقشندى : مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، حـ ١ ، ص ١٢٩

(١) انظر : الدميرى (ت ٨٠٨) : حياة الحيوان ، حـ ١ ، ص٦٥
(٢) انظر نقده لحملة الحجاج لابن الزبير ، حـ ٢ ، ص٢٦٦ ـ ٢٧٧
(٣) انظر وصفة استباحة الجيش الاموى لمدينة الرسول ، حـ ٢ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣
(٤) الدميرى : حياة الحيوان : حـ ١ ، ص ٦٥
(٤) اليعقوبى ، تاريخ حـ٢ ، ص٢٨١
(٥) ابن الاثير : الكامل ، حـ ٤ ، ٥٢٠ (دار صادر)
(٦) انظر وصفه لاستباحة الجيش الأموى لمدينة الرسول ، جـ٢ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٣
«بايع انك عبد قن ليزيد» ، ص ٢٥١ ، وختم اعناق قوم من اصحاب رسول الله ، ص ٢٧٢ ·
(٧) الدورى : نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ٩٩

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه : ماذا كان يرغب عبدالملك من بناء هذا المسجد ؟ فهل انطلق فى بنائه نتيجة خشيته على المسلمين من اعجابهم بكنائس المدينة وفخامتها [١] ؟ أم انه رغب أن يخلد ذكرى الاسراء [٢] والمعراج ببناء مسجد فوق الصخرة المقدسة التى يقطع اليهود [٣] منها الحجارة ؟

لاشك انه قد وقع تحت تأثير عدد من العوامل لعل منها مكانة المدينة وقدسية المكان المنطلق من الدين الحنيف ، فأراد ان يبنى مسجدا يفوق كنائس المدينة تصميما وزخرفة ليكون مزارا يستقطب المسلمين كافة باعتباره أحد الأماكن التى تشد اليها الرحال ·

ومسجد عبدالملك ـ اليوم ـ أسير ، يستنجد همم العرب والمسلمين لتخليصه من براثن الصهيونية ، وعسى أن يكون ذلك قريبا ·

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٥٩ ، ١٧٠

(٢) احمد فكرى : مجابة عالم الفكر ، ص ٢١ (المجلد الحادى عشر ، العدد الأول)

(٣) يرجز : تراث الاسلام ، حـ ٢ ، ص ١٢١ «فصل فن العمارة» ·

هناك اراء عدة ساقها جرابار منها : اراد الخليفة من ذلك ان يرفع من شأن مدينة المقدس أمام سكانها من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وأن يكون هذا البناء حافزا للمسيحيين واليهود للدخول فى الاسلام ·

وهذه الافتراضات مرفوضة لأنها غير قاطعة

Ileg Grabar : The Umayyad Dom of the Rock in Jerusalem, Vo. 12 P. 83 - 92.

المصادر

ابن الاثير : علي بن ابى الكرم بن محمد (توفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)
الكامل فى التاريخ ·
بيروت : داز الكتاب العربى ، سنة ١٩٦٧م ·

الاصطخرى : ابراهيم بن محمد (توفى فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى)
المسالك والممالك (تحقيق محمد عبدالعال)
القاهرة : وزارة الثقافة والارشاد ، سنة ١٩٦١م ·

ابن بطوطة : ابوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد ابراهيم الطنجى ·
رحلة بن بطوطة ·
بيروت : دار التراث ، سنة ١٩٦٣م ·

الجاحظ : عمرو بن بحر (توفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م)
التبصير بالتجارة (تصحيح حسن حسنى عبدالوهاب)
القاهرة : مكتبة الخانجى ، ط ٢ز سنة ١٩٣٥م ·

الحميرى : محمد بن عبدالمنعم (توفى سنة ٩٠٠هـ)
الروض المعطار فى خبر الاقطار (تحقيق د · احسان عباس)
بيروت : مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٠م ·

الحنبلي : مجير الدين (توفى سنة ٩٢٨هـ)
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ·
عمان : مكتبة المحتسب ، سنة ١٩٧٣م ·

الدميرى : كمال الدين (توفى سنة ١٨٠١هـ)
حياة الحيوان الكبرى ·
القاهرة : المكتبة الاسلامية ، سنة بلا ·

القلقشندى : احمد بن عبدالله (توفى سنة ٨٣١هـ/١٤١٨م)
مآثر الأناقة فى معالم الخلافة (تحقيق عبدالستار فراج)
الكويت : وزارة الارشاد ، سنة ١٩٦٤م ·

ابن كثير : عماد الدين اسماعيل (توفى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
البداية والنهاية ·
بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٦٦م ·

المقدسي : شمس الدين ابوعبدالله محمد بن احمد ابوبكر (توفى سنة ٣٧٥هـ)
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (تحقيق دى جوج)
بريل : ليدن سنة ١٩٠٦م ·

المقريزى : تقى الدين احمد بن علي (توفى سنة ٨٤٥هـ)
الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)

اليعقوبى : احمد بن ابى يعقوب بن جعفر (توفى سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م)
١ ـ البلدان · بريل : ليدن سنة ١٨٩٢م
٢ ـ تاريخ اليعقوبى · بيروت : دار صادر سنة ١٩٦٠م ·

المراجع

بريجز «مارتن» : تراث الاسلام (فصل فن العمارة)

ترجمة : زكى محمد حسن ٠

القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م ٠

حتي ، فيليب : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٠

ترجمة : د ٠ كمال اليازجى ٠

بيروت : دار الثقافة سنة ١٩٥٩م ٠

الدورى ، عبدالعزيز : نشأة علم التاريخ عند العرب ٠

بيروت : المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٦٠م ٠

الريحاوى ، عبدالقادر : العمارة العربية الاسلامية ٠

دمشق : وزارة الثقافة والارشاد سنة ١٩٧٩م ٠

K .A.C reswell : E arly Muslims Architecture . Beirut : Librairie Du Liban . 1968

العارف ، عارف : تاريخ الحرم القدسي ٠

القدس : مطبعة دار الايتام الاسلامية سنة ١٩٤٧م ٠

علام ، نعمت : فنون الشرق الاوسط ٠

القاهرة : دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٧٧م

كرايستي : تراث الاسلام (فصل الفنون الفرعية ، جـ٢)

ترجمة زكي محمد حسن ٠

القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م ٠

E.T.Richmond : The Dome Of The Rock In Gerusalem. London , 1925.

لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ٠

ترجمة عادل زعيتر ٠

القاهرة : مصطفى الحلبي ، ط٤ ، سنة ١٩٦٤م ٠

مارسيه ، جورج : الفن الاسلامى ٠

ترجمة د ٠ عفيف بهنسي ٠

دمشق : وزارة الثقافة ، سنة ١٩٦٨م ٠

الدعاية قديما وحديثا
- مع التركيز على العراق -

الدكتور
خالد حبيب الراوى
كلية الآداب/ جامعة بغداد

مقدمة

تعمق الانتباه على الدعاية باعتبارها سلاحاً مستقلاً وخصوصاً اثناء الحروب ، فقد تبدت تأثيراتها الواضحة فى العصر الحديث اثناء الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، سيما فى فترة تهيؤ هتلر لاستلام السلطة فى المانيا وبعد استلامه لها ، على الرغم من انه الدعاية كانت معروفة فى الفترات السابقة ، لكنها لم تكن منظمة وذات تأثيرات واسعة على الجمهور الا بعد انتشار وامتداد النفوذ النازى فى المانيا والفاشى فى ايطاليا .

وسنعرض فى هذا البحث الى تطور الدعاية منذ الزمن الغابر وحتى الوقت الحاضر مركزين على الدعاية فى العراق .

ونجد انه من المفيد ان نرى جذور كلمة الدعاية فى اللغة العربية ، فقد جاء فى اساس البلاغة للزمخشرى دعوت فلاناً وبفلانٍ اى ناديته وصحت به .. والنبى داعى الله ، وهم دعاةُ الحق .

وورد فى المنجد : دعا دعاءً ودعوى : ناداه/رغب الله/ استعانه والداعى من يدعو الناس الى دينه أو مذهبه ، والدعاية عند المحدثين : نشر الدعوة لشخص أو الحزب أو المبدأ أو غير ذلك .

وجاء فى القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ان الداعى تطلق على المؤذن والمداعاة هى المحاجاة .

والدعاية ترجمة لكلمة Propaganda وهى اصطلاح لاتينى ، والكلمة مشتقة اصلا من الفعل Propagare الذى يعنى (تكثير النبات بزرع الاقلام) وقد تطور المصطلح فى عهد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية واكتسب معناه الجديد الذى يجسد نشر وبث الاخبار والمعلومات [١] .

الدعاية تاريخياً

ثمة رأى يقول بأن الدعاية قديمة جدا قدم السياسة نفسها ، ويشير اصحاب الرأى الى انه قد كانت هناك رموز واشارات ذات دلالات دعائية ظهرت عبر مئات وآلاف السنوات مثل ملابس الجنود والموسيقى المصاحبة لهم ، ولم تكن هذه الرموز والاشارات مقتصرة على الحضارات المعروفة بل كانت معروفة بين القبائل البدائية وحتى المتوحشة [٢] .

وهناك جملة اشارات فى ادبيات الدعاية نحو استخداماتها فى العراق القديم ، فيذكر انه عثر فى مدينة نينوى عاصمة دولة آشور على ما يمكن تسميته بـ(مطبوعات الجيش) وذلك من خلال المنشورات والتقارير المحفوظة فى الالواح الطينية المفخورة . وقد ألقت تلك المنشورات ضوءاً على عصر الملك آشور بانيبال وغزوه لمصر كما عددت تفاصيل الحروب الآشورية واساليبها [٣] .

وبلا مراء ، يمكن التعويل على كثير من الوثائق المسمارية التى حفلت باخبار المنازعات والصراعات بين العيلاميين وبين الآشوريين ليستدل على ان العيلاميين والاقوام الاخرى التى استوطنت المناطق الشرقية والشمالية الشرقية المتاخمة للعراق هم على حد كبير من التهور والجحود ، فقد كانوا ينهلون من معين التراث الثقافى ويقتبسون اسس المقومات الحضارية لوادى الرافدين لكنهم كانوا يتحينون الفرص لشن الهجمات

المستمرة على العراق بالرغم من كل الويلات التى لحقت بهم جراء اعتداءاتهم[4] .

لقد كانت بابل معرضة لهجمات عيلام ، وكانت احدى ترانيم التوبة ما بين ٦٢٦ و٦٣٩ قبل الميلاد تذكر :

«فى البلاد خلاف ، وفى القصر نزاع ، لا تترك جانبى التمرد والتآمر الشرير يخطط ضدى دائما[5] .

وكان كورش مشغولا بحرب الدعاية فى الامبراطورية البابلية ، ويذكر ان كورش كان قد تحالف مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وقد ساعدوه بالتجسس والمعلومات وكذلك من خلال التسرب الى اجهزة الحكم ، ثم قاموا بتخريب الاجهزة التى تسربوا اليها ، وبذلك اعانوا كورش على احتلال بابل [6] . ويذهب اكثر من كاتب الى تأكيد هذا الرأى ، حيث لم تكن الاسباب الحقيقية التى ادت إلى انهيار بابل هى ضعف دفاعاتها فحسب بل وجود (رتل خامس) فى داخل المدينة [7] .

وقد وجدت دعاية كورش ارضاً خصبة بين المواطنين البابليين عندما غيروا ولاءهم الى الملك الفارسى .

ومن الغرائب الكبرى فى التاريخ ، ان قمبيز ابن كورش الأصغر قدم الخضوع للآلهة فى عيد رأس السنة الجديدة فى بابل حيث استلمت السلالة المنصب من الإله مردوخ ، وبذلك مارست الملكية على بابل ليس بمقتضى الفتح فحسب بل بدعوة مقدسة ايضا (!!) (٨) ، وهو نفس ما تسعى اليه ، فى الوقت الحاضر ، الفئة الحاكمة فى ايران .

وعلى كل حال ، فان التاريخ حافل بشواهد كثيرة على اهمية استخدام الدعاية فى اوقات الحروب خاصة ، ولعل ما كتبه كوتيليا فى كتابه صناعة الحكم فى الهند القديمة يلخص صورة استخدام الدعاية فى الازمنة الغابرة والتى تتلخص فى ان على المنجمين واتباع الملك الآخرين ان يلهبوا معنويات الجنود بتوضيح الطبيعة المنيعة لطوابير جيش الملك ، وان على العملاء السريين ان يبثوا او ينشروا فى صفوف العدو اشاعات هزيمتهم المحتمة[9] .

الاسلام والدعاية

لعل الافق الأرحب لاستخدام الدعاية باعتبارها نشراً للأفكار والمبادىء والآراء فى عصر الاسلام كان يتجسد فى (الدعوة) للدين الجديد ونشره والحث والحض على اتباعه والنهى عن الإرتداد عليه او مخالفة احكامه واوامره ، وقد حفلت الكثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية بما يجسد الدعوة للدين ونصره ودحر من يقف امامه .

وبذا ، فقد كان للتحريض السهم الاوفر فى تجميع الناس حول الاسلام ورفع روحهم المعنوية الى اعلى درجة من خلال تعميق ارتباطهم بالمعانى السامية للمبادىء التى تدفعهم الى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الدين .

وكانت آيات القرآن واحاديث الرسول تعزز الروح المعنوية للمؤمنين[10] .

ومن الآيات التى تتضمن تحريضا للمسلمين وتعزيزا لروحهم المعنوية : (يا ايها النبى حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) .

و(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله)[11] .

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون) [12] .

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة)[13] .

(يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم)[14] .

وفى الواقع ان آيات القرآن ذات العلاقة بالموضوع كثيرة ، كذلك فان الاحاديث النبوية بهذا الصدد هى ايضا عديدة ، ومنها :

(من شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة) .

(الجنة تحت ظلال السيوف) .

(وقال الرسول حين سئل عن خير الناس منزلة ، فقال رجل ممسك برأس فرسه فى سبيل الله حتى يموت او يقتل)[15] .

وقال الرسول عندما انتصر الشيبانيون فى واقعة ذى قار ـ اليوم انتصف العرب من العجم وبى نصروا ـ ولم تكن هناك بعد وشائج (اسلامية) تربط بين عرب ذى قار وعرب الجزيرة [16] لكنها الروح العربية .

وعندما تم تحرير العراق من الفرس فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، اصبح العراق عربياً وانتهت احلام ايران بتفريس هذا القطر العربى .

وقد عبر رستم فى معركة القادسية عن حقده على عمر (أكل عمر كبدى ، احرق الله كبده ، علّم هؤلاء علموا) وحقده هذا هو نفس الحقد الفارسى الذى امتد فى احقاب التاريخ واخذ صوراً متعددة لتدمير السطوة العربية والنهوض العربى . وقد عبر ابو لؤلؤة الفارسى عندما ضرب عمر عن حقده الفارسى بقوله (أكل عمر كبدى) .

ويبدو ان الخليفة العربى كان يعرف بعمق مدى لؤم وحقد الفرس حتى انه قال (وددت لو ان بيننا وبين فارس جبلا من نار فلا يعلون الينا ولا نصل اليهم)[17] .

وينبري الامام علي (رضى الله عنه) فى السنة السادسة والثلاثين فى ذى قار قائلا :

(يا اهل الكوفة انتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم حتى صارت اليكم مواريثهم واغنيتم حوزتكم واعنتم الناس على عدوهم)[١٨] ·

والشعر والنثر العربى مليئان بالشواهد الكثيرة على قوة الكلمة وفعلها التحريضى والتثويرى لدى الناس ·· وقد تكون المبالغة التى يعرض فيها شاعر قوة قبيلته او الجانب الذى ينتمى اليه مسألة قد تستهجن او يسخر منها فى الوقت الحاضر ، لكنها كانت ذات مفعول سحرى فى تلك الايام ولعل الابيات الشهيرة لعمرو بن كلثوم تمثل النموذج الذى ذكرناه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وظهر البحر نملؤه سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابرة ساجدينا

ويلخص ودّاك بن ثميل المازنى مفعول نداء النخوة عند العرب :

اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بأى مكان

وعلى اية حال ، فقد بقى للدعاية تأثيرها الكبير على المواطن العربى فى جميع العصور سواء فى اوقات الحروب او اثناء فرض الحصارات على المدن ·

وقد استخدمت الدعاية للمرة الاولى وبشكل رسمى عندما انشأ البابا جورج التاسع ، وبعد الاصلاح الدينى فى عام ١٦٢٢ الجمعية المقدسة للدعاية والتبشير فى الخارج · وفى عام ١٨٤٢ وجد التحديد التالى للدعاية فى احد القواميس[١٩] : «نشر الافكار والمبادىء بطريقة سرية والتى يمكن ان تجعل معظم الحكومات تتعامل معها برعب ومقت شديد» ·

وحقاً ، فان الدعاية المخططة التى تهدف الى التأثير على العقول والعواطف وعلى افعال مجاميع معينة لها جذورها فى التاريخ ·· فقد اتبع الصليبيون فى العصور الوسطى دعاية منظمة مخططة لاجتذاب المسيحيين الى الحملات الصليبية وكان جنكيزخان يعتمد على الدعاية التى تسبق غزواته وهجماته فى تضخيم سمعة قواته لتسهيل انتصاراته ·· وقد ادخلت الطباعة معها عهدا جديداً للدعاية باستخدام الكلمة المكتوبة والواسعة الانتشار ·

وقدمت الثورة الفرنسية دروسا مهمة فى دراسة الجموع لاغراض الدعاية ·· وقد كتب گوستاف لوبون فى كتابه ـ الحشد ـ مجموعة من الافكار الاساسية لاستعمال الدعاية فى الحشود والتجمعات[٢٠] ·

الدعاية فى القرن العشرين :

ولابد من الاعتراف ، ان الدعاية لا ترافق الحالات السياسية فحسب ، بل ترافق الحالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كذلك ، وفى جميع العصور وفى مختلف الظروف ·

وفى مطلع القرن العشرين ، وفى القطر العراقى بالذات كانت الدعايات ، والاتساعات بشكل اخص ، تنتشر سريعا بين مختلف طبقات الشعب وفى مناطق مختلفة ، ولعل من اهم الاسباب التى كانت تساعد على انتشار الدعاية هو هبوب رياح التغيير واستشعار الجماهير بالتغييرات التى تلوح فى الافق ·· وفعلا فقد شهدت بدايات القرن العشرين تغييرات كبرى المت بالقطر العراقى وتتلخص فيما يلي :

١ ـ زوال الحكم العثمانى الذى كان مهيمنا على العراق مئات من السنين ·
٢ ـ قيام الاحتلال البريطانى ·
٣ ـ تأسيس الحكم الوطنى ·

وقد شهد العراق اثناء الصراع التركى ـ البريطانى صراعات اعلامية ودعائية بين الطرفين كانت تهدف الى كسب المواطنين العراقيين من خلال تشويه كل طرف للطرف الآخر ·· ويذكر ان اتساعات كانت تدبر من قبل السلطات التركية وان احداها انتشرت بين سكان مدينة البصرة ومفادها ان قوات الجيش العثمانى أوشكت على دخول البصرة منتصرة ، وهرع جمع من المواطنين لاستقبالها فى الزبير ، ولكن الناس اكتشفوا ان الجنود المنتصرين الذى كانوا ينتظرونهم ماهم الا اسرى اتراك ، فخاب املهم وارتفع عويل النساء[٢١] ·

وظلت بريطانيا تسعى الى تحسين علاقاتها مع الشعب العراقى اثناء الاحتلال وبعد الاحتلال ، ولكن يبدو ان نشاط الجماعات التى بقيت لها علاقات ولائية مع الاتراك او من الوطنيين العراقيين لم يتوقف فى بث دعاياته ضد البريطانيين ، وقد اشارت جريدة المانجستر كارديان الى تجدد الاتساعات التى تجد لها سوقاً رائجة فى المقاهى عن هجمات الاتراك وانتصاراتهم وقرب احتلالهم للموصل ، وذكرت الجريدة انه حكم على ثلاثة من الوكلاء الاتراك لبثهم الدعوة الى اعادة الحكم التركى الى العراق · وقد حكم على واحد منهم بالحبس الشديد لمدة سنة لنشر الدعوة بأن مصطفى كمال سيحتل العراق ويقتل جميع الموظفين[٢٢] ·

وقد شهد العالم ، ولاول مرة فى تاريخه ، هدير آلات الدعاية النازية عند ظهور نجم هتلر فى بداية الثلاثينات من هذا القرن بشكل مركز ومنظم لم يكن معروفا بهذا الشكل والحجم من قبل ·

وكانت استراتيجية هتلر تقوم على الحصول على التأييد من قبل جميع السكان وليس الناخبين فقط ٠٠ وكانت الدعاية النازية تخاطب العواطف وبلا سبب وتتجنب النقاشات ٠٠ وكانت نظريات كوبلز فى الدعاية غاية فى الدقة ـ وقد اعتبر ان الدعاية ينبغى ان تكون مخططة وتقاد من قبل سلطة واحدة ٠

والدعاية فى منظور كوبلز ليست بالضرورة ان تكون صادقة ، بل ينبغى ان تكون معقولة وتحتاج الى بعض المعلومات المحددة كأساس لها ، وليس مهمأ بقدر ما يجب أن تحت مصالح الجمهور ، حقاً ان الدعاية بمعناها الحديث ، بالنسبة لمعظم سكان اوروبا اخذت مداها مع بروز هتلر ٠٠ ولم تفقد الدعاية النازية تأثيرها الا عندما هزمت المانيا ٠

وقد ادرك هتلر خطورة استعمال جهاز الراديو باعتباره ينتقل الى ابعد المناطق ويصل الى اوسع عدد من الجماهير فى الدعاية ، وكتب هتلر عن الراديو فى كتابه كفاحى Mein Kampf انه سلاح رهيب بأيدى اولئك الذين يعرفون كيف يستخدمونه ـ وقال كوبلز فى افتتاح معرض راديو برلين عام ١٩٣٣ ان الراديو فى القرن العشرين سيلعب الدور الذى لعبته الصحافة فى القرن التاسع عشر ٠

قد قيل ان كوبلز لو بقى حياً لرحب باستخدام التلفزيون فى الدعاية [٢٣] ٠

وكانت الدعاية الالمانية ذات تأثير واضح فى العديد من مناطق العالم قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ومن هذه المناطق كان العراق ٠

وقد خول كوبلز وزير الدعاية النازى الدكتور كروبا الدبلوماسى الالمانى ببث الدعاية فى العراق كما يقول احد الكتاب[٢٤] ٠

وقامت ايطاليا بانشاء اول محطة اذاعة تنطق باللغة العربية موجهة من خارج الوطن العربى ، وكان الهدف منها هو بث الدعاية الثقافية الايطالية بغية زيادة النفوذ الايطالى فى الشرق الاوسط وتقوية العلاقات بين ايطاليا وبين المواطنين العرب ٠

وكان الراديو واسطة مثالية لنشر الدعاية وبثها فى منطقة تكون فيها نسبة الأمية عالية سيما وان الايطاليين وزعوا اجهزة راديو بأسعار رخيصة للمواطنين العرب ٠ وذكر تقرير بريطانى فى عام ١٩٣٥ ان الاخبار اصبحت تزداد شعبيتها فى المقاهى العربية وان القرويين اصبحوا يأتون بانتظام فى الأماسي الى يافا للاستماع الى الراديو[٢٥] ٠

وقد علق احد المراقبين على انتشار نفوذ الاذاعة الايطالية على المستمعين العرب بأنهم كانوا مع كل رشفة قهوة يكونون ويبتلعون الدعاية الايطالية ٠

ثم راحت اذاعة باري الايطالية تهاجم السياسة البريطانية وتروج للفاشية الايطالية ٠

وبدأت الاذاعة العربية بثها من المانيا فى ٧ نيسان ١٩٣٩[٢٦] ٠

وكانت مجموعة اخرى من الدول قد بدأت بثها باللغة العربية وعلى رأسها بريطانيا وكان من تلك الدول تركيا ، ايران ، اسبانيا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، الهند ، اليابان ، الصين ، والاتحاد السوفيتى ، وكانت صعوبات استلام البث بالنسبة لمحطات الولايات المتحدة ، الهند ، اليابان ، ايران ، فرنسا واسبانيا قد ادت الى قلة الاستماع الى هذه المحطات وبالتالى الى عدم وجود تأثير لها فى الشرق الاوسط[٢٧] ٠

لقد كانت البي بي سي البريطانية دائبة العناية بمستوياتها الاذاعية قبل الحرب العالمية ، ولكن العالم الذى هزت أسسه الحرب صارت فيه السياسة والدعاية هما العصب والدم بالنسبة للاذاعة وقد استخدم البريطانيون فى الشرق الاوسط المحطات القوية فى القدس ودلهي وعدن ، ومحطات الحلفاء فى القاهرة وانقرة[٢٨] ٠

وقد اعطى المتحاربون اهمية خاصة لمنطقة الشرق الاوسط٠ فقد كانت حالة السلام تعنى بالنسبة للبريطانيين وللحلفاء فى المنطقة استمرار تزويدهم بالكميات الضرورية من البترول لاستمرارهم بالحرب واختصار لآلاف الاميال نحو الهند والصين والمحيط الباسفيكى ٠

ومن الممكن القول ان الراديو كان هو الوسيلة الاساسية للدعاية بالنسبة للكتلتين المتحاربتين فى الحرب العالمية الثانية[٢٩] ٠

هذا على الرغم من ان القاذفات الامريكية والبريطانية قامت برمى حوالى ٦ بليون قطعة من الدعاية والمعلومات على اوروبا ، بين ايلول ١٩٣٩ ونهاية الحرب ٠ وقد قامت مجاميع مختلفة من الوكالات المدنية والعسكرية بانتاج تلك النشرات التى كانت ذات اغراض متعددة ، فبعضها كان يقوى معنويات المدنيين تحت الاحتلال الالمانى ، وبعضها كان يحرض على المقاومة او يزعزع معنويات الالمان ٠٠ وقد طورت القوات الجوية الامريكية فى عام ١٩٤٤ قنبلة المناشير ، وكانت كل طائرة قاذفة تحمل ١٢ قنبلة وتحتوى كل واحدة منها على ٨٠ الف منشور وكانت المناشير تصل الى ٧ او ٨ مناطق فى كل غارة ، وخلال

٣١٩ عملية ليلية تم اسقاط بليون ونصف البليون منشور فوق المانيا ، النرويج الدانمارك ، فرنسا ، بلجيكا وهولندا[٣٠] ٠

واثر التمحور الدولى حول القطبين العالميين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي واحتدام الحرب الباردة التى هى صورة لحرب الدعاية ظهرت العديد من الوسائل والاساليب الجديدة المستخدمة من قبل الاطراف ذات العلاقة ٠

ويعتبر راديو اوروبا الحرة وراديو الحرية من ابناء الحرب الباردة ، وقد بدأ راديو اوروبا الحرة بثه فى ٤ تموز ١٩٥٠ متوجهاً الى ما وراء الستار الحديدى اى الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ولا تزال هاتان المحطتان تبثان حتى اليوم[٣١] ٠

وبالمقابل ، فان الدعاية الشيوعية لا يمكن ان تفهم بمعزل عن الاهداف العامة والاستراتيجية للشيوعية العالمية ٠٠ فمعروف ان هدف الشيوعية هو الإطاحة بالرأسمالية وتأسيس نظام شيوعى عالمى ٠

وقد اعتبر الشيوعيون الدعاية والتحريض والحرب الايدلوجية اسلحة فى عملهم السياسى ٠

واعطى جورج بليخانوف الذى اسس اول حزب ماركسى فى روسيا عام ١٨٨٣ اهمية كبرى للدعاية وفرق لشخص او بضعة اشخاص وبين الدعاية كاثارة للجماهير وتحريض لهم وهى التى تخدم وتعرض فكرة او بضعة افكار قليلة لعدد كبير من الناس ٠ وقد اصبح رجل الدعاية يتعامل اساساً مع الكلمة المكتوبة فى حين يتعامل الداعية او المحرض مع الكلمة المنطوقة[٣٢] ٠

وقد استخدم الشيوعيون فى نشاطاتهم الاعلامية مجموعات ليست ممنوعة قانوناً من ممارسة نشاطها ، ففى بيروت مثلا كانت صناعات النشر والتى تدار من قبل مجاميع جبهوية او من انصار السلام تطبع الكتب والمطبوعات الناطقة او المؤيدة لوجهة النظر الشيوعية ٠٠ وقد كانت حصيلة ذلك النشاط فى العراق وحده عام ١٩٥٤ بيع ٥٢,٠٠٠ نسخة من الكتب والمطبوعات الشيوعية ٠

وقد كانت المطبوعات الشيوعية المستوردة منها والمحلية تغرق المنطقة وكانت الكتيبات والصحف الشيوعية توزع مجاناً وتباع الكتب بأسعار زهيدة[٣٤] ٠

وبالتأكيد فان الغربيين كانوا يمارسون نفس السياسة فى المنطقة وكانت تدعمهم اجراءات السلطات المحلية التى كانت تواليهم ٠

وكانت بعض حصائل الحرب الباردة فى منطقة الشرق الاوسط والتى كشفت فيما بعد ، ان البريطانيين كانت لديهم دائرة سرية للبحث الاعلامى ، اعلنت ذلك جريدة الاوبزرفر ، وكان من نشاطات دائرة البحث الاعلامى قيامها بانشاء وكالة الانباء العربية عام ١٩٥١ ٠٠ وذكرت الصحيفة انه خلال ايام الحرب الباردة كان يجرى اعداد مئات المقالات والنصوص الفكاهية التى كانت توزع على الصحف الاجنبية بالاضافة الى اعمال ادبية منها رواية اورويل - مزرعة الحيوان - ورواية كوستلر - ظلام فى الظهيرة ٠

وجاء فى الصحيفة انه فى عام ١٩٥١ كان التركيز يتم على اقناع العرب بأن الشيوعية هى ضد الاسلام ٠

وقد قامت وزارة الخارجية البريطانية باتلاف المواد التى تم نشرها وتوزيعها بواسطة عملياتها الدعائية المناهضة للشيوعية خلال ايام الحرب الباردة ولم تكشف عن المعلومات رغم مرور السنوات المحددة لكشف المعلومات فى بريطانيا[٣٥] ٠

وقد حاولت دار النشر المعروفة بنكوين ان تقدم تعريفا للدعاية فى قاموسها السياسى الذى اصدرته عام ١٩٥٧ اذ وصفتها بأنها تعبيرات عن السياسة او وقائع ذات طبيعة سياسية عادة ، هدفها الحقيقى يختلف عن هدفها الظاهرى ٠

وجرى تطوير ذلك التعريف ليكون تعبيرا بواسطة حكومة او حزب سياسى ويصمم للتأثير على الجمهور بدلا من الوصول الى الحقيقة او يقود الى التفاهم بين الحكومات المختلفة او الاحزاب المتعارضة فى السنوات التى شهدت ظهور الثورات القومية والوطنية فى الوطن العربى ونمو الحركات الثورية ، اصبح للدعاية دورها المؤثر فى علاقات القوى والانظمة العربية فيما بينها من جهة ومع القوى والانظمة الاجنبية من جهة اخرى ٠ وصار لكل طرف جهازه الدعائى المدرب الذى يعتمد على افكار ومبادىء الجهة التى يمثلها ٠

واثر ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ ووضوح مسيرتها الأيديولوجية ، قامت العديد من الجهات العربية والاجنبية الرجعية والعميلة بشن حملات دعائية متواصلة ومركزة على الثورة بهدف عرقلة مسيرتها وانهاء دورها الثورى ٠ وكان قمة العدوان الذى تعرض له القطر العراقى هو فى قيام ايران بشن حرب شاملة فى ١٩٨٠/٩/٤ حيث جندت الامبريالية والصهيونية طاقاتها بجانب الايرانيين ضد العراق ، ورافقت تلك الحرب الضروس حرب دعائية ضارية ، استطاع العراق ان يبددها ويلغى تأثيراتها ٠

وعلى الصعيد العالمى ، فان الصراع الاعلامى بين الدولتين العظميين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى هدفه هو ممارسة الضغوط على الطرف الآخر[٣٦] ٠

ولا تقف احدى الدولتين عند حدودها الخاصة لتوجيه دعايتها ضد الدولة الاخرى فنراها تمد مساعداتها وخبراتها لكافة الدول او التنظيمات او التجمعات التى يمكن ان تسهم فى اثارة الحرب الاعلامية ضد الدولة العظمى الاخرى ٠

وعلى سبيل المثال فان الولايات المتحدة تقوم بتمويل ما يسمى بحملة علاقات عامة (للمجاهدين الافغان) لمساعدتهم على ابراز قضيتهم للرأى العام العالمى ٠٠ وخصص الكونغرس الامريكى فى هذا الاطار نصف مليون دولار لبرنامج يتضمن ضمن ما يتضمنه توظيف خبراء وتدريب صحفيين من الافغانيين لاستخدام اجهزة وتزويدهم بكاميرات لابراز قضيتهم ٠٠ ان الهدف من الحملة او البرنامج هو تسهيل عملية جمع وتطوير وتوزيع الصور والروايات المؤثرة عن تطورات الوضع فى افغانستان واستخدامها فى الظروف المناسبة ٠

وفى الجانب الآخر تقف الحملات الدعائية الافغانية والسوفياتية لتواجه الحملات الدعائية الامريكية والغربية[٣٧] ٠

وكذلك الحال بالنسبة لقيام الولايات المتحدة بانشاء محطة اذاعة (مارتى) الموجهة ضد كوبا ودعمها لها ٠

ان الدعاية فى النهاية ، طريقة منظمة لايصال المعلومات الى الرأى العام وهى تتخذ صورا مختلفة ٠

ومع ارتفاع تكاليف الحرب الحقيقية والمواجهة بين القوتين الكبيرتين فان حرب الكلمات هى الحرب المشرعة فعلا بين الاطراف القوية ٠ ان وكالة الاستخبارات الامريكية تقدر بأن الميزانية السوفيتية المخصصة للدعاية الدولية تزيد عن ثلاثة بلايين دولار كل عام[٣٨] ٠

وبالمقابل فان الميزانية الامريكية المخصصة للدعاية ضخمة ايضا ، وتجند ادارة الرئيس الامريكى ما يزيد عن ٩٣٠٠ موظف يعملون فى وكالة المعلومات الامريكية ، يساعدهم فى ذلك جيش من الوكالات الحكومية الاخرى ، تزيد ميزانياتهم عن اربعة مليارات دولار ٠

ويوميا تتداخل اصوات الموجات القصيرة الاذاعية حيث يحاول كل طرف ان يوضح وجهة نظره ويشوه وجهة الطرف الآخر[٣٩] ٠

وفى حرب الدعاية الطاحنة فان التكنولوجيا الحديثة تصبح واسطة مفضلة من كل الاطراف للوصول الى ابعد المسافات والى اكبر عدد من البشر ٠

خاتمة

اصبحت الدعاية ، او بمعنى اصوب حرب الكلمات ، من الفنون الدقيقة وذات التأثيرات الخطيرة على شعوب الارض جميعها ٠

وفى الواقع بدأت الدعاية تكتسب اهميتها عندما وصف لينين الكلمات بأنها اسلحة فى ثورة ١٩١٧ وطورت مفاهيمها فيما بعد فى المانيا النازية ٠

ان الدعاية لا تعنى بشكل مستمر انها تقوم بتحريف الحقائق وتشويهها بقدر ما تقوم احيانا بنشر الحقائق لدعم وجهة نظر او قضية معينة ٠٠ وكما تخلص احدى الدراسات[٤٠] فانه سواء كانت دعاية القوتين العظمين تستند الى الحقيقة ، او الى الاكاذيب ، فان هدفها هو دعم استراتيجية معينة ٠

هوامش

١ ـ د · فخرى الدباغ ـ الحرب النفسية ـ الموسوعة الصغيرة رقم (٣٨) ، منشورات وزارة الثقافة والفنون /١٩٧٩/ص ٥ ·

2 – Serge Chakotin, The rape of the masses, George Routledge and Son Ltd, London, 1940,P.128

٣ ـ د · محمود محمد الجواهرى ، الصحافة والحرب ، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، نشر الرسائل الجامعية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٧ ·

٤ ـ د · فاروق ناصر الراوي ، الوثائق المسمارية شواهد على انتصاراتنا فى عيلام ، مجلة بين النهرين ـ العددان ٣٤ ـ ٣٥ ، ١٩٨١ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ·

٥ ـ د · هاري ساكز ، عظمة بابل ، موجز حضارة بلاد وادى الرافدين القديمة ، ترجمة الدكتور عامر سليمان ابراهيم ، بدون اسم الناشر او التاريخ ، ص ١٦٤ ·

٦ ـ العقيد جمال السيد ، الحرب النفسية ، المكتبة الثقافية ، العدد ٢٨٣ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ·

٧ ـ د · هاري ساكز ، عظمة مصدر سبق ذكره ، ص ١٨١ ·

٨ ـ المصدر السابق ، ص ٢١٦ ·

٩ ـ شاذل طاقه ، فى الاعلام والمعركة ، وزارة الثقافة والاعلام ، مديرية الاعلام العامة ، السلسلة الاعلامية ، (رقم٨) ، ١٩٦٩ ، بغداد ، ص ١٠ ·

١٠ ـ الدكتور عبداللطيف حمزة ، الاعلام فى صدر الاسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧١ ·

١١ ـ من سورة التوبة

١٢ ـ من سورة البقرة

١٣ ـ من سورة النساء

١٤ ـ من سورة النساء

١٥ ـ الدكتور عبداللطيف حمزة ، الاعلام فى صدر الاسلام ، مصدر سبق ذكره ·

١٦ ـ عبدالرزاق الحصان ، ربيعة العراق ، بغداد ، ١٩٣٧ ـ ص ٣٧ ·

١٧ ـ الدكتور عبداللطيف حمزة ، الاعلام فى صدر الاسلام ، مصدر مذكور ـ سابقا ـ ص ٢٢٠

١٨ ـ عبدالرزاق الحصان ـ ربيعة العراق ـ المصدر المذكور سابقا ـ ص ٤١

19 – John C. Clews, Communist propaganda, Methuen and Co. Ltd, London, 1764,P.3

٢٠ ـ المصدر السابق ـ ص ٧

٢١ ـ هادى طعمه ، الاحتلال البريطانى والصحافة العراقية ، دراسة فى الحملة الدعائية البريطانية ١٩١٤ ـ ١٩٢١ ـ وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ١٤٠

٢٢ ـ د · فاضل حسين ، دراسة فى الدبلوماسية العراقية ـ الانكليزية التركية ، فى الرأى العام ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧

23 – Julian Hale, Radio Power – propaganda and International Broadcasting, 1975, Paul Elek, London, Q.1

24 – Vernon Mackenzie, Here Lies Goebbels, 1940, Michael Joseph Ltd, London, P.196

25 – Callum A. Macdonald, Radio Bari Italian Wireless Propaganda in the Middle East and British Countermeasures 1934–38, Middle East Studies, Vol.13, No.2, 1977,P.195

٢٦ ـ يونس بحرى ، هتلر ونحن ، هنا برلين حى العرب ، الجزء الخامس ، ١٩٥٦ ، بيروت ، ص ٢٥

27 – Nevill Barbour, Broadcasting to the Arab World, Middle East Journal 1951, P.63

28 – S. Hilleson, Broadcasting to the Near East, Hilleson, Broadcasting to the Near East, Royal Central Asian Journal, July 1941,Vol.27, Part 3, P.340.

29 – Seth Arsnian, Wartime Propaganda in the Middle East, Middle East Journal, October 1948,Vol.11,Part 4,P.419.

30 – The Encyclopadia of World War II, (edt. by) Thomas Parrish, 1978,Secker and Warbury, London P.359.

31 – Ralap A.Uttaro, The Voices of America in International Radio propapganda, Law and Contemporary Problems, Vol.45, No.4,1982, P.103.

32 – F.Bowon Evans (ed.), Worldwide Communist propaganda activities, 1955, Macmillan Company New York, P.6.

33 – Ibid, P.8

34 – Ibid, PP–72–73.

35 – Darid Leigh, Secret Cold War Files are Scrapped by foreign Office, The Observer, 28–2–1982,P.4.

٣٦ ـ عن كريستيان سانيس مونيتور ـ الرأى العام الكويتية ٢٢/٩/١٩٨٥ ، العدد ٧٨٤٧

٣٧ ـ جريدة القبس الكويتية ـ العدد ٤٨٣٩ في ١/١١/١٩٨٥ ـ ص ١٩ نقلا عن مجلة (شيترن) الالمانية : (واشنطن تمول حملة دعائية ضخمة لصالح المجاهدين الافغان) ٠

٣٨ ـ جريدة الانباء الكويتية ، نقلا عن تايم : كيف ينظر العالم للحرب الكلامية بين العملاقين ، تاريخ ٥/٩/١٩٨٥ ، ص ١٤

٣٩ ـ جريدة القبس (الكويتية) ـ حرب الكلمات بين موسكو وواشنطن ، العدد ٤٨٦٦ في ٢٨/١١/١٩٨٥ ، ص ٣٤

٤٠ ـ المصدر السابق ٠

«نحن لا ننسخ الماضي ولا نستنسخ منه ، إنما نتعامل معه

بنظرة متفاعلة مع روح الحاضر والمستقبل »

سيرة مؤرخ

سيرة ذاتية

الاســـم : حسن أحمد ابراهيم ٠
تاريخ الميلاد : ١٣ اكتوبر ١٩٣٨ ٠

الدرجة العلمية : بروفسير منذ يوليو ١٩٨٠ ٠
المؤهلات العلمية : بكالوريوس شرف ـ جامعة الخرطوم ، ١٩٦٣ ، ماجستير ـ جامعة الخرطوم ، ١٩٦٥ ٠ دكتوراه ـ جامعة لندن ١٩٧٠ ٠
التخصص العام : تاريخ حديث ٠
التخصص الدقيق : تاريخ السودان ومصر الحديث ٠

الوظيفة الحالية :

عميد كلية الآداب ـ منذ فبراير ١٩٨٤ ، والأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب لشئون الاتفاقيات والعلاقات الدولية وممثل السودان فى اتحاد المؤرخين الافارقة ٠

الوظائف السابقة :

مساعد تدريس ـ جامعة الخرطوم ١٩٦٣م ـ ١٩٧٠م محاضر ـ جامعة الخرطوم ١٩٧٠م ـ ١٩٧٤م استاذ مشارك جامعة الخرطوم ١٩٧٤م ـ ١٩٨٠م رئيس قسم التاريخ جامعة الخرطوم ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨م مدير الدراسات العليا للآداب والعلوم الانسانية ٠

المؤتمرات والزيارات :

١ ـ حضرت عددا كبيرا من المؤتمرات فى البلاد العربية والأفريقية وفى اوربا وأمريكا وكندا ٠ ٢ ـ استاذا زائرا وذلك بمنحة من مؤسسة ملريب بجامعتي جورج تاون وهورد بالولايات المتحدة ٠ ٣ ـ ساهمت بمقالين فى مشروع كتاب تاريخ افريقيا الذي تتبناه وتدعمه مؤسسة اليونسكو ٠

الابحاث العلمية : (كتب)

١ ـ محمد علي فى السودان (الخرطوم ١٩٧٣) ٠
٢ ـ معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا (بالانجليزية) ٠
٣ ـ رحلة محمد علي للسودان ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩ (الخرطوم ١٩٨٠) ٠
٤ ـ تاريخ السودان الحديث (الكتاب المقرر فى تاريخ السودان الحديث لتلاميذ الصف الثالث ـ الثانوي العالي منذ ١٩٧٨ وحتى الآن ٠

(مقالات)

١ ـ عدد من المقالات باللغة الانجليزية عن المهدية الجديدة ودور السيد عبدالرحمن المهدي فى الحركة الوطنية السودانية ـ نشرت فى مجلات علمية امريكية وسودانية ٠
٢ ـ مقالات أخرى بالانجليزية عن الموضوع نفسه لم ينشر بعد ٠ وستجمع كل هذه المادة لتنشر قريبا بمشيئة الله فى كتاب بالانجليزية عنوانه السيد عبدالرحمن المهدي خبير المناورة السياسية ٠

ندوة العدد

سامراء فى التاريخ والتراث والأدب
الخميس ١٩/٣/١٩٨٧

اعداد
الاستاذ سالم الألوسي

دأبت الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب احتبال الفرص والمناسبات الوطنية ، والقومية ، لاقامة الندوات والملتقيات والمؤتمرات العلمية التى تؤرخ وتوثق الاحداث والوقائع البارزة فى تاريخ العرب القديم والمعاصر والحديث ٠

وبرعاية الأستاذ كامل ياسين رشيد عضو القيادة القطرية اقامت الامانة العامة للاتحاد فى الساعة السادسة من مساء الخميس ١٩/٣/١٩٨٧ ندوة علمية فى مدينة سامراء تحت شعار «سامراء فى التاريخ والتراث والأدب» شارك فيها عدد من الاساتذة المتخصصين ، تضمنت عدة محاولات تناول فيها المحاضرون جوانب من تاريخ سامراء ، وقد حضر الندوة جمهور كبير من العلماء والمثقفين ووجوه المدينة ، كان فى مقدمتهم الاستاذ عبدالله فاضل وقد افتتحت الندوة بالوقوف دقيقة واحدة حداداً على روح شهداء قادسية صدام الذين هم اكرم منا جميعا ، وقد ادار الندوة الدكتور نوري بخيت السامرائى الاستاذ فى قسم التاريخ بجامعة بغداد واستهل كلامه بالحديث عن أهمية سامراء من النواحي التاريخية والحضارية والأسباب التى دعت الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب لاقامة هذه الندوة العلمية ٠

وكان الدكتور فوزي رشيد الاختصاصي الاثاري بدائرة الآثار والتراث ، أول المتحدثين وعنوان المحاضرة «سامراء قديما» حيث تناول اسم سامراء او سر من رأى وعلاقة الاسم باسماء وردت فى النصوص والكتابات المسمارية ، كما ذكر نتائج التنقيبات والآثار التى تكشف عن مستوطنات وتماثيل وآلهة للعبادة من القرن الرابع قبل الميلاد ٠

أما المحاضر الثاني فكان الدكتور طاهر العميد المستشار بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي حيث استعرض بمحاضرته «القصور والمساجد فى سامراء» عمارة المساجد الجامعة والقصور فى سامراء التى اتسع عمرانها بشكل ادهش المؤرخين ، حيث اضحت من أعظم المدن الاسلامية فى القرن الثالث للهجره (التاسع للميلاد) خلال فترة تاريخية قياسية لم تتجاوز الخمسين عاماً ٠

ثم جاء دور المحاضر الاستاذ عبدالحميد العلوجي الذي تناول حياة المرأة السامرائية ، بعدها جاء دور المحاضر الدكتور لبيد ابراهيم ـ وكان موضوع بحثه «الدور العسكري لمدينة سامراء» حيث المدينة العظيمة ، ثم اشار الى فتح عمورية بقيادة الخليفة العباسي المعتصم بالله ودفاع الجيوش العباسية عن حدود الامبراطورية الاسلامية وقضائها على الحركات الشعوبية التى استهدفت الوجود العربي والحضارة العربية ٠

وكانت المحاضرة الأخيرة للآنسة رفاه السامرائي الاستاذة فى مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، حيث عالجت فى محاضرتها «التصوير فى سامراء» العناصر الفنية فى الرسوم الجدارية التى كشفت عنها التنقيبات والآثار فى المدينة قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها جاءت هذه التصاوير التى كان الأثر المميز فى نشوء تطوير فنون التصوير العربي الاسلامي ٠

وبعد انتهاء المحاضرات وجه مدير الندوة الانتباه الى ان هناك عدداً من الاستاتذة يودون المشاركة فى اضافة بعض المعلومات التاريخية وكان فى مقدمتهم الدكتور حسين علي محفوظ الذي تناول دور سامراء فى العلم واللغة والأدب والتراث حيث ذكر اسماء سامراء ومنزلة هذه المدينة المعروفة فى التراث ومكانتها ومعطياتها فى

اللغة والطب والشعر خاصة · وقد عددت المحاضرة جمهرة من اعلامها الكبار ومنجزاتهم ، ونوهت باعتزاز أهلها بالانتساب الى الأئمة الاطهار ، هذا يضاف الى أهميتها فى القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر فى تخريج الفقهاء والعلماء والمؤلفين ·

ثم اعقبه الاستاذ سالم الألوسي بحديث مختصر عن أهمية سامراء باعتبارها «مدينة الفروسية الأولى» فى العصور الاسلامية مشيراً الى انها كانت تضم اكبر المعسكرات مثل القادسية واسطبلات ، اضافة الى وجود عدد من ميادين سباق الخيل واقامة الحلائب وقد ركز الاهتمام بأحدى سوق للسباق التى تتألف من أربع دوائر متماسة تجرى داخلها الخيول وفى وسطها الدكة التى كان الخليفة وحاشيته يجلسون فوقها لمشاهدة المتسابقين ، وقد اعتبرت هذه الساحة من أعظم ما انتجته العبقرية العربية فى التخطيط والهندسة ، وتعد الأولى من نوعها فى العالم مما يستوجب صيانتها والحفاظ عليها ·

وكان الدكتور الطبيب كمال السامرائي من المشاركين فى هذه الندوة حيث وجه الانتباه الى اهمية دور سامراء فى تاريخ الطب العربي ، فذكر كلًا من سلموية بن بنان ويوحنا بن ماسويه من اطباء الخليفة المعتصم ، ومن اطباء المتوكل حنين بن اسحاق العبادى ويوحنا بن ماسويه وبخيشوع بن جبرائيل ، ومن الاطباء المشهورين ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وسند بن علي الطبيب والمنجم وكذلك ابو معشر البلخي وكان طبيبا ومنجما ·

ثم جاء دور الشيخ يونس السامرائى فأشار الى ان تاريخ سامراء يحتاج الى عشرات المجلدت الى تتناول جوانب عدة من تاريخ هذه المدينة الخالدة ، وذكر الى انه وضع عدداً من المؤلفات التى تعالج بعض الصفحات المجهولة من تراث وحضارة سامراء كالأدب والشعر والالعاب الشعبية والصناعات الفولكلورية وغيرها ·

واعقبه الدكتور عبدالله السامرائى الذي اشار الى ضرورة البحث فى الجوانب الجديدة التى تشكل اضافات جديدة الى سامراء وقد اختتمت الندوة بتعقيب جيد ورصين من الاستاذ عبدالله وزير الأوقاف والشئون الدينية اثنى فيها على جهود المشاركين فى هذه الندوة العلمية وطالب بان تكون نموذجاً لندوات مماثلة تتناول تاريخ مدن وحواضر عراقية اخرى ، كما شكر الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب على هذه المبادرة واعتبرها مظاهرة ثقافية تاريخية تستحق الثناء والتقدير ·

واختتمت الندوة بارسال برقية بعث بها الحاضرون تحية للقائد المنصور صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية تثميناً لدوره التاريخي فى الحفاظ على حضارة الأمة وامجادها ·

عروض الكتب والرسائل العلمية في التاريخ

كتاب
(بحوث فى تاريخ السنة المشرفة)
للدكتور اكرم ضياء العمري

الطبعة الثالثة مزيدة منقحة طبع الكتاب فى بيروت فى مؤسسة الرسالة سنة ١٩٧٥ والكتاب يقع فى ٢٩٢ ص صدر الكتاب بمقدمة للدكتور عبدالكريم زيدان تحدث فيها عن تعريف السنة النبوية وحجيتها والاحكام التى جاءت بها وعن تدوينها وحفظها ثم تكلم عن علم الجرح والتعديل وأهميته فى كل وقت خاصة فى هذا الزمن الذي اتجه فيه المستشرقون الى شن الغارة على السنة النبوية ورواتها ·

وبعد هذه المقدمة أورد مقدمات المؤلف لكل طبعة من الطبعات الثلاث بين ان الطبعة الاولى كانت فى سنة ١٩٦٧ والثانية فى ١٩٧٢ وقد ذكر فى الطبعة الاولى دوافع ظهور علم الرجال وحركة الوضع فى الحديث وعَرَضَ لجهود العلماء فى مقاومة حركة الوضع بالتأكيد على الاسناد ومعرفة الرجال مع وصف وتحليل كتبهم خلال القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية وذلك لبيان مكانة كتاب الطبقات بين هذه المؤلفات الكثيرة والرحلة فى طلب العلم وتدوين الحديث ومختلف جهودهم للحفاظ على السنة ·

وبين فى الطبعة الثانية انه وسّع فصل تدوين الحديث وأسس تنظيم علم الرجال ·

وفى هذه الطبعة الثالثة ذكر انه توجد اضافات وفوائد فيه ·

الفصل الاول

تكلم عن الوضع فى الحديث ومهد له بتعريف الحديث والاهتمام به وانه المصدر الثاني للتشريع الاسلامي وتعرضه لمحاولات قوية للدس عليه فتكلم عن بدء الوضع واثر الخلافات السياسية فى الوضع ودور الخوارج فى الوضع والخلافات الكلامية والزنادقة والقصاصين ووضع جهلة الصالحين للحديث ودور العصبية للمدن والجنس والامام والوضع لأغراض خاصة ·

الفصل الثاني ص ٤٥ ـ ٥٨

تكلم عن جهود العلماء فى مقاومة الوضع ثم تحدث عن الاسناد وظهور علم الرجال ·

الفصل الثالث ص ٥٩ ـ ٢٠٧
المصنفات فى علم الرجال حتى نهاية القرن الخامس (دراسة وتحليل)

تكلم عن كتب معرفة الصحابة وعن المصنفين فى معرفة الصحابة وكتب الطبقات والمصنفين فى الطبقات وعن كتب الجرح والتعديل فعرف علم الجرح والتعديل وانواع كتب هذا العلم ثم تحدث عن مؤلفي كتب الضعفاء وعن مؤلفي كتب الثقات وعن مؤلفين جمعوا بين الثقات والضعفاء وعن المصنفات فى رجال الحديث المذكورين فى الكتب الستة وغيرها وكتب معرفة الاسماء وكتب الاسماء والكنى والالقاب وكتب المؤتلف والمختلف وكتب المتفق والمفترق والمتشابه وتواريخ الوفيات والمصنفات فى الوفيات وتواريخ الرجال المحلية ومعاجم الشيوخ وكتب الرجال عن الشيعة ثم تكلم عن كتاب الرجال لأبي جعفر احمد بن ابي عبدالله البرقي وعن رجال الكشي لأبي عمر محمد بن عمر بن عبدالعزيز الكشي وكتاب الرجال لأبي العباس احمد بن علي بن احمد بن العباس النجاشي وكتاب الفهرست لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي وكتاب الرجال للمؤلف المذكور أيضاً ·

ثم تكلم عن أسس تنظيم كتب علم الرجال وعن التنظيم على النسب والتنظيم على الطبقات والتنظيم على المدن والتنظيم على حروف المعجم وعلم الرجال والتاريخ وعلم الرجال والنقد التاريخي ·

الفصل الثالث

عن نشاط الرحلة فى طلب الحديث ·

الفصل الرابع ص ٢١٦ ـ ٢٣٤

عن تدوين الحديث ، فنجده يتكلم عن الكتابة فى حياة الرسول (ص) وكتابة الحديث فى حياة النبى (ص) أيضاً كما يذكر احاديث النهي عن الكتابة واحاديث السماح بالكتابة ورأي العلماء فى تعارض هذه الاحاديث وبعد ذلك يتحدث عن كتاب الحديث فى جيل الصحابة وأمثلة الصحف التى كتبها الصحابة فى الحديث وكتابة الحديث فى جيل التابعين فما بعدهم ·

الفصل الخامس

عن كتب الرواية المهمة ، فلقد تكلم عن الموطأ ومسند الامام احمد بن حنبل وصحيح الامام البخاري وصحيح الامام مسلم وكتاب سنة ابي داود السجستاني وجامع الترمذي وسنة النسائي وسنة ابن ماجة وكتب الرواية المهمة بعد القرن الثالث الهجري ·

وذيّل الكتاب يثبت المصادر فذكر : أ ـ المصادر القديمة المطبوعة والمصادر الاعجمية القديمة ·

ب ـ المخطوطات ثم المراجع الحديثة ـ والمراجع الاعجمية الحديثة وهذه من ص ٢٥١ ـ ٢٧٢ ·

واعقبها بفهرس باسماء المصنفين ص ٢٧٣ ـ ٢٨٧ وبفهرس الموضوعات ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ ·

وبذلك ينتهي هذا الكتاب ·

ندى نعمان عبدالرحمن
كلية الآداب بغداد

العلاقات الاردنية ـ السورية منذ استقلال البلدين عام ١٩٤٦ ولغاية عام ١٩٧٦

عرض عبدالمجيد عبدالحميد

ارتأت الضرورة ان اقدم عرضا تاريخياً عن مسيرة الثورة العربية ودورها فى تحرير البلاد العربية فى السيطرة العثمانية واخفاقاتها فى تحقيق أهدافها وبالاخص الهدف الاكبر وهو انشاء دولة عربية واحدة · ثم كان لابد من مقدمة تاريخية توضح صورة نشؤ دولتى سوريا والاردن حتى نيلهما الاستقلال · واتبعت المقدمة بموجز عن البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية فى كلا البلدين حتى يتسنى فهم التطورات السياسية الداخلية والخارجية لاحقاً ·

بعد هذا العرض وجدت من الافضل تقسيم البحث الى مراحل زمنية لتلافي التكرار وتسهيل عملية العرض والتحليل للاحداث المتشابكة ضمن اطار البلد الواحد وثم ضمن اطار المنطقة العربية وثم ضمن اطار الصراعات الدولية على المنطقة ، فقسمت فترة البحث البالغة ٣٠ عاما الى ست مراحل كانت الاولى : منذ الاستقلال وحتى اغتيال الملك عبدالله مؤسس الدولة الاردنية فى عام ١٩٥١ · والثانية : تبدأ منذ ١٩٥١ وحتى ١٩٥٦ والثالثة : منذ ١٩٥٦ الى ١٩٦١ حيث الانفصال وثم منذ ١٩٦١ وحتى ١٩٦٦ انشقاق حزب البعث فى القطر السوري ومن ١٩٦٦ الى ١٩٧١ الانشقاق الثاني لحزب البعث واستلام حافظ الاسد السلطة ومنذ ١٩٧١ ولغاية ١٩٧٦ حيث اعلان القيادة السياسية الموحدة بين القطرين ·

ان هذه الاطروحة تبحث فى العلاقات المتبادلة بين القطرين العربيين المتجاورين المملكة الاردنية الهاشمية والجمهورية العربية السورية منذ استقلالهما فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية · وقد خضعت هذه العلاقة منذ ١٩٤٦ ولغاية ١٩٧٦ لتقلبات كثيرة ، فلم يعد ما يعتبر بالامر المفاجيء اذا تغيرت العلاقة بين ليلة وضحاها نحو الافضل او الاسوأ ·

فخلال الفترة الزمنية الاولى اي منذ ١٩٤٦ ولغاية ١٩٥١ انطبعت العلاقات بالتوتر السياسي بناء على التدخل الاردني فى الشئون السياسية السورية بالدرجة الاساس ، حيث حاول الملك عبدالله من خلال اتصالاته مع الشخصيات السياسية وبعض المجاميع الشعبية تحقيق خططه القومية الوحدوية فى سوريا الكبرى · لكن الاوضاع السياسية الداخلية فى سوريا حالت دون تحقيق مشروع سوريا الكبرى ، من جانب كانت المعارضة القوية للاحزاب والزعماء المحليين والشخصيات العسكرية فى سوريا ومن الجانب الاخر لم يتمتع رجال السلطة فى الاردن بالقوة الضرورية للتنفيذ لغرض تحقيق اهداف السياسة الخارجية · ويعود هذا الضعف الى جذور الانتداب البريطانى الذى لم يُبق للدولة إلا التركيبة التبعية فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية ·

اضافة الى ذلك كان للموقع الجغرافى ـ السياسى الاردنى اثر فى تطور العلاقات مع سوريا · وكما بين هذا البحث فقد خضعت السياسة الخارجية الاردنية لمجموعة مؤثرات أهمها : التأثير الخارجي للقوى الاجنبية فى المنطقة مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية كما هو حال تأثير الدول المجاورة فى المنطقة مثل الكيان الصهيونى · وعلى مستوى آخر ومختلف فى اسبابه ونواياه هو تأثير الدول العربية مثل المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية والمملكة العراقية · وفى هذا السياق تبلورت على المستوى العربي الداخلي مقاومات متعددة ضد مشروع الملك عبدالله فى سوريا الكبرى قامت على اساس التنافس السياسي من ناحية وعلى اساس التقوقع القطري ذي الافق الضيق المناقض للمصالح القومية الاستراتيجية مكتفياً بتحقيق مصالح شخصية لبعض الفئات القائمة على السياسة ومتطابقا مع مصالح القوى الخارجية من ناحية اخرى ·

وامتازت الاحداث السياسية فى فلسطين خلال هذه المرحلة الزمنية بلعب دور مؤثر على تطور العلاقات المتبادلة بين الاردن وسوريا ٠ وبنفس الوقت انعكست الصراعات العربية الداخلية على مجريات الحرب العربية ـ الصهيونية فى آيار وتموز فى عام ١٩٤٨ التى تكللت بالفشل والهزيمة ، ولم يكن هذا العامل الوحيد بل كان من جملة عوامل مثل التبعية الاقتصادية والعسكرية وكمحصلة لها التبعية السياسية للدول الاستعمارية التى خلقت الكيان الصهيونى وتعمل جاهدةً من اجل المحافظة عليه ٠

وانعكست نتائج تلك الهزيمة سلبياً على العلاقات الاردنية ـ السورية حيث بدأت الفئة الحاكمة فى سوريا تبحث عمقا تحمله مسئولية فشلها السياسي وهزيمتها العسكرية فى فلسطين فوجدتها بشخص الملك الاردني ونظامه والقت عليه بكاهلها ٠ وحاولت الفئة السياسية فى سوريا مدعومة لنفس الاسباب من قبل أنظمة عربية اخرى مثل الملك فاروق توجيه الرأي العام فى اقطارها الى ان اسباب الفشل ليست في بنية انظمتهم وسياساتها التى سادها الغباء لانها لم تقم على اساس النظرة الاستراتيجية للامور وفقدانها اية صيغة من صيغ بعد النظر ٠

وعلى ضوء نتيجة الحرب ركزت السياسة الاردنية جهودها لضم القسم المتبقي فى فلسطين خارج الاحتلال الصهيونى خاصة المناطق التى كانت تحت سيطرة الجيش العربى والجيش العراقى واثارت هذه السياسة توترا حادا فى المنطقة العربية ، وتطابقت المواقف للحكومات السعودية والمصرية والسورية فى معارضة السياسة الاردنية ساعية لتحقيق صيغة بديلة لإنشاء دولة فلسطينية على مناطق فلسطين المتبقية ٠ على الرغم من ذلك استطاعت سياسة الملك عبدالله كسب قطاع كبير من الزعماء الفلسطينيين ووجهاء المناطق الريفية الذين اعربوا عن رغبتهم فى الالتحاق بالمملكة الاردنية طوعا ٠ وتم ضمها رسميا فى شهر نيسان ١٩٥٠ وحقيقة انه لولا تأييد الحكومة البريطانية وموافقة الكيان الصهيونى على ذلك لم يكن بمقدور هذه الخطوة ان ترى النور ٠ وكانت ردة الفعل العربية قوية على ذلك فحارب النظام السوري توحيد الضفة الغربية مع الاردن معتبرا اياها توسعية وفضل شكري القوتلي ان تتعامل الزعامات الفلسطينية مباشرة مع البريطانيين على التعامل مع الملك عبدالله من خلال هذه الوحدة ٠

لقد غيرت عملية ضم الضفة الغربية الى الاردن صورة التوزيع البشري فى المملكة الاردنية الامر الذي اثر فى عملية التحول الاجتماعى للمجتمع الاردنى وذلك من خلال تشكيل العنصر الفلسطينى غالبية المجتمع الاردنى ٠ وفى الجانب الاقتصادى تراكمت المشاكل الاقتصادية جراء ذلك وتفشت البطالة بين صفوف الشعب لا سيما المشردين فى المخيمات مما سهل للجانب السوري عملية استغلال الموقف لاهدافه السياسية واصبحوا ضحية لاعلامه المضاد للسياسة الاردنية ٠ واخذ النظام السوري بتقديم العون والتأييد للمعارضة الاردنية حتى تسنى اغتيال الملك عبدالله فى القدس بتاريخ ٢٠ تموز ١٩٥١ ٠

وفى المجال الاقتصادى فان التبادل التجاري سجل تطورا ملحوظا على الرغم من استمرار التوتر السياسي فى العلاقات منذ ١٩٤٦ وحتى اغتيال الملك لا سيما ان سوريا كانت شريكا تجاريا مهما بالنسبة للاردن وبالاخص بعد الحرب العربية الصهيونية حيث تحولت طرق التجارة الاردنية فى الموانىء الفلسطينية في حيفا وعكا الى الموانىء اللبنانية والسورية هذا من جانب ٠ ومن الجانب الاخر كانت سوريا تعتبر مصدرا مهما لكثير من البضائع الحيوية للسوق الاردنية مثل المواد الغذائية والحيوانات والحبوب والصناعات النسيجية مما كان له مردود ايجابي على الاقتصاد الاردنى والسورى ٠ ولم تستغل الفئات الحاكمة فى سوريا هذا العامل كأداة ضغط سياسية على السياسة الاردنية وتعليل ذلك يعود الى احتياج الفئات صاحبة المصالح التجارية فى سوريا الى اسواق لتعريف بضائعها إضافة الى الفوائد المالية التى كانت تجنيها على النقل والموانىء ٠

بعد اغتيال الملك عبدالله الذي ذهب ضحية لاهدافه السياسية كما ذهب ضحية غدر السياسة البريطانية وبعض حلفائها فى المنطقة العربية ، فقد دفع التطور السياسي الداخلي فى المملكة الاردنية بشكل ايجابي خلال الفترة الزمنية الممتدة منذ ١٩٥١ وحتى ١٩٥٦ عجلة بناء العلاقات وتطورها نحو الافضل مع الجمهورية العربية السورية ٠ فعمل الملك طلال الذي ورث العرش عن والده على الغاء مشروع سوريا الكبرى من البرنامج السياسى لحكومته وبدأ سياسة تقارب تجاه سوريا كما هو الحال تجاه المنافس التقليدي للبيت الهاشمى الملك عبدالعزيز آل سعود ٠

وعلى الصعيد الداخلي احدث الملك طلال اصلاحات دستورية جديدة اكثر ديمقراطية عما كانت عليه وضمنت حقوقا عامة للمواطنين كانت غير واردة فى الدستور اصلاً ٠ وكان الملك طلال يعارض السياسة البريطانية مقتديا بذلك نهج الملك غازي بن فيصل الاول فى العراق وكان على تناقض مع قائد الجيش العربى الفريق كلوب باشا البريطانى ، بنفس الوقت كان يعاني الملك طلال من

ازمة نفسية اخذت تتطور نحو الاسوأ ، الامر الذي فتح قريحة الفئة الحاكمة فى المملكة العراقية لأن تعرب عن رغبتها فى المشاركة فى حلقة الصراع العربي الدائر على الاردن التى كان للدور السورى فيها اثر كبير ٠ وباستلام الملك الشاب حسين بن طلال العرش فى عام ١٩٥٣ وضع حدا نهائيا للاطماع السورية والعراقية والسعودية فى الاردن ٠

وقد لعبت المتغيرات السياسية فى المنطقة العربية دوراً مهما فى ترتيب العلاقات العربية الداخلية مثل جلوس الملك فيصل الثاني على عرش العراق عام ١٩٥٣ وجلوس الملك سعود بن عبدالعزيز على عرش السعودية بعد وفاة والده وصعود الرئيس جمال عبدالناصر بعد الاطاحة بالملك فاروق اثر ثورة يوليو ١٩٥٢ ودوره فى السياسة العربية القومية ، وكذلك انهاء الدكتاتورية العسكرية لاديب الشيشكلي فى سوريا عام ١٩٥٤ وتشكيل حكومة وطنية أئتلافية نهجت فى سياستها الخارجية خطا قوميا تحرريا مناهضا لسياسة الاحلاف العسكرية الغربية واسهمت في تعميق العلاقات السياسية والعسكرية مع المملكة الاردنية على اساس التعايش السلمي والاحترام المتبادل والمصالح المشتركة ٠

وقد تأثرت السياسة الداخلية الاردنية بالتوجه القومي للسياسة السورية التى رأت من واجبها الاساسي العمل على تحقيق الوحدة العربية ٠ وعلى ضوء ذلك نهجت في سياستها الخارجية والاقليمية (المقصود بها محليا منطقة الشرق الاوسط) مبدأ عدم الانحياز وقاومت حلف بغداد ٠ وفي هذا الصدد كان حزب البعث العربي الاشتراكى أول حركة سياسية فى المنطقة العربية دعت الى سياسة الحياد بين المعسكرين العملاقين وازاء ما عُرفَ بالصراع الغربي ـ الشرقى ، وقد جاء ذلك موثقاً من خلال تصريح صلاح الدين البيطار لجريدة «البعث» يوم ٢٤ شباط ١٩٥١ (راجع نضال البعث ـ ج٢ ـ ص١٢٥ ٠٠٠الخ) ٠

وتطور هذا المفهوم بعد توقيع ميثاق حلف بغداد الى الحياد الايجابي الذي يعني مقاومة الاستعمار وبنفس الوقت رفض سياسة الاحلاف غربية ام شرقية توخيا للمحافظة على السلام العالمى ، واعتبر الحزب سياسة التعايش السلمي على المستوى العالمى ملائمة لدفع النضال ضد الاستعمار وضد التخلف فى العالم الثالث الى الامام وانتشار النظام الاشتراكى الذي يمنع استغلال الانسان والذي يشجع التعاون الدولي على اساس مبدأ التعامل بالمثل (انظر بيان الحزب حول الحياد الايجابي بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٥٥ فى نضال البعث ـ ج٣ ـ ص ٦١ ٠٠ الخ) ٠

ازاء مجمل هذه المتغيرات برز التنسيق المصرى ـ السعودى ـ السوري الذى انعكست آثاره على الظروف السياسية الداخلية فى الاردن لا سيما للدور الكبير الذى يمكن ان يلعبه الاردن فى مشكلة فلسطين ٠ فنمت الاحزاب السياسية وتوصلت الى المشاركة فى مجلس النواب وكسبت عناصر عسكرية داخل الجيش العربى ٠ كانت محصلة هذه التطورات ان استطاعت السياسة الداخلية الاردنية تسريح قيادة الجيش العربى الانكليزية واستبدالها بقيادة شبابية اردنية ٠

فى اذار عام ١٩٥٦ ومن خلال تعاظم وزن الاحزاب القومية على الساحة الاردنية الذي حظى بدعم الجيش العربى فرض توجيها معينا على السياسة الخارجية الاردنية وحال دون انضمام الاردن الى حلف بغداد ٠ واستطاع التيار الشعبى الداخلي ان يحتم التزام السياسة الخارجية الاردنية التنسيق مع دول المثلث العربى مصر والسعودية وسوريا ٠ وتعمقت العلاقات وعلى كافة الاصعدة مع القطر العربى السورى ٠ وعلى المستوى الداخلى عاش الاردن بحبوحة ديمقراطية تكللت بنجاح الاحزاب الوطنية فى انتخابات مجلس النواب فى تشرين أول ١٩٥٦ والتى على اثرها شكل زعيم الحزب الوطنى الاشتراكى سليمان النابلسي الحكومة الاردنية واستلم زعيم حزب البعث حقيبة وزارة الخارجية ٠ بنفس الوقت كانت وزارة الخارجية السورية من نصيب حزب البعث ايضا ٠ واستطاعت الحكومة الاردنية ان تحقق تعاونا وثيقا مع الجمهورية العربية السورية على اساس الثقة المتبادلة والمنفعة المشتركة فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية ٠ فعسكرت وحدات من الجيش السوري على الاراضى الاردنية لمجابهة اية اعتداءات صهيونية وأصبح القطر السوري المستورد الثاني بعد القطر اللبناني للمنتوجات الاردنية وبنفس الدرجة كانت سوريا ثاني بلد فى العالم مصدر للاردن وحافظ ميزان التبادل التجاري بين البلدين على زيادة لصالح الاقتصاد السوري ٠

وعقدت حكومة سليمان النابلسي العزم على انهاء المعاهدة الاردنية ـ البريطانية الموقعة فى عام ١٩٤٦ وكخطوة أولى اساسية لتحقيق هذا الهدف الوطني كان لا بد من تأمين المصدر المالي البديل ٠ فعقدت اتفاقية التضامن العربي بتاريخ ١٩ كانون ثاني ١٩٥٧ التى بموجبها التزمت السعودية ومصر وسوريا بدفع مبلغ ١٢٫٥ مليون جنيه استرلينى للميزانية الاردنية ولمدة عشر سنوات ٠ وعلى اثرها استطاعت الحكومة الغاء المعاهدة الاردنية ـ البريطانية بتاريخ ١٣ اذار ١٩٥٧

وانهت القواعد العسكرية البريطانية وأجليت القوات البريطانية عن الاردن · وجاءت هذه الخطوة على ضوء حرب السويس لتشكل انتكاسة جديدة للسياسة البريطانية فى المنطقة حيث انحصر النفوذ البريطانى فى المملكة العراقية وامارات الخليج العربى ·

انعكست الاحداث السياسية فى المنطقة العربية على الوضع السياسي الدولى · فخشيت الادارة الامريكية على المصالح الامبريالية الاستراتيجية فى المنطقة العربية الامر الذي دفع الرئيس ايزنهاور فى الخامس من كانون الثاني عام ١٩٥٧ لان يتقدم بمشروع يقضى الى ربط دول المنطقة بالامبريالية الامريكية تحت شعار «سد الفراغ» وكأن المنطقة العربية فارغة من السكان والقوى المحلية او وكأنه قرار الهى يقضي بان تخضع على الدوام هذه المنطقة لنفوذ قوة خارجية · وأدى طرح هذا المشروع الى انقسام فى الصف العربى حيث وافق عليه غالبية الدول العربية ودولة الكيان الصهيونى وانحصر الرفض فقط بدولتى مصر وسوريا · وبقبول الاردن هذا المشروع الذى رافقته تطورات سياسية داخلية أدت الى استقالة وزارة سليمان النابلسي عاد التوتر الشديد يسيطر على العلاقات الاردنية - السورية واوقفت كل الخطوات التنسيقية والتعاون الذى كان قائما ·

وخلال هذه المرحلة الزمنية منذ ١٩٥٦ وحتى ١٩٦١ حدثت تطورات سياسية داخلية فى سوريا انعكست مباشرة على العلاقات الثنائية بين الاردن وسوريا · فنمى دور الاحزاب القومية وزاد نفوذ الحزب الشيوعى السورى فى الجيش وتعمقت الصلات بين السياسة الخارجية المصرية والسياسة الخارجية السورية إذ شددا على نهجهما المعارض للامبريالية الامريكية وفتح باب التعاون مع الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكى · وادى تعميق هذا التعاون الى اندفاع سوريا لعقد ميثاق الوحدة مع مصر بتاريخ ١ شباط ١٩٥٨ · وشكلت الوحدة خطرا مفاجئا على بعض الدول العربية مثل لبنان والمملكة العراقية والمملكة الاردنية والمملكة العربية السعودية الامر الذى دفع السياسة الاردنية لعقد الاتحاد العربى مع المملكة العراقية بتاريخ ١٤ شباط ١٩٥٨ بناء على ظروف سياسية داخلية موضوعية ولم يتمكن الاتحاد العربى فى الاستمرار لوقوع الثورة بتاريخ ١٤ تموز ١٩٥٨ التى قضت على النظام الملكي وسيطر توتر شديد على المنطقة هدد الاستقرار والنظام فى المملكة الاردنية الهاشمية · واغلقت الجمهورية العربية المتحدة حدودها البرية والجوية مع الاردن وكذلك تبعتها الجمهورية العراقية وخلقت بذلك عزلة سياسية وازمة اقتصادية خانقة مما استوجب استدعاء قوات أجنبية الى الاردن ·

واستطاعت الحكومة الاردنية بحكم علاقاتها مع الولايات المتحدة الامريكية ان تفك الحصار الاقتصادى من خلال نقل الطائرات الامريكية الوقود من الخليج العربى ثم من لبنان الى الاردن ·

ولم ينته عام ١٩٥٨ حتى بدأت بوادر سياسية ايجابية تظهر فى المنطقة لصالح السياسة الاردنية وذلك بناء على الصراع الذى نشب بين عبدالكريم قاسم فى العراق وجمال عبدالناصر فى الجمهورية العربية المتحدة · واستثمرت السياسة الاردنية هذا الصراع لصالحها لا سيما انها كانت تعي ضعف تأثير نهج عبدالكريم قاسم على جماهير الشعب الاردنى فيما إذا قورن بتأثير جمال عبدالناصر فأعادت العلاقات الدبلوماسية مع بغداد ووقعت اتفاقا اقتصاديا مباشرةً فى تشرين الاول عام ١٩٦٠ مع الحكومة العراقية ·

وفى الاقليم الشمالي فى الجمهورية العربية المتحدة تفاقمت الامور بازدياد عدد المشاكل الاقتصادية والسياسية وظهرت الانفرادية والاضطهاد السياسى للاحزاب بموازاة جهود القوى الخارجية المعادية للوحدة العربية ، وسيطرت حرب اعلامية بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة من جهة وبين الجمهورية العربية المتحدة والعراق من جهة ثانية وبين المتحدة والسعودية من جهة ثالثة · وازداد التوتر حدةً عندما اقدمت بعض أجهزة الامن فى الاقليم الشمالى على تفجير مبنى رئاسة الوزراء الاردنى مستهدفة قتل رئيس الوزراء هزاع المجالى بتاريخ ٢٩ آب ١٩٦٠ وعلى الرغم من ذلك فقد باءت بالفشل كل المحاولات التى استهدفت الاطاحة بالنظام الاردنى ·

ولم يشكل هذا التناقض المستمر بين سياسة الجمهورية العربية المتحدة وسياسة المملكة الاردنية الهاشمية عائقاً امام تنسيق بعض الخطوات تجاه موقف سياسى عربى ثالث فيما إذا كان خطره يعود على الاثنين سويا وظهر هذا التطابق إزاء ازمة الكويت عندما طلبت الانضمام الى الجامعة العربية بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٦١ بعد حصولها على الاستقلال وعارض ذلك عبدالكريم قاسم معلنا رغبته فى ضم الكويت الى الجمهورية العراقية · وفى ٢٠ تموز ١٩٦١ وافقت الجامعة العربية على عضوية الكويت وللحيلولة دون استدعاء قوات بريطانية لحماية الكويت امام نزعات عبدالكريم قاسم قررت الجامعة ارسال قوات عربية من السعودية والجمهورية العربية المتحدة والمملكة الاردنية · وهكذا التقت مصلحة الطرفين ضد طرف ثالث واعادت هذه الخطوة الاعتبار للدور الاردنى فى التأثير على الاستقرار لدول المنطقة العربية ·

ورغم ظهور بعض أوجه التعاون المحدود بين الاردن والجمهورية العربية المتحدة فانه لم يلغ الخطر الذى كان يهدد أمن واستقرار النظام الاردنى استراتيجيا من قبل الجمهورية العربية المتحدة . هذا العامل دفع الحكومة الاردنية للنشاط بالاتجاه المضاد اضافة الى العوامل الداخلية التى اشرت اليها سابقا لتضع نهاية مأساوية بتاريخ ٢٨ أيلول ١٩٦١ لتجربة قومية فريدة تعتبر الاولى من نوعها فى هذا القرن على المستوى العربى ، من خلال الجيش الذى أعلن انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة . وبانتهاء الوحدة بدأت مرحلة جديدة اعادت الى العلاقات الاردنية ـ السورية فى المجالين السياسى والاقتصادى إلى حيويتها .

وسجل تاريخ العلاقات الثنائية بين الاردن وسوريا خلال مرحلة ما بعد الوحدة أى منذ ١٩٦١ ولغاية ١٩٦٦ مستوى جديداً فى تطور وتعميق العلاقات . ففى البداية التزمت السياسة الخارجية الاردنية دعم السياسة السورية ضد الجانب المصرى على مستوى الجامعة العربية ، كما وظهر التطابق فى المواقف السياسية بين الاردن وسوريا إزاء ثورة اليمن بتاريخ ٢٧ أيلول ١٩٦٢ عندما طالبت الدولتان الدول العربية الاخرى بالالتزام بعدم التدخل فى شئون اليمن الداخلية . وفى مجال السياسة الداخلية السورية طرأت متغيرات سياسية اضافة الى المتغيرات المستمرة فى المنطقة العربية ، فبعد استلام حزب البعث السلطة فى العراق بتاريخ ٨ شباط ١٩٦٣ وإطاحته بحكم عبدالكريم قاسم ، استطاع الحزبيون العسكريون بتاريخ ٨ أذار ١٩٦٣ الاستيلاء على السلطة فى دمشق بالتعاون مع بعض العناصر المؤيدة لنهج الزعيم المصرى جمال عبدالناصر . وانعكس هذا التطور السياسى على النهج السياسى الداخلى الاردنى وبالاخص بعد توجه كلتا الحكومتين البعثيتين فى بغداد ودمشق للتباحث مع القاهرة بشأن وحدة ثلاثية . ونتج عن تلك المباحثات توقيع اتفاق ١٧ نيسان ١٩٦٣ الذى بقي حبراً على ورق لأسباب عديدة وكان أهمها الصراع الذى نشب على السلطة فى دمشق بتاريخ ١٨ تموز ١٩٦٣ وتبعه فى بغداد بتاريخ ١٨ تشرين الثانى فى نفس العام ، وبدأت على اثرها حرب باردة بين بغداد ودمشق والقاهرة وبين القاهرة والرياض وبين القاهرة وعمان . ازاء هذه الصورة للحرب الباردة العربية اندفعت العلاقات الاردنية ـ السورية نحو الافضل وساهم رئيس الجمهورية العربية السورية أنذاك الفريق محمد أمين الحافظ فى دفع العلاقات السورية مع الاردن الى مستوى جيد رغم ظروفه السياسية الداخلية الصعبة معبرا بذلك عن تقديره السليم للظروف القومية ، وكان ينشد زيارة الاردن وبالاخص الاطلاع على الظروف العسكرية فى الضفة الغربية التى لم يكن بمقدوره تحقيقها ، ووصلت العلاقات بين البلدين حتى بداية عام ١٩٦٦ الى أفضل مستوى وصلت اليه منذ الاستقلال .

وفى المرحلة الزمنية منذ ١٩٦٦ وحتى ١٩٧١ ساد طابع التوتر فى العلاقات الثنائية ، حيث رافقت مسيرة حزب البعث العربى الاشتراكى فى القطر السورى صراعات حادة على السلطة بين أعضاء الحزب العسكريين والمدنيين تلك التى تبلورت فى بروز فريقين احدهما التف حول الفريق محمد أمين حافظ وايدت هذا الفريق القيادة القومية للحزب والاخر التف حول اللواء صلاح جديد والذى ايده فريق قوى من القيادة القطرية والضباط العسكريين ، ولم يقدر الفريق الاول على تصفية حسابه مع الفريق الاخر خشية ضرب مبادىء الحزب ونظامه الداخلى التى لم يأبه بها الفريق الثانى ، فقاد انقلابا عسكريا مسلحاً ضد رفاقه وارغمهم على التنازل عن السلطة بتاريخ ٢٣ شباط ١٩٦٦ ، واستطاع الانقلابيون ان يفرضوا سيطرتهم على الحزب والجيش والمنظمات الجماهيرية ، كما استطاعوا من خلال رفع شعارات يسارية طفيلية هدفت الى تخذير الجماهير العربية السورية ان يُحققوا لانفسهم قسطا من «الشرعية» وبناء عليها توسعوا فى العلاقات مع دول المعسكر الاشتراكى .

وفى مجال السياسة الخارجية للحكومة السورية تجاه الدول العربية خطت لنفسها نهجا بعيدا عن الواقعية ، ذلك الذى قسم المنطقة العربية الى معسكرين : الاول المعسكر التقدمي وضم سوريا ومصر والجزائر والمعسكر الرجعى وضم الاردن والعربية السعودية والاقطار العربية الاخرى . وشكل هذا الطراز فى التخبط فى السياسة العربية محاولة جر انظار الجماهير العربية السورية الى أزمات مفتعلة خارجية وابعاد انظارها عما يجري من صراعات داخلية على السلطة ، حيث وقعت عدة محاولات انقلابية كان أهمها محاولة الرائد سليم حاطوم فى ايلول ١٩٦٦ والتى اضطر على اثرها الى اللجوء مع اعوانه الى الاردن ، وعلى اثرها صعدت الفئة السياسية فى دمشق حربها الاعلامية ضد الاردن والعربية السعودية وكأن هجوم الاذاعات والجرائد يُشبع بطون الجماهير خبزا ويشكل لها سلاحاً تدافع به عن نفسها امام الاجتياح الصهيونى الذى بات ينتظر فرصته المناسبة ، وساد التوتر فى العلاقات المتبادلة شبيهاً بذلك الذى ساد خلال السنوات ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ ، مارست السياسة السورية التدخل فى شئون الاردن الداخلية مستغلةً بذلك ولادة حركة التحرر الوطنى الفلسطينى ونشاطها المسلح ضد الكيان الصهيونى عبر الاراضى الاردنية .

وعلى الرغم من قدسية النضال الفلسطينى المسلح إلا ان الفئة الحاكمة فى دمشق آنذاك لم تهدف من خلال دعمها له إلا لخلق توتر ومصاعب سياسية بين أبناء الشعب الواحد من جهة ومن جهة ثانية تحديا عسكريا للكيان الصهيونى تتحمل مسئوليته الحكومة الاردنية لوحدها • وقد بذلت السياسة الخارجية الاردنية جهدا لتوفير أرضية صالحة لتنسيق عربى جماعى ، وتحطم التصور الاردنى على صخرة التقدمية للحكومة السورية •

وبعد معركة السموع فى الضفة الغربية التى حقق بها العدو الصهيونى نصرا على القوات الاردنية تطور رد الحكومة السورية بشكل دراماتيكى حيث ركزت جل اهتمامها لمهاجمة النظام الاردنى واغلقت الحدود مع الاردن ودخلت الحرب الباردة مرحلة جديدة بقيام المخابرات السورية بعملية تفجير نقطة الحدود الاردنية فى الرمثا بتاريخ ٢١ أيار ١٩٦٧ • وقد رافق حملة التوتر فى العلاقة مع الاردن حملة اعلامية رسمية عن تحشدات صهيونية على الجبهة السورية • وأثار التوتر الشعبى الداخلى فى الاردن توترا فى العلاقات الاردنية - المصرية • واستطاعت السياسة السورية بذلك نصب فخ لنظام جمال عبدالناصر دافعة اياه الى احد امرين لا ثالث لهما اما ان يقدم على تصعيد المجابهة حتى الحرب مع الكيان الصهيونى واما ينفضح امره امام الجماهير العربية التى علقت عليه الآمال فى تحرير فلسطين وتنتهى بذلك امام اليسار المتطرف اكبر عقبة • ورغم محاولة عبدالناصر الالتفاف على الفخ المنصوب له إلا ان العدو الصهيونى كان اوعى كثيراً فاستغل الظروف السياسية المحلية والدولية ووجه ضربة عسكرية شاملة بتاريخ ٥ حزيران ١٩٦٧ محققا نصرا حاسما على الانظمة العربية فى مصر والاردن وسوريا • وثبت فشل السياسات العربية • وبعد الهزيمة وافقت السياسة المصرية والاردنية على قرار مجلس الامن الدولى رقم ٢٤٢ ووقفت منه السياسة السورية موقف المعارض كما عارض المنظمات الفلسطينية المقاتلة التى انتشرت على الساحة الاردنية بعد الهزيمة • ودعمت السياسة السورية المنظمات الفلسطينية بنفس الوقت خلقت تنظيما فلسطينيا تابعا لها مباشرة وركزت على ممارسة هذه المنظمات نشاطاتها على الساحة الاردنية وعبر الحدود الاردنية الى الكيان الصهيونى • وزاد من خلال ذلك التدخل السورى فى الشئون الداخلية الاردنية • ومما يجدر الانتباه اليه انه فى هذه المرحلة استطاع حزب البعث ان ينتزع السلطة فى العراق بتاريخ ١٧ تموز ١٩٦٨ واخذت السياسة العراقية تلعب دوراً اكثر فعالية عما كانت عليه لا سيما انها كانت على تناقض مع السياسة السورية • وفى هذا السياق شعرت الفئة الحاكمة فى سوريا بتحدٍ جديدٍ على المستوى الحزبى فأعلنت حربا اعلامية ضد السياسة العراقية •

وعلى اثر حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية والاردنية قبلت السياسة المصرية مشروع روجرز فى تموز ١٩٧٠ الذى نص على وقف القتال لفترة محدودة • وشكل قبول عبدالناصر لوقف اطلاق النار نموذجا يحتذى به على الجبهة الاردنية لا سيما انها كانت تعاني من كثرة الاعتداءات الصهيونية حيث بلغت خلال عام واحد منذ ١٩٦٩/٦/٥ الى ١٩٧٠/٦/٥ ٤٥٩ اعتداء (جريدة البعث السورية بتاريخ ١٩٧٠/٦/٧) وبنفس الشهر وافقت السياسة الخارجية الاردنية على قبول المشروع الامر الذى استوجب وقف العمليات المسلحة من خلال الاراضى الاردنية • وحاربت السياسة السورية مشروع روجرز وقبوله وساهمت فى تصعيد التوتر الشعبى الداخلى فى الاردن وساندت سياسة المنظمات الفدائية داخل الساحة الاردنية بنفس الوقت الذى حرمت عليها الشروع فى تنفيذ عمليات عسكرية من خلال الجبهة السورية رغم استمرارية حالة الحرب بين سوريا والكيان الصهيونى •

ودفعت السياسة السورية تلك الى الصدام العسكرى بين المنظمات الفدائية والجيش العربى عام ١٩٧٠ وفرضت حصارا اقتصاديا على الاردن والغت الاجواء السورية امام الملاحة الاردنية واغلقت الحدود • ودفعت بتاريخ ١٨ أيلول ١٩٧٠ بقوات عسكرية الى الاراضى الاردنية الواقعة على الحدود متجاهلة بذلك ظروفها السياسية الداخلية والصراعات الحادة على السلطة فى دمشق من جانب والظروف الدولية الصعبة من جانب اخر • وكسبت السياسة الاردنية الجولة مما سهل مهمة انقضاض الفريق حافظ الاسد بتاريخ ٦ تشرين الثانى ١٩٧٠ على رئيس الجمهورية نور الدين الاتاسي واعوانه اللواء صلاح جديد ويوسف زعين وأودى بهم إلى السجن فاتحا الباب امام امل اردنى فى تحسين العلاقات الثنائية بين القطرين • وبعد ان استتب الامر فى الداخل لصالح الفريق حافظ الاسد بدأت بوادر مرحلة جديدة تظهر فى العلاقات الثنائية فركزت السياسة الاردنية على رفع الحصار الاقتصادى وفتح الحدود والاجواء السورية واستجاب الرئيس حافظ الاسد بتاريخ ٣٠ تشرين الثانى ١٩٧٢ معلنا فك الحصار وبدأت تقدم تسهيلات لشحن الفوسفات الاردنى وحركة النقل البرى من خلال سوريا •

وفي السياسة الداخلية نهج الفريق حافظ الاسد سياسة اقتصادية اكثر ليبرالية من سابقيه وفتح المجال لحرية الاستثمار واحدث تعديلات دستورية مهمة وانشأ الجبهة الوطنية التي ضمت حزب السلطة والحزب الشيوعي وقوى وافراد اخرين · وفي اطار الحزب والجيش ركز على الغاء مراكز القوى وحصر أهم الصلاحيات في يده وجزء منها أولاه الى بعض الفئات المعينة ذات المصالح المشتركة ·

اما فيما يتعلق بسياسة القطر السوري تجاه الكيان الصهيوني والاراضي السورية المحتلة تبلور هناك موقف لدى القيادة السياسية بانه لا بد من تحريك الموقف السياسي العربي والدولي من اجل التوصل الى حل سياسي يعيد مرتفعات الجولان التي تشكل تحدٍ لاي جهة تستلم السلطة في دمشق وكذلك حل مرضٍ للقضية الفلسطينية ضمن استعداد السياسة السورية للاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني والعيش الى جواره بسلام · هذا المنطلق حتم تعميق العلاقات مع مصر لتحريك حرب ضد الكيان الصهيوني تكون محددة الاهداف · وامتنع الاردن منذ البدء المراهنة على السياسات العربية بناءً على تجاربه السابقة عام ١٩٦٧ · لكن الموقف السوري كان بحاجة الى اجراء مصالحة ثلاثية بين سوريا ومصر والاردن مما اظهر تفهما للموقف الاستراتيجي الاردني · الا ان ظروف الاردن الداخلية دفعت الحكومة الى المشاركة العسكرية ولو بطريق غير مباشر اي من خلال دعم الجبهة السورية مما كان له اثر طيب في تعميق العلاقات وسجلت مؤشرا تضامنيا لم يشهده تاريخ العلاقات الاردنية ـ السورية منذ عهد الاستقلال · ومما عمل على تعميق التقارب الاردني ـ السوري بعد حرب تشرين هو سلوك السياسة المصرية نحو الحل المنفرد مع الكيان الصهيوني بدأ باتفاقية سيناء الاولى عام ١٩٧٥ · ولعبت السياسة العراقية دوراً مؤثراً حيث عارضت النهج المصري والسوري بعد وقف اطلاق النار ·

واستمر التقارب الاردني ـ السوري في التطور وتبلور التطابق في مواقف البلدين تجاه تصور حل القضية الفلسطينية حيث سجل الموقف السوري الجديد تراجعا عن الموقف القومي التقليدي لسوريا مما شكل أرضية خصبة لترسيخ العلاقات وعلى كافة الاصعدة حتى تكللت بتشكيل القيادة السياسية الموحدة للبلدين عام ١٩٧٦ · وأصبحت الزيارات الرسمية على رؤساء الدوائر والوزارات ورؤساء الحكومات وزعماء الدولتين حالة اعتيادية فيما إذا قورنت بالمراحل السابقة · فمنذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٧٢ لم تحصل اية زيارة على مستوى زعماء الدولتين او رؤساء الحكومات · وخلال الفترة الزمنية الممتدة بين عام ١٩٧٣ وحتى ١٩٧٦ زار الملك حسين دمشق ١٢ مرة بينما زار الرئيس حافظ الاردن خمس مرات · وعلى مستوى رؤساء الحكومات فقد تمت ١٣ زيارة من الجانب الاردني و٨ زيارات من الجانب السوري ·

ومن نتائج هذا البحث ان العلاقات العربية الداخلية بشكل عام وضرورة تطويرها يتوقف بالدرجة الاساس على الموقف الشخصي والعقائدي لكل حاكم ، ذلك لان أنظمة الحكم القائمة هي شبيهة بالانظمة الابوية «البتريمونياله» · وبالتحديد فيما يخص العلاقات الاردنية ـ السورية فقد خضعت للقرار السياسي المركزي باستثناء بعض المراحل في سوريا مثل ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ لان القرار المركزي كانت تتنازعه عدة مراكز قوى · وتتحمل الانظمة العربية مسئولية المطالبة والتنفيذ في برامج تحسين العلاقات العربية الداخلية وتعميق التعاون والعمل العربي المشترك وعلى كافة الاصعدة بناء على قواعد الاحترام المتبادل وحق التعايش بسلام وتحريم التدخل في الشئون الداخلية لاي بلد ·

ولقد ثبت لنا انعدام المساهمة الشعبية الفعلية في الاردن وفي سوريا ـ باستثناء المرحلتين المذكورتين أعلاه ـ في عملية اتخاذ القرار السياسي ·

وان ظهور المشاركة الشعبية الشكلية خضعت لظروف سياسية داخلية آنية او عالمية اقتضتها متطلبات السياسة الخارجية · ومما يسجل في هذا الصدد انه خلال فترة البحث لم يظهر هناك أي نشاط للجماهير الشعبية على صيغة مظاهرات او اضرابات او مؤتمرات ·· الخ في القطرين · هذا يعني ان الدوافع الاقتصادية والسياسية لم تؤطر في سبيل بناء وتعميق العلاقات العربية بين البلدين ·

وفي المجال الاقتصادي خضعت العلاقات بين البلدين الى القرار السياسي المركزي خلال مرحلتي الاربعينات والخمسينات ولكن بعد بناء وتوسيع ميناء العقبة المنفذ البحري الوحيد للمملكة الاردنية خفت درجة اهمية الموانيء السورية كما هو حال الطريق البري السوري مما أدى الى ضعف تأثيره على القرار السياسي · حيث كان الاقتصاد الاردني قبل ذلك رهين الموانيء السورية واللبنانية وظروفها السياسية لان استيراد مواد الطاقة والمواد الغذائية والصناعات الضرورية الاخرى كما هو حال تصدير الفوسفات والاسمنت وزيت الزيتون والتبال مرتكزا عليها · وخلال الستينات والسبعينات تطورت العلاقات الاقتصادية بين البلدين على اساس قاعدة تبادل المصالح الاقتصادية الخالصة على الرغم من ظهور

بعض الازمات السياسية التى أدت الى الحصار الاقتصادى عام ١٩٧١/١٩٧٢ ٠ وسجلت التجارة الخارجية بين البلدين انتعاشا ملحوظا ٠ اذ بلغت صادرات القطر السورى فى عام ١٩٤٦ الى الاردن بقيمة ٥٫٢٧٢٫٠٠٠ مليون ليرة سورية واستورد من القطر الاردنى ما قيمته ٣٫٩٤٧٫٠٠٠ مليون ليرة سورية ٠ وفى عام ١٩٧٦ بلغت واردات القطر الاردنى فى سوريا ٧٫٤٠٠٫٠٠٠ مليون دينار حيث كانت سوريا على المرتبة الثالثة عشرة بالنسبة للدول المصدرة الى الاردن ٠ لكن إذا قورن هذا المبلغ بالمجموع العام للاستيراد الاردنى الذى بلغ ٣٣٩٫٥٠٠٫٠٠٠ مليون دينار فان نسبته قليلة حيث لم تتعدَّ ٢٫١٨٪ ٠ اما صادرات الاردن الى سوريا فقد بلغت ٦٫٣٩٢٫٣٠٠ مليون دينار حيث كان القطن السورى على المرتبة الثانية بالنسبة للدول المستوردة من الاردن ٠ واذا قورن بالمجموع العام للصادرات الاردنية الذى بلغ ٤٩٫٥٥٢٫٢٠٠ مليون دينار فان نسبته مرتفعة حيث سجلت ١٢٫٩٪ ٠

وانعكس نشاط الحركة الاقتصادية على الحركة السياحية والاجتماعية بين شعبى القطرين ٠ وسبب الاستقرار السياسى فى الاردن نموا اقتصاديا استدعى تشغيل ايدى عاملة من خارج القطر وبالاخص من القطر المصرى والقطر السورى ٠

وفى المجال الثقافى كانت تشكل الجامعات والمعاهد السورية مركز استقطاب مهم للطلبة الاردنيين وحافظت لفترات زمنية مختلفة على المركز الثالث بعد مصر ولبنان ٠ وفى المجال الاعلامى تطور التنسيق بين البلدين بعد حرب تشرين مسجلا اسلوبا نموذجيا فى تبادل البرامج التلفزيونية والاعلامية ٠ وفى حقل التربية والتعليم تم توحيد المناهج المدرسية ولو انه اقتصر على بعض الصفوف الابتدائية إلا انه يشكل خطوة وحدوية جديرة بالتطوير والتعميق وتوسيعها على البلاد العربية الاخرى ٠

العراق وسوريا ١٩٤١

تأليف : جفرى ورنر
ترجمة وتقديم :

د٠محمد مظفر الادهمي

عرض وتلخيص :
سعد مخيبر

هو دراسة متعلقة بالمحتوى السياسى والاستراتيجى لحملات الحلفاء العسكرية فى العراق وسوريا عام ١٩٤١ ، وقد اعتمد الكتاب المصادر الوثائقية الموجودة فى مركز وثائق الكومنويلث فى استراليا ، وفى وزارة حرب المملكة المتحدة ولجنة الدفاع لفترة نيسان ـ مايس ١٩٤١ ، وفى مكتبة وزارة الخارجية والكومنويلث فى لندن ٠ ان هذا الكتاب يؤكد وبالوثائق ان الثورة فى العراق لم تقم باوامر من دول المحور ، وان اتصال الثوار بالمحور لم يكن الا للحصول على المساعدة العسكرية لضمان استقلال العرب ووحدتهم ، وابعاد شبح الصهيونية الذى كان يهدد باغتصاب فلسطين ٠

«ان المسرح الرئيسى الوحيد للحرب فى سنتى ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ، الذى يمكن التنبوء به ، هو الشرق الاوسط» هكذا كتب تشرشل فى ٣ ايلول ١٩٤٠ ٠ ومن هنا كانت اهمية السيطرة البريطانيـة على الشرق الاوسط وضروريتها لاتمام الحصار الاقتصادى على دول المحور ٠ وهو ما اكده الجنرال ويفل لحماية حقول النفط الشرق اوسطية كيلا تصل اليها يد المانيا حين تحس بنقص فى الموارد النفطية ٠

فحقول النفط العراقية والايرانية ، والخط العراقى النفطى الذى يمتد الى حيفا فى فلسطين التى تمثل هى وسوريا اهم المواضع الدفاعية الشمالية ، وقناة السويس ، ومصر والسودان حيث تتواجد القوات البريطانية الرئيسية ، وعدن الضرورية لادامة الاتصالات فى البحر الاحمر ٠ كل هذا جعل بريطانيا تعجل فى ضمان امن المنطقة وبعدها عن متناول اليد الالمانية ويوضح المؤلف ايضا فى فصله الاول الذى عنوانه «الحرب تصل الى الشرق الاوسط» ، ان ايطاليا على الجانب الآخر كان لها نفس الاهتمام بالمنطقة ، وكان هذا هو رأى المانيا ايضا لانها كانت تنوى «توسيع الحرب فى المحيط الخارجى» حسبما كتب الجنرال جودل فى مذكراته عام ١٩٤٠ ٠

وفى الفصل الثانى الذى جاء بعنوان «تصريح المحور فى ٢٣ تشرين اول ١٩٤٠» سلط المؤلف الضوء على هذا التصريح بعد ان وضح كيف ان القوميين العرب وعلى رأسهم رشيد عالى الكيلانى ومفتى القدس ، قد حسبوا خطورة النظرة المستقبلية البريطانية فى المنطقة ، فحثوا الخطى للتعاون مع دول المحور «المانيا وايطاليا» من اجل الحصول على الاستقلال الكامل للمنطقة ، فاوفدوا عثمان حداد للتباحث مع الحكومتين والحصول منهما على تصريح يعترف بالسيادة العربية على المنطقة وبالاستقلال التام للاقطار العربية ، وتعثر طلب عثمان حداد بين مصالح دول المحور وبين حاجة العرب الى السلاح للقيام بانتفاضة عامة تشل حركة القوات البريطانية فى المنطقة حتى تسلم التصريح الالمانى الذى نصه : «ان المانيا التى تكن مشاعر الصداقة للعرب والتى تحدوها الرغبة فى ان يتمتعوا بالرخاء والسعادة ويحتلوا بين شعوب الارض المكانة التى تتناسب مع اهميتهم التاريخية والطبيعية ، قد نظرت دائما وباهتمام الى كفاح الاقطار العربية فى سبيل الحصول على استقلالها ان بامكان الاقطار العربية التى تبذل الجهود لتحقيق هذا الهدف ان تحسب الآن وفى المستقبل حساب التعاطف التام لالمانيا معها» ٠

وقد ثبت اسم ايطاليا بدلا من المانيا فى النسخة الايطالية للتصريح الذى كان من المؤمل فى حالة نشره

بالصيغة التى قدمها حداد ان تعلن الاقطار العربية المستقلة الحياد التام · ويستمر المؤلف فى سرد خطط هتلر الاستراتيجية لاحتلال العالم حتى يصل الى عزل رشيد عالى من رئاسة الوزارة بضغط بريطانى ·

ويبدأ الفصل الثالث تحت عنوان «مقدمة الثورة» باستفاضة المؤلف فى شرح الحيثيات التى جعلت من المنطقة العربية مكاناً متزايد الاهمية بالنسبة للقوى المتحاربة ، ويرجع بنا بعد ذاك الى قضية تنحية رشيد عالى وتكليف طه الهاشمى برئاسة الوزارة ، ليعود الكيلانى بعد ثلاثة شهور ليرأس حكومة الدفاع الوطنى التى قامت يوم ٣ نيسان ١٩٤١ بثورة مفاجئة جعلت الوصى يفر هاربا الى عمان ويذكر لنا المؤلف ان عثمان حداد لم يثنه برود المحور فى مهمته الاولى حتى يقوم بثانية ويحصل من المانيا وايطاليا على الاعتراف الكامل باستقلال الاقطار العربية والمطالبة بالحصول على الاستقلال لتلك التى لم تحصل عليه ووعودا بالتعاون والمساعدة ·

وبعد شهر من تربع الكيلانى على كرسى الحكومة العراقية ، وباحتمال مضلل فى مساعدة المانيا له فى خطته ، يشن هجوما فى ٢ مايس ١٩٤١ على القوات البريطانية المتواجدة فى البصرة والاتية من الهند ، ويعلن الحرب عليها ويقطع العلاقة ببريطانيا ، ويظل بجيش العراق بقيادة العقداء الاربعة ، ويأتيه المدد الالمانى بقطار محمل بالاسلحة والاعتدة تلاه سربان من الطائرات المقاتلة ، ولكن المدد يتوقف ، ويظل الكيلانى حائرا فى عدم قدرته على الصمود امام المدد البريطانى المتمثل باسراب الطائرات والجيش القادم عبر الحبانية ، فيضطر بعد مقاومته لاقل من شهر الى الهرب هو ورفاقه خارج العراق ، وفشلت الثورة التى اعتبرها العرب الطريق المشع لنيل الحرية والاستقلال وقد لخص الفيلد مارشال الالمانى كيتل اسباب انهيار الثورة بما نصه ·

«لقد هاجمت الحكومة العراقية البريطانيين فى وقت مبكر جدا · ولم يكن الدعم جاهزا مسبقا كانت المانيا وايطاليا قد قررتا تقديم المساعدة الفعالة الممكنة · الا ان ذلك لم يتم بسبب الانهيار السريع للمقاومة وفى وجود صعوبات لنقل القوات والاسلحة والتجهيزات» ، وهكذا كتب للتدخل العسكرى البريطانى فى العراق النجاح ، هذا ما تابعه المؤلف فى فصله الرابع الموسوم «الحملة العسكرية على العراق» · ويتناول فى الفصل الخامس والاخير «الحملة العسكرية على سوريا» ·

وامام رأى مارشال الجو البريطانى تدر : «ان امتلاك قوى المحور لسوريا سيمكنهم من الحصول على سيطرة جوية تامة فى الشرق الاوسط» وامام اعداد الطائرات الالمانية الموجودة فى سوريا والتى جاءت اصلا كمدد لثورة العراق لم يصل الى هدفه فى الوقت المناسب ، وامام اهمية موقع سوريا القريب من العراق وفلسطين ومصر وقناة السويس ، لم يكن فى يد بريطانيا الا ان تعد العدة لتدخل عسكرى بريطانى فى سوريا ، فوضعت الخطط العسكرية لغزو سوريا ، وبمعونة القوات الاسترالية وقوات فرنسا الحرة نفذت غزوا لسوريا ولقوات الانتداب الفرنسى المتواجدة فيها يوم ٨ حزيران ١٩٤١ لتسقط دمشق فى ٢١ حزيران ١٩٤١ بعد القضاء على المقاومة الفرنسية ·

واخيرا لا يسعنى الا ان اشد على يد الدكتور الادهمى لبذله هذا الجهد الجاد فى تقديمه شهادة اخرى الى المكتبة العربية تؤكد استقلالية العراقيين فى اتخاذ القرار وحقيقتهم فى الانتماء للقومية الاصيلة ، ودفاعهم عن الوحدة العربية ·

وهو الذى عمل فى مقدمته المشوقة على ابراز دور قادة حركة الاحياء العربى ـ الذين يطلق عليهم «البعثيون الاوائل» ـ فى دعم الثورة فى العراق بتشكيلهم حركة نصرة العراق ·

وان الادهمى لا يؤازر المؤلف فى سرده للحقائق فحسب بل ويصحح ـ فى هوامشه ومقدمته ـ الهفوات التى وقع فيها المؤلف عرضا او عمدا ، ليجعل المعلومات التى بين ايدينا صحيحة وفصيحة وذات حقيقة ·

إيران فى سنوات الحرب العالمية الثانية

تأليف : عبدالهادى كريم سلمان
عرض : موفق الجوارى

فى اطار الاهتمام المتزايد بدراسة تاريخ ايران الحديث ، اصدر مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، سلسلة من الدراسات القيمة التى عالجت هذا الموضوع وجاءت دراسة السيد عبدالهادى كريم ، بوصفها جهدا قيما ، تقصى فيها اوضاع ايران الداخلية وعلاقاتها الخارجية فى سنى الحرب العالمية الثانية ٠ وتوزعت دراسته بين اربعة فصول عالج فيها هذه الجوانب معالجة دقيقة ٠

وتناول فى الفصل الاول لمحات من تاريخ ايران بين الحربين العالميتين ، اذ افرزت الحرب العالمية الاولى جملة متغيرات خطيرة فى الشرق الاوسط ، واحتلت وفقها ايران اهمية استثنائية جديدة فى محاور السياسة الدولية ، بحكم موقعها الستراتيجى الخطير بين الخليج العربى والاتحاد السوفيتى والهند ، فضلا عن الاكتشافات النفطية المتزايدة فيها ٠ لذا دأبت بريطانيا من اجل احكام هيمنتها الاستعمارية على البلد ، والتى عززتها بمعاهدة ١٩١١ غير المتكافئة بينهما ٠ وترتب عليها تقليص علاقات ايران التجارية مع الاتحاد السوفيتى ، بل وصل الامر حد تقليص العلاقات الدبلوماسية بينهما ، بيد انه فى عشية الحرب الثانية غيرت ايران من سياستها الخارجية تدريجيا لصالح المانيا الهتلرية ، عاقدة عليها آمالا واسعة ، حتى جعلت المانيا من ايران احدى ادواتها للمساومة فى السياسة الدولية ٠

لقد اعجب حكام طهران بافكار هتلر الشوفينية المتعصبة ، ووجدت صداها بينهم ، حتى كانت سمة لحكام طهران عبر كل العصور حتى الوقت الحاضر ٠ وعشية هذا التطور فى العلاقات بين الدولتين ، شنت الصحافة الغربية حملات مستمرة على هذه العلاقة ٠

وكانت اوضاع ايران فى المرحلة الاولى من الحرب لعالمية الثانية ، موضوعا للفصل الثانى واوضح الكاتب ان منطقة الشرق الاوسط لعبت دورا اكبر فى الحرب العالمية الثانية قياسا الى دورها فى الحرب الاولى وتحولت ايران نفسها الى مرتع خصب للمناورات الدولية ٠٠ وعلى الرغم من ان «رضا شاه» اعلن ان سياسة بلاده هى الحياد التام بين الدول المتحاربة ، ولقيت هذه السياسة الترحيب من هذه الدول ، بيد ان متغيرات الحرب التى مالت فى السنوات الاولى لصالح المانيا ، دفعت بايران تدريجيا لرسم توجهاتها لصالح العلاقة مع المانيا ، كما عولت المانيا كثيرا على موقع ايران المجاور للاتحاد السوفيتى لاسيما وان هذه الاخيرة كانت جزءا من نظرية المجال الحيوى للالمان ، فشهدت ايران توافد اعداد كبيرة من الخبراء الالمان رافقه ارتفاع مدى التغلغل الاقتصادى بل ان ايران وبموجب بروتوكولات سرية اصبحت اهم موردى المواد الخام لالمانيا كما ان التغلغل الثقافى اخذ مداه الواسع لاسيما بتأكيد نزعة الآرية الشوفينية بين العناصر الفارسية ٠٠ وشمل ذلك ايضا تطوير الجيش الايرانى باشراف خبراء المان فى السنوات الاولى من الحرب ٠

وانعكس تفاقم النفوذ الالمانى المتزايد فى ايران على نفوذ ومكانة الدول الاخرى كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وحتى اليابان المتحالفة مع المانيا ، وعلى الرغم من المحاولات والاحتجاجات البريطانية المتكررة ، فان ذلك لم يجد نفعا فى البداية ٠

ومع اقتراب موعد الهجوم على الاتحاد السوفيتى ، زاد الالمان من تواجدهم الاستخبارى فى ايران لتهيئة الاوضاع فيها ، اذ ارسلوا ثلاثة من انشط رجالهم للقيام بذلك ، بيد ان «رضا شاه» كان يعيد حساباته بين آونه واخرى ، وقرر ان يكون اكثر حذرا فى سياسته الخارجية ٠٠ لذا اتخذ موقفا عدائيا تجاه حركة مايسمى ١٩٤١ التحررية فى العراق مغازلة للانجليز كما ان سياسة التوازن التى حاول انتهاجها على صعيد السياسة الخارجية لا يمكن ان تستمر طويلا فى ظل الاوضاع الملتهبة ، فكان لابد للشاه ان ينتهى ويسقط سياسيا ، مما نجم عن تردى الاوضاع السياسية والاقتصادية فى البلاد ٠ وعند بدء الهجوم الالمانى على الاتحاد السوفيتى اصبح موقف ايران اكثر حراجة ، مما دفع حكومة

طهران اكثر من مرة للتأكيد على سياسة الحياد ، وهو امر لم يرض اى من الطرفين المتحاربين ولان الهجوم لم يحقق النجاحات المرجوة منه ، لذا بدأت القوات البريطانية بغزو الاراضى الايرانية من الغرب والجنوب دون مقاومة تذكر وفى نفس الوقت اخترقت القوات السوفيتية الاراضى الايرانية من الشمال ، ولم تفلح كل مناورات الشاه من اجل كسب الوقت ، وامام هذه الاوضاع فان فرص بقاء الشاه على عرشه باتت محدودة للغاية حتى من قبل المقربين ، فلم يكن امامه سوى التنازل عن العرش ، وهو ماحدث فعلا ، وكان ذلك تعبيرا عن فشل على صعيدى السياسة الداخلية والخارجية ٠

اما الفصل الثالث فقد تناول اوضاع ايران فى السنوات الاخيرة من الحرب ، اذ توج «الشاه محمد رضا بهلوى فى ظل الاحتلال البريطانى ـ السوفيتى ٠ وشهدت سياسة ايران الخارجية الجديدة تغيرات جذرية تمثلت بالتعاون الواسع مع بريطانيا والاتحاد السوفيتى ، وصيغ ذلك بتحالف ثلاثى وقع عليه فى طهران الاطراف الثلاثة ، وعززت بنود الاتفاق من التواجد العسكرى الاجنبى على الاراضى الايرانية ، وتحولت ايران عمليا الى قاعدة للحلفاء فى الشرق الاوسط وعلى هذا الاساس اضطر الالمان للعمل خفية داخل ايران ، ومن خلال التنظيمات الموالية للمحور عمل رجال «الغستابو» على اثارة العشائر فى الشمال والجنوب ضد السلطة المركزية ومن ناحية اخرى اعلنت ايران الحرب على المانيا ٠

وازاء فتح الباب امام ظهور الاحزاب ، ظهر حزب ارادة الامة اليمينى الذى اسسه ضياء الدين طباطبائى ، الذى نشر افكاره الرجعية ، حتى احتل اليمين مكانة اكثر من ذى قبل حتى فى المجلس النيابى ثم توالت الوزارات اليمينية التى شنت حملات قاسية على الديمقراطية فى البلاد مما رسخ اقدام الانجليز والامريكان فى ايران ، الذين عززوا من مصالحهم النفطية وبامتيازات جديدة كما ارتفع معدل التبادل التجارى بين ايران وبريطانيا ، وكذا امتد النفوذ الامريكى ـ ولاسيما العسكري ـ عن طريق الخبراء والبعثات العسكرية اعقبه انفتاح الاسواق الايرانية امام البضائع الامريكية ٠

وفى مؤتمر طهران ، الذى ضم ستالين وتشرشل وروزفلت ، اغتنم الشاه الفرصة لعرض مشاكل بلاده ، فاعلن المؤتمر استعداده لتقديم المساعدات الاقتصادية لايران ٠

اما الفصل الرابع والاخير ٠ فقد كرسه الكاتب لدراسة الوضع الاقتصادى والحركات القومية فى ايران ابان سنى الحرب اذ ان تردى الاوضاع الاقتصادية بلغ حدا خطيرا ، فشحت المواد الغذائية وزادت معدلات الغلاء حتى بلغت فى عام ١٩٤٣ الى ٦٢٩٪ قياسا الى عام ١٩٣٩ ، ولم تجد كل محاولات الاصلاح فى انقاذ الاوضاع المتردية وعانت الخزينة من عجز فائق ٠

وفيما يخص الحركات القومية ، فانها شهدت نموا متزايدا فحكومة طهران لم تغير من موقفها الشوفينى المتعصب تجاه الشعوب غير الفارسية ، بل ان هذا النظام لم يول ادنى اهتمام باوضاع هذه الشعوب ٠ فانتفض عرب الاحواز حتى الحقوا بالقوات الحكومية خسائر كبيرة ، لم يقض على حركتهم الا بعد اربعة اشهر حيث حكم على زعمائها بالموت ، ثم تكررت الانتفاضات مرات عديدة ٠

كما شهدت اذربيجان مدا ثوريا اذ عم الاستياء الاكثرية الساحقة ، الا انه لم يكن منظما وفاعلا وانتشر فيها النشاط السياسى والثقافى والنقابى بصورة واسعة وكذا الحال فى كردستان الايرانية ، ولاسيما فى مهراباد ، اذ طرد الثوار والاكراد اعوان السلطة وحكموا الاقليم بانفسهم ، خصوصا وان المنطقة لم تدخلها قوات الحلفاء ، ونشط العمل السياسى بتأسيس حزب البعث الكردى الذى اصدر جريدة الوطن بيد ان القسوة والارهاب الذى مارسته السلطة ادى الى اجهاض العديد من هذه الحركات القومية ٠

لقد كان الكتاب جهدا متميزا ، كشف الكاتب من خلاله دوافع المتغيرات ونتائجها بما انعكس بوضوح على أوضاع ايران ، ومن ثم رسم الخارطة السياسة لايران واحتمالات دورها فى منطقة الشرق الاوسط ٠

مجلات علمية

المورد

مجلة تراثية فصلية
تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشئون الثقافية العامة الجمهورية العراقية
بغداد/الاعظمية/ص·ب (٤٠٣٢)

آفاق عربية

مجلة فكرية شهرية عامة
تصدر عن دار الشئون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية
بغداد/الاعظمية /ص·ب ٤٠٣٣

الداره

مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
الرياض /المملكة العربية السعودية ص·ب ٢٩٤٥

التراث الشعبى

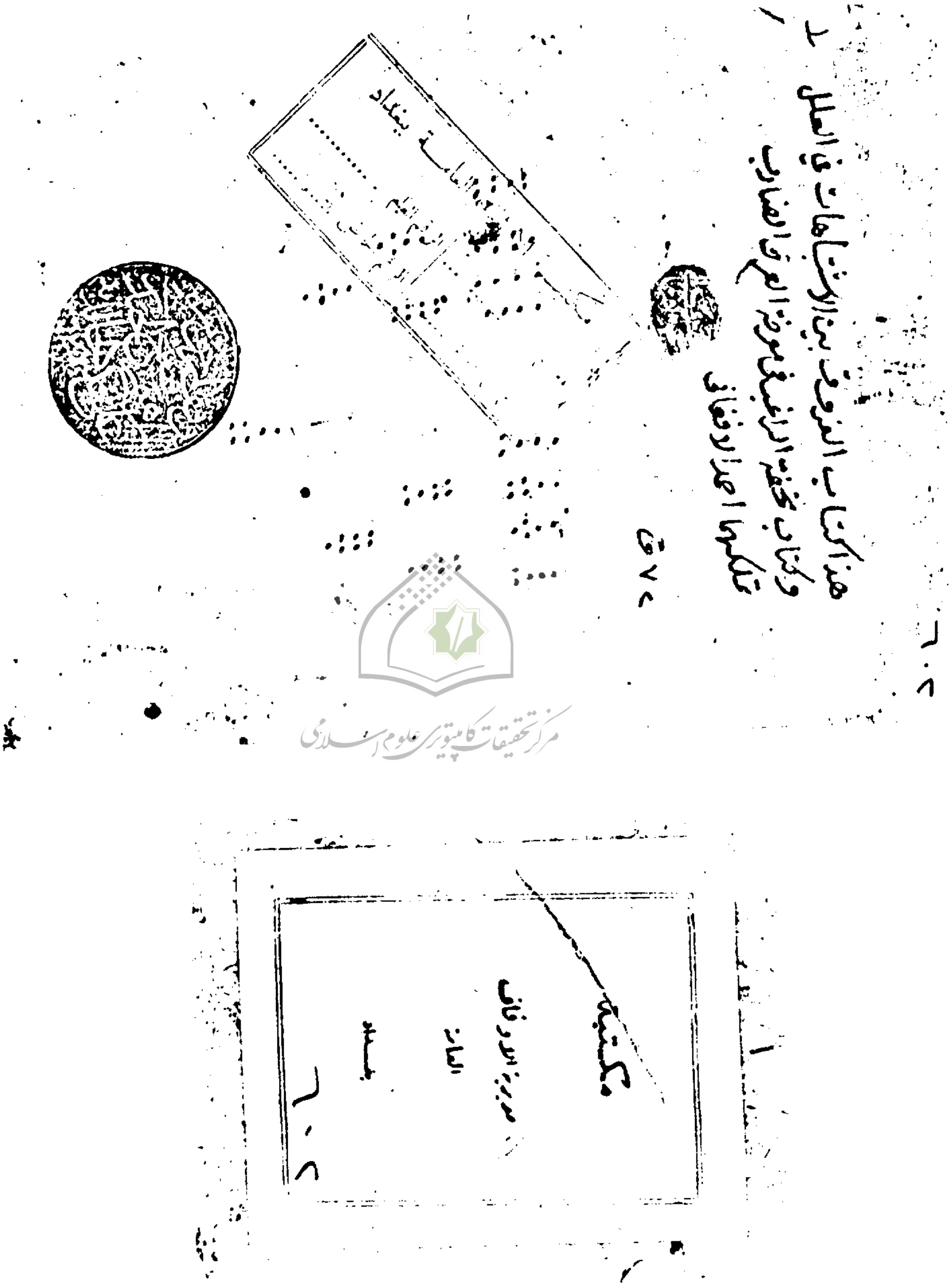
تصدرها دار الشئون الثقافية العامة /وزارة الثقافة والاعلام /الجمهورية العراقية
الاعظمية /بغداد ص·ب (٤٠٣٢)

مجلة المجمع العلمى العراقى

تصدر اربعة اجزاء فى السنة
توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع
بغداد /الوزيرية/ص·ب (٤٠٢٣)

المستقبل العربى

مجلة فكرية شهرية تعنى بقضايا الوحدة العربية ومشكلات المجتمع العربى
يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية
لبنان /بيروت/ص·ب ٦٠٠١ ـ ١١٣


هذا كتاب الفروق بين الاشتباهات في العلل
وكتاب تحفة الراغب في معرفة العرق الضارب
تملكهما احمد الافغاني

٧٧ ق

٦٠٢

مكتبة
مديرية الاوقاف
العامة
بغداد

٦٠٢

بين البول الدال على النوع الاول من الدق والدال على النوع الثاني والدال على النوع الثالث الجمع بين جميعها واقع في الحقيقة وفي المدلول غير ان مدلول جميعها يختلف بوجه وذكر بحسب شدته وضعفه والفرق الموري المعرفة كيفية الاستدلال بكل واحد من هذه الابوال على مدلوله قال بعض الاطباء ان البول في الدق يكون زيتيا الا ان يكون في النوع الاول دهنيا في لونه وفي الثاني في قوامه وفي الثالث فيهما واقول ان طفو فوق المائية دهن فهو الاول وذكر لسهولة ذوب اللطيف من الاعضاء التي الحارة كالشحم والسمين فان خالطه اجزاء كثيرة شبيه فهو دليل الثاني لعمل الحرارة فيما هو فوق ذلك من الاعضاء في اللطافة كاللحم فانه يتفرق اجزاؤه من الحرارة بجفاف رطوبته من غير ذوبه فان خالطه بعد ذلك حب كحب الذرة ابيض كان من العرق وهو اخص هذا النوع وان خالط المائية شي شبيه بسحالة الحديد فهو النوع الثالث وهو اخص انواعها لانه اصلب من اعضاء البدن وهي العظام ن ما الفرق بين الخام والمدة في البول اشتباها عند الحس وافترقا بالحقيقة وفي السبب وهو مدلولها وكذلك افترقا في كيفية الاستدلال بما على المدلول

وذكر

51 وذكر ان الخام دليل على البلغم والمدة دليل على قروح والفرق بينهما ان الخام متشتت متقطع لا يسهل اجتماعه ولا كذلك المدة ولهاتع ذلك نتن ما الفرق بين ما يأتي من الرسوب في علل الكبد وبين ما يأتي في علل الكليتين اشتركا في الحقيقة وافترقا بمدلولها وبكيفية الاستدلال بها وذكر ان الاتي من الكبد يكون الى الحمرة والاتي من الكلى يميل الى الصفرة وربما كان الكبدي اسود والبول لا يكون مع الاول نضيجا ومع الثاني يكون نضيجا وتمام الفرق يحصل باضافة باقي اعراض امراض الكبد الى ذلك وباقي اعراض وجع الكلى ما الفرق بين الرسوب الدال على هضم المعدة وبين الرسوب الدال على هضم العروق قد انكر بعض الاطباء ان الرسوب دلالة على هضم المعدة والرازي لم ينكر بل قال في كتابه الكبير المعروف بالحاوي ينبغي ان ينظر كيف يصح دلالة البول مطلقا على حال المعدة ولم يذكر في صحة ذلك شيئا ولا في عدم صحته واقول على حسب ما يليق بكتابنا في ذلك اذا كانت الكبد سقيمة لما يرد اليها من الغذاء الاتي من المعدة تغيرا تتلب معه نوع ما يرد اليه من الغذاء الى نوع الاخلاط فاحكام الغذاء لازمة

مجلات علمية

المورد

مجلة تراثية فصلية
تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشئون الثقافية العامة الجمهورية العراقية
بغداد/الاعظمية/ص·ب (٤٠٣٢)

آفاق عربية

مجلة فكرية شهرية عامة
تصدر عن دار الشئون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية
بغداد/الاعظمية /ص·ب ٤٠٣٣

الداره

مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
الرياض /المملكة العربية السعودية ص·ب ٢٩٤٥

التراث الشعبى

تصدرها دار الشئون الثقافية العامة /وزارة الثقافة والاعلام /الجمهورية العراقية
الاعظمية /بغداد ص·ب (٤٠٣٢)

مجلة المجمع العلمى العراقى

تصدر اربعة اجزاء فى السنة
توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع
بغداد /الوزيرية/ص·ب (٤٠٢٣)

المستقبل العربى

مجلة فكرية شهرية تعنى بقضايا الوحدة العربية ومشكلات المجتمع العربى
يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية
لبنان /بيروت/ص·ب ٦٠٠١ ـ ١١٣

٦٠٢

هذا كتاب الفروق بين الاشتباهات في العلل
وكتاب تحفة الراغب في معرفة العرق الضارب
تملكهما احمد الافغاني

٧٧ ق

بين البول الدال على النوع الاول من الدق والدال على النوع الثاني
والدال على النوع الثالث الجمع بين جميعها واقع في الحقيقة وفي
المدلول غير ان مدلول جميعها يختلف بوجه وذكر بحسب شدته
وضعفه والفرق الموجب لمعرفة كيفية الاستدلال بكل واحد من
هذه الابوال على مدلوله قال بعض الاطباء ان البول في الدق
يكون زيتيا الا ان يكون في النوع الاول دسما في لونه وفي
الثاني في قوامه وفي الثالث فيهما واقول ان طفو فوق المائية
دهن فهو الاول وذكر لسهولة ذوب اللطيف من الاعضاء التي
الحارة كالشحم والسمين فان خالطه اجزاء كثيرة شبيهة فهو
دليل الثاني لعمل الحرارة فيما هو فوق ذلك من الاعضاء في
اللطافة كاللحم فانه يتفرق اجزاؤه من الحرارة بجفاف رطوبته
من غير ذوبه فان خالطه بعد ذلك حب كحب الذرة ابيض كان من
العرق وهو اخص هذا النوع وان خالط المائية شيء شبيه
بسحالة الحديد فهو النوع الثالث وهو اخص انواعها لانه اصلب
من اعضاء البدن وهي العظام ز ما الفرق بين الخام والمدة
في البول اشتباها عند الحس وافترقا بالحقيقة وفي السبب
وهو مدلولها وكذلك افترقا في كيفية الاستدلال بها على المدلول

وذكر

وذكر ان الخام دليل على البلغم والمدة دليل على قروح العروق
بينهما ان الخام متشتت متقطع لا يسهل اجتماعه ولا كذلك
المدة ولهما في ذلك نعم ما الفرق بين ما ياتي من الرسوب
في علل الكبد وبين ما ياتي في علل الكليتين اشتركا في الحقيقة
وافترقا بمدلولها وبكيفية الاستدلال بها وذكر ان الاتي
من الكبد يكون الى الحمرة والاتي من الكلى يميل الى الصفرة وربما
كان الكبدي اسود والبول لا يكون مع الاول نضيجا ومع الثاني
يكون نضيجا وتمام الفرق يحصل باضافة باقي اعراض ضعف
الكبد الى ذلك وباقي اعراض وجع الكلى ما الفرق بين الرسوب
الدال على هضم المعدة وبين الرسوب الدال على هضم العروق
قد انكر بعض الاطباء ان الرسوب دلالته على هضم المعدة
والرازي لم ينكر بل قال في كتابه الكبير المعروف بالحاوي
ينبغي ان ينظر كيف يصح دلالة البول مطلقا على حال المعدة
ولم يذكر في صحة ذلك شيئا ولا في عدم صحته واقول على
حسب ما يليق بكتابها في ذلك اذا كانت الكبد مغيرة لما
يرد اليها من الغذاء الاتي من المعدة تغيرا تنقلب معه نوع ما
يرد اليه من الغذاء الى نوع الاخلاط فاحكام الغذاء لازمة

بحوث باللغة الانجليزية

REFERENCES

1. Dictionary of Scientific Biography. Page 323-326.
2. Al-Hawi, The most Voluminous of Razi's medical work (Hyderabad, 1955-1968).
3. M. Myerhof, Thirty three clinical observations by Rhzes, in Isis, 23(1933), 322 FF.
4. A catalogue of Arabic Manuscripts on Medicine and Science. The Welcome Historical Medical Library by A.Z. Iskandar, (D.Phill).
5. Ministry of Religious Affairs, Index: Manuscript of Al-Razi Publications.
6. Brockelmonn, C., Geschicte der arabischen Litteratur, Lieden, 1943, Vo. I, 1949 vol. II.
7. Le Clerc, L.Historise de la midecine Arabe, Paris, 1876, 2 vols.
8. Muller, A., Ibn Abi, Usaybia, Uyun L-ANBA, fi Tabaqat – L – Alibba', Cairo and Konigsberg, A.H. 1299/A.D. 1882 – A.H. 1302/A.D. 1884, 2 vols.
9. FRENCH'S Index of Differential Diagnosis, Herbert French March, 1912 Wright 1979.

arising therefrom, and the occurrence of fever, they essentially differ in their site of origin as well as in their leading symptoms. The difference in the site of lesion is apparent. Regarding the leading differentiating symptoms, it is seen that in the beginning the pain is accompanied by heavieness; it is deep pain and as the tumor enlarges it may lead to mental disturbances. Disturbances of the sensations are present from the start in addition to changes in the plsychological behaviour. The pulse is wavy though fever but not prominent. In the case of tumor of the coverings of the brain, however, the pain is of the penetrating type, felt both in the front regions as well as the top of the head. The pulse is strong and may be saw-like and the fever is markedly high. Mental disturbances are less common, if at all visible, they appear later.

The similarity between the diseases could be in the nature of the symptoms manifest in them. He cites the examples of pleurisy and pneumonia- whether by true nature they simulate each other and how one can differentiate between them. In such an instance, his suggestion is, firstly, to limit our observations to the similarities in the two condtions, so that any differentiating finding or deviation can immediately be identified; missing them can be dangerous. As another example to illustrate the depth of clinical vision the following may be cited. He questions the difference in the nature of cough resulting from disease involvement of the brachea and the bronchi and that involving the substance of the lungs. In both cases, nature of the incriminating substance namely, phelgm, may be similar but the difference between the two conditions pertain to the location of the material and the leading symptoms. In the first instance there is only light cough similar to clearing of the throat as the phelgm is produced from the upper reaches and there is no difficulty in breathing and even if present, it is slight, whereas in the latter instance, the cough is of a more severe nature and the phelgm is produced at the distal parts. The difference between the two conditions therefore is dependent ont he severity and amount of the cough, the place of sputum production and the dyspnoea.. To quote another example, he looks at the differences between the swelling of the liver and that of the gall bladder. Obviously there are basic similarities since the disease is involving parts of the same organ. However, the symptamology is grossly different. When the liver is involved there is heaviness and pain, the urine is 'spoiled' and the pulse becomes faint whereas in the latter condition the important differentiating signs are penetrating pain and that referrable to the nature of the urine, which in the latter case remains normal.

Let us look as the way he differentiates between retention of urine as a result of obstruction in the upper reaches of the tract i.e., above the bladder and that in the lower region, i.e., below the bladder. While they share the nature and the cause (retention) they differ in the site of obstruction. In the first instance the bladder is empty as the urine does not reach it while in the latter the bladder is full, giving a feeling of fullness and distension.

The book is replete with similar examples. Infact the same pattern of differentiation is maintained throughout the text.

It is worthy of note that Abu Bakr's work was not preceded by any similar effort and in the light of the available evidences, the work may be deemed as the first of its kind. The question arises is how physicians could be trained without a sound guide to help them in differentiating between illnesses and helping them in arriving at clinical diagnosis. Differential diagnosis is central to clinical practice and how earlier physicians could have carried out it today, as something almost enigmatic. Admittedly, skill in the practise of medicine was almost a heritage achieved through discipleship as well as devotion and subservience to the masters precepts. The eminence of a physician was judged by his ability to differentiate between illnesses and only few could have risen to that eminence in the absence of a guide or treatise to help them in the realm of clinical medicine. It is here that Abu Bakr's great contribution leaves its mark.

greatly help the physicians to take right decisions at the crucial moment and helping them to differentiate between the apparently similar states and thus enabling them to take appropriate precautionary measures. In the preface itself he outlines the scheme of his representation of the book which consists of five main essays dealing with groups of diseases of anantomical regions of the body or systems. The essays cover the following areas : The first essay deals with diseases of the head and enumerates 28 conditions which have to be differentiated. The second essay is devoted to diseases and conditions relating to organs of respiration is discussed under three subheadings. The third essay comprises four sections discussing points of differences between the diseases of the following organs namely, stomach, liver sphere, kidneys, the bladder and the genital organs. The fourth essay consisting of three sections is an attempt to look at diseases and conditions which affect the human body as a whole and how to distinguish between them. In the fifth, he enumerates seven types of pulses and how to distinguish between them. The essay also discusses differentiating features of urine helpful in distinguishing diseases.

Initiating the central thesis, the author raises the basic question of differences between diseases and what makes them. He tells us how to look for and identify subtle differences in two apparently similar conditions which ultimately helps to distinguish between two different disease entities. The difference is established not on the basis of understanding of their true nature and to which category it belongs but merely on the basis of observable differentiating features.

Let us now look more closely into the contents of some of these essays, for example, the one that deals with the diseases of the head.

It may be observed tha Abu Bakr in his treatise attempts to differentiate between clinical conditions which are alike but with different actiopathogenesis. One cannot but feel acute that nothing much has been added to the body of knowledge in the realm of clinical differentiation of diseases over this in the past several centuries.

Let us now look more closely into the contents of some of these essays for example, the one that deals with the diseases of the head :

- — Insomnia due to dehydration and irritant substances.
- — Deep sleep and fainting.
- — Fainting due to blockage of the brain substance with particulate matter and that are attributable to tumors of the brain.
- — Deep sleep and rigidity.
- — Tumors of the brain and those of its coverings.
- — Headache attributable to the dysfunction of the sensaction of the brain or due to the weakness of the brain.
- — Headache due to deficiency of the brain and its combination with the above.

Detailed discussions follow under each item category. To cite an example, how fainting due to blockage of the brain substance with particular matter differs from that due to tumors.

While fainting is common to both conditions, they essentially differ in their causation. Therefore, their clinical differentiation as well as methods of assessing they vary. As to their causation, on of these conditons is due to blockage of the brain from within while the other is due to tumor and to the points of differentiation. It may be seen that blockage occurs suddenly whereas the tumors is something that progresses gradually.

The tumor is accompanied by fever and often associated with disturbances in the power of imagination.

What is the difference between tumor in the brain and tumor in the coverings of brain ?

While they share in common the basic nature of the disease as well as the complications

Al-Furuq
Kālām Fi-L-Furūq Bayn – L-Amrad
MĀ – L. Farq

By Al-Razi, Abu Bakr Muhammad
IBN Zakariyya (RHAZES)

Prof. Dr. D.M. Al-Thamery,
M.B.Ch.B., D.C.H., F.A.A.P.
College of Medicine, BAGHDAD
IRAQ

While it is true that the contribution of Arab medicine to the main stream of medical thought and development at large is generally acknowledged as of great significance, it is a sad reckoning that many a significant chapter have not received their due recognition and justice at the hands of contemporary medical historicans. As a striking example may be quoted the fact that often there is a tendency to limit the contribution of Arab medicine to Materia Medica and Pharmacognosy whereas its contributions to facets of clinical medicine per se are often ill-understood or forgotton. It is there that the name of Al-Razi, Abu Bakr Muhammad Ibn Zakariyya known in the latin West as RHAZES (born in Rayy, Persia, now Iran in the year 251-313/826-925 and died in Rayy also), stands out prominent. RHAZES has written in medicine, alchemy, philosophy and religious criticisum [1].

Rhazes's medical works some of which were translated in the middle ages into latin, include monographs, such as treaties on smallpox and measles and comprehensive manuals such as Al-Hawi [2]. His clinical observations have been edited by M. Myerhof [3]. It is stricking that ten centuries ago he brought out an exhaustive treatise on differential diagnosis of diseases entitled "AL-FURUQ = KALAM FI –L–FURUQ BAYN–L––AMRAD = MA–L–FARQ".

This treatise is kept in the Welcome Historical Medical Library as a manuscript under the Number WMS or 145 [4,6,7,8] composed of 32 full. 200x115 mm (180 x 85) 21–29 lines; written in Arabic Taliq. Comparing this manuscript with another copy kept in the Library of the Ministry of Religious Affairs, Baghdad, Government of Iraq under the index of manuscripts of Al-Razi publication and translating a summary of the same, is the objective discussed in this paper. A third copy of this treatise is kept in Iran in the Milli Malik Library [4] under the number N 4573. This monumental work most likely, was based on his clinical observations and on what he could collect, collate and compile from other sources, weeding out the redundant. It is interesting that in the preface to the first edition of the index of differential diagnosis by French [9] (published as early as 1912) there is a salutary reference to this great work. It reads thus: "This book is a treatise on the application of differential diagnosis to all the main signs and symptoms of diseases. It aims at being of practical utility to medical men whenever difficulty arises in deciding the precise cause of any symptom of which a patient may complaint. It covers the whole ground of Medicine, Surgery, Gynaecology, Ophthalmology, Dermatology and Neurology. This throws light into what the book relates.

An attempt is made hereunder to reveal glimpses of this classic work. Verbatim translation of the name 'Kalam Fi-L-Furuq Bayn-L-Amrad' would read" Discourse on the Difference between the Diseases". In the preface to his work he explicitly stated the purpose for which it was written. He wrote "I discovered that the knowledge of physicians of my time about disease were limited to what was available through books which mainly dealt with the probable causes and symptomatology of diseases and which often failed to distinguish between the two and even to the extent that one simulates the other. What was pursued was mainly limited to the use of a set of norms and rules". He made it clear that his mode of approach was to bring out what was common between the causes and the symptoms or what indicates the disease and to find out how these two differed from each other even while simulating one another. This he felt would

But when the governor of Syria asked the Ghassanids to pay the poll-tax, which amounted to one dinar for each, the Ghassanids refused that vigorously, because they were not used to pay such a tax. The question of the tax, however, created conflict between the Byzantines and the Ghassanids. It was said, that when the ruler sent his tax collector to the Ghassanids, they, the latter murdered him, then they attacked the Byzantine army which was sent to quell them near Damascus (in the site later known as Kiswah valley). The Ghassanids gained victory and forced the Byzantines to accept peace. The Byzantines, moreover, abolished the tax which they had already imposed on the Ghassanids [16].

The Ghassanids poets composed poetry commemorating this occasion. One of them said :

This happened during the leadership of the Ghassanids Prince 'Amr b. Jafinah [17], who became the first king to the Ghassanids. The Byzantines recognised him as the king of all Arabs of Syria [18].

When Justinian was coronated in 527 A.D. as the emperor, he attempted to strengthen his relationship with Arabs in order to safeguard his open borders with the Persians. This seems to coincide with his efforts in the west which were devoted to restore the unity of the old Roman Empire [19]. Therefore, he recognized Hārith b. Jabalah (529-569 A.D.) the King of Ghassanids as the King of all Arab tribes in Syria, and awarded him a superior title of a Roman partician (Basilious) or (Filarkous) [20].

In spring 531 A.D. Hārith b. Jabalah who was the leader of the Ghassanids, cooperated with the Byzantines, who were under the leadership of Belisarius against the Persians [21].

In 563 A.D. the emperor Justinian and his citizens cordially welcomed Hārith in Constantinople. It was said that the visit aimed basically at negotiating a number of questions with the emperor, among them were the questions of Hārith's successor and the military measures to be taken against the Lakhmids who were considered to be as a good ally to the Persians [22]. In addition, Hārith succeeded in convincing the emperor Justinian to give Jacob Baradaeus (Ya'qūbal-Bardaî), – the head of the Monophysite doctrine-, freedom to spread out his belief in Syria. The emperor responded positively to Hārith's request, influenced by his wife Theodora who herself adopted the Monophysite doctrine [23]. It was said that after this agreement the Monophysite doctrine spread in Syria among the Arabs [24].

However, after the death of the King Harith in 569 A.D. the relationship continued between the Arabs and Byzantines on good terms until the rise of Islam.

16. See more details in Wahab b. Munabih, Kitāb al-Tīyjān fī Mulūk Himīyr. pp. 284-5, India. 1347. A.H.

17. Hitti called him Jafinah b. 'Amar, and considered him as the founder of Ghassanids. See : The History of the Arab, p. 78.

18. Noldikah mentions in his book, Aumarā' Ghassān, p. 18 that the Emperor or Anastasius 491-518 A.D. awarded him that title.

19. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 133, Wisconson, 1973.

20. John Bagot Glubb, A short history of the Arab peoples, p. 23, London, 1969.

21. Hitti, Op. Cit, p. 79.

22. Ibid, p. 79.

23. Richirad bell, The Origin of Islam in its Christian environment, p. 21. London 1926, Noldikah, Op. Cit, p. 20-1.

24. They called today Jacobites.

The relations got more developed with Arabs of Palmyra (Tadmur, the early Semitic name of Palmyra) in particular. It was said that in 130 A.D. the Emperor Hadrian (117-138 A.D.) visited Palmyra and he was warmly welcomed by the Arabs (The Palmyrenes).

After this visit the Emperor awarded the Palmyrenes many privilegs. For instance, he granted the Palmyrenes autonomy as well as rights equal to those of the Roman citizens. In addition he authorized the Senate of Palmyra to fix the amount of taxes on their people. He also exempted their trade from taxes [7]. As regards their King Odaynath (Odenathus, Udhaynah), the Romans awarded him in 258 A.D. many magnificent titles such as Augustus and Dux orients [8] (the latter means Vice-Emperor over the Orient). During the reign of the Emperor Gallienus, the Emperor bestowed on him the honorific title of Imperator and acknowledged him master of the Roman legions in the east [9].

This made the Palmyrenes feel grateful to the Emperor. As a result, some Palmyrene families gave Roman names to their children [10]. It was said that during the excavations in the area where the Arabs of Palmyra had lived, an engraving bearing the name Hadrian a Palmyra was found [11]. This seems to be an expression of loyalty and gratitude from the Palmyrenes and their King towards the Roman Emperor Hadirian.

However, the Roman-Arab relations became tense after Zenobia (al-Zabba') came to the throne as a regent for her minor son Wahb-Allat (the gift of al-Lat, Greek Athenodorus) following the death of her husband Odaynath in 266-267 A.D. She fought the Romans in 270 A.D. and succeeded in achieving victory over them and taking advantage of the difficult circumstances the Roman Empire was going through [12].

But, eventually the Roman army was able to defeat her in Spring of 272 A.D., and Zenobia was taken as a captive and was transferred to Rome to meet her fate. [13]

After the decline of Rome in 476 A.D. by the Germans, the East Roman Empire rose and was called by the contemporary historians as "Byzantine Empire" particularly since the establishment of Constantinople in 330 A.D. by the emperor Constantine the Great [14].

During the fourth and fifth centuries A.D. the Byzantines longed for building solid relations with the Arabs because of their increasing number and power. They allowed many Arab tribes to settle down in Syria such as Tanukh تنوخ , Qudā'a قطاعة and Banî Ghassān. It was said that the Ghassanids settled in Syria after the mediation of Banū-Sulîyh بنوسليح who were known as Dajā'imah ضجاعة to the Roman ruler of Syria (Caesar) [15].

7. Al-Alî, Ahmad Sālih, Muhadrāt fî-Tarîkh al-Arab. p.36. Baghdad. 1959, Encyclop. Britanica, Vol. 17 p. 162.
8. Buhl. Tadmur, dans Encyclopedie de l'Islam.
9. Hitti, Op. Cit, p. 75.
10. Encyclop. Britanica, Vo. 17, p. 162.
11. Hitti, Op. Cit, p. 75.
12. Britanica, Vol. 17, p. 163.
13. Cooke G.A., Palmyra in Encyc. Britanica, Vol. 16, 1964. Hubart, Ancient Persia and Iranian Civilization, p. 124. London, 1972.
14. Baynes and Moss, Byantium, p. 6, Oxford. 1962. Steven Runciman, Byzantine Civilization, p. 11 London, 1975.
15. Noldikah, Aumarā' Ghassān, p. 4. Beirut, 1933.

PHASES IN THE HISTORY OF ARAB-BYZANTINE RELATIONSHIP FROM 62 B.C. TO THE REIGN OF JUSTINIAN

Historians mention that the relationship between the Arabs and the Byzantines can be traced back to the early presence of the Arabs in Syria which began in the first millennium B.C. In fact, the number of Arabs increased considerably since the third century B.C. to the rise of Islam [1].

The Arabs came to Syria from two directions, north-west and south-west as can be seen from their habitations before Islam. The tribe of Beni Ghassan بنى غسان inhabited Damascus and Hawrān's districts. The tribe of Qudā'a قضاعة inhabited the district of Balqa' and south-east Jordan. Tanukh's تنوخ a tribe inhabited Qinsrîyn and Halab, in their neighbourhood the tribes of Suliyh سليح and and Tai' طيء. Lakham لخم and Judhām جذام in the south of Jordan and Palestine, Kalb كلب in the south-east of Syria [2].

Those Arab tribes who inhabited Syria came into direct contact with the Romans after the latter occupied Syria in 62 B.C., and annexed it to their Empire. From that time on the Romans considered Syria as one of their regions, and called it (Provincia Arabia) [3].

As regards the Arabs, Romans considered them as a good ally against their traditional enemies, particularly the Persians. The cooperation between the Arabs and Romans gradually increased especially in military and commercial affairs. For instance, the Nabataean [4] King 'Obidath ('Ubaydah, Obodas III, 28–9 B.C.), assisted the Roman army which was led by Aelius Gallus in 24 B.C. in order to occupy the Yemen [5]. It was said the Nabatians offered guidance to the Romans.

Although the Romans blamed the Nabataean guides for the failure of their campaign, the relations between the Nabataens and Romans continued on good terms. As an evidance, the Nabataean King Harith IV (9 B.C. to 40 A.D.) Led the Campaign in 40 A.D. against the Kingdom of Yehudhah on behalf of the Romans [6].

1. Jwad 'Ali, Al-'Arab Qabil al-Islām, Vol. 1, see also the Cambridge History of Islam, Vol. 1. (The rise and domination of the Arabs – pre-Islamic arabia) p. 19.
2. Balādhuri, Futūh al-Buldān, (Cairo-1901), p.110,145), Ibn 'Asākir, 'Alîb.al-Hassan, Tahdhîb al-Tārîkh al-Kabîr (Damascus-1351 H), Vol. 1.P.175.
3. The Cambridge History of Islam, Vol. 1. p.21, Hitti, History of the Arabs, p. 68, London, 1964.
4. (Nabataeans (al-Anbāt, classical Nabataei) came as nomadic tribes from what is today called Transjordan. They dwelled in the south of Syria or north of Ḥijāaz in a place known as Batra' or Petra during the sixth century, B.C.) Hitti, History of the Arabs, p. 67, Sālim, Tarîkh al-Arab Fi-l- 'Asr al-Jahilîah, p. 183 Beirut, 1971.
5. The Roman expedition consisted of 10,000 men conducted from Egypt through Syria during the reign of Augustus Caesar. See, Hitti, History of the Arabs, p. 44, 68, London, 1964.
6. Jwad 'Ali, Op. Cit, Vol. 3, p. 40, 143.

Papers in English :

13. Phases in the History of Arab-Byzantine Relationship.
    Dr. S.A. Mustafa – College of Arts, Basrah University.

14. Al-Furug Kalam (Al-Razi) Dr. D. Al-Thamery, College of Medicine University of Baghdad.

Historian Biography :

Dr. Hassan Ahmed Ibrahim.

Symposium :

Symposium on Samara City.

Theses and Book Review :

1. Researches in the History of Al-Sunna Al-Musharafa
   By A. Al-Amry; Reviewed by Nada N. Abdul-Rahman.

2. The Jordanian-Syrian Relations since Independence (1946-1976) Reviewed by A. Abdul Hameed.

3. Iraq and Syria (1941)
   By J. Warner Translated by M.M. Al-Adhami Reviewed by S. Mukhaiber.

4. Iran during the years of the Second World War.
   By A.K. Salman Reviewed by M. Al-Jowari.

THE ARAB HISTORIAN
CONTENTS
VOL. 37

Papers on Contemporary and Modern History :

Papers on Islamic History :

Papers on Ancient History and Archaeology:

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR HISTORICAL PUBLICATIONS

B. The Union' Journal

The Union has issued a scientific journal concerned with history entitled :

"The Arab Historian"

It contains many original and scientific works of the Arab historicans and researchers. The Union also intends to develop the journal and make it more convenient for advanced studies and scientific trends. Twenty five volumes have already been issued, 26, 27 and 28 are forthcoming and still in print.

THE UNION'S ACTIVITIES

The Union has formed the following committees :

1. The Higher Committee for writing up the History of Arab Nation.
   a. Dr. M.A. Al-Bukheet. Representing the project of the writing up of Al-Sham History, Jordan.
   b. Dr. A.A. Al-Timeemi. Representing the project of the writing up of the Ottoman History, Tunis.
   c. Dr. A.A. Al-Ansary. Representing the project of the writing up the Arab Peninsula History, Saudi Arabia.
   d. Dr. N. Aaqil. Representative of the Project of the writing up of Arab History, Syria.
   e. Dr. S.S. Al-Badri. Representing the project of writing up the History of the nation, Kuwait.
   f. Dr. S.A. Al-Ali. Representing the Committe of writing up the History of the Nation, Iraq.
   g. Dr. M.T. Al-Jarrary. Representing the conference for writing up the Arab Nation History, Libya.

2. The Committee for Supporting and subsidizing Historical Republications :
   1. Dr. F. Abdul Wahid. Chairman
   2. Dr. H.H. Za'ain
   3. Dr. R.H. Al-Khatab
   4. Dr. S.T. Al-Sheikhly
   5. Dr. F.O. Fawzi
   6. Dr. H. Al-Tikriti..
   7. Dr. Y. Al-Shahiri
   8. Dr. M.J. H. Al-Mesh hedani (Secretary)

PUBLICATIONS OF THE UNION OF ARAB HISTORIANS

A. The Union of Arab Historians has issued the following works :

1. "Bussorah (Al-Basrah) Diaries".
   Dr. M.A. Al-Najar & A.M. Ameen

2. "A.J. Toynbee : a Presentation Volume". – in English & Arabic.
   Dr. H. Al-Takriti & Dr. A. Susa

3. "The Zionist Movement in Tunis in the Period 1911-1927".
   Mr. Al-Taimomy - Beirut 1979.

4. "The Start of the Abadhian Movement"
   Dr. A. Khlaifat– Amman 1978.

5. "The Aspects o the Scientific Renaissance in Iraq in the Fourth & Fifth Centuries of Al-Hijra".
   Dr. M.H. Al-Zubaidy – Beirut 1980.

6. "Jawahir Al-Mulook Fi Madayih Al-Mulook" A Collection written by the Post Hilal Ibn Sa'eed Ibn Araba Al-Omani Dr. D. Saloom – Beirut 1979.

7. "The Arab Tribes in the East during the Al-Amawi Reign".
   Dr. N. Hasan – Beirut 1980.

8. "Arab Civilization as a Substitute for Greek Civilization".
   Dr. S.S. Al-Ahmed (Beirut 1980).

9. "The Prince Maslama Ibn Abdul Malik Ibn Marwan"
   Dr. A.M. Al-Adhamy (Beirut 1980).

10. "Introduction to the Study of the Resources of Omani History".
    Dr. Faruk A. Fawzy (Baghdad 1979).

11. "Introduction to the Jazre Languages"
    Dr. S.S. Al-Ahmed (Baghdad 1981).

12. "Studies in the Convention of Arab Nation Frontiers 1847-1980.
    Dr. M.A. Al Najar (Beirut 1981).

13. "Palestine : Its History and Civilization".
    Dr. A.A. Garbia (Beirut 1981).

14. "The Book of Al-Masudy as a Historian"
    Mr. A. Al-Azawi (Baghdad 1983).

15. "Introduction to Mysticism and its Reality"
    Al-Imam Abdul Rahman Al-Salamy

    Verified by

    Dr. H. Ameen.

16. "Index to the Arab Historian Journal"
    Dr. M. J.H. Al-Mesh Hedani (Baghdad 1984).

CONSULTATIVE BOARD OF THE ARAB HISTORIAN JOURNAL

EDITORIAL BOARD

Annual Subscription

	Inside Iraq	Outside Iraq
1. Governmental and Semi-governmental offices	50 dinars	150 dollars
2. Historians	20 dinars	60 dollars
3. Students of history	10 dinars	30 dollars

All Correspondance to :
The Editor-in-Chief
P.O. Box 4085
Baghdad – Iraq
Union of Arab Historians
Tel. 4448006

REQUIREMENTS OF PUBLICATIONS

1. Papers should be truly academic.
2. Papers should be compatible with the aims of the chaim.
3. Paper should not exceed 50 pages.
4. Papers should be original and not sent elsewhere.
5. Paper could cover any area in history and written either in Arabic or in English.
6. Title should be typed on a separate sheet, with the name(s) of authors in full.
7. Papers should be typed in two copies on every other line, and properly numbered.
8. In case the paper is delivered at a conference this should be foot-noted.
9. Full notes should be unified and correctly numbered.
10. all papers are evaluated before being accepted.
11. Papers are alphabetically ordered.
12. Address and name of authors should be clearly written in English.

JOURNAL OF ARAB HISTORICIANS

Office of the General Secretary
Iraq – Baghdad – P.O. Box 4085
Cable : MOARKHEEN Baghdad

THE ARAB HISTORIAN
Al-MUARRIKH Al-ARABI

A Quarterly Issued by
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD

No. (37) 1989
Eleventh Year (1409) A.H.

The Arab Historian

Al-Muarrikh Al-Arabi

Journal of Arab Historians
A quarterly issued by the Union of Arab Historians



Office of the General Secretary
Iraq — Baghdad P.O. Box : 4085
Cable : MOARKHEEN Baghdad

No. 37 1988 (1409 A.H)
Fourteenth year.